دراسات الأوربيين عن الايزيدية

هنري لايارد والايزيدية

دراسات الأوربيين عن الايزيدية

هنري لايارد والايزيدية

علاقته بالايزيدية (حسين بك، بابا شيخ، قوال يوسف وعائلة ميسكي زازا)

الجزء الأول

داود مراد ختاري

٢٠٢٣ دهوك

إصدارات مركز لالش الثقافي والاجتماعي

رقم (٦٦)

اسم الكتاب:

دراسات الأوربيين عن الايزيدية (هنري لايارد والايزيدية)
علاقته بالايزيدية (حسين بك، بابا شيخ، قوال يوسف وعائلة ميسكي زازا)

إعداد وتقديم:

داود مراد ختاري

الاخراج الفني و الغلاف:

هكار فندي

رقم الايداع:

(D-/٢٨٦٨/٢٢) **مكتبة البدرخانيين – دهوك**

طبع:

مطبعة هاوار - دهوك

إقليم كوردستان – دهوك ٢٠٢٣

www.lalishduhok.com

إهداء:

إلى جميع الباحثين بهدف الإلمام بثقافات
الأمم وإبداعات البشريّة

المحتويات

- إهداء ٥
- المقدمة ١٣
- أوستن هنري لايارد ١٩
- في بابل وبلاد الرافدين ٢٤

جولة الآثاري هنري لايارد في معبد لالش (عيد جما) سنة ١٨٤٦م..... ٢٦

- دعوة إلى حضور مراسيم للإيزيديين ٢٦
- المغادرة من الموصل ٣٠
- ولادة طفل..... ٣٣
- تاريخ الإيزيديين..... ٣٦
- الأمير حسين بك حوالي سنة ١٨٧٠م..... ٣٩
- استعدادات قرية باعذرة لحضور المراسيم في معبد لالش ٣٩
- الانطلاق نحو معبد لالش ٣٩
- الوصول إلى معبد لالش ٤٠
- وصف معبد لالش..... ٤١
- قبر الشيخ آدي..... ٤٣
- جولة إلى معبد لالش..... ٤٣
- وصول الزُّوار ٤٦
- حادث في المعبد ٤٨
- جلسة مع أهل سميل..... ٤٩
- زيارة شيخ ناصر (بابا شيخ)..... ٤٩
- الشيخ شمسي أو الشمس ٥٠
- قناديل النُّذور ٥١

- وجبة العشاء ٥٢
- عدد الزوار والاحتفال بالطقوس ٥٤
- الموسيقى الإيزيدية ٥٤
- التعاليم والشعائر الدينية للديانة ٥٥
- اعتقادهم وخوفهم من مبدأ الشر ٥٩
- الأصل أجمل لطقوسهم ٦١
- اختيارهم للمرجع الديني ٦٦
- أصل الايزيدية ٦٨
- العودة إلى الموصل ٦٩
- رسالة الشيخ ناصر ٦٩
- المهرجان في لالش والترنيمة المقدَّسة للشيخ عدي ٧١
- موقف في إسطنبول أثناء رحلتهما ٧١
- ترنيمة الشيخ آدي ٧٣
- رحلة استكشافية في شنكال ٧٧
- المغادرة من شيخان إلى سنجار ٧٩
- قرية "أبو ماريا " - تلعفر ٨٢
- اندحار القوات العثمانية ٨٥
- هروب الإيزيديين من قرى سنجار ٨٩
- الحمير البرية، والعودة إلى الموصل ٩٤
- مساعدة لايارد للذهاب إلى جزيرة بوتان وديار بكر ٩٥
- مصالح كثيرة كانت معرضة للخطر ٩٩

الأمير حسين بك بن علي بك (١٨٢٨- ١٨٧٩م) ١٠١
- حسين بك وحياته الاجتماعية ١٠٣
- الإمارة ما قبل تولي الأمير حسين بك ١٠٨

- حسين بك والمستشرقون ١١٢
- الخدمة العسكرية ١١٧
- مدحت باشا وإلزام الإيزيدية بالخدمة العسكرية..... ١٢٣
- أهم الحملات في عهد الأمير حسين بك ١٢٥
- هجوم إينجة بيرقدار على جبل شنكال عام ١٨٤٢م ١٢٧
- حملة والي الموصل طيار باشا على سنجار سنة ١٨٤٧م ١٢٨
- علاقة حسين بك مع يزدانشير وحلمي باشا..... ١٢٩
- تعاون حسين بك مع يزدان شير ١٣٢
- شنكال في عهد حسين بك ١٣٥
- مصالح كثيرة كانت معرضة للخطر ١٤٠
- أعيد حسين بك إلى موقعه لكن تفاصيل إعفائه غير مذكورة..... ١٤١
- أغنية حول لجوء حسين بك إلى سنجار بعد قتله لجاسم بك ١٤٢
- وأغنية في مقتل الأمير حسن بك من قبل أمير العمادية زبير بك..... ١٤٤
- مقتل جاسم بك..... ١٤٧
- القبض على قاتلي أمير الديانة الإيزيدية : ١٤٨
- إلى متصرف الموصل ١٤٩
- جاسم - بەگ..... ١٥٠
- فترة احتجازه في السجن :..... ١٥٥
- الهجرة الى روسيا..... ١٥٩
- نهاية حسين بك ١٦٠
- السلطة ما بعد حسين بك ١٦١
- المصادر..... ١٦٣

علاقة لايارد مع بابا شيخ (شيخ ناصر بن شيخ رشي) ١٦٧

- المقدمة..... ١٦٩
- الشيخ ناصر/ بابا شيخ الإيزيدية ١٧٠

- شيخ ناصر و بادجر ١٧٧
- مضيف شيخ ناصر ١٨٠
- محاولة محمد كرتلي لسجن شيخ ناصر ١٨٥

علاقة لايارد مع القوال يوسف حسين الدوملي البحزاني..... ١٨٩
- كلمة لابد منها ١٩١
- لايارد يصف ملابس القوال يوسف..... ١٩٣
- ولادة قوال يوسف وإنقاذ الإيزيدية مع أوستن هنري لايارد من محنة..... ١٩٤
- نصوص رسائل إيزدية إلى الباب العالي..... ٢٠٠
- من هو ستراتفور كننك ؟ ٢٠٥
- الخدمة العسكرية للإيزيدية..... ٢٠٦
- مشاكل الإيزيدية في الالتزام بالخدمة العسكرية في عهد السلطان عبدالمجيد..... ٢٠٨
- أسباب صدور العريضة ٢٠٩
- رأي الكتاب والباحثين حول العريضة ٢١٦
- وفد الإيزيدية المرافق للايارد في عام ١٨٤٩م ٢١٩
- المسيرة المنتصرة عبر رضوان ٢٢١
- لايارد وقوال يوسف وقوال سيفوك عند إيزيدية خَرزا ٢٢٦
- لايارد وقوال يوسف عند مرورهم بالقرى الإيزيدية ٢٣٦
- رحلة لايارد إلى طرابزون مع قوال يوسف الدوملي ٢٣٧
- من رضوان إلى الموصل ٢٤٤
- سنجق وبقايا إمارة إيزيدية..... ٢٤٥
- لمُّ الشمل مع الأصدقاء القدامى ٢٤٦
- رحلة مصالحة في شنكال..... ٢٤٨
- قرية بَكرا ٢٥٠
- قرى سنجار ٢٥١

- وصف الضيافة والدور في قرية بكرا ٢٥٣
- حفل زفاف إيزيدية بعشيقة في ربيع عام ١٨٥٠م ٢٦٠
- الإيزيدون وساحر الأفاعي ٢٦٢
- أبناء قبيلة القيرانية الايزيدية ٢٦٧
- بلدة و بحيرة الخاتونية ٢٦٩
- زيارة إلى قرية كولى ٢٧١
- من سهل باسوين إلى قرية ميران ٢٧٦
- زيارة أرمينيا ٢٧٨
- قرية كوسلي الأرمنية ٢٧٩
- جبال زرناك وقرية قره كولي ٢٨٢
- سهول نهر الفرات ٢٨٣
- الدير الأرمني ٢٨٤
- قرية بيرون ٢٨٥
- قرية خرزا ٢٨٦
- بحيرة وان ٢٨٩
- ضريح السلطان بياندور ٢٩٠
- مدينة أخلاط ٢٩٢
- القبور ٢٩٢
- القلعة الأثرية ٢٩٣
- بلدة أخلاط ٢٩٤
- أحد الأصدقاء ٢٩٦
- المدير ٢٩٧
- آثار أرمنية ٢٩٧
- الدير الأرمني وأسقف ٢٩٩
- رحلة إلى بدليس ٣٠١
- نمرود داغ ٣٠٣

- قوال يوسف والحكاية ٣٠٣
- فقدان القوالين ٣٠٦
- بدليس..... ٣١٠
- لايارد في إمارة خالتا..... ٣١٤
- التوجه نحو بوتان ٣٢٧
- التوجه نحو ديربون الايزيدية..... ٣٣٥
- المرور بقرية تللسقف وبطنايا الكلدانية ٣٣٧
- مخطط للغرف التي جرى التنقيب فيها في تل قويونجق..... ٣٤٧
- المصادر..... ٣٤٨

الكاتب والروائي الألماني (كارل ماي)..... ٣٤٩
- العيد الكبير للإيزيديين ٣٤٩
- المقدمة..... ٣٥١
- كارل ماي في رواية..... ٣٥٥
- عبر كوردستان الوعرة ٣٥٥
- بين الحقيقة والفنتازيا..... ٣٥٥
- ولادته ٣٥٦
- وضع كوردستان في مرحلة حياة كارل ماي ٣٥٨
- تأثير هنري لايارد على روايات كارل ماي ٣٥٩
- كارل ماي وكوردستان الوعرة..... ٣٦١
- الرواية ٣٧١

المقدمة

نظراً لأهمية كتب الرحالة الذين كانوا يجوبون دول الشرق ومن ضمنها الدولة العثمانية التي كانت تضطهد الشعوب والملل والأديان غير المسلمة عبر تاريخها الطويل، وتبعد هذه الشعوب عن مواكبة العلم والمعرفة والحضارة، اضافة الى جهل هذه الشعوب بحضارة اجدادهم وتفاصيل لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم لافتقادهم إلى المدونات حيث كل شيء كان شفاهاً. وكانت مهمة هؤلاء الرحالة التجوال في المدن والقرى وتسجيل المراسيم، اضافة الى العادات والتقاليد والكشف عن الاثار، وكذلك الوقوف مع الفئات المضطهدة وبيان مظلوميتهم والدفاع عنهم بإرسال التقارير الى الجهات ذات العلاقة لإيجاد حلولٍ لمشاكلهم، وكان ذلك يشكل مصدر خطرٍ لهم، والكثيرين منهم تعرضوا إلى مخاطر جمة، ولكن مع ذلك كانت

وقفتهم وقفة مشرفة لتاريخهم في الدفاع عن هؤلاء المظلومين في أوقات المحن.

تعتبر كتابات الرحالة وثائق مهمة تعتمد عليها الدول والمؤسسات العلمية والأكاديمية لدقتها واهميتها، ولوقوفها على الاحداث والشواهد من خلال حضورهم الشخصي ومتابعتهم بأسلوب علمي ميداني.

الرحالة الذين زاروا مناطق الإيزيدية وكتبوا عنهم كثيرون، من الواجب على عاتقنا البحث عن هذه الكتب والمذكرات وترجمتها الى اللغة الكردية والعربية ليطلع عليها مجتمعنا ويستفيد مما دوّن فيها من معلومات.

كَتب هنري لايارد من الكَتب القيمة نظراً لأهمية رحلاته إلى العديد من مناطق الإيزيدية ومن ضمنها معبد لالش مع قوال يوسف سنة ١٨٤٦م.

فقد خصص الفصل التاسع من مذكراته (نينوى وآثارها) ،دعوة إلى وليمة الإيزيديين في معبد لالش، تحدث فيه بالتفصيل عن استقباله من قبل الأمير الشاب (حسين علي بك بن حسن بك، تولد ١٨٢٨م) في باعذرة، وولادة ابنه البكر وسماه (علي)، مثلما وصف زوار المعبد والمراسيم في تلك السنة، وتعامل الشيخ ناصر (بابا شيخ) وعائلته معه، وايصاله رسالة منه إلى الإيزيدية في جبل شنكال.

أما في كتابه (اثار نينوى وبابل Layard, A، H، (١٨٥٣)، Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon، London:- John Murray، فقد تحدث عن رحلته الى إيزيدية تركيا في إمارة خالتا ومدى الترحيب الكبير

به واستضافته لأيام هناك، وقد شكرهم لايارد على حسن الاستضافة وتحدث عن قصر، وقبر الأمير الرضواني ميسكي زازا .

وقد اعتمدت على ما ذكر في كتابه في بداية كتابي هذا ووضعت الهوامش والمصادر. اما الجزء الثاني يتناول علاقة لايارد مع حسين بك، حيث اتصل به لمرات عديدة وصحبه الى اسطنبول وكان المدافع الأمين للقضية الإيزيدية وخاصة طبع كتاب مذكرات رحلته وأعماله في مجال التنقيب عام (١٨٤٩م) من قبل دار جون موري الطبعة الورقية من الكتاب في عام ١٨٥٠، ويحتوي المجلد الأول من الكتاب الذي يقع في ٣٩٨ صفحة على وصف لايارد الموجز لتاريخ آثار بلاد آشور والعمل الآثاري الذي سبق وصوله، ثم يتناول عمليات لايارد في المدن الآشورية القديمة التي شرع التنقيب فيها والأخطار التي واجهها مع عماله وهم يكشفون النقاب عن بعض أهم الكنوز المكتشفة.

يواصل لايارد في المجلد الثاني الذي يقع في ٤٩٥ صفحة، عرض تنقيباته في قوينجق ونمرود واكتشافه لقيم مهمة أماطت اللثام عن القدر الكبير من تاريخ بلاد آشور الذي كان مجهولاً في السابق، وأما المجلد الثاني فشأنه شأن الأول يحتوي على عشرات الرسوم والخرائط والمخططات واللوحات، التي تصور بعض القيم في المدينتين، وألف العديد من الكتب عن رحلته وتنقيباته وتحدث في الكثير من مؤلفاته عن مناطق الإيزيدية

ومشاكلهم، وكان يرافقه المترجم (القوال يوسف بن حسين الدوملي البحزاني)

.

وتمت ترجمة أكثر مؤلفاته إلى العديد من اللغات العالمية ومنها العربية من خلال الباحثين والمترجمين ومنهم:

Nineveh and its remains austen henry layard London ١٨٦١

جورج حبيب، الذي خصص الفصل الأخير من كتابه (الإيزيدية بقايا دين قديم) عن رحلة لايارد إلى الإيزيدية، طبع في بغداد ١٩٧٩م .

خضر علي سويد، نينوى وآثارها، دار الرافدين بيروت ٢٠١٨م

الآثاري البريطاني أوستن هنري لايارد، مكتشفات أطلال نينوى وبابل مع رحلات إلى أرمينيا وكردستان والصحراء ترجمة شيرين بيش مراجعة وتحرير د. أحمد أبيش، هيئة "أبو ظبي للسياحة"، دار الكتاب الوطنية، ٢٠١٢م

جون كيست، تاريخ الإيزيدية، وهو حفيد لايارد حيث خصص فصل من كتابه هذا، عن انطباع جده لايارد عن الإيزيدية وقد ترجم الكتاب إلى العربية من قبل الأستاذ عماد جميل مزوري، دار سبيريز للنشر، دهوك ٢٠١١م، وترجم الكتاب (أنا الكاتب) إلى اللغة الكوردية وطبع من قبل مديرية الثقافة في دهوك سنة ٢٠١٣م، وبالطبعة اللاتينية في دار سيلاف للطباعة والنشر في مدينة وان التركية سنة ٢٠٢١م وكذلك ترجمها حسن جمعة إلى العربية بخط يده.

اعتمدت في هذا الكتاب على النسخ الأصلية لكتب لايارد باللغة الإنكليزية، Layard, A ،H ،(١٨٥٣)، Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon، London:- John Murray،

رحلة Nineveh and its remains austen henry layard London ١٨٦١ لايارد إلى آثار نينوى:

وقد تعاونت معي في الترجمة السيدة الفاضلة (رحاب عوض من مدينة سَلمية السورية) مشكورة.

وقد اعتمدت على مصادر أخرى لبحثنا هذا :

ـ صلاح سليم علي، إدارة الموصل في عهد إينجة بيرقدار محمد باشا، ومقاله بعنوان (شيخ ناصر) مجلة لالش الثقافي، العدد ١٦، دهوك ٢٠٠١م.

ـ لقاء مع الكاتب جوزت خالتي بتاريخ ٢٠١٩.٨.٤م في مدينة هانوفر الألمانية، الذي كتب عن لايارد في الصحف والمجلات باللغة الألمانية فاستفدت من مقالاته في الصحف.

كتب عن تلك الحقبة عدد من المواقع الإلكترونية، إلى جانب مؤلفاته باللغة الإنكليزية، بالإضافة إلى وثائق عثمانية وبمجملها وثقت أحداثها.

في بحثي هذا اعتمدت الكتبَ والمصادر المذكورة جميعها، ولكون المصادر بمجملها تعود إلى منبع واحد يتمثل بمؤلفات "هنري أوستن لايارد" الذي كتب عن رحلاته وتنقيباته الأثرية، فليس من الضرورة العلمية أن أشير إلى المصدر لمرات عديدة .

الكتاب ملخص ما كتبه هنري لايارد عن الإيزيدية من خلال زياراته المتكررة الى معبد لالش وباعذرة، وأكرر اعتذاري لكتابة الهوامش التي تخص ما دونه لايارد عن الإيزيدية .

تم الاستفادة من المصادر التالية من مطبوعات هنري لايارد

- Layard, A ،H ،(١٨٤٨–٤٩)، Inquiry into the Painters and Arts of the Ancient- Assyrians (vol ،١–٢،(
- Layard, A ،H ،(١٨٤٩)، Nineveh and its Remains ،London: John Murray-،
- Layard, A ،H ،(١٨٤٩)، Illustrations of the Monuments of Nineveh-،
- Layard, A ،H ،(١٨٤٩–٥٣)، The Monuments of Nineveh ،London: John Murray-،
- Layard, A ،H ،(١٨٥١)، Inscriptions in the cuneiform character from Assyrian- monuments ،London: Harrison and sons،
- Layard, A ،H ،(١٨٥٢)، A Popular Account of Discoveries at Nineveh ، London: John - Murray،
- Layard, A ،H ،(١٨٥٣)، Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon ، London:- John Murray،
- Layard, A ،H ،(١٨٥٣)، A Second Series of the Monuments of Nineveh ، London:- John Murray
- Layard, A ،H ،(١٨٥٤)، The Ninevah Court in the Crystal Palace ،London: John- Murray،

  ،Layard, A H ،(١٨٩٤)، Early Adventures in Persia, Susiana, and Babylonia ،London: John Murray
- Layard, A ،H ،(١٩٠٣)، Autobiography and Letters from his childhood until his- appointment as H،M ،Ambassador at Madrid، (vol ،١–٢) London: John Murray،
- layard, A ،H ،(١٩٠٣)، Autobiography and Letters from *his childhood until his- appointment as H،M ،Ambassador at Madrid*، (vol ،١–٢) London: John Murray

أوستن هنري لايارد

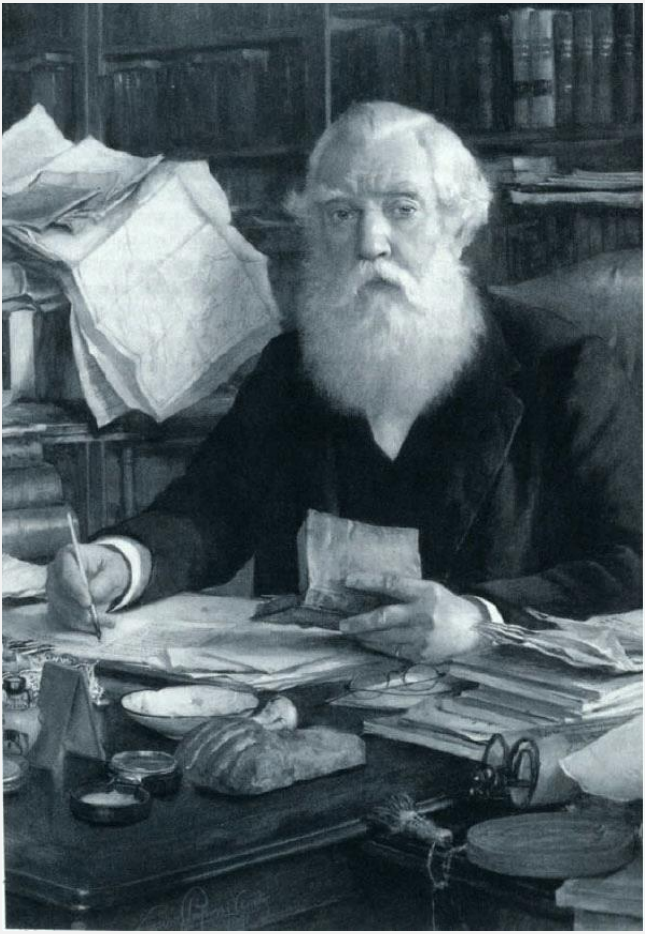

الآثاري هنري لايارد

آثاري استكمل اكتشاف أطلال مدينة ×نينوى" العراقية التاريخية ذات المجد القديم الآشوري واكتشف كنز نمرود الأسطوري الذي يعادل في أهميته كنز توت عنخ آمون.

في التعريف به: مستشرق بريطاني ورحالة ودبلوماسي ومغامر ومنقِّب عن الآثار وسياسي وبرلماني ومحقق وكاتب وباحث في الآثار والفنون وجامع تحف.

عثر على (كنز نمرود) الذي يعتبر بقيمة كنز ×توت عنخ آمون" المصري ولشدة جماله وقيمته التاريخية سرق الكثير منه بعد عام ٢٠٠٣م.

شارك × لايارد" في رسم الحدود بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية خاصة فيما يتعلق بشط العرب الذي لم يكن على هذا الاسم، وأراد البريطانيون رسمه داخل الإمبراطورية العثمانية ليسهل عليهم السيطرة عليه كطريق إلى الهند.

ولد أوستن هنري لايارد محرر الإيزيديين في باريس في الخامس من مارس من عام ١٨١٧م لموظف سابق في إدارة سيلان[1]، وترعرع في إنكلترا، وفي الثانية والعشرين من عمره وبرفقة معاصره الجريء إدورد متفورد غادر في رحلة إلى

(١) المصدر الأساسي للمعلومات عن حياة لايارد هو مؤلف كوردن ووترفيلد " لايارد نينوى " الذي يذكر جميع أعمال لايارد المنشورة وغير المنشورة، راجع كذلك مؤلف ف، م، فيلز و ب، جَي، هيكي عن لايارد وهو عبارة عن مجموعة أوراق تليت في كونفرانس عقد برعاية جامعة فينيسيا في تشرين الأول ١٩٨٣م

سيلان حيث أمل أن يعمل محامياً، وبعد مغامرات عديدة وصلا إلى حلب في آذار عام ١٨٤٠م، وخطّطا للسفر دون مرافقة أو حراسة إلى الموصل،[١]،عاش صباه في إيطاليا وتجري في عروقه دماء إسبانية من جهة والدته، ودخل المدرسة في سويسرا وقد أنعش اجتماعُ تلك الثقافات كلها في نفسه حبَّ البحث في الحضارات، ثم عاد إلى بريطانيا في الثانية عشر من عمره، وتدرَّب في مكتب عمه النائب العام لمدينة لندن والذي أرسله في رحلة إلى سيلان بدأها عام ١٨٣٩م لكنه توقف في فارس.[٢]

عاد إلى القسطنطينية (إسطنبول حالياً) عام ١٨٤٢م حيث قابل السفير البريطاني "ستراتفورد كانينج" الذي أوكل إليه مهام دبلوماسية غير رسمية في الجزء الأوربي من تركيا.

وفي اليوم الأول لمسيرهما ضلا طريقهما في عاصفة مطرية، فلجأ إلى كهف كان يستخدم من قبل الإيزيديين كزريبة لثيرانهم (٤). تخلل تقدمهما إلى الأمام أحداث اعتيادية في سيرهما نحو أورفة، وماردين، وجزيرة ابن عمر ووصلا إلى الموصل في بداية شهر نيسان في الوقت المناسب للانضمام إلى رحلة الحضر مع كل من أينسوورث ورسّام، وعند وصولهما إلى بغداد قررا التوجه إلى الهند عن

---

(١) جون س كيست، الحياة بين الكورد، تاريخ الإيزيديين، ترجمة عماد جميل مزوري، دار سبيريز، دهوك ٢٠١١، ص ٢١٣

(٢) اسيمة جانو، موقع أبحاث وشخصيات، كنز النمرود أوستن هنرى لايارد مكتشف مدينة نينوى/ الموصل العراق و بابلAusten Henry Layard Discoverer of Nimrūdr & Nineveh

طريق بلاد فارس حيث افترقا هناك، استمر متفورد باتجاه الشرق، بينما لم يذهب لايارد أبداً إلى سيلان[1].

بعد إقامة مؤقتة بلغت السنة بين رجال قبائل البختياريين في جنوب بلاد فارس، رجع لايارد إلى بغداد حيث اكتسب شيئاً عن علم الآثار من الكتب التي قرأها في مكتبة الكولونيل تايلر والرحلات إلى المواقع في جنوب العراق.

زيارته إلى الموصل في ١٨٤٢م كانت فرصة للقيام بواجب إيصال البريد من شركة الهند الشرقية إلى السفير البريطاني في اسطنبول ستافورد كنط المهيب، أحد عمالقة الدبلوماسية الفكتورية، الذي وازى سلوكه المتغطرس تجاه خصومه بتعاطفه الشديد مع الأقليات في الإمبراطورية العثمانية[2].

أوعز السفير إليه بالارتحال إلى بلاد آشور (سوريا القديمة) حيث اكتشف (آثار نمرود) على دجلة، وظل يتابع التنقيب بالقرب من الموصل باحثاً في أصول الحضارات والشعوب هناك حتى عام١٨٤٧، عاد إلى إنجلترا في العام التالي لينشر كتابه المهم (نينوى وأطلالها) حيث اعتبر نفسه مكتشف مدينة نينوى الحقيقية منكراً ومتجاوزاً من سبقوه إلى اكتشاف بعض آثارها.

ونينوى مدينة تاريخية بناها الآشوريون (٧٠٤- ٦٨١ ق.م) كانت تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة شرقي جنوب مدينة الموصل، وقد بنيت على شكل

---

(١) Layard, A ،H ،(١٨٥٣)، Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon ، London:- John Murray،

(٢) جون س كيست، المصدر السابق، ص٢١٤

قلعتين ويوجد فيها مكتبة آشور بانيبال الأثرية (٦٦٨ـ ٦٣١ ق.م)، كما يوجد فيها معبد الآلهة عشتار التي كان الآشوريون يقدسوها كآلهة الحب والنار.

دمرت المدينة بالكامل بعد أن غزاها البابليون سنة ٦١٢ ق.م، وعمرت لكن أهلها هجروها إلى مدينة الموصل التي بنيت بعد ذلك، أما آثار نينوى فمازالت حتى اليوم رمزاً لعظمة فن الآشوريين وحضارتهم.

كتب ×لايارد" أبحاثه حول (المسيحيين الكلدانيين في كردستان والإيزيديين) كما نشر مجلداً في حياة وفنون الآشوريين القدماء مرفقاً بملحق لرسوماتٍ لآثار نينوى عام ١٨٤٩ حصل على الدكتوراه من جامعة أكسفورد، وعاد إلى القسطنطينية ليلتحق بالسفارة البريطانية ويبدأ رحلة التنقيب المهمة الثانية.[١]

في بابل وبلاد الرافدين:

اكتشف في نينوى (مكتبة آشور بانيبال) والتي وجدت فيها (قصة الخلق) مكتوبة بالبابلية القديمة وتتألف مما يقارب من ألف سطرٍ على سبعة ألواح فخارية باللغة البابلية القديمة، في كل لوح ١١٥ إلى ١٧٠ سطراً، وبنصوص كاملة تقريباً.

ويقال إن "لايارد" صرخ مذهولاً أمام حفريةٍ للرسام الشهير لجسم إنسان ورأس أسد بجناحين ونقله ليكون على بوابة قصر الملكة فيكتوريا، وقد اكتشف أن الآشوريين أول من اخترع (العجلة) في التاريخ.

---

(١) من اليوكيبيديا

إدورد ليدفيك متفورد "مسيرة من إنكلترا إلى سيلان
قبل أربعين سنة" ج ١، ص ٢٤٥-٢٤٦،

نشر سلسلة ثانية من (آثار نينوى) مرفقة بالرسومات أيضاً، كانت المهمة في غاية الصعوبة.

أرسل ×لايارد" معظم ما وجده إلى المتحف البريطاني الذي مازال يحتفظ بالكنوز حتى اليوم والتي تشكل الجزء الأكبر من تحف قسم الآشوريات فيه، عاد للسياسة وانتخب نائباً في البرلمان عن الأحرار عام ١٨٥٢م وعمل في الشؤون الخارجية، لكنه انتقد حكومته أثناء وجوده في القرم لمشاركتها في الحرب هناك.

استقال من البرلمان عام ١٨٦٩م وأوفد في مهمة إلى إسبانيا ثم عين سفيراً لبريطانيا في القسطنطينية عام ١٨٧٧م حتى استقال من الحياة العامة عام ١٨٨٠م، وصفت حياته السياسية بالعاصفة، قضى بقية حياته في فينيسيا دارسا للفن الإيطالي ونشر أبحاثه عنه، آخر أعماله كان (الاكتشافات الأولية في إيران).

توفي في لندن عام ١٨٩٤م، كان باحثاً لامعاً لكنه لم يكن لغوياً جيداً فلم تأت كتاباته على شاكلة حرفية عمله.[١]

جولة الآثاري هنري لايارد في معبد لالش

(عيد جما) سنة ١٨٤٦م

دعوة إلى حضور مراسيم للإيزيديين :

من عادة الإيزيدية الاجتماع في موسم معين وبأعداد ضخمة عند ضريح وليهم العظيم، فيترك الرجال والنساء من سنجار ومن المقاطعات الشمالية في كوردستان خيمهم ومراعيهم ليشهدوا مهرجان الشعائر المقدسة.

لقد مرت سنون والإيزيدية لا يجتمعون في لالش بسبب الحالة المضطربة للمنطقة وسلوك الباشوات السيء، لقد أعادت فترة حكم إسماعيل باشا

(١) جون س كيست، المصدر السابق، ص٢١٤ (علماً ان جون س كيست هو حفيد هنري اوستن لايارد من ناحية الأم)

القصيرة وإجراءات الوالي الجديد الطيبة ثقة الجماهير من مختلف الطوائف بحيث عزموا على الاحتفال بمهرجانهم الكبير بصورة تفوق الاحتفال والابتهاج العادي، ولما كانت هذه السنة تخلو من أحداث النهب فإن قدوم العشائر البعيدة إلى ضريح الشيخ آدي كان أمراً منتظراً.

ويذكر جون كيست في تاريخ الإيزيدية : في عام ١٨٤٦م أصدرت الحكومة العثمانية مرسوماً مفاده تعيين طيار باشا والياً على الموصل وكان طيار باشا موالياً للأوربيين أكثر من ولائه للعثمانيين ولم تخبرنا المصادر كيف [١].

عرف الشيخ ناصر بالموقف الودي للوالي تجاه الأوربيين، إلا أنه سرعان ما توجه إلى حسين بك وأقنعه بالتوجه إلى البريطاني هنري لايارد وكريستيان رسام ودعوتهما إلى إيسيان وكان كريستيان نائب القنصل البريطاني في الموصل فاعتذر لكثرة مشاغله، لكن هنري لايارد قَبل الدعوة وصاحب الشيخ ناصر بسرور إلى إيسيان، وفي أثناء الاستضافة شرح لهنري لايارد التهديدات التي تعرض لها الإيزدية وطلب منه التوسط عند الوالي طيار باشا لإجراء يصب في مصلحتهم ولتقديم المساعدة بتخفيض الضرائب فوافق والي الموصل طيار باشا.

ويسرد لايارد : بعد أيام قليلة من عودتي إلى الموصل من جبال تياري، أرسل كاهن من الإيزيديين، من قبل الشيخ ناصر، وهو الزعيم الديني لتلك الديانة الرائعة، لدعوتنا أنا والسيد (رسام) إلى وليمة كبيرة تقام بشكل دوري، ولم يتمكن نائب القنصل من قبول الدعوة لكنني استثمرت الفرصة بتلهف لكي أكون حاضراً في الاحتفالات التي لم يشهدها أحد من الأوربيين من قبل، وهي

(١) سليم، بابا شيخ ناصر (لالش " ١٦ ص ٩٧")

احتفالات أثارت، بين المسلمين والمسيحيين، الخرافات التي تربك ممارسات الإيزيديين مع الأنصاريين من سوريا، ونسبت إليهم طقوس معينة لمنتصف الليل، أكسبتهم صفة جيراغ سونديران، أو × إطفاء الأنوار "، وقد امتدت الآراء المسبقة للسكان لتشمل المسافرين، وتم تتبع سير أسرار الديانة إلى العبادة التي قدمتها (سميراميس)، في الجبال نفسها التي يسكنونها الآن، العبادة غير الطاهرة في أشكالها، وتؤدي إلى زيادة في الفسوق والشهوة الجنسية، إن السلوك الهادىء وغير المؤذي للإيزيديين، والنظافة وترتيب قراهم، لا يسمح بالتأكيد لهذه الاتهامات، وإن احترامهم المعروف أو الخوف من مبدأ التحسب من الشر قد أكسبهم لقب × عبدة إبليس "، العديد من القصص الحالية عن الرموز التي تمثل هذه الروح ويعتقد البعض أنهم يعبدون الديك، وآخرون يظنون أنهم يعبدون الطاووس، ولكن عبادتهم ومعتقداتهم وأصلهم كانت على حد سواء موضوعاً غامضاً، والذي شعرتُ باللهفة لتوضيحه بقدر ما أستطيع [1].

(١) أوستن هنري لايارد، نينوى وآثارها، المجلد الأول، ترجمة خضر علي سويد، بيروت ٢٠١٨ ص ١٩٢

إنّ أصل دعوتي يثبت أن الإيزيديين قد يدعون الفضيلة التي و لسوء الحظ، لا يتكرر حدوثها في الشرق ـ أعني الامتنان، عندما جاء كريتلي أوغلو محمد باشا، لأول مرة إلى الموصل كانت هذه الديانة من بين أهداف طمعه واستبداده، استولى عليه نزوع الغدر، كما يفترض ضد زعيمهم أو كاهنهم الكبير، لكن كانت لدى الشيخ ناصر فرصة للهروب من المؤامرة والاستعاضة عنه بالرجل الثاني في السلطة والذي أخِذ سجيناً إلى المدينة، هذا هو التعلق الذي أبداه الإيزيديون تجاه زعيمهم من تحمُّل التعذيب والعقوبة وما لحق به، وحصل السيد رسام بعد أن تم تطبيق العقوبة على إخلاء سبيله والإفراج عنه من قبل الباشا بناء على تقديم مبلغ كبير من المال الذي تعهد سكان منطقة شيخان بتسديده في الوقت المناسب من إنتاج حقولهم، ونفذوا في الوقت المَحَدّد الذي دخلوا فيه، ونظروا إلى نائب القنصل البريطاني نظرة تعتبره الصورة من كتاب لايارد نينوى وآثارها حامياً لهم.

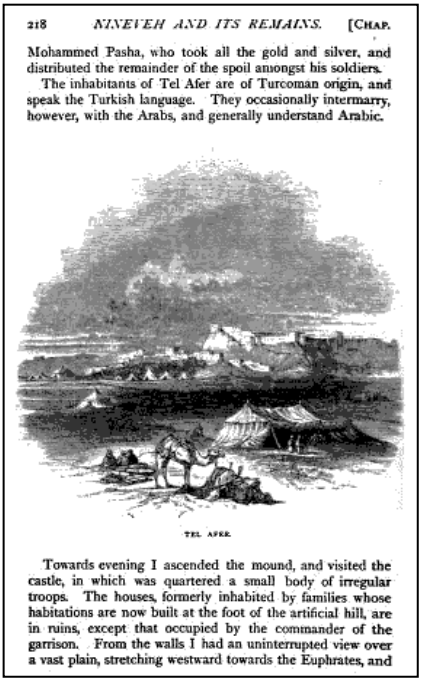
218 NINEVEH AND ITS REMAINS. [CHAP.

Mohammed Pasha, who took all the gold and silver, and distributed the remainder of the spoil amongst his soldiers.

The inhabitants of Tel Afer are of Turcoman origin, and speak the Turkish language. They occasionally intermarry, however, with the Arabs, and generally understand Arabic.

TEL AFER.

Towards evening I ascended the mound, and visited the castle, in which was quartered a small body of irregular troops. The houses, formerly inhabited by families whose habitations are now built at the foot of the artificial hill, are in ruins, except that occupied by the commander of the garrison. From the walls I had an uninterrupted view over a vast plain, stretching westward towards the Euphrates, and

الصورة من كتاب لايارد بابلون باللغة الإنكليزية

ونظراً لحالة البلد المقلقة وسوء إدارة الباشا الأخير، انقضت بعض

السنوات منذ أن تجمع الإيزيديون لدى (معبد لالش) واستعاد الأشخاص من جميع الطوائف الثقة وإلى الآن بعد فترة الحكم القصيرة لإسماعيل باشا والتدابير التوفيقية للحاكم الجديد، وقرّروا الاحتفال بمهرجانهم الكبير بحماس أكبر من المعتاد عليه عند الإيزيديين. فحين يتمتعون بالقوة بما فيه الكفاية للدفاع عن أنفسهم ضد هجمات الأكراد والعرب فإنهم يعقدون لقاءً دورياً بأعداد كبيرة في ضريح القديس الكبير، يقصدونه رجالاً ونساءً من سنجار ومن المناطق الشمالية في كردستان. وفي هذا العام تركوا خيامهم ومراعيهم ليحضروا تعاليم شعائرهم المقدسة حيث كانت الطرق خالية من قطاع الطرق، وكان من المتوقع أن تتجه القبائل البعيدة مرة أخرى نحو معبد لالش.

المغادرة من الموصل:

غادرت الموصل في أواخر أيلول ١٨٤٦م برفقة هوجا توما (مترجم نائب القنصلية) ودليل إيزيدي هو القوال يوسف الذي أرسله الشيخ ناصر، وانضم إلينا على الطريق العديد من الإيزيديين الذين كانوا مثلنا في طريقهم إلى مكان الاجتماع، أمضينا الليل في قرية صغيرة بالقرب من خورساباد.

ـ باعذرة: وصلنا إلى باعذرة في وقت مبكر من اليوم التالي، هذه القرية، هي مقر إقامة الشيخ ناصر الدينية، وحسين بك الزعيم السياسي للإيزيديين، أقيمت على سفح سلسلة من التلال التي عبرتُها في رحلتي السابقة إلى جبال الكلدان، وعلى بعد ما يقارب الخمسة أميال إلى الشمال من عين سيفني سافرنا في السهل الكئيب نفسه تاركين تل جراحية على يميننا .

ـ استقبلني حسين بك ـ رئيس الإيزيديين في إمارة شيخان:

يذكر الدكتور عدنان زيان : كانت إمارة الشيخان تمثل الكيان السياسي للكورد الإيزيديين في كوردستان الجنوبية قبل القرن التاسع عشر واستمرت كذلك طيلة هذا القرن، وأصبحت الإمارة تعرف بهذه التسمية منذ أن انحصر نفوذها منطقة الشيخان في مطلع القرن السابع عشر، وفي تلال جبل مقلوب وقراه، وكذلك المنطقة الواقعة بين الخابور ودجلة وفي جبل سنجار غربي الموصل، وانحسرت محل تسمية داسني السابقة، وكانت أسرة (شيخان بگی) تتولى حكم الإمارة، وهي العائلة الحاكمة لإمارة داسني ذاتها، والتي كانت تمارس الحكم بشكل وراثي لعدة قرون طوال [1].

تحدها باسكي شيخا (مهد والقرى المجاورة لها) شرقاً وقرية ختارة وديرستون غرباً ولحفا قائديا شمالاً وجبل مقلوب وبعشيقة جنوباً، أما ما بين الخابور فكانت هناك قبيلة الهويرية وإمارة الدنان والشرقية وما بعدها إمارة خالتا بينما سنجار فهي إمارة شرفدين، ونتيجة الحملات فقدنا جميع الإمارات إلا إمارة الشيخان التي استمرت وذلك لتواجد (معبد لالش) المعبد الرئيسي للإيزيدية فيها ـ ختاري ـ

(١) تمتد حكم هذه العائلة للامارة منذ القرن الثالث عشر الميلادي، للمزيد ينظر داود مراد ختاري، معبد لالش والمراسيم الدينية الايزيدية، بغداد ٢٠١٠م، ص ١٧٥

قال لايارد : لدى الاقتراب من قرية باعذرة [1] استقبلني حسين بك، وتبعه الكهنة والسكان الرئيسيون سيراً على الاقدام وكان الزعيم يبلغ حوالي ثمانية عشر عاماً من العمر (أي مواليد ١٨٢٨م ـ ختاري)، كان من أكثر الشباب الذين رأيتهم وسامةً على الإطلاق، ملامحه متناسقة لطيفة، عيناه لامعتان، تتدلى خصل شعره من تحت عمامته المنقوشة باللون الأسود القاتم، كان يرتدي عباءة بيضاء فضفاضة مصنوعة من الأنسجة الفاخرة فوق سترة غنية وثوباً أنيقاً، فترجلت عندما اقترب وسعى لتقبيل يدي ولكني اعترضت بالتأكيد و تجاوزنا الأمر ليعانق أحدنا الآخر على الطريقة المعتادة والسائدة في البلد، ثم أصر على قيادة الحصان، الذي كان يود أن أمتطيه وآخذ بلجامه لكن لايارد اعترض، محتضناً الأمير " وسارا معاً إلى داره في القرية، أدخلني غرفة الاستقبال، حيث تم نشر السجاد والوسائد، ويجري في الوسط تيار من المياه العذبة المَستمدّة من أحد الينابيع المجاورة، وكان سكان المنطقة قد وقفوا في الطرف السُفلي من الغرفة، واستمعوا بصمت واحترام للحوار الذي جرى بيني وبين زعيمهم، أحضرت زوجة حسين بك الإفطار لنا وتنحى الحشد بعد أن تناولنا الطعام، فمكثت أستمتع ببرودة غرفة الاستقبال.

(١) مركز ناحية تابعة الى قضاء شيخان تقع غرب القضاء مسافة ٢٠ كم، جميع السكان من الإيزيدية ويسكنها عوائل الأمراء، عدنان زيان فرحان, الكرد الإيزيديون في إقليم كردستان, (السليمانية: ٢٠٠٤م), ص٥١

وأضاف لايارد أنه بعد فرار حسين بك إلى سنجار "نال تربية وتنشئة حسنة وبعناية فائقة من قبل الإيزيديين، وقد اعتُبر منذ طفولته زعيماً لهم"، وليس هنالك أي ذكر عن كيفية وصوله إلى الزعامة.[1]

ولادة طفل:

استيقظت بعد الظهر على الزغاريد الصاخبة للنساء، التي تعلن عموماً عن حدث سعيد، دخل الزعيم الشاب بعد ذلك بوقت قصير وتلته حاشية طويلة، كان واضحاً من الابتسامة على مُحَيّاه، أن أخباراً سارّة لديه يريد أن ينقلها لي، جلس على سجادتي ومن ثم خاطبني : × يا بيك، إن وجودكم جلب السعادة إلى منزلنا، لم نلق من حضورك سوى الخير، والحمد للّٰه، في هذا البيت قد ولد لك خادم آخر، الطفل هو أول مولود لنا، وأضاف: إنه سيكبر تحت ظلك، دعه يتلقى اسمه منك، وأن يكون فيما بعد تحت حمايتك "، وانضم الحشد مؤيدين ذلك وأعلنوا أن هذا الحدث مثير للاهتمام جداً لجميع القبيلة لمجرد أن يُعزى ذلك إلى زيارتي السعيدة. لم أكن على علم تام بطبيعة تلك المراسيم، ومن المتوقع أن أشارك فيها في تسمية الزعيم الجديد، على الرغم من احترامي وتقديري للإيزيديين لا يسعني إلا أن أعترف أن هناك بعض الشكوك حول انضباطهم في معتقداتهم وشكل عبادتهم، وكنت بطبيعة الحال حريصاً على التأكد من مقدار المسؤولية التي قد أتحملها حين أضع نفسي مكان الأب في تعميد طفل إيزيدي، الأمر الذي كان أكثر

---

[1] Layard, A ،H ،(١٨٥٣)، Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon ، London:- John Murray،

ضرورة وأهمية من اختيار اسم (طقوس المعمودية محفوظة اليوم في المستقبل، عندما يمكن أن ينقل الطفل إلى ضريح الشيخ عدي، تحمل الانغماس التعميد ـ في مياهه المَقدّسة) هكذا أجبت حسين بك : ـ يا بيك: لقد فرحت لهذا الحدث السعيد الذي يعود الفضل فيه إلى للّه، قد يكون هذا الابن الأول من بين العديد من الأبناء الحماة المدافعين شأنه شأن الأجداد عزة وشرفاً، وبما أنك سألتني تسمية هذا الطفل فبإمكاني أن أعطيك العديد من الأسماء مما في لغتي وبلدي، تبدو جيدة وجديرة بالاحترام لكن ليس يصعب عليكم نطقها، علاوة على ذلك ستكون دون معنى، هل كان من المعتاد أن أدعوه باسم والده الذي سَيُقَلَد بلا شك فضائله ولكن هذه ليست العادة، لم أكن قد نسيت اسم جده، وهو اسم عزيز على الإيزيديين، ولا يزال يعيد إلى ذاكرتهم أيام ازدهارهم وسعادتهم، دعه يُعرَف باسم علي بك، وربما يعيش ليرى الإيزيديين كما كانوا في زمنه الذي أطلق عليه اسمه "، لإلمامه الجيد بالتاريخ الإيزيدي، اقترح لايارد اسم (علي) إحياءً لذكرى والد الأمير الذي استشهد في راوندوز[1].

استقبل هذا الخطاب الذي رافقه عدد قليل من القطع النقدية الذهبية المراد خياطتها على قبعة الرضيع، بتصفيق كبير، واعتمد اسم علي بيك بالإجماع، وأسرع أحد أقرباء الزعيم إلى الحريم، لينقل الخبر إلى السيدات، وعاد مع سجادة وبعض الأشياء المَطرّزة، كهدايا من الأم، وبدعوة إلى الحريم لرؤية الإناث من

---

[1] هذا الطفل علي بك أصبح أميراً على الإيزيدية للفترة من ١٨٩٢م ـ ١٩١٣ م وتزوج من ميان عبدي بك وأنجبا ابناً (سعيد بك) وتولى رئاسة الإمارة من ١٩١٣ـ١٩٤٣م بالتعاون من والدته (ميان خاتون) ينظر : داود مراد ختاري، معبد لالش والمراسيم الدينية الايزيدية، مديرية الأوقاف الايزيدية، بغداد ٢٠١٠ ص ٨٦

الأسرة، وجدتُ هناك أم الزعيم وزوجته الثانية، لأنه كان بالفعل قد تزوج من اثنتين وأكدوا لي أن السيدة التي جلبت الفرح إلى المنزل كانت أكثر سعادة من زوجها، وأن امتنانها لي بوصفي صاحب سعادتها كان غير محدود، أحضروا لي العَسَل وسلالاً من التين المجفف من سنجار.

ووصلت أخبار جيدة مفرحة في ذلك اليوم، وصل قوالان راكبان أنهكتهما رحلة إلى الإيزيديين فيما وراء القوقاز البعيدة، هؤلاء كانوا أكثر حظاً من البعثة السابقة التي اعترض سبيلهما أمير بدليس وقتل أفرادها، وبعد أن وضعوا بنادقهم جانباً، تقدموا لتقبيل يد حسين بك وأفادوا بأن الأيزيديين فيما وراء القوقاز كانوا في ثراء وغنى، وقد قدَّما قرابين وعروضاً كبيرة لخزينة الأمير.

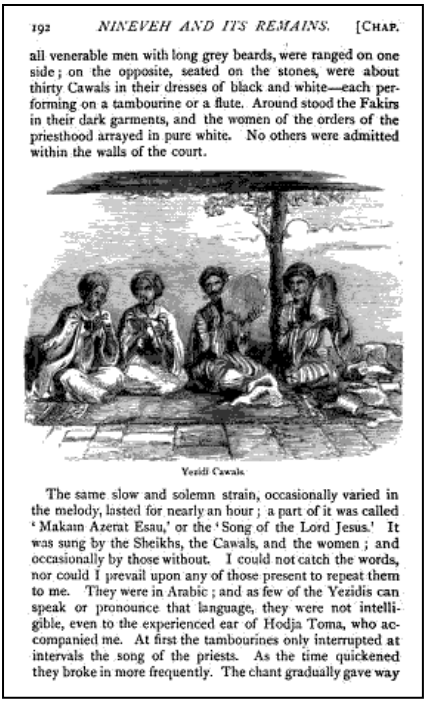

192 NINEVEH AND ITS REMAINS. [CHAP.

all venerable men with long grey beards, were ranged on one side; on the opposite, seated on the stones, were about thirty Cawals in their dresses of black and white—each performing on a tambourine or a flute. Around stood the Fakirs in their dark garments, and the women of the orders of the priesthood arrayed in pure white. No others were admitted within the walls of the court.

Yezidi Cawals.

The same slow and solemn strain, occasionally varied in the melody, lasted for nearly an hour; a part of it was called 'Makam Azerat Esau,' or the 'Song of the Lord Jesus.' It was sung by the Sheikhs, the Cawals, and the women; and occasionally by those without. I could not catch the words, nor could I prevail upon any of those present to repeat them to me. They were in Arabic; and as few of the Yezidis can speak or pronounce that language, they were not intelligible, even to the experienced ear of Hodja Toma, who accompanied me. At first the tambourines only interrupted at intervals the song of the priests. As the time quickened they broke in more frequently. The chant gradually gave way

صورة من الكتاب الأصلي باللغة الإنكليزية للايارد نينوى واثارها، وقد نشرتها لتاكيد القارىء باننا ترجمنا من الكتاب الأصلي ووضعت بعض من صور صفحات الكتاب في كتابنا هذا.

تاريخ الإيزيديين:

كانوا قد أطلعوني على التاريخ العام خاصَّتهم بعد تسمية الابن، وثمة اعتقاد لدي بأنّ الوقت قد حان للعودة مجدداً إلى غرفة الاستقبال، قبل بضع سنوات كان الإيزيديون قبيلة تتمتع بكامل القوة والصَّلابة، وأما المنطقة التي أقوم الآن بزيارتها مع جبل سنجار فإنها كانت المعاقل الرئيسة لهم، ذلك الجبل المتفرد بعلوه في المنطقة الذي يشمخ وسط صحراء بلاد ما بين النهرين إلى الغرب من الموصل. وكان آنذاك علي بك الشيخاني والد حسين بك الزعيم الأخير المستقل للإيزيديين، عرف بكونه شجاعاً محبوباً في قبيلته وعلى قدر كبير من المهارة في الذَّود عن حياضها في الحروب لسنواتٍ طوالٍ ضدَّ غزو وهجمات الأكراد والمسلمين من السهل، كان البيك القوي الذي وحد معظم القبائل الكردية من الجبال المحيطة تحت رايته من راوندوز، تمكّن من طيها تحت جناحه، ولعدة سنوات قام بالتصدي للأتراك والفرس، وقد صمم على سحق الديانة الإيزيدية المقيتة بالنسبة لهم، بينما كانت قوات علي بيك أقل عدداً ففي المعركة تمت هزيمته وسقط في أيدي زعيم راوندوز الذي أنزل به حكماً بالموت، ففرّ سكان الشيخان إلى الموصل، تلك الأحداث جرت في الربيع من العام، حيث تدفقت مياه النهر وفاضت ضفتاه، وتمت إزالة جسر القوارب، وتمكّن القليل من الناس من عبور التيار، إلا أن عدداً كبيراً من الرجال والنساء والأطفال تجمَّعوا على الجانب الآخر على تل كبير من قوينجق، ولحق بهم بيك راوندوز فبطش بهم بطشاً وتخبط خبط عشواء، كان أهل الموصل يراقبون ما كان يجري من شرفات منازلهم من أعمال القتل والوحشية التي مورست بحق هؤلاء الهاربين المساكين، الذين طلبوا الغوث والمساعدة منهم دون

جدوى، فكلٌّ من المسيحيين والمسلمين كانوا قد ابتهجوا لإبادة طائفة كافرة مكروهة، حتى أنه لم يُستلّ سلاحٌ للدفاع عنهم. ولأن أم حسين قد حملته إلى الجبال فقد نجا من المذبحة الشاملة، وقام الإيزيديون بتربيته ورعايته والعناية به، فاعتبر زعيماً لهم منذ نعومة أظفاره.

بعد فترة وجيزة وقع سكان سنجار تحت حكم محمد رشيد باشا، ثم حافظ باشا، وفي الفترتين كلتيهما قامت المجزرة، وتضاءل عدد السكان إلى ما يقارب الثلاثة أرباع حيث التجأ الإيزيديون آنذاك إلى الكهوف، وأما فيما يخصُّ مصيرهم فإنهم إما أن يكونوا قد اختنقوا بالحرائق التي أضرمت في فوهاتِ الكهوف أو أنه تم تدميرهم وسحقهم بنيران المدافع، و مما يُذكر أن المسلمين يُميّزون بين أولئك المؤمنين في الكتب المقدسة وسواهم من الذين لا أعمال مقتبسة معترف بها لديهم في تعاملهم مع رجال من المذاهب الأخرى، والمسيحيون ينتمون إلى الفئة الأولى من جميع الطوائف لتلقيهم العهدين القديم والجديد، وأما اليهود فعلى اعتبارهم أتباع العهد القديم فهذا يشكل مبرراً لديهم للتعامل مع المسيحيين واليهود، والعيش معهم في ظل الأمن والسلام، ولكن أولئك الذين يندرجون في الفئة الثانية، فإنّ المسلم المؤمن لا يمكنه التعامل معهم، ولا موجِّب أو معاهدة أو قسم يلزمه بذلك، فالأمر شأنهم الخاص ولهم مطلق الحرية في الاختيار بين التحويل أو السّيف. لقد تعرض الإيزيديون لقَرُون عديدة لاضطهاد المسلمين حتى أنه لم يكن يُنظر إليهم على أنهم "أصحاب كتاب"، وكان يتم تجنيد الحريم منهم في جنوب تركيا، وقد قام محافظو المقاطعات ببعثات سنوية إلى المناطق التي يشغلونها، وذبح الرجال والنساء دون شفقة أو رحمة، وأبعد الأطفال

من الجنسين وتم عرضهم للبيع في المدن الرئيسة، وكانت هذه المصائد والغنائم الشتوية واحدة من مصادر إيرادات بدر خان بيك، ولطالما اعتاد باشوات بغداد والموصل ترك القوات النظامية على الإيزيديين الفقراء، كوسيلة سهلة لتلبية مطالبهم على ما تأخر من الأجور، كل ذلك كان يؤدي إلى وقوع الانتهاكات والكبائر وإلى حد ما يعادل تجارة الرقيق المعروفة، لا يزال هذا النظام مطبقاً إلى حدٍ ما حتى الأشهر القليلة من زيارتي الأخيرة، ويُؤمَل أن تشمل سياسة السلطان الإنسانية المتسامحة التي منحت تلك الفوائد العظيمة والدائمة جميع رعاياه، لتستوفي هذه الديانة السيِّئة الحظ. لقد بات من الطبيعي أن يبادر الإيزيديون إلى الانتقام لأنفسهم من مضطهديهم وظالميهم كلما سنحت لهم فرصة. إذ قاموا بنهب القوافل إلا أنهم لم يتعرضوا للمسيحيين بأي أذى، لأن الإيزيديين كانوا يدركون أن الاضطهاد والمعاناة يجمع بينهما ويضعهم والمسيحيين موضع الالتقاء بالمصير، وبناء على ذلك باتت تلك الردود الانتقامية ذريعة لغزو سنجار من قبل محمد رشيد باشا وحافظ باشا. ومنذ تلك المذابح الكبيرة التي ارتكبت، أذعن الإيزيديون وقاسوا مرارة الصبر على الذل والمآسي والمحن. فوضوح وفائهم لا يقل عما لدى اليهود، أتذكر أن شخصاً كامل العمر كان قد نبذ دينه دون إلمامي بحالته وظروفه، فقد كانوا يؤثرون الموت ويستسلمون للتعذيب الذي يلحق بهم، وحتى الأطفال ممن كانوا في مرحلة الرعاية، فقد تعلموا على أيدي نساء الأتراك وأعلنوا اعتناقهم لدين الإسلام بصورة رسمية.[1]

---

[1] Layard, A ،H ،(١٨٥٣)، Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon ، London:- John Murray

الأمير حسين بك حوالي سنة ١٨٧٠م

استعدادات قرية باعذرة لحضور المراسيم في معبد لالش :

حين توجهتُ مشياً إلى أنقاض حصن يقع في أعلى تلة تشرف على القرية كان علي بيك قد بناه، وجدت النساء في ضواحي المنازل يغتسلن في الجدول الرئيسي استعداداً لمهرجان الغد، إذ لا يمكن لأحد أن يدخل معبد لالش في هذه المناسبة دون أن يكون نقياً طاهر الجسد والملابس، وعلى الرغم من أنهن تجردن من جميع الملابس الخاصة بهن، إلا أنهن كنّ يمشين بلا مبالاة، بينما يغتسل الرجال في أثناء النهار في الطرف الآخر من الجدول، خرج حسين بك من محرمه في الفجر مُسلحاً يرتدي ملابسه الزاهية، ويستعد للمضي قدماً إلى قبر القديس في معبد لالش، تجمع سكان القرية الرَّئيسيين وقمنا جميعاً بتشكيل موكب طويلٍ تتقدّمُه فرقة من الموسيقيين مع الدَّف والمزمار، ومضت النساء إلى تحميل حميرهن السّجاد والأواني المنزلية ويتبعن الموكب بهدوء.

الانطلاق نحو معبد لالش

انطلقت مع الأمير حسين بك في صباح اليوم التالي في موكب من باعذرة إلى لالش مادامت الأرض تتيح لنا ذلك، وشارك الفرسان والمشاة الذين كانوا برفقتنا في القتال التقليدي، أخذوا يطلقون النار في الهواء، وينشدون صيحات الحرب، ثم في الحال وصلنا إلى سفح شاهق الارتفاع شديد الانحدار، يتخلله خط

مسار حاد قاسٍ، في هذه الأثناء ركب الفرسان في طابور واحد، وكنا مضطرين للترجل عن خيولنا وسحبها على الصخور في كثير من الأحيان في تلك الأثناء، حتى وصلنا في غضون ما يقارب الساعة قمة، وتأملنا من بعيد معبد لالش المسور بغابة كثيفة، لاح منه قسم من القبة المخروطية المدببة من القبر فوق الأشجار، قام الجميع بإطلاق الرصاص في الهواء كتحية تردد صدى ذلك الصوت في أرجاء الوادي على طوله وعرضه، وجاء الردُّ من المعبد بطلقات ترحيباً بالقادمين، ثم قامت المجموعات الأخرى بدورها بإطلاق الرصاص وهي تصيح بما يدل على انتمائها القبلي عندما وقع نظرها على المشهد. كنا قد مَرَرنا بالعديد من الحجَّاج في طريقهم إلى القبر عندما نزلنا من خلال غابة كثيفة من السنديان، وكانت النساء يجلسن تحت ظلال الأشجار، يروحن عن أنفسهنّ من مشاق السير وأعباء أطفالهن، وأما الرجال فيقومون بإعادة ضبط الأحمال التي تحركت من مكانها من جرّاء النزول السَّريع، وكان كل مسافر جديد من الوافدين العارفين بهدف الرحلة يقوم بإطلاق النار من بندقيته، بينما يهتفون بصرخة القبيلة لأولئك الذين لا يزالون في أسفل المكان[1].

الوصول إلى معبد لالش

استقبلنا الشيخ ناصر وحشد من الكهنة والرجالِ المسلحين على مسافة قليلة من القبر، كان الشيخ يرتدي ملابس بيضاء ناصعة، كالتي يرتديها أعضاء

(١) **الخريطة الإدارية لمحافظة دهوك**، معبد لالش المعبد الرئيسي للحج الإيزيدي يقع شمال قضاء شيخان (١١) كم شمالاً.

الكهنوت الرئيسيون، يقارب الأربعين من عمره، يتمتع بسماحة وسلوك لطيف، احتفى ورحب بي ترحيباً حاراً، ويبدو أن زيارتي قد تركت انطباعاً إيجابياً لدى جميع الحاضرين، عانقت الزعيم وشاركته مبادلته التحيات لأتباعه ثم مشينا معاً باتجاه المناطق المَقدّسَة، كانت القاعة الخارجية و الطريق المؤدي إليها يعجّ بالناس، إلا أنهم أفسحوا المجال لنا لنقترب، كان كل فرد منهم يسعى بلهفة وشغف لتقبيل يدي، من عادة الإيزيديين دائماً أن يدخلوا القاعة الداخلية للقبر حفاة الأقدام، لذا اتبعت خطاهم وسلكت مسلكهم وعرفهم وتركت حذائي في الخارج عند المدخل، ثم جلست مع الشيخ ناصر وحسين بك على السجاد تحت الظلال التي شكلتها شجرةَ عنبٍ واسعةَ الانتشار، كان الشيوخ والكهنة أولياء الأمر وأصحاب الأوامر الرئيسة للكهانة، وحدهم من دخلوا معنا، جلسوا حول الفناء على الجدران حيث الأشجار التي تكاثفت غصونها بيننا وحول المباني وأرخت بظلالها على المجموعة بأكملها. بدأت بمحادثة الشيخ ناصر والكهنة، كانوا أكثر صراحة ووضوحاً مما توقعت، إلا أنني أجَّلتُ طرح الأسئلة وخوض النقاش ريثما أكون على انفراد مع الرئيس الذي قد لا يكون مستعداً للرد عليها في حضور الآخرين من الناس.

وصف معبد لالش

يقع معبد لالش في واد ضيق وادٍ له منفذٌ واحد فقط، حيث ترتفع الصخور بشكل شاهق من جميع الجهات، إلا من جهة يشق فيها تيار صغير طريقه فيها إلى وادٍ أكبر وراءها، يقف في فناء و يجاوره عدد قليل من المباني التي يسكنها

الأوصياء وخدم الحرم، الداخل منقسم إلى ثلاث غرف رئيسة وقاعة كبيرة مُقسّمة في الوسط من صف من الأعمدة والأقواس، و ثمة خزان يُملأ من ينبوع وفير من بين الصخور في نهايته العليا وشقتان أصغر حيث مقابر القديس وبعض الشخصيات الأدنى درجة، والماء في الخزان ذو قداسة و تبجيل، وثمة اعتقاد أنه من البئر المَقدّس زمزم، ففيه يتم تعميد الأطفال ومن جهة أخرى يستخدم لأغراض أخرى مُقدَّسَة .

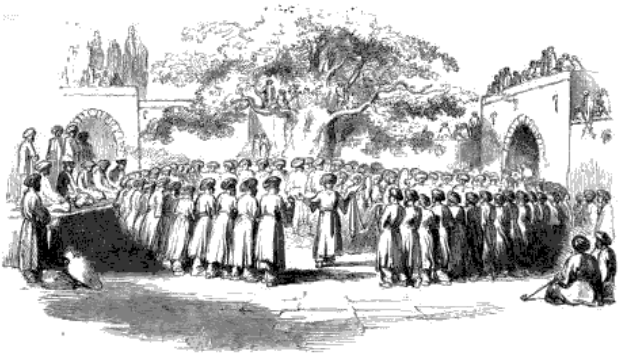

Yezidi Dance at Sheikh Adi.

Valley and Tomb of Sheikh Adi.

قبر الشيخ آدي

تمت تغطيته على سياق العرف في مقدسات المسلمين بقفص مربع الشكل كبير، أو بصندوق مصنوع من الطين والجص، يُفرش عليه قماش أخضر ويكون في الغرفة الداخلية، مضاء بشكل خافت بمصباح صغير، بعض المصابيح تنير القاعة الرئيسة بشكل عام، وتُوضع الأضواء بعد غروب الشمس في منافذ تنتشر على الجدران، بينما اثنان من الأبراج البيضاء يرتفعان في أعلى المبنى، فتشكل بمجملها انعكاساً مبهجاً متجانساً مع أوراق الأشجار المكتظة بالأغصان المحيطة بها، تعلوها الحلي المَذهبة، و صمِّمتْ جوانبها بالعديد من الزوايا، ليكون مشهداً كثيف الحزم الضوئية والظلال .

جولة إلى معبد لالش

على عتبات المدخل نحتٌ بدائي لأسد وثعبان وفأس ورجل ومشط، الثعبان يتضح، وهذه الأشكال أغلب الظن تمثل رموزاً، لم أتمكن من الوصول إلى أي تفسير من الشيخ ناصر، من أنها قد تكون آثار منحوتة لبنّاء مسيحي ثم قام بإصلاح القبر قبل بضع سنوات، وكانت الحلي التي اقترحها مُجرّد هوى انسجم مع رغبته، لاحظت وجود الفأس والمشط كانا محفورين على العديد من الحجارة في المبنى، وتأكدت من أنها كانت لا تخرج عن كونها علامات قد وضعت عليها بناءً على طلب أولئك الذين قدموا المال لاستعادة المبنى، أو قدّمُوا المساعدة في العمل. كان هنالك صندوق مُربّع من الجص وسط القاعة الداخلية وتحت شجرة العريش، يمثل فجوة صغيرة مليئة بكَراتٍ من الطين مأخوذة من قبر القدِّيس،

وكانت تلك الكرات تباع أو توزّع على الحجاج، وتعتبر آثاراً مُقدّسة جداً تحصِّن الإنسان من الأمراض والأرواح الشريرة. بعض أعضاء الكَهَنُوت وعائلاتهم يسكنون وحدهم في المباني المحيطة، وتم اختيارهم لَمشاهدة المناطق المقدسة، وتزويدهم بالمؤن وبدعم مِنْ مساهمات القبيلة، وهنالك مباني واطئة مع فجوات تحيط بالمبنى الخارجي، تشبه تلك المتواجدة في السوق الشرقي، كانت قد خصِّصتْ لسكن الحَجّاج وأكشاك الباعة الجوالين خلال الاحتفال بالمهرجان، هناك تأخذ بانتباهك الأشجار العملاقة الوارفة بظلالها المطلة على الساحة المفتوحة، حيث تتَدفَق المياه العذبة حول المباني، والعديد من الصرُوح كانت قد شيّدت حول القبر وتحت الأشجار التي تنمو على جانبي الجبل، و كل صرح ينتمي إلى منطقة أو قبيلة ما من اليزيدية، ويقيم فيها الحَجّاج بحسب المكان الذي يأتون منه خلال وقت العيد، وكل جزء من الوادي يعرف باسم البلد أو القبيلة التي ينتمي إليها هؤلاء القادمون الذين يلتجئون إلى هناك، عند باب القبر جالستُ المجموعة حتى منتصف اليوم تقريباً، وحين نهض الشيخ ناصر، تبعته إلى البلاط الخارجي الذي يشغلهُ حشدٌ حافل من الحَجّاج، وقد نشرت مخازن التجار المسافرين في الفجوات وعلى الأرض، أولئك الذين في مثل هذه المناسبات يتوجهون إلى المعبد، حيث يتم تعليق العديد من المناديل الملونة والمواد القطنية على غصون الأشجار، ويعرض التين المجفف من سنجار و الزبيب من العمادية و التمر من البصرة والجوز من الجبال تراها أكواماً مكدسة على الرصيف، وحول هذه الكنوز المغرية انتشرت مجموعات من الأولاد والبنات الشابات، ويتشارك الرجال والنساء محادثةً مُفعمةً بالحيوية، ومن الممكن سماع أصوات الناس عبر الوادي، ثم رحب الجميع

بالشيخ باحترامٍ وتقديرٍ، وأفسحوا لنا المجال حين اقتربنا وخرجنا من فناء المبنى الرئيس، وجلسنا على حافة نافورةٍ مبنيةٍ على جانب الطريق، وفي نهاية طريق مُشجر يؤدي إلى القبر بدت الألواح المحيطة بالحوض مقدسة إلى حدٍّ ما، وسمح لي وللشيخ ناصر وحسين بك في هذا الوقت فقط بالجلوس عليها، والإيزيديون لا يرغبون و حتى لو في مناسبات أخرى أن تتلوث بالقادمين من المسلمين الذين يختارون هذا المكان الظليل للاستجمام والراحة وفرش سجادهم، ويتم الحفاظ على مياه النافورة من الشوائب ويشرب منها أولئك الذين يتجمعون في الوادي، و النساء يتسارعن ذهاباً وإياباً يحملن أباريقهن، يتبادلن المرح واللهو و ينتظرن دورهن لملء أباريقهن بالماء، بينما يجلس الشيوخ والكهنة الرئيسيون حول الينبوع في دائرة مستديرة ليستمعوا إلى موسيقى المزامير والدفوف وألحانهما [1].

ويؤكد كيست بوصف المعبد من قبل جده لايارد : بينما كان الشفق يتضاءل ويبهت استطاع لايارد أن يميز الفقراء في ثيابهم البنية وعماماتهم السوداء يتسارعون خارجين من المعبد، وهم يحملون القناديل وفتائل مغمسة في الزيت، التي أضاءوا بها القناديل الأصغر حجماً الموضوعة على الحيطان، وشقوق الصخور وجذوع الأشجار، وبينما الفقير يمضي، يقوم زائر حاج بتمرير يده اليمنى من خلال الشعلة ويلمس بيده حاجبه الأيمن ويسقطه ليمس شفاهه. تم توزيع أطباق كبيرة، تحتوي على اللحم المشوي والرز والفواكه، وأصبح الوادي الغارق في الظلام يعج بالحياة من جديد بصخب وهمهمة خمسة آلاف صوت، و نقاط من الضوء لا تعد ولا تحصى تصدر عن المشاعل والقناديل المقدسة وتتلألأ من

(١) لايارد نينوى وآثارها. (تكملة المصدر هكذا (هنري لايارد، المصدر السابق، ص؟؟

خلال الأشجار، وفجأة داهم السكون كل شيء، ارتفعت من الوادي أغنية رزينة ذات لحن حزين وكئيب كانت شبيهة بترنيمة دينية مهيبة كنت أسمعها منذ سنوات خلت في كاتدرائية ببلاد بعيدة، كانت الموسيقى شجية وعذبة إلى درجة أنني لم أسمع بمثلها في الشرق، وكانت الأصوات الغنائية للرجال والنساء تختلط في اتساق وانسجام ممزوجة بأنغام ناعمة لمزامير عديدة، وفي فواصل ثابتة تقطع الأغنية بصوت مدوٍّ من اصطدام الصنج والدفوف، وهؤلاء الذين كانوا خارج دائرة الضريح انضموا بأصواتهم لإنشاد النغمة الحزينة[1].

وصول الزُّوار

لم أكن أبداً أرى مشهداً أكثر روعة أو رسوماً مُفعمة بالحيوية منها، وكانت هنالك خطوط طويلة من الحجاج تتقدم بمشقة على الطريق، ويستقبلون في الوقت ذاته الزوار القادمين الجدد وهم جبليون من سنجار، داكنو البشرة، وذوو شعور طويلة، وعيون ثاقبة وملامح عادية ويرتدون ثياباً بيضاء، ساروا في مهب الريح وبنادقهم الثقيلة ملقاة على أكتافهم، وفلاحون بسطاء قدموا من سهل الموصل، ورجال رحالة يرتدون ألبسة ذات ألوان متنوعة كالذين صادفهم بير جان ماري دي جيسس على الطريق، كانت قد تبعته تلك الأسر الأكثرُ ثراءً من كوجر، التي تنتمي إلى القبائل المتجولة التي تعيش في الخيام في السهول وبين تلال أديابين القديمة، إذ يرتدي الرجال سترات رائعة وعمائم ملونة وفي أحزمتهم أسلحة رائعة، بينما ترتدي النساء بأناقة الحرير ويضفرن شعورهن بالعديد من الضفائر

(١) كيست ص ٢٣٠

التي تتدلى على ظهورهن والمزينة بالزهور البرية، وقد أخفين جباههُن تقريباً بالنقود الذهبية والفضية، وعُلقت سلاسل كبيرة من الخرز والنقود المعدنية والحجارة المحفورة على أعناقهن، وتظهر بعد ذلك أسرة منكوبة من إحدى القرى في منطقة الموصل، حيث ترتدي النساء الملابس البيضاء الشاحبة البالية، ويحنين ظهورهن تحت وزن أطفالهن، ويحث الرجال حماراً مُحَمَلاً بشدة، وتنزل مجموعات مماثلة من التلال، ويتكرر إطلاق النار من الأسلحة وتعلن الإشارة المعروفة لأولئك الذين هم في الأسفل عن وصول كل مجموعة جديدة، يَتَجهُ الجميع إلى النافورة قبل السير إلى محطتهم المَخصّصة، فيضعون أسلحتهم على الأرض، وَيُقبلون يدَي الشيخ ناصر وحسين بك ويدِي، وبعد إلقاء التحية على الكهنة المجتمعين، يواصلون طريقهم على جانبي الجبال، ويختارون بعض أشجار البلوط المنتشرة على نطاق واسع أو سقف أحد المباني طلباً للراحة في أثناء إقامتهم، فينشرون السّجاد ويشعلون الأغصان الجافة والنيران للإضاءة، ويقومون بإعداد طعامهم. تلك المجموعات كانت متناثرة في كل اتجاه وبالكاد تجد هناك شجرة دون جماعة من الأفراد تجلس تحتها، وفي جدول الماء هناك يغتسل الجميع عند دخولهم الوادي المقدس، نظافة أنفسهم وملابسهم أمر هام جداً ليكونوا في قمة الطهارة والنقاء في العيد. لم يسبق لي أن رأيتُ مثل هذا الحب الجماعي للنظافة في الشرق. أما في فترة ما بعد الظهر فتُقام الرقصات أمام البك وأمامي، كانت تشبه الدبكة العربية حيث شارك العديد من الشباب من الحشد في الساحة المفتوحة الصغيرة أمام النافورة فيها، وغنى آخرون على شكل جوقة مع الموسيقى، وشُغل كل مكان يمكن الحصول عليه لرؤية مشهد

الراقصين من قبل المتفرجين المحبين للاطلاع والاستمتاع، حتى أن أغصان الأشجار كانت منحنية فوق رؤوسنا بفعل الأولاد الذين كانوا يتعلقون بغصونها ويجلسون عليها واكتشفوا أنه من خلالها يمكنهم أيضاً أن يشاهدوا ما كان يجري في الأسفل.

حادث في المعبد

قامت منازعات انتهت بأحد هؤلاء الأولاد إلى حادث مؤسف إلى حد ما، ثمة ما يُبيِّن الخرافات المفردة لهذه الديانة، كان قد أقحم نفسه على نهاية الغصن الضعيف للشجرة، الذي كان فوقي مباشرة وهو يهدد بكل لحظة أن ينكسر تحته، وعندما نظرت إلى الأعلى أدركتُ الخطر المحدق، وناديت الزعيم مجهداً، لتجنب ذلك ثم هتفت × إذا كان هذا الشاب على وشك أن يستخدم لقباً، يُعطى عموماً في الشرق لهؤلاء الشباب المتهورين ... وراجعت نفسي على الفور، ولكن بعد فوات الأوان، كان التأثير سريعاً، تملك الرعب من حولي وبدا على نظرات ووجوه هؤلاء الذين كانوا قريبين مني وسمعوا صوتي، وتم إبلاغ من هم في الخلف بذلك، ثم تحولت الابتسامة اللطيفة التي تبدو على الملامح الجميلة للبك الشاب إلى تعبير خطير وساخط، جرحت مشاعر مضيفي دون قصد فشعرت بالأسف لذلك وكنت في حيرة لمعرفة كيف يمكنني أن أكفر عن حماقتي، والتشكيك فيما إذا كنت سأقدّم الاعتذار إلى الزعيم، ومع ذلك، فإنني سَعَيْتُ لأن أفهمهم دون أن يبادروا إلى أية ملاحظات من الممكن أن تجرني إلى مزيد من المشاق والصعوبات،

وتأسفت لما حدث، ومضى بعض الوقت ريثما استعادت المجموعة هدوءها، واندمجت في أجواء مهرجانها السابق.

جلسة مع أهل سميل

قمت بفرش سجادي على سطح مبنى من حجم معين يعود إلى شعب سّميَل، وبدت مجموعات من الحجاج من تلك المنطقة كانت تنتشر وتتوزع على مسافة مناسبة لي، الرجال والنساء و الأطفال يتجمعون حول المراجل، لإعداد وجباتهم المسائية، أو يتمدّدون على سجادهم الخشن، ويستريحون بعد مسير طويل من اليوم، وكان زعيم القرية يجلس بالقرب مني، يرتدي ملابس مبهجة ويتسلح جيداً، استقبلني بلطف وود، وجالسته وكانت زوجاته معه، إحداهن كانت شابة جميلة، وقد اختيرت مؤخراً من الكوجر أو المتجولين، ظهروا بالزهور والعملات المعدنية الذهبية، قاموا بالتضحية بشاة، ثم تجمّعوا جميعاً، (كانت ذراعا الزعيم عاريتين إلى الكتف وملطختين بالدماء) التفوا حول الذبيحة وقطعوا الأطراف وقاموا بتوزيع مقادير صغيرة منها على الفقراء والمساكين الذين تجمَعُوا للحصول عليها .

زيارة شيخ ناصر (بابا شيخ)

على بعد مسافة قليلة من شعب سميل كانت زوجة الشيخ ناصر وعائلته الذي ذبح أيضاً شاةً، وكان الشيخ الذي يقيم في المبنى المقدّس مشغولاً خلال النهار في استقبال الحَجاج وأداء الواجبات والالتزامات المختلفة التي كانت قد فرضت عليه

في هذه المناسبة، حين زرت حرمه قدمت لي زوجته الفاكهة والعسل وأخذتني بتقرير وحديث طويل عن أعمالها المنزلية ".

الشيخ شمسي أو الشمس

وهو برج أبيض صغير نشأ من مبنى منخفض شُيِّد بدقة إلى الأسفل من مجموعة المباني المَخَصّصة لشعب سميل، كما هو حال جميع الصروح المَقَدّسة للإيزيديين، بقي نقيّاً مطلياً بشكل متكرر بماء الكلس، ويسمَّى بحرم الشيخ شمس، كان قد بني على هذه الشاكلة بحيث يجب أن تسقط الأشعة الأولى من الضوء عليه، وثَمَّة دعاء للشيخ شمس قرب الباب محفور على لوح، ولوح واحد أو لوحان نذريان قام ببنائهما والد حسين بك وغيره من الزعماء الإيزيديين في الجدران الداخلية منها، التي تعتبر مكاناً عظيم القداسة يُنار بعدد من المصابيح الصغيرة، وعند غروب الشمس، وبينما كنتُ جالساً أمام المدخل في كوة، تقدّم أحد الرعاة إلى قلم كان معلقاً على المبنى، وكان هنالك قطيع من الثيران البيضاء حيث استفسرت من الكاهن عنها.

وكان لايارد قد عاد إلى المكان الخاص به للاسترخاء والاستراحة على سقف مبنى قرب ضريح الشيخ شمس الدين وكان ذلك عند حلول المساء، وبعد أن عطف في زيارة قصيرة على زوجة الشيخ ناصر التي سردت له قصتها الطويلة مع الخدم عاد إلى المعبد ولمح شخصاً عند غروب الشمس يسوق قطيعاً من الثيران البيضاء إلى الحظيرة المجاورة، وتساءل عن مالكها، ليأتيه الجواب بأنها مُسخَّرة للشيخ شمس ويقوم بذبحها في الأعياد الكبيرة فقط و توزيع لحمها على المساكين الفقراء،

وعبر لايارد بكلماته: هذا الجواب غير مُتوقَّع أو مُنتظَر يرتقي ويدعو إلى المزيد من التفكير والتأمل، ومكث هناك حتى لفَّ الظلام الوادي غير آبه بالمناظر الطبيعية الجميلة المحيطة بي.

قناديل النُّذور

ثم ارتدى الفقراء أو الكهنة الأقل درجة ملابسهم البُنّيّة اللون والخشنة وعندما بدأ الشفق بالتلاشي تدريجياً، كانت ثيابهم متناسقة منسجمة مع أجسادهم والعمائم السوداء على رؤوسهم. وخرجوا من الضريح وفي يد كلٍّ منهم مصباح وإناء نفط مع حزمة من فتائل القطن، ثم بادروا إلى تعبئة و تهيئة المصابيح الموضوعة في جدران ساحة الغناء والموزعة على الأبنية على جانبي الوادي وفي جذوع الأشجار المفرَّغة وعلى الصخور البعيدة المنعزلة، بدأت النجوم اللامتناهية العدد تضيء الجوانب السوداء من الجبل والأغوار المظلمة في الغابة الشجرية، بينما بدأ الكهنة بإفساح طريق للقيام بمهامهم بين هذا الحشد الغفير، وكان الرجال والنساء يقومون بتمرير أكفهم على اللهب، وبعد فوز الحاجب الأيمن بالجزء الذي تمت مباركته بالعنصر المَقَدّسَ، فإنهم يقومون بحملها وتقريبها بحماس إلى شفتيهم، كما يحملون الأطفال بين ذراعيهم، يدهنونهم بطريقة مماثلة، في حين أن الآخرين يقومون بمدِّ أيديهم للمس أولئك الذين كانوا أقل حظاً منهم ولم تصل أياديهم إلى اللهب، المصابيح عروض نذريّة من الحجَّاج، أو من أولئك الذين طلبوها من الشيخ عدي في أوقات المرض، يُمنَح حرّاس الضريح مبلغاً مالياً سنوياً لأجل الزيت ودعم الكهنة الذين يقومون بالعناية بالمصابيح والحفاظ عليها التي

تتم إضاءتها كل مساءٍ مع استمرار الإمدادات. الدخان الموجود على الجدران هو علامة تشير إلى الأمكنة التي تم وضعها فيها أثناء النهار. لفت نظري إقبال الإيزيديين على الحجارة السوداء بخشوع وتقديس، وقد لاحظت أن الإيزيديين يقبلون بخشوع الحجارة السوداء، وهنالك من اقترح من المسافرين الذين رأوا تلك الآثار أن يُحرقَ القارُ أو النفطَ في الوادي خلال مراسم دينية، إلا أن كليهما يُعتبر أمراً لا طهارة فيه فزيت السمسم ومستخلصات نباتية أخرى محددة وحدها من الممكن استخدامها.

وجبة العشاء

وبعد حوالي ساعة من غروب الشمس ظهر الفقراء خدم الضريح، يحملون أطباق الأرز المغلي واللحوم المشوية والفاكهة التي أرسلت إلى من مطبخ الصَّرح المقدَّس، وفي بعض الأطباق في المأدبة كانت زوجة الشيخ ناصر قد ساهمت فيها، بينما كان الشفق يتلاشى ويخفت حين بدأ الليل يحطُ بظلامه، تمكن لايارد من تمييز الفقراء في ثيابهم البنية وعماماتهم السوداء وهم خارجون من المعبد يحملون القناديل والفتائل المغمسة بالزيت لإضاءة القناديل الأصغر حجماً الموضوعة على الحيطان وفي شقوق الصخور وجذوع الأشجار ثم يمضي الفقير. يقوم زائر حاج بتمرير يده اليمنى من خلال الشعلة ويلمس بيده حاجبه الأيمن ويسقطه ليمس شفاهه، بعد ذلك بدأوا بتوزيع أطباق اللحم المشوي والرز والفواكه بكميات وافرة، وضج الوادي الذي كان غارقاً بوحشة الظلام بالحياة مجدداً وبهمهمة وصخب خمسة آلاف صوت، ناهيك عن مراكز النور التي لا تحصى المنبعثة من القناديل

المقدسة والمشاعل والمصابيح التي تبرق وتتألق من بين أغصان الأشجار، وفي لحظة خيم الصمت والسكون على كل شيء في المكان، وانبعث صوت أغنية دينية وزينة تدب شعور الخشوع والتقديس. ذات ترنيمات سبق لي وأن سمعتها في سنوات مضت في ككاتدرائية في بلاد قصية.

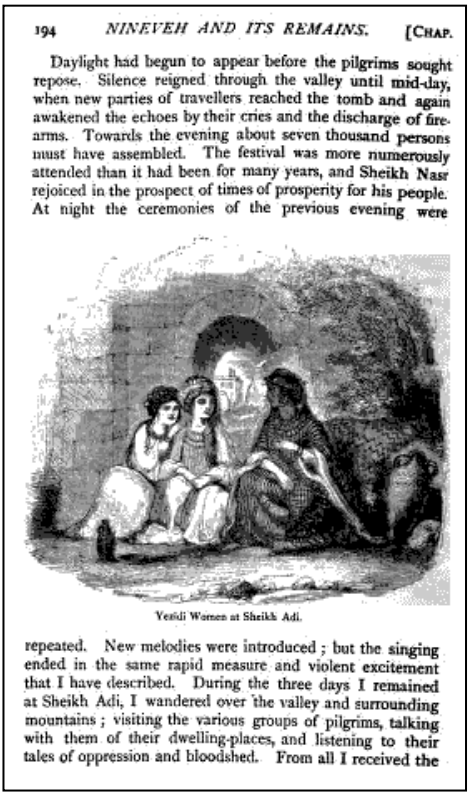

194 NINEVEH AND ITS REMAINS. [CHAP.

Daylight had begun to appear before the pilgrims sought repose. Silence reigned through the valley until mid-day, when new parties of travellers reached the tomb and again awakened the echoes by their cries and the discharge of fire-arms. Towards the evening about seven thousand persons must have assembled. The festival was more numerously attended than it had been for many years, and Sheikh Nasr rejoiced in the prospect of times of prosperity for his people. At night the ceremonies of the previous evening were

Yezidi Women at Sheikh Adi.

repeated. New melodies were introduced; but the singing ended in the same rapid measure and violent excitement that I have described. During the three days I remained at Sheikh Adi, I wandered over the valley and surrounding mountains; visiting the various groups of pilgrims, talking with them of their dwelling-places, and listening to their tales of oppression and bloodshed. From all I received the

عدد الزوار والاحتفال بالطقوس

هؤلاء الذين تجمَّعوا قد يكونون الآن قد تجاوزوا الخمسة آلاف فرداً قاموا بإشعال المشاعل وحملها معهم وهم يتجولون في الغابة، كان وقعها على النفوس ساحراً، بالكاد يمكنك تمييز المجموعات المختلفة في الظلام، الرجال لا ينفكون عن الحركة ذهاباً وإياباً، والنساء يجلسن مع أطفالهن فوق المنازل، وحول الباعة المتجولين الذين عرضوا أجهزتهم للبيع في ساحة الضريح التمت الحشود بغزارة، وآلاف الأضواء والأنوار المتلألئة بين أوراق الأشجار المكتظة كانت تتراقص عن بعد لتنعكس في الجداول والنوافير والجداول.

الموسيقى الإيزيدية

بشكل فجائي هدأت أصوات همهمة الناس بينما كنت أحدّق متمعناً في هذا المشهد الرائع، وفي لحظة خيم الصمت والسكون على كل شيء في المكان، وانبعث صوت أغنية دينية وزينة شبيهة ببعض التراتيل الأصيلة العراقة، دب شعور بالخشوع والتقديس ذات ترنيمات سبق لي وأن سمعتها في سنوات مضت في كاتدرائية في بلاد قصية. كان لحنها حزيناً مشبعاً بالشجن يفيض بالعذوبة إلى حدٍّ أنه لم يسبق لي أن سمعت مثلها في الشرق كله، اختلط الرجال والنساء بتناغم وانسجام تخللته أنغام ناعمة لمزامير عديدة، ثم قطعت الأغنية بصوت مدوٍّ ناجم عن اصطدام الصَّنج والدُّفوف في فواصل محددة ثابتة، وانضمت إلى الجوقة لإنشاد النغمة الحزينة أصواتُ أولئك الذين كانوا خارج إطار الدائرة.

التعاليم والشعائر الدينية للديانة

حين سارعت إلى الحرم كان الشيخ ناصر مُحاطاً بالكهنة جالساً في الفناء الداخلي، حيث المكان مضاءٌ بالمصابيح والمشاعل التي تلقي أنوارها الخافتة على الجدران البيضاء من القبر و على الأوراق الخضر للأشجار، وكان الشيوخ يرتدون عمائمهم ولباسهم الأبيض، وقد اصطف ذوو القدر والجلالة والوقار و ذوو اللحى الرّمادية الطويلة صفاً واحداً، وكان ما يقارب الثلاثين كاهناً في الجهة المقابلة يجلسون على الحجارة، ويرتدون الملابس المتعددة الألوان من الأسود والأبيض ويعزفون على الدَّف أو النَّاي، بينما وقف حولهم الكهنة الفقراء بملابسهم الداكنة، و ارتدت نسوة الكهنوت الثياب البيضاء النّقيّة، حتى أنه لم يتم قبول آخرين داخل جدران الفناء واستمرت النبرة البطيئة والرسمية ذاتها مع تفاوت اللحن في بعض الأحيان لما يقارب الساعة، كان جزء منه يُسمّى × مقام أزيرات عيسو "، أو أغنية السيد يسوع، ومن الشيوخ والكهّنة والنّساء ومن أولئك الذين ليسوا من الكهنوت في بعض الأحيان تم أداء الأغنية، لم أتمكن من فهم الكلمات، وليس بمقدوري أن أطلب من أيٍّ من الحاضرين أنْ يكررها لي، فقد كانت الأغنية باللغة العربية، ولأن القليل من الإيزيديين بمقدورهم تكلُم و نطق العربية فقد باتت مبهمة حتى لذوي الآذان الخبيرة من هودجا توما ممن كانوا برفقتي، توقَفت الدُّفوف التي كانت تُضرَب في آن واحد على فواصل أغنية الكهنة و تمت مقاطعتها لأكثر من مرة مع تسارع الوقت، حيث أفسحت الأنشودة المجال تدريجياً للحنٍ يعبق بحيويةٍ متزايدةِ الوتيرة، وضربت الدُّفوف بطاقة غير طبيعية ونفخ في النَّاي بفيضٍ ودفقٍ سريع من النُّوتات، وارتفعت الأصوات إلى أسمى مستوى لها، و في الخارج انضم

رجال يصرخون، في حين أنّ النساء جَعَلنَ الصخور تدوي بأصوات الزغاريد الصاخبة، وأفسح الموسيقيون المجال للإثارة حتى أخذت أطرافهم تترنح لتسقط منهكة على الأرض. لم أسمع مطلقاً صرخةً مخيفةً كمثل تلك التي ارتفعت في الوادي، الوقت منتصف الليل مع ذلك رحت أتأمل المشهد الرائع حولي بدهشة عارمة، وعلى هذي الشاكلة ربما احتُفل بالطقوس الغامضة لكوريبانتيس. عندما التقوا في بعض البساتين المقدسة لم أستغرب أن هكذا احتفالات رحبة الأجواء ستؤدي إلى ازدياد تلك الشعائر غير المقدسة وإلى أسرار فاحشة، والتي جعلت اسم الإيزيدية ممقوتاً في الشرق، وعلى الرغم من الإثارة التي لا يمكن السيطرة عليها والتي يبدو أنها سادت بين الحضور جميعاً، لم تكن هناك إيماءات غير لائقة، وعندما استنفد الموسيقيون والمغنون طاقاتهم، تلاشى الضجيج فجأة واستأنفت المجموعات المختلفة فرحها ومرحها السابق والتجوّل لمرة أخرى في الوادي وفي الجلوس تحت ظلال الأشجار. منذ زمن الشيخ عدي حتى الآن ومشهد طقوس العربدة منسوب إلى الإيزيديين والوادي كله يحتفظ بقدسيته. وقد أعلن القانون اليهودي أن الدخول إلى المناطق المقدسة سيئ، ولا يسمح بدفن أي شيء آخر سوى الكهنة ورؤساء الديانة بالقرب القبر، وأنه يتوجب على الحجاج خلع أحذيتهم عند الاقتراب منه، وأن يتجهوا إليه حفاة الأقدام ما داموا على مقربة منه. أقيم احتفالٌ في غاية الروعة قبل أن يقترب الجمهور صوب القبر الذي لا يمكن أن يقربه غريب، ولا يمكن أن أتعرف طبيعة الأمر من الكهنة، وضح لي الشيخ ناصر أن رمزهم المَقدّس الملك طاووس، وعرض الأمر على الكهنة، وصرح بأنه لا اعتراض لديه بأن أشهد طقوسهم كلها، إلا أن عدداً من الشيوخ رفضوا

ذلك، لم يرغب الشيخ في خلق أي شعور يكون مبعث سوء في القبيلة، بدا لي في الحقيقة صريحاً وغير متحفظٍ في المواضيع كلها، فبعد انتهاء الاحتفالات في الفناء الداخلي في طريق العودة رافقته ومعنا حسين بك إلى النافورة، حيث تجمّع حولها الرجال والنساء يحملن المشاعل التي انعكست أشعتها الحمراء على المياه، و رافقنا العديد من الكهنة إلى المكان وغنّوا على ألحان آلاتهم الموسيقية من الناي والدُّفوف حتى لاح الفجر، الذي بدأ بالظهور قبل أن يمضي الحجاج إلى الراحة، وخيَّم الصمت على الوادي حتى منتصف النهار، حيث كانت جموع جديدة من المسافرين قد وصلت إلى المعبد وأيقظت مجدداً الأصداء بصرخاتها وعياراتها النارية، وتجمع ما يقارب السبعة آلاف من الحاضرين مساءً، كان قد تجاوز عدد ما كان يتواجد في المهرجان لسنوات عديدة انقضت، وابتهج الشيخ ناصر فرحاً بأوقات الرفاه والرخاء الذي نعم به شعبه. في كل ليلة تتكرر الاحتفالات وتخترق الأجواء ألحان جديدة، إلا أن الغناء دائماً ينتهي إلى الإثارة العنيفة ذاتها التي كنت قد وصفتها. مكثت مع الشيخ عدي خلال الأيام الثلاثة أتجوّل في الوادي والجبال المحيطة وقمت بزيارة مختلف فئات الحجاج، وبمحادثتهم بخصوص أماكن سكنهم، كما استمعت إلى حكاياتهم فيما يخصُّ القمع وإراقة الدماء، وكنت أتلقى من الجميع المجاملة والملاطفة، ولم يكن لدي أي سبب واضح للانطباع الحسن الذي تكوَّن لدي حقيقةً عن الإيزيديين. لم يكن هنالك مسيحيون أو مسلمون سوى من كانوا بصحبتي. ثمة امرأة فقيرة كانت ضيفة متميزة في مهرجانات الطوائف و تعيش معهم، ولكون النساء غير مقيدات بوجود الغرباء فقد كشفن النقاب دون حياء وهن يتجولنَ في الجبال، و تجمعت الفتيات

المبتهجات حولي عندما جلست تحت الشجرة، أخذن يتأملن ثيابي وملابسي ويطلبن مني أشياء بالنسبة لهن تُعتبر غريبة وجديدة، بعضهن كنَّ أكثر جرأة من أترابهن الأخريات، أتيننني بسلاسل الخرز والحجارة المنقوشة المعلقة على رقابهن وسمحنَ لي بالاطلاع والتمعن بالآثار الآشورية جميعها، في حين وقفت البقية الأكثر توجساً، لم يكنَّ غافلات عن التأثير والانطباع الذي ستحدثه مفاتنهن وقمن بنسج الزهور البرية ووضعها في شعرهن، وحول النافورات والقبر تجمع الرجال في مجموعات، وتبادلوا الأحاديث وتشاركوا البهجة دون وجود أثر لأي خلاف أو كلمات انفعال أو غضب يعكر صفو المناخ النفسي، ثم تتعالى أصوات الموسيقى وألحانها والأغنية من كل حدب وصوب فوق همهمة الأصوات، ويجلس الكهنة والشيوخ مع العائلات التي تجمعت تحت كل شجرة أو بين جموع الناس.
ثم أتيحت لي فرصة تمكنت فيها من التحدث مع الشيخ على انفراد بخصوص عقيدة طائفته، الملاحظات التي استطعت الحصول عليها في زيارتي للشيخ عدي اشتملت على تفاصيل خاصة، ولابدَّ من الاعتراف والتصريح بأن المعلومات التي حصلت عليها بغض النظر عن كونها كافية لإرضاء الفضول كانت من أفضل ما أمكنني الاطلاع عليه من أشخاص يعانون من الغرباء ويتوجسون منهم ويخشون فضح أسرار عقيدتهم وإيمانهم أمامهم. ومع ذلك فقد قدموا ما خلق لدي نظرة وانطباعاً عن أصل الإيزيديين ومعتقداتهم في أنها أفضل ما حصل عليه أيُّ مسافرٍ إليهم من قبل، وبعيداً عن كونها كانت غير كافية لإرضاء الفضول فهي في كثير من النواحي لم تكن مكتملة، لكنها أفضل ما أمكنني الحصول عليه من أشخاص يرتابون من الغرباء في أمر فَضح أسرار إيمانهم وعقيدتهم، ومع ذلك كله

فقد قدموا أفضل نظرة عن أصل الإيزيديين ومعتقداتهم يمكن أن يستحوذ عليها المسافرون من قبل.

اعتقادهم وخوفهم من مبدأ الشر

ويعترف الإيزيديون بكائن أعلى واحد و لا يؤدون أية صلاة مباشرة أو تضحية له، سعى الشيخ ناصر إلى التملص من تساؤلاتي حول هذا الموضوع وبدا عليه التوجس والريبة مع رهبة كبيرة، كل موضوع يتصل بوجود الإله وسماته، صور التعبير المشتركة لدى المسلمين كالآتي ـ نصف قسم ونصف هتاف، ومع ذلك فهي في كثير من الأحيان عالقة على أفواه الناس كعادة، إلا أنه لم تذكر أية إشارة إلى اسم روح الشرّ من قبل الآخرين تغيظهم وتثير غضبهم، ويقال إنهم كانوا قد أعدموا الأشخاص الذين استخدموا الاسم له وأثاروا سخطهم وانفعالهم عمداً، ولا يزال الخوف والحذر يتملكهم من الإساءة إلى رمز ومبدأ الشر الذي يحملونه، وأنهم يخرجون بعناية بكل تعبير قد يشبه في الصوت اسم إبليس، أو الكلمة العربية (الملعون) وعندما يتحدثون عن إبليس يفعلون ذلك مع التقديس، من مثل الملك الطاووس أو ملك الكون الملك القوي، اعترف الشيخ ناصر بوضوح بأنهم يمتلكون شكلاً برونزياً أو نحاسياً من طائر، إلا أنه كان حذراً في توضيح أنه كان ينظر إليه كرمزٍ فقط وليس بوصفه صنماً للعبادة ويبقى دائماً مع الشيخ العظيم ويحمله معه أينما يذهب في رحلته، وعندما يتم إرسال مندوبين لجمع المال لدعم القبر والكهنة إلى مسافات، يتم تزويدهم بصورة صغيرة عنه، والذي يعرض على أولئك الذين يقصدونهم كتخويل لمهمتهم و هذا الرمز يسمى الملك طاووس ويتم

حمله ونقله بتقديس وإجلال كبيرين، وقد سيطر الشك على المسافرين، إلا أن الشيخ ناصر اعترف بصراحة بذلك عندما سنحت لي الفرصة للتحدث معه على انفراد، اعتبرتُ أن الأمر قد وضع تماماً للراحة، وقد أكد حرس الضريح اعتراف الشيخ من خلال الإجابة عن السؤال الذي طرحته له في زيارتي الأولى عندما كان بعيداً تماماً عن حراسته.

لديهم اعتقاد أن إبليس هو رئيس مضيف الملائكة الممتحن الآن بالعقاب والجزاء الذي ناله من جراء تمرده على الإرادة الإلهية، ولكنه لا يزال يتمتع بالقوة، وستتم فيما بعد استعادته إلى مكانته العالية في التسلسل الهرمي السماوي، ويقولون إن استجداء رضاه وتبجيله واجب لأنه يمتلك الطاقة التي تمكنه من ارتكاب الشرِّ بحق البشرية، وأن سبعة ملائكة رئيسيين يمتلكون نفوذاً كبيراً على العالم وهم: " جبرائيل وميخائيل ورافائيل وعزرائيل ودردائيل وإسرافيل وشمكائيل" والمسيح بحسب اعتقادهم اتخذ شكل إنسان ولكنه لم يمت على الصليب، إنما صعد إلى السماء و يعتبر ملكاً عظيماً، لايزالون يحملون العهد القديم بتقديس كبير ويؤمنون بنشأة سفر التكوين والطوفان وبأحداث مدونة في الكتاب المقدس، وبالمقابل هم لا يرفضون العهد الجديد والقرآن، وإنما تقع هذه الأمور على درجة أقل تقديساً لديهم، وحتى الآن يختارون الممرات إلى مقابرهم وأماكنهم المَقدّسة من ذلك، ويمثل محمد نبياً بالنسبة إليهم [1] كما هو الأمر مع

(١) يعترف الايزيدية بجميع الأنبياء الصالحين للملل والأديان وهذا لا يعني انهم تابعين لهذا النبي أو ذاك ـ ختاري .

إبراهيم والبطاركة، حتى أنهم ينتظرون المجيء الثاني للسيد المسيح، وكذلك وظهور الإمام المهدي مجدداً كمصداقية لما يرويه المسلمون.

الأصل أجمل لطقوسهم

علمت أن قديسهم الكبير هو الشيخ عدي إلا أنني لم أتمكن من الإلمام بتفاصيل أخرى تتعلق به، حتى أنه لا يزال الشك قائماً في الحقبة التي وُجد فيها، لكن الشيخ ناصر كان قد أكد أنه عاش قبل محمد، وبحسب ما ورد عن جيهان نعمة أنه كان واحداً من الخلفاء المروانيين، وكان لديهم بعض التقاليد الحمقاء المرتبطة به المتعلقة بلقاءاته بالشخصيات السماوية، وما قام به من أعمال فذَّة كجعل الينابيع الموجودة الآن في الوادي تتدفق بالمياه. ووضع الدكتور الراحل غرانت احتمالاً فحواه أن يكون شيخ الإيزيديين عدي تلميذاً للمانيس، لكني لا أستطيع أن أتتبع النسب العبري الذي يمكن لي اكتشافه في هذا الرجل، وفي الطوائف الأخرى كلها، يوجد قبره في آشور من بئر زمزم في مكة المكرمة.

وفيما يخصُّ أصل التسمية فإن المسلمين يعيدونه إلى الخليفة الأموي الشهير يزيد[1]، الذي اضطهد وظلم عبر تاريخه الديني أسرة علي. وثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأنه يجب البحث والتحري عنه في مواضع أخرى، فقبل ظهور الإسلام كان لفترة طويلة متداولاً، لكن ليس منفصلاً عن التسمية الفارسية في وقت

(١) لكن الايزيدية مسماة على اسم اللّٰه (خودا ـ يزدان) سلتان ايزي بخۆبه دشايه، هه زار ئيك ناف لخۆدانايه، نافى مه زن هه ر خودايه ـ سلتان ايزي هو اللّٰه، له الف اسم واسم، الاسم الأكبر هو خودا، وليس للايزيدية علاقة مع يزيد بن معاوية الأموي ـ ختاري ـ

مبكر من الكائن الأعلى، هنالك إشكالية في نسب احتفالاتهم إلى مصدر معين فهم يُعمدون كالمسيحيين في الماء في غضون سبعة أيام بعد الولادة، والختان لديهم في العمر والطريقة ذاتها خاصَّة المسلمين، وأما الشمس فهي مقدسة عندهم، وثمة عادات مشتركة بينهم وبين الصابئة، وهذه المناسك والشعائر من المحتمل أن تعود إلى أصل مشترك، وقد تكون دمجت في أوقات مختلفة في عقيدتهم الأصلية، ولربما التمسوا عملية الختان لاجتناب كشف المسلمين المضطهِدين لهم، وإذا ما اختاروا مقاطع آيات القرآن لنحتها على قبورهم وأماكنهم المقدسة فإنما ذلك كما أوحى لي به الشيخ ناصر من بأنها تنسجم مع آرائهم، وكان من الطبيعي و الأكثر مناسبة باعتبار أن لديهم مشتركات مع الصابئة أكثر من أي ديانة أخرى أن تكون اللغة العربية هي اللغة المحكية.

سبق لي وأن أشرت إلى تقديسهم للشمس، وكانوا قد وصفوا المعبد والثيران المخصّصة لهذا الجرم السماوي [1] واعتادوا على تقبيل الأشياء التي تقع عليها

---

(١) يجب أن أشير إلى أنه على الرغم من أن النقوش، في الحرم الموصوف، كانت كلها موجهة إلى الشيخ شمس وأن كلاً من الشيخ ناصر والكهنة قد أكد لي أنه كان مخصصاً للشمس، فمن الممكن فقط أنه تحت عنوان الشيخ شمس، بعض الأشياء الأخرى غير الشمس أو شخص ما محدد هو المعين، وأن المخبرين كانوا غير راغبين في الدخول في أية تفسيرات، نينوى وآثارها ص ٢٠٩.

(١) يبدو أن الطوائف الشرقية جميعها كانت لها قبلة، أو نقطة مُقدّسة، تتوجه إليها أثناء الصلاة فاليهود، يتوجهون نحو القدس، والصابئة وفق البعض، إلى النجم الشمالي، أو وفق الآخرين نحو ذلك الجزء من السماوات الذي تشرق منه الشمس، اختار المسيحيون الأوائل الشرق، ومحمد الذي اعترف بالعرف العام وجد أنه من الضروري التمسك به و عين الكعبة المقدسة من المكة المكرمة لتكون قبلة له ولأتباعه، نينوى وآثارها ص ٢٠٩

خيوط أشعة الشمس الأولى، وهذا ما لمسته مراراً خلال أسفاري برفقتهم وتأديتهم لتلك المناسك عند سطوع الشمس. وفيما يخصُّ النار فهي رمز يتم تقديسه أيضاً فهم لا يبصقون عليها مطلقاً وإنما يمررون أيديهم خلال اللهب ويقبلونها ويمسحون على حاجبهم الأيمن ووجههم بأكمله أحياناً. وشأن اللون الأزرق لديهم شأنه لدى الصابئة فهو رجس لا يُحلل ارتداؤه لباساً أو استخدامه في منازلهم، وأما قبلتهم أو المكان الذي ينظرون إليه أثناء قيامهم بطقوسهم المقدسة فإنه ذلك الجزء من السماوات التي تشرق منها الشمس، ويحولون نحوها وجوه موتاهم.[1] وبالنسبة للكتان الأبيض فهو شغفهم، ونظافتهم من العادات والوضوء المتكرر هاجسهم، وفي ذلك تجدهم يشبهون الصابئة.

* الخس[2] والبامية[3] وبعض الخضراوات الأخرى محرمة لا تؤكل مطلقاً من قبلهم ويعتبر لحم الخنزير لديهم غير شرعيٍّ، ويؤكدون على أن اللحوم يجب ألا تؤكل إلا في حال تم ذبح الحيوان وفق شريعة موسى والشريعة الإسلامية، النبيذ يشربه

---

(١) يبدو أن الطوائف الشرقية جميعها كانت لها قبلة، أو نقطة مُقدّسة، تتوجه إليها أثناء الصلاة فاليهود، يتوجهون نحو القدس، والصابئة وفق البعض، إلى النجم الشمالي، أو وفق الآخرين نحو ذلك الجزء من السماوات الذي تشرق منه الشمس، اختار المسيحيون الأوائل الشرق، ومحمد الذي اعترف بالعرف العام وجد أنه من الضروري التمسك به و عين الكعبة المقدسة من المكة المكرمة لتكون قبلة له ولأتباعه، نينوى وآثارها ص ٢٠٩

(٢) سبب حرم الخس هي اعتقاد اجتماعي متداول وليس اعتقاد وأن هذه المادة تنمو على الفضلات وتبقى ذرات هذه الفضلات متماسكة مع الأوراق وخاصة الأماكن اللزجة إذ لا يمكن إزالتها بالماء فقط وحالياً توجد مسحوقات كيمياوية تستعمل للغسيل فتنظف.

(٣) البامية من المؤكولات المفضلة لدى الإيزيدية، بالنسبه الى الذبح فان الايزيديين يذكرون اسم اللّٰه قبل ذبح الحيوان وهو مشابة ما عند المسلمين.)

الجميع ولا يعترضون على المشاركة في طعام المسيحيين. وثمة احتفالات دينية عند الزواج لم أكن أسمع بها أو فيما يخص الزواج وعدد الزوجات المحدد فقد كنت قد أطلعت على ذلك من الكهنة إذ يقوم الرجال والنساء بتقديم أنفسهم للشيخ، الذي في حال تأكد من حسن الانسجام والتوافق المتبادل أعطى حلقة للعروس، أو المال في بعض الأحيان ويحدد يوماً للفرح. ويشربون العصائر ويرقصون ويبتهجون، إلا أنه لا مناسك دينية تبدأ منها سنتهم مع سنة المسيحيين الشرقيين الذين يتبعونها في ترتيب وأسماء أشهرهم، يصوم بعضهم ثلاثة أيام في بداية السنة لكن ذلك لا يُعتبر أمراً هاماً، لا تقيُّد لديهم برمضان المسلمين، والأربعاء هو يوم عطلتهم، وعلى الرغم من أن بعضهم يصوم دائماً في ذلك اليوم، لكنهم يستمرون في العمل فيه دونما توقف شأنهم في ذلك شأن المسيحيين في يوم الأحد.

كان الشيخ ناصر قد أخبرني بأن لديهم تاريخاً خاصاً بهم، ويعتقد وفق حسابهم أن عام ١٥٥٠ يوحي ببعض الصلة والتواصل مع أرواح الأجداد، ولكن لا يمكنني من خلال أسئلة مباشرة أو غير مباشرة أن أتأكد من أنهم كانوا على دراية بالاسم، أو أنهم قد اعترفوا به في أي حال بوصفه المؤسس لمذاهبهم الخاصة فيما يتعلق بمبدأ الشر. رأيت أسماءهم ذكوراً وإناثاً تلك التي يتسمى بها المسلمون والمسيحيون أو الأسماء الشائعة بين الأكراد، وليست بدقة تنحدر عن أصل مسلم، وأعتقد أن اسم جورجس (جورج) اسم بغيض لديهم[1] لم يسبق وأن أطلق على إيزيدي من قبل. لديهم أربع درجات كهنوتية هي البير والشيوخ والدعاة والفقراء، ومن الملحوظ وحسبما أعتقد أنه ما مِن مثيل لهذه المناصب الوراثية في مناطق الشرق، فهي

(١) حينما لا يُسمَّى باسم ما فهذا لا يعني أن هذا الاسم بغيض

تنحدر إلى الإناث اللواتي عند استحواذهن عليها يتمتعن بمعاملة من الاحترام والتقدير والاهتمام ذاته مما عند الرجال. الأكثر تقديساً هم الشيخ الكبير أي الرئيس الديني للديانة والبير، وثمة اعتقاد بأن زمام السلطة في أيديهم ليس في التشفع للشعب فحسب، وإنما في علاج حالات الجنون والمرض. وهم غير ملزمين بأي زيٍّ محدد من اللباس، كان القديس الوحيد الذي عرفته هو أحد الصينيين الذي اعتُرف به نائباً للشيخ ناصر وعانى في السجن بدلاً منه في المرتبة التالية، وهم على دراية و إلمام بالترانيم ومن المفترض أن يعرفوا شيئاً من اللغة العربية التي دونت بها تلك التراتيل، يجب أن تكون ثيابهم بيضاء تماماً باستثناء قبعة الرأس السوداء تحت عمائمهم، فهم خدم الشيخ عدي وحُرّاس قبره الذين يحافظون على استمرار النار المقدسة مشتعلة و يقومون بتقديم المَؤنَ والوقود لمن يسكنون في المناطق المحيطة بها وللحجاج المتميزين، و يرتدون دائماً حزاماً منقوشاً باللونين الأحمر والأصفر حول أجسادهم أو الأحمر والبرتقالي، كعلامة لدائرتهم، ويربطون معها الخشب واللوازم الأخرى التي يؤتى بها إلى الصّرح المقدس، النساء يحملن الشارة نفسها ويؤدين الخدمات ذاته.، ثمة عديد من الشيوخ تجدهم يقيمون في وادي الشيخ عدي يقومون بالإشراف على القبر وباستقبال القادمين من الحجاج، وعلى عاتقهم تقع المسؤولية في تناوب العروض التي يتم تقديمها، أو بيع كرات الطين وغيرها من الآثار، حسبما يبدو، أكثر أعضاء الكَهَنُوت نشاطاً القوال أو الدّعاة، إذ يتم إرسالهم من قبل الشيخ ناصر في بعثات، وتكليفهم بالذهاب من قرية إلى أخرى باعتبارهم معلمي المذاهب والديانة، هم وحدهم الفنانون على النَّاي والدَّف و كلتا الآلتين تعتبران إلى حد ما مقدستين، لفت نظري أنهم قبل

وبعد استخدام الدَّف يقومون بتقبيله في أحيان كثيرة، ومن ثم يعطونه لمن يجلسون قربهم منهم كمقابلة تحية بالمثل، في سن مبكرة يتم تعليمهم الغناء، هم موسيقيون بارعون ماهرون، و في المهرجانات يرقصون أيضاً، لديهم اطلاع إلى حد ما ومعرفة باللغة العربية، بالعموم لباسهم أبيض في حين أن المواد الملونة ليست محظورة عليهم، عمائمهم سوداء و قبّعات الرأس أيضاً بخلاف نظيراتها مما يرتديها الشيوخ.

الدرجة الأدنى في الكهنوت هم الفقراء، يرتدون الثياب الخشنة من القماش الأسود أو البني الداكن أو قماش القنب الذي ينحدر إلى الركبة وينسجم مع الشخص والعمامة السوداء التي تم ربط منديل أحمر حولها أو فوقها، يقومون بتأدية الواجبات الخدمية المرتبطة بالضريح كلها، وبإنارة المصابيح النذرية ومسؤولية الحفاظ على نظافة المباني المقدسة تقع على عاتقهم.

اختيارهم للمرجع الديني

لكل قبيلة ومنطقة من الإيزيديين زعيم خاص بها، ويعتبر الشيخ ناصر الزعيم الديني للديانة بأكملها، والتعامل معه يكون في إطار التقديس والتقدير، فمنصبه وراثي، إلا أن الإيزيديين كثيراً ما يقع اختيارهم دون الإشارة إلى الأولوية بالمطالبة بواحدٍ من بين أحفاد الشيخ الأخير الأكثر استحقاقاً بعلمه وشخصيته، ليخلفه، ووالد الشيخ ناصر كان يشغل المنصب لسنوات عديدة، ولم يكن هنالك مِن جديرٍ أكثر منه استحقاقاً لشغل المنصب.

اللهجة المتداولة عموماً بين جميع الإيزيديين هي الكردية، وعدد قليل جداً منهم على دراية بالعربية[1]، ما خلا الشيوخ والدعاة، والترانيم والتراتيل هي الصورة الوحيدة لأداء الصلاة، والتي حسبما بدت لي ما هي عليه لديهم أنها كانت *باللغة العربية، و لديهم كتاب مقدس كما أعتقد ويتضمن تقاليدهم وتراتيلهم واتجاهاتهم لأداء طقوسهم وشعائرهم وغيرها مما يتعلق بدينهم من مسائل وقضايا، يُحتفظ به ويُصان في بحزاني أو بعشيقة، ويولى له الكثير من التقديس والتبجيل الخارق ، بحيث أني لم أنجح في كل مسعى ودأب بالحصول على نسخة واحدة منه وحتى رؤيتها والاطلاع عليها، الأمر الذي يدعوني للأسف لأنه المحتوى الذي يسلط بعض الأضواء على الأصل والتاريخ الذي تنحدر عنه تلك الديانة الرائعة، فيتلاشى الكثير من الشكوك المتربصة بمعتقداتها، وتعتبر القراءة والكتابة أمراً غير مشروع أو مجازٍ لأحد سوى لاثنين من بين الإيزيديين ممن يُتاح لهما العرف بها ومزاولتها لغاية المحافظة على الكتاب المقدس و الإشارة إليه في مذاهب الديانة وطقوسها، وحتى الشيخ ناصر لم يكن لديه الإلمام والدراية بالأبجدية.

والشائع لدى الإيزيديين أنهم قد قدموا من البصرة، من البلدة التي يرويها الجزء الأسفل من الفرات، وأنهم في بادئ هجرتهم كانوا قد استوطنوا في سوريا، ثم بسطوا وجودهم على جبل سنجار، وشغلوا في كردستان المناطق التي لا يزالون يسكنونها حتى اليوم. وهذا التقليد مع طبيعة معتقداتهم ومناسكهم الخاصة

(١) هناك بعض الأقوال باللغة العربية ماعداها فان اغلب الأدب الشفاهي عند الايزيديين هو باللغة الكوردية.

يحمل إشارة تعود إلى أصل صابئي أو كلداني، مع عدم توفر المعلومات الكافية لما يتعلق بتاريخها ولا يخفي ما للجيل السائد بين الجماعة نفسها، حتى أن ظناً يساورني من أنه حتى الكهنة والشيخ ناصر ليس لديهم صورة جلية واضحة المعالم حول أشكالهم الدينية وما يعترفون به.

أصل الايزيدية

التوصل إلى استنتاج يرتبط بمصدر طقوسهم وأفكارهم الخاصة شائك، إذ يشكلون مزيجاً غريباً من الصابئة والمسيحية والإسلام، مع اتشاحها بصبغة من مذاهب الغنوصيين والمانشائيين . على أية حال يبدو أن الصابئية هي السمة السابغة، إذ أنه من غير المحتمل أن تكون هذه الديانة بقايا الكلدانيين القدماء الذين في أوقات متفرقة كانوا قد اتخذوا شكلياً صورَ ومعتقداتِ الشعب الحاكم لردِّ الظلم والاضطهاد عن أنفسهم وبالجهل وطريقة العبادة بشكل تدريجي قد أقحموا أنفسهم ووجودهم. كحال طائفة "مسيحييّ القديس يوحنا بحسب ما يُطلق عليهم الآن" المقيمة حتى اليوم في ضفاف نهر الفرات ومناطق سوزيانا القديمة" والتي لا تقع على قدر من الأهمية أدنى من الصابئيين أو المندائيين.

ويُعرف الإيزيديون بحسب المنطقة والقبيلة التي ينتمون إليها، وأما أولئك الذين تُطلق عليهم تسمية، داسني أو داسيني فهم من يستوطنون في البلاد قرب سفح التلال الكردية، والمرجَّح أن التسمية تعود إلى الاسم القديم للمنطقة، في شمال سوريا وشمال كردستان في بوهتان وشيخان وميسوري وفي السهول ثمة

قبائل إيزيدية تشغل مناطق تواجدها فيها، أما قرى بحزاني وبعشيقة وسميل فتمثل المستوطنات الرئيسة لهم.

العودة إلى الموصل

أمضيت ثلاثة أيام مع الإيزيديين في لالش عند مزار الشيخ آدي كشخص غريب متواجد بينهم، شهدت فيها طقوس ومناسك الاحتفالات، ثم هممت بالاستعداد للعودة إلى الموصل، وكان الشيخ ناصر وحسين بك والشيوخ الرئيسيون والدعاة قد أصروا على مرافقتي لما يقارب الثلاثة أميال وصولاً إلى أسفل الوادي، وكنت قد آثرت ذلك الطريق الوعر فوق الجبال بعد أن انفصلنا وافترقنا، وكان على الزعماء أن يعودوا إلى الضريح لإنهاء مهرجانهم واحتفالاتهم. اتخذت طريقي المتجه نحو قرية عين سيفني وقام الشيخ ناصر قبل مغادرتي بوضع مغلف في يدي فيه رسالة لسكان سنجار كان سكرتيره قد كتبها، حيث أني كنت قد أخبرته مسبقاً بزيارة تلك المنطقة برفقة الباشا ووعدني بتزويدي بأحد الدعاة لمرافقتي وتهيئة استقبال أكثر حفاوة ووداً في القرى، إذ ينتظر الكاهن انقضاء العيد ليعود إلى الموصل لملازمتي.

رسالة الشيخ ناصر

كانت الوثيقة غريبة تماماً وجديدة ولكونها جاءت من الشيخ الإيزيدي، فإنها تستحق الترجمة، وقد صيغت بالعبارات الآتية : السلام دائماً على أصدقائنا الكرام والممتازين، وإلى سكان البكرة وإلى عيسى (يسوع) أوسو، وإلى غرّة

وحسن الفقير وإلى كل أولئك الذين هم من القرية كباراً وشباباً، السلام أيضاً على سكان ميركان وعلى وخلتو وعلى داود ابن أفضول، وجميع سكان القرية كباراً وصغاراً السلام أيضاً على سكان أصافة وإلى كولو والشيخ علي وإلى الجميع، كباراً وصغاراً، السلام أيضاً على قبيلة دنا وإلى مراد وإلى الكبار والصغار، السلام أيضاً على سكان عمرة وإلى تركارتو وإلى قاسم آغا وإلى الجميع كباراً وصغاراً، السلام أيضاً على سكان عشيرة السموقية والقيرانية كباراً وصغاراً، السلام أيضاً على فقراء زرو، الذين يسكنون في كولكاه، السلام أيضاً على سكان بلدة سنجار، كباراً وصغاراً، السلام أيضاً على سكان جبل سنجار، كباراً وصغاراً عسى اللّٰه العظيم أن يحرسكم جميعاً، آمين، نحن لا ننسى أبداً في صلواتنا الإمام الشيخ عدي، أعظم من جميع الشيوخ وجميع الخاصين " عقولنا دائماً معكم، وأنتم في أذهاننا ليلاً ونهاراً، إن صديقاً حبيباً لنا على وشك زيارتكم، وأرسلنا معه داعيتنا، مراد، لكي يتسنَّى لكم أن تعاملوه بكل لطف واحترام، وإنكم باستقباله كأنما تستقبلونني، وإذا كنتم فعلتم الشرَّ له فإنكم تفعلونه ضدي، وبما أنكم من أبناء الطاعة والمؤمنين للشيخ آدي، زعيم جميع الشيوخ، لا تتجاهلوا أوامرنا هذه وعسى اللّٰه الأعلى أن يحرسَكم دائماً .الشفيع لكم الشيخ ناصر، الزعيم " ١٨ـ تشرين الأول ١٨٤٦م [١]

(١) المكتبة البريطانية " أوراق لايارد " المخطوطة ٣٩٠٥٥ تضم أصل رسالة الشيخ ناصر في ١٨ تشرين الأول ١٨٤٦ إلى زعماء سنجار مع ترجمة لها، راجع أيضاً لايارد " نينوى وآثارها " ج ١، ص٢١٤،

المهرجان في لالش والترنيمة المقدَّسة للشيخ عدي [1]

جاء لايارد إلى باعذرة، مقر إقامة الأمير الإيزيدي حسين بيك، ومن ثم توجه إلى معبد لالش برفقة الامير وقوال يوسف يحرسهم فرسان من الإيزيدية، نقل قوال يوسف لايارد إلى غرفة تجمع فيها كبار الشخصيات الإيزيدية، ثم قام كل لايارد وقوال يوسف بتقديم وصف كامل لما حدث في إسطنبول أثناء رحلتهما.

موقف في إسطنبول أثناء رحلتهما

تم تناول القضايا الاجتماعية في المجلس وطَلبت الإصلاحات اللازمة، بعد الإجراءات الرسمية، ذهب الحاضرون إلى الفناء للمشاركة في الحفل، كان هناك الكثير من الرقص، عزف القوالون على آلاتهم وترنموا بالتراتيل.

يصف لايارد هذا المساء باختصار: "لقد أخذ الزعيم الشاب الجزء الأكثر حيوية من النكت، كان هناك ضحك عام في الوادي، وسوف يتذكر الإيزيدي هذه الأيام من الفرح والسعادة".

يكتب أيضاً بسخرية عن فكاهة قوال يوسف: "أراد يوسف أن يبيّن كيف تم تكريم السيدات الأوربيات اللائي رأينهن في القسطنطينية، وقاد زوجته الشابة وراء أذرعنا كثيراً لتسلية الحاضرين كلهم".

لاحظ لايارد أن الحراس كانوا يقرؤون الشعر الديني وطلبوا المزيد من المعلومات حول الحادث، وعده قوال يوسف بتسليم أحد نصوصها المقدسة، في

---

(١) وهو الشيخ الجليل بن مسافر الهكاري المتوفي سنة ١٠٧٠م (٥٥٧هـ) في عمر ناهز التسعين من عمره.

صباح أحد الأيام، سلم لايارد مخطوطة تتألف من عدة صفحات تحتوي على تأبين عربي تكريماً للشيخ عدي، كانت هذه هي المرة الأولى التي يمنح فيها يزيدي الغربا ء حق الوصول إلى هذا النص، تمت ترجمة النص بواسطة لايارد إلى اللغة الإنجليزية وما زال أساساً لبحوث الإيزيدية.

تلا قوال يوسف عدة تراتيل مقدسة للايارد وشرح أن الإيزيدية امتلكوا العديد من هذه الكتابات قبل أن يحرق أكراد راوندوز بعض هذه الكتب المقدسة خلال مذبحة محمد الأعور في شيخان.

ترنيمة الشيخ آدي

لِيَسُدِ السلام عليكم
قدرتي على الفهم تحيط بحقيقة الأشياء
وحقيقتي أنا تختلط بي
وحقيقة نسبي واضحة من نفسها
وعندما عُرفت كانت كلها في
جميع الذين في الكون هم تحت سلطاني
وكل الأماكن المسكونة والصحارى
وكل شيء خُلِقَ هو تحت سطوتي
وأنا القوة التي تحكم سابقة لكل وجود
وأنا هو الذي تكلمت الحقيقة
وأنا الحاكم العادل، وسلطان الأرض
وأنا هو الذي يعبده الرجال في مجدي
يأتون إلي ويقبلون أقدامي
وأنا هو الذي منحتُ السموات عُلوها ،
وأنا الذي أطلقت الصرخة في البدء
وأنا الشيخ الوحيد الأوحد
وأنا هو الذي يكشف عن نفسي كل شيء

وأنا هو الذي أتاه كتاب الأنباء السعيدة

من إلهي الذي يحرق الجبال

وأنا هو الذي يقصده كل الرجال المخلوقين

في طاعة وخشوع لتقبيل أقدامي

أجلب الثمار من أول عصير الشباب المبكر

إلى حضوري وأحول نحوي حواريي

وأمام ضيائه يتلاشى ظلام الصباح ويتبدد

أرشد من يسأل التوجيه

وأنا هو الذي تسبب في عيش آدم بالجنة

ونمرود ليعيش في نار محرقة متأججة

وأنا هو الذي أرشد أحمد نحو العدل

وقدته نحو ممري وطريقي

وأنا هو الذي تقصده كل المخلوقات

وذلك لأغراضي النبيلة ومواهبي

وأنا هو الذي زار كل الأعالي

والخير والإصلاح تنبثق من رحمتي

وأنا هو الذي جعل كل القلوب تخشى

مقصدي، هم يسبحون بحمد قوتي وسلطاني المروع

أنا هو الذي قصده الأسد الكاسر

غاضباً ، فصرخت فيه وتحول إلى حجر

أنا هو الذي قصده الأفعى، وبإرادتي حولتها إلى ثرى
وأنا هو الذي ضربت الصخرة وجعلتها ترتعش
وجعلت تتدفق من جانبها أحلى المياه
وأنا هو الذي أرسل إلى الأرض حقيقة معينة
من لدني هو الكتاب الذي يجلب الراحة للضعفاء
وأنا هو الذي حكم بالعدل، وعندما حكمت كان ذلك حقي
وأنا هو الذي جعل الينابيع تمنح المياه
أكثر حلاوة ولطافة من كل المياه
وأنا هو الذي سبب لها أن تطهر في رحمتي
وبسلطاني سميتها الطاهرة
وأنا هو الذي خاطبه رب السماء قائلاً:
أنت حاكم عادل وسلطان الأرض
وأنا هو الذي كشفت عن بعض أعاجيبي
وبعض فضائلي ظاهرة في تلك الموجودة
وأنا هو الذي جعل الجبال تنحني، لتتحرك تحتي وبمشيئتي
وأنا هو الذي أمام سلطانه المروع تصرخ البهائم البرية
فتحولوا إلي خاشعين عابدين، يقبلون أقدامي
وأنا آدي الشامي (الدمشقي) ابن مسافر
يقيناً أن الرحمن منحني ألقاباً
العرش السماوي، والمقعد، والسموات السبع والأرض

في سر معرفتي لا إله إلا أنا ، هذه الأشياء خاضعة لسلطاني

وبأية حالة تنكرون هدايتي

أوه أيها الرجال ! لا تنكروني بل أخضعوا لمشيئتي

الذي يموت في حبي سوف ألقيه في وسط الجنة بمشيئتي ورغبتي

ولكن الذي يموت متنكراً لي، سوف يلقى فيَّ العذاب والبؤس والتعاسة

أنا أقول أنا الأوحد وأنا الأعلى، أخلق وأغني من أشاء

الشناء لي، وكل الأشياء التي شئتها

والكون مضاء ببعض مواهبي وقدراتي

أنا الملك الذي يسبح نفسه، وكل ثراء الخلق تحت سلطاني

لقد جعلتكم تعرفون أيها الناس بعض طرائقي

الذي يعمل بمشيئتي عليه نسيان العالم

والحديقة في العُلا لأولئك الذين يبهجوني

بحثت عن الحقيقة، وأصبحت الحقيقة الصادقة

وبمثل هذه الحقيقة سوف يملكون المكان الأعلى مثلي [1]

---

(١) جون س كيست، ص ٤٥٥-٤٥٨

رحلة استكشافية في شنكال

قرر لايارد القيام برحلة استكشافية إلى شنكال[1] في ربيع عام ١٨٥٠ م ، قبل أربع سنوات، قام بالفعل بهذه المحاولة، لكنه اضطر إلى التخلي عن هذا المشروع لأن الإيزيدية في شنكال كانوا في حرب مفتوحة ضد حاكم الموصل.

رافق لايارد قوال يوسف وثلاثة آخرون من الإيزيدية، في قرية ميهركان، التي قاتلت حاكم الموصل قبل أربع سنوات بنجاح وهزمت قواته، علموا أن سكان ميهركان كانوا في نزاع مع قرية بكرا الإيزيدية، حاول قوال يوسف تسوية الخلافات مع لايارد، تمكنوا من إقناع عيسى آغا، رئيس ميهركان، بالوصول إلى المصالحة في بكرا. في الليل، وصلوا إلى قرية (بكرا) [2]ورحب السكان بحرارة بضيوفهم، كتب لايارد قائلاً: "كان أفضل منزل في القرية قد تم إعداده لنا، والذي كان على غرار منازل الإيزيدية نظيفاً إلى أعلى درجة."

أظهر شيوخ القرية أيضاً كرماً عظيماً لعيسى آغا ولمحُوا إلى أنهم مستعدون للمصالحة، على الرغم من الخلاف والمشاجرة السابقة، استخدم قوال يوسف و لايارد الآن هذا المثال للتوفيق بنجاح بين قرى الإيزيديين المعادية، في قرية الدينا، قابلوا مراد، الذي تمكن لايارد من أن يطلق سراحه من الموصل قبل أربع سنوات، كما زاروا قبر والد قوال يوسف بالقرب من القرية.

---

(١) شنكال مركز قضاء تابع لمحافظة نينوى وتبعد عن الموصل ١٥٠ كم غرباً وكانت المدينة وجبالها تتعرض للهجمات العثمانية باستمرار

(٢) قرية بكرا تقع شرق مركز ناحية الشمال (سنوني) مسافة ٧٠كم.

It was night before we reached Bukra, where we were welcomed with great hospitality. The best house in the village had been made ready for us, and was scrupulously neat and clean, as the houses of the Yezidis usually are. It was curiously built, being divided into three principal rooms, opening one into the other. They were separated by a wall about six feet high, upon which were placed wooden pillars supporting the ceiling. The roof rested on trunks of trees, raised on rude stone pedestals at regular intervals in the centre chamber, which was open on one side to the air, like a Persian Iwan. The sides of the rooms were honeycombed with small recesses like pigeon-holes, tastefully arranged. The whole was plastered with the whitest plaster, fancy designs in bright red being introduced here and there, and giving the interior of the house a very original appearance.

Interior of a Yezidi House at Bukra, in the Sinjar.

منزل الايزيدية في قرية بَكرا (شنكال)، ١٨٥٠ م، من كتاب لايارد، نينوى وبابل

كان الإيزيديون في حالة حرب مع والي الموصل لأنهم رفضوا دفع الضرائب، وكانت هنالك أيضاً حرب مع قبيلة شمر العربية، مع الوسطاء من كلا المعسكرين، يمكن التوصل إلى اتفاق بين الإيزيدية وقبيلة شمر على عدم مهاجمة بعضهم البعض في المستقبل، بالإضافة إلى ذلك، تم تنظيم كيفية دفع القرى للضرائب بشكل مشترك، قدم السكان الإيزيديون لقوال يوسف أموالهم الخاصة كدعم، وكانوا ممتنين للغاية لكاهنهم، قال لايارد: "سلمته رسائل إلى السلطات في الموصل، وأوصيت بما يتضمنه هذا الاتفاق باعتباره مفيداً مناسباً لهدوء الجبال، كميزة لكنز باشا، أصبح قوال يوسف، في الواقع مستأجراً للعائدات التي دفع لها أكثر من ٣٥٠ جنيهاً إسترلينياً، كان سكان سنجار سعداء جداً بهذا النية لأحد إخوانهم المؤمنين، لقد أصبحوا في حماس واندفاع لزراعة التربة وامتنعوا عن شن الهجمات المتبادلة".

بعد ذلك، تفرقت طرق لايارد وقوال يوسف، واصل لايارد حفرياته وأبحاثه وعمل لاحقًا في السفارة البريطانية في إسطنبول، قام قوال يوسف بواجباته الدينية كرئيس للقوالين حتى وفاته.

المغادرة من شيخان إلى سنجار

كانت قرية عين سفني مهجورة تقريباً، إذ هاجر سكانها خلال المهرجان إلى وادي الشيخ عدي، وحفزت الخيول ووصلت إلى الموصل في وقت مبكر بعد الظهر، كان طاهر باشا يُخطط بعض الوقت لرحلة استكشافية إلى سنجار دون أي قصد عدائي فقط لغرض دراسة حالة البلاد، التي دمرتها عمليات الابتزاز

المقصودة وقسوة حاكم الموصل الراحل بلا مبرر، وقد سبق له أن أرسل ممثلاً عنه للتحقيق في أحوال القرى، وعاد معه بعض السكان لتقديم التماس لتخفيض الضرائب التي جعلتهم الدولة في حال لا يقتدرون فيه على الدفع.

تم الانتهاء من ترتيبات فخامته، بعد تأخيرات عديدة، في الثامن من شهر تشرين الأول، في الساعة الثالثة من ذلك اليوم أعلن أن تكون ساعة محظوظة لمغادرة المدينة، تجمع السكان الرئيسيون مع القاضي والمفتي على رأسهم في ساحة كبيرة قبالة القصر على بعد مسافة من البوابات وكانوا على استعداد لمرافقة الباشا، كإشارة إلى التقدير والاحترام،، وتوجهت بصعوبة في طريقي إلى شقق الحاكم، من خلال حشد من القوات غير النظامية والخدم الذين احتشدوا في فناء السراي، وفي الأعلى كانت هناك فوضى لا تقل عما كانت عليه في الأسفل، فالحاضرون لدى فخامته لم ينفكوا عن الحركة والسرعة جيئة وذهاباً، يحملون مجموعة متنوعة من الأواني والأجهزة، ومنهم من يحمل التلسكوبات العملاقة أو أطباقاً ضخمة في حقائب جلدية، والبعض الآخر يعمل تحت حُزم من القضبان المَجوّفة، ومنهم من حنت أكياس القماش المملوءة بوثائق الدولة ظهره، وكان الكيايا ذو الرأس الرمادي قد أدخل قدميه في زوج من الأحذية الواسعة، تاركاً مجالاً كافياً تقريباً لأي عدد من الدخلاء، وحول طربوشه وفي الجزء السفلي من وجهه المجروح طيّاتٌ لا نهاية لها من الكتان الأبيض، الذي أعطاه إياها مظهر المريض الخارج من المستشفى، وكان يحمل الفراء والعباءات الكافية لتجنب برودة المنطقة المَتجمدة، وعلى الرغم من كون ديفان إفنديسي كاتباً فقد كان يتبخر ويتجول بالسيف والمهمّاز، ويتبعه رجال الدين وحاملو المحبرة، في باب الحريم

انتظرت مجموعة من الآغوات، من بينهم مالك المنشفة، ومالك حوض الغسيل، ومالك العباءة ورئيس صانعي القهوة، ورئيس حاملي الأنابيب، وأمين الصندوق، وحامل الختم، " ووصل الباشا حالاً فحثَّت الشرطة الحشدَ على الخروج من الطريق، وعندما وضع فخامته قَدَمَهُ في الركاب، أطلقت الأبواق صوتاً كدليل على تحرك الموكب إلى الأمام، تقدم فوج المشاة أولاً، وتلته سريّة من رجال المدفعية مع مدافعهم، وتبعهم عازفو البوق ولواء الباشا الخاص وكردوس يحملون الأقمشة الحريرية الخضراء المَطرّزة بالذهب مع آيات من القرآن الكريم، وخلفها ستة خيول عربية ذات سروج مكسوة بغطاء مُرَزش مطرز بالذهب وبألوان جميلة. ثم ظهر الباشا يحيط به رؤساء البلدة وضباط أسرته، وهكذا تمت إجراءات الموكب من قبل قوات الفرسان غير النظامية التي كانت مُقسّمة إلى سرايا، يرأس كل منها قائدها الخاص وحاشية مفعمة بالحماس بالإضافة إلى طبلات صغيرة كانت مثبتة أمام شروجهم، كان يرافقني ضابط شرطتي وخدّمي، وركبت على أفضل حال وفي محطات مختلفة من الموكب قاموا بتسليتي. وصلنا إلى حميدات، وهي قرية مُدمّرة على ضفاف نهر دجلة، دام مسير القافلة من الموصل ثلاث ساعات عند غروب الشمس، وبذلك كان لدينا أول البراهين على ترتيب المفوضية، إذ لم يعد بحوزتنا طعام لنا ولخيولنا فمضينا جميعاً إلى الأسرَّة دون عَشاء. وفي اليوم التالي، وبعد رحلة من ست ساعات عبرنا سهلاً أجرد غير مأهول، تحيط به من جهتي الشرق والغرب سلسلة تلول منخفضة من الحجر الكلسي، وصلنا إلى قرية مُدمّرة مبنية على قمة تل اصطناعي قديم، وتسمى أبو ماريا.

قرية "أبو ماريا [1] " - تلعفر

كان من المعروف أن عشيرة عنزة العربية كانت خارجة إلى هذا الجانب من الفرات، وخلال مسيرتنا لاحظنا العديد من حُرّاسهم الكشافة يراقبون تَحرّكاتنا، وكثيراً ما هرع الفرسان غير النظاميين في مطاردتهم، ولكنّ الفرسان العرب حاولوا توجيه قافلتهم وخيولهم نحو الصحراء، وسرعان ما توّارَوا عن الأنظار، مررنا بأطلال ثلاث قرى، وأصبح السهل الذي المأهول بكثافة مهجوراً الآن، امتلأت الآبار التي كانت غزيرة في السابق، وفي الربيع، غالباً ما تُخيمُ قبيلة الجحيش العربية بالقرب من برك المياه التي تغذيها الأمطار، وتثبت بقايا الأبنية وآثار الزراعة السابقة أنه في بعض الفترات غير النائية جداً سكن آخرون من غير البدو المَتجولين في هذه الأراضي، في حين أنّ التلال الاصطناعية، المنتشرة على وجه البلاد كانت واحدة من الأحياء المزدهرة منذ آشور القديمة، وتبيّن أنه لفترة طويلة قبل الغزو الإسلامي كان يتدفق أحد الينابيع الغزيرة من سفح تل "أبو ماريا"، وتتجمّعُ المياه في أحواض كبيرة جيدة البناء، وبالقرب منها مطحنة لكنها الآن في حالة خراب و تحَولت سابقاً من جرّاء التيار بضعة ياردات عن مكانها، إن مثل إمدادات المياه الوفيرة هذه على الرغم من ملوحة مذاقها يجب أن تكون دائماً قد جذبت السكان في بلد من حيث أنها نادرة. تعود القرية التي هجرت بسبب اضطهاد محمد باشا إلى الجحيش، وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الأسفل على مجرى التيار الذي يتفرّغ من ينابيع "أبو ماريا"، حصن من الطين

---

(١) قرية ماريا تابعة لقضاء تلعفر تسكنها التركمان حالياً وتبعد عن الموصل بمسافة ١٠٠كم غرباً تقريباً، لقد زرتها لمرات عديدة ـختاري ـ

وقرية كيسي كوبري الصغيرة، وتمركزت مجموعة من الفرسان غير النظاميين، تحت قيادة صديقي القديم داود آغا (الذي جلب لي بالمصادفة، حمولة من البطيخ والتين من سنجار احتفاء بزيارتي)، هناك وبعد رحلة ثلاث ساعات لا نزال فوق الصحراء التي انتهت بنا إلى تلعفر حيث وصلناها فجأة.

بعد خروجنا من مجموعة من التلال المنخفضة، كان للمكان مظهر أكثر أهمية وازدهاراً بكثير مما كان متوقعاً، وهنالك نتوء كبير جداً مصطنع جزئياً، تُوَجد قلعة تحيط بجدرانها العديد من الأبراج من مختلف الأشكال وتقع المدينة التي تحتوي على بعض المنازل التي بنيت بأشكال جيدة على سفح التل، وتحيط بها حدائق مُشجرة من الزيتون والتين [1] وأشجار الفاكهة الأخرى، ووراء قطع الأراضي المزروعة هذه فسحة واسعة من الصحراء يتدفق فيها ينبوع وفير كذلك الذي ينبع من تلة "أبو ماريا"، من صخرة تحت القلعة، ويزود السكان بالماء ويروي حدائقهم ويدور مطاحنهم. كانت تلعفر ذات زمن بلدة ذات أهمية معينة وقد ذُكرت من قِبل الجغرافيين العرب الأوائل، وربما يمكن التعرف عليها من تلاسار إشعياء المَشار إليها، كما هي بارتباطها مع أغوزان وحران، وقد دمرت ثلاث مرات في غضون بضع سنوات من قِبل علي باشا من بغداد وحافظ باشا وأنجه بيرقدار محمد باشا، وفي كل مرة كان السكان يبدون مقاومة قوية، أخذ محمد باشا المنطقة بالهجوم عليها، وتم قتل أكثر من ثلثي السكان بالسيف كما صودرت ممتلكات البقية، ودمرت المنازل داخل الحصنِ وأعيد بناء المدينة عند سفح التل، وتحتل حامية تركية

(١) تشتهر قضاء سنجار بزراعة التين ذو الجودة العالية.

صغيرة الآن القلعة، وكانت تلعفر قبل الاستيلاء عليها مؤخراً مستقلة تقريباً عن حكام بلاد ما بين النهرين الأتراك، وقد دفعَت جزيّة صغيرة، وكان لها زعيمها الخاص بها بالوراثة الذي تمكن باتحاده مع بدو الصحراء والإيزيديين في سنجار من إثراء أتباعه من جرّاء نهب القوافل، ومن خلال غزو البعثات إلى المناطق غير المزروعة في الموصل، ويقال إنه تم اكتشاف ثروة هائلة في المكان ونهبها من قبل محمد باشا، الذي أخذ الذهب والفضة كلها، ووزع ما تبقى من غنيمة بين جنوده. ينحدر سكان تلعفر عن أصل تركماني ويتكلمونَ اللغة التركية لكنهم يتزاوجون أحياناً مع العرب ويفهمون العربية بشكل عام. عند المساء صعدت التل وزرت القلعة التي تحتضن مجموعة صغيرة من القوات غير النظامية، تركت العائلات مساكنها المخربة السابقة وتم الآن بناء مساكن عند سفح التل الصناعي، لا تزال المساكن في حالة خراب حتى اليوم ما عدا المنزل الذي يشغله قائد الحامية، يمكنني من جدرانها رؤية سهل شاسع يمتد غرباً باتجاه نهر الفرات ويتلاشى على مسافة بعيدة.

ارتفعت أطلال المدن والقرى القديمة من جميع الجوانب، وعند غياب الشمس حسبت أكثر من مئة تلة تلقي بظلالها الداكنة الطويلة على السهل، كانت هذه بقايا ازدهار الحضارة الآشورية، لقد مضت قرون منذ أن استقر السكان في هذه المنطقة من بلاد ما بين النهرين والآن لا يمكن رؤية حتى خيمة للبدو، فكل ما هو موجود عبارة عن نفايات جرداء مقفرة، بقينا في تلعفر ليومين، وتم سدُّ النقص في المؤن إلى أقصى حد ممكن من المخزونات الضئيلة للسكان، حيث أوصى الباشا

بالصبر والعدالة، إلا أن نصيحته لم تُتَّبع وأوامره لم يُصْغَ إليها أو تُنفَّذْ، فقد اقتُحمت المنازل وتلت ذلك أعمال النهب والسلب. وأخيراً استأنفنا مسيرتنا في اليوم الثالث عشر.

اندحار القوات العثمانية

كان جبل سنجار على بعد حوالي ثلاثين ميلاً من تلعفر، وهناك سلسلة منخفضة جداً من التلال تنحرف عن قمتها الجنوبية، وتندمج مع التلول التي تقع خلف المدينة، اتخذ الباشا مع قواته الطريق عبر السهل، وقد أمضينا الليلة الأولى على ضفاف تيار صغير بالقرب من أطلال إحدى القرى، ويدعوها سكان سنجار وتلعفر بزابارودوك، ويسميها العرب ببساطة الخربة أو الأطلال، لقد شاهدنا خلال النهار العديد من الأطلال والجداول[1].

كانت رحلة لايارد إلى جبل سنجار كضيف عند طيار باشا اتفاقاً مسبقاً لزيارته الخفيفة والممتعة إلى لالش، غادر الوالي وبطانته الموصل في الساعة الثالثة بعد ظهر ٨ تشرين الأول من عام ١٨٤٦ ـ التوقيت المناسب الذي ارتآه الملالي ـ رافقهم فوج من المشاة، وعدد من سرايا الخيالة غير النظاميين وبطارية حاملي البنادق، الهدف المعلن للحملة هو الاطلاع على حالة البلد، والنظر في طلبات الإعفاء من الضرائب، بعد ستة أيام من مغادرة الموصل عسكرت الحملة

(١) هذه الجداول كلها في هذا الوقت من السنة تكون جافة تقريباً، وتتلاشى في الصحراء، ولكن عندما تغذيها الأمطار الشتوية تجد طريقها إلى الثرثار، وهو نهر صغير يتدفق بالقرب من أطلال الحضر وينتهي في بحيرة إلى الجنوب منها.

تحت القمة الشرقية لجبل سنجار، رحب وفد يمثل كافة القبائل الإيزيدية باستثناء مهركان بقدوم الباشا، الذي أعلمهم بأن تقديرات الضريبة لديهم قد قطعت إلى النصف وحتى ذلك النصف يمكن تأجيل دفعه[1]، صعدت مجموعة استكشافية من ضمنهم لايارد إلى سفح الجبل لطمأنة رجال قبيلة مهركان[2] بزعامة عيسى آغا جد داود الداود [3]

وفي اليوم الثاني خيمنا في السهل، بالقرب من الطرف الجنوبي من جبل سنجار، وتحت قرية ميركان، التي كانت بيوتها البيضاء ترتفع الواحد فوق الآخر على المنحدر حيث يمكن رؤيتها من الأسفل، وهنا استُقبل الباشا من قبل جميع زعماء الجبل، باستثناء أولئك الذين من المنطقة الصغيرة التي كنا قد توقفنا فيها.

كانت ميركان إحدى المستوطنات الإيزيدية الرئيسة في سنجار، وقد تعرض سكانها لعمليات ابتزاز كبيرة، وأعدم العديد منهم عندما زار محمد باشا الجبل، وكانوا يتوقعون معاملة مماثلة على أيدينا، ولا يمكن إزالة مخاوفهم بأية وعود، وأعلنوا عن نيتهم في الدفاع عن قريتهم بحزم، أرسل الباشا أحد ضباط عائلته،

---

(١) مكتب الخارجية البريطانية ١٩٥ / ٢٢٨ برقيتا رسام ٤٣ و ٢٠ تشرين الأول و ٣ كانون الأول ١٨٤٦ إلى السفارة وإلى راولنسن على التوالي، لايارد " نينوى وبقاياها " ج ١، ص ٣٠٩-٣٢٤ و ج ٢، ص ١-٣، إسماعيل بك جول " الإيزيديون: في الماضي والحاضر " ط، زريق، ص ١١٥-١١٦، صديق الدملوجي " الإيزيديون " الموصل ١٩٤٩ ص ٥٠٠-٥٠١،

(٢) قبيلة قديمة كان يترأسها حينها عيسى جد المناضل داود الداود.

(٣) إدموندز، ص ٦٢

مع عدد قليل من القوات غير النظامية لطمأنتهم واستعادة السلطة، وكنت قد رافقته وعندما دخلنا القرية استقبلونا بإطلاق الأعيرة النارية[1]

اندفع اثنان من الفرسان دونما قصد نحو الأمام قبالة الضابط وأمامي فسرت الأمر بقلة التقدير والاحترام، وقد قَتلا عند أقدامنا وأصيب العديد من مجموعتنا بجروح، غضب الباشا لهذا الهجوم المستفز والمتهور وأمر بتقدم قوات الهيتاس والعرب غير النظاميين الذين كانوا مُتعطشين لأعمال النهب، فأسرعوا نحو القرية وكان الإيزيديون قد هجروها بالفعل ولجأوا إلى ممر ضيق تكثر فيه الكهوف والصخور المعزولة، وهو المكان المعتاد للجوء إليه في مثل هذه المناسبات.

وسرعان ما احتُلت القرية ودُخلت المنازل، إذ قاموا بنهب الممتلكات الصغيرة التي تركت، وقتل عددٌ قليل من النساء والرجال من كبار السن، وأما العاجزون عن المغادرة مع البقية فقد وُجدوا مختبئين في غَرَف مظلمة صغيرة وقد قطعت رؤوسُهُم وفصلت عن أجسادهم، وأضرِمَتْ النيران في المنازل الأنيقة والتهمت ألسنتها القرية بأكملها، حتى أن الباشا العجوز بشعره الرمادي وخطواته المترنحة كان يهرع ذهاباً وإياباً بين الخراب والدخان يُذكي الأمكنة التي لم تنشب النيران فيها بعد.

لقد أثيرت روح القتل والنهب التركية القديمة فبسرعة كبيرة تم إحراق المنازل وتسويتها بالأرض[2]، إلا أن السكان لا يزالون في أمان، وعندما حصلت القوات

---

(١) أوستن هنري لايارد، نينوى وآثارها، المجلد الأول، ترجمة خضر علي سويد، بيروت ٢٠١٨ ص ٢١٨

(٢) نورا كوبي، الطريق الى نينوى، دار المأمون بغداد ١٩٩٨، ص ٢٩٤

غير النظامية على الممتلكات كلها التي تمكنوا من العثور عليها هرعوا نحو الممر الضيق بين الجبال، ونادراً ما كانوا يتوقعون مقاومة الإيزيديين وتصديهم إلا أنهم تلقوا نيراناً متواصلة موجهة بشكل جيد، وقد سقطت النيران الأولى على أحد الرجال. ولكون الكهوف كانت مرتفعة بين الصخور لذا باءت جميع محاولات الوصول إليها بالفشل، استمرت الأحداث حتى الليل وعندما تشتت القوّات وأصيبت بالإرهاق استُدعيت للعودة إلى خيامها. وفي المساء تم عرض رؤوس الرجال والنساء البائسين الذين قتلوا في القرية حول المَخيّم، فهؤلاء الذين كانوا محظوظين بما فيه الكفاية لامتلاك مثل هذه الغنيمة كانوا يتجولون من خيمة إلى خيمة مطالبين بهدية كمكافأة لقاءَ شجاعتهم، كان الباشا مقتنعاً بأن كل رأس أتي به إليه إنما هو رأس لأحد الزعماء الأقوياء، وبعد إلحاح اقتنع بدفنها لكن القوات لم تكن على استعداد للالتزام بأوامره، وإلى وقت متأخر من الليل اقتنعوا بترك غنائمهم الملطخة بالدماء التي قاموا بترتيبها على شكل مثير للاشمئزاز وأضاءوها بالمشاعل.

وفي صباح اليوم التالي تجدّد الصراع لكن الإيزيديين دافعوا عن أنفسهم بشجاعة لا متناهية، وكان أول من غامر في المضيق هو قائد مجموعة من القوات غير النظامية عثمان آغا، وهو مواطن من لازيستان، تقدم بجرأة يترأس رجاله، ويحيط به من كل جانب رجل من حاشيته[1] يحمل طبلة صغيرة ويقف بالقرب منه، وذيول الثعالب في قبعته، بالكاد كان قد دخل الوادي عندما انطلقت

(١) الحاشية هم من المهرجين الذين يسبقون قَوّات الفرسان غير النظامية، ويضربون على طبول صغيرة ويرتدون ملابس فاخرة خيالية، وعادة ما يُظهِرون جرأة كبيرة وشجاعة.

طلقتان من الصخور وقتلتا اثنين من أنصاره اندفع الجنود إلى الأمام وحاولوا الوصول إلى الكهوف التي لجأ إليها الإيزيديون، مرة أخرى هُزمُوا من قبل أعدائهم غير المرئيين، وكل طلقة تنطلق من الصخور تخبر عن موقف أولئك الذين دافعوا عن المضيق، في حين أن قوات الباشا لم تتمكن من اكتشاف مصدرها، إلا من خلال الدخان القليل الذي يميز إطلاق النار من البنادق، واستمر الصراع خلال النهار، ولكن دون نتائج.

كانت خسائر الهيتاس كبيرة جداً، لم يتم الاستيلاء على كهف واحد ولم يُقتل أو يُصب أيٌّ من الإيزيديين بقدر ما يمكن للمهاجمين أن يذكروا.

هروب الإيزيديين من قرى سنجار

وفي صباح اليوم التالي أمر الباشا بشن هجوم جديد ولتشجيع رجاله تقدم بنفسه إلى المضيق، وأمر بفرش سجادته على إحدى الصخور وجلس على أكبر قدر من اللامبالاة وهو يدخن غليونه، ويجري محادثته التافهة معي على الرغم من أنه كان هدف الإيزيديين، سقط عدة أشخاص قتلى على بعد بضعة أقدام منا، وفي كثير من الأحيان كان الرصاص يثير التراب في وجوهنا، أحضرَتِ القهوة إليه كالمعتاد، وتم ملء غليونه عندما نفد التبغ، لم يكن جندياً بل كاتباً، لقد رأيت في كثير من الأحيان حالات مماثلة من الهدوء على اختلاف هيئته وسط الخطر بين الأتراك، عندما تتم الدعوة إلى مثل هذه العروض ستكون غير مرغوبة جداً من قبل أي أوربي على الرغم من التشجيع الذي منحه وجود صاحب السعادة للقوات، لم يُحققوا نجاحاً في محاولاتهم في طرد الإيزيديين كما كانوا عليه فيما

سبق، وتم حمل الرجال واحداً تلو الآخر من الوادي إمّا ميتاً أو يحتضر، وجلب الجرحى إلى الباشا حيث أعطاهم الماء والمال وحفزهم برفع معنوياتهم، كما ذكّرهم × أوردو كاديسي " أو قاضي المَخيم بأنهم يقاتلون ضد الكفار وأن كل واحد سقط مقتولاً من قبل أعداء النبي كان جزاؤه الجنة، في حين أن أولئك الذين قتلوا كانوا كفاراً لا يستحقون أي امتياز ولا ثمن لهم، ثم أخذ المصابون قسطاً من الراحة، كان المقاتلون يتأثرون بكلام ووعود ونصائح القاضي الذي صان روحه وبقي خارج طريق الخطر بعيداً عن أي أذىً يواري نفسه خلف إحدى الصخور، كان شخصاً بديناً متعصباً مغروراً حتى أن مظهره ولّد في داخلي مشاعر قوية من السخط والاشمئزاز .

ولم تضعف المبادئ الجديدة للقانون الدولي التي قدمها بحضوري، وقال سعادته، ×إذا أقسمت اليمين إلى هؤلاء الإيزيديين غير المؤمنين"، ونتيجة ذلك، واعتقاداً بأن حياتهم آمنة فينبغي عليهم الاستسلام، لكن إلى أي مدى أكون ملزماً بذلك ؟ أجاب جلالته وهو يمسح لحيته، × لكون الإيزيديين كفاراً في المذهب نفسه كما هو الحال بالنسبة لغير المؤمنين الآخرين " ـ هنا تحوّلَتْ عينُه إلي × لأنهم لا يفهمون الطبيعة الحقيقية للّه ونبيه فإنهم لا يستطيعون فهم الطبيعة الحقيقية لليمين، وبالتالي فإنه غير ملزم بالنسبة لهم، وبالتالي نظراً لعدم وجود معاملة المثل بالمثل فإنه لا يمكن أن يكون ملزماً، ولا يمكن أن تحكم عليهم بالإعدام بحد السيف بعد أن استسلموا على الثقة بيمينك " ولكن من واجبك كمسلم جيد القيام بذلك لأن الكافرين هم أعداء اللّه ورسوله "، وهنا بدأ باحترامي مرة أخرى بنظرة معينة، وبدا كلام الباشا لمجرد شرحه للقضاة أنه ينطوي على إدانة للمذاهب

البغيضة التي سمعتها، وأراد أن يؤكد لي أن القاضي كان حماراً وكان هذا المتعصب نصف كردي ونصف عربي وأنموذجاً لزعماء الدين الذين يسكنون في كردستان، وفي المدن الواقعة على حدودها كانوا يُحرضون المسلمين باستمرار على المسيحيين، ويحثونهم على سفك دمائهم، ولا أحتاج إلى القول : إن الآراء البغيضة التي أعلنوا عنها، لا يشترك فيها أي تركي أو مسلم محترم ولم يَعُذ الأمر مأمولاً أن تؤدي سلطة الباب العالي التي فرضها في كردستان إلى ذبح رعايا السلطان المسيحيين، لقد بذلت محاولات خلال اليوم لحث الإيزيديين على الاستسلام، وكانت هناك فرصة للنجاح، ومع ذلك، اقترب الليل حيث لا تزال الأعمال القتالية دائرة تم نشر القوات النظامية وغير النظامية في جميع الأماكن المعروفة للوصول إلى المضيق، وعند الصباح تم استئناف الهجوم دون ظهور علامات دفاع صادرة عن الوادي، اندفع الهايتاس ولكنهم لم يلقوا النيران المستمرة التي واجهوها في اليوم السابق فتوقفوا خوفاً من خدعة أو كمين، ثم تقدموا بحذر دون أن يراهم أحد ووصلوا إلى أفواه الكهوف دون مقاومة أحد لهم، ومع ذلك حان الوقت لأن يغامروا ويدخلوها، لقد كانت فارغة وكان الإيزيديون قد فروا منها خلال الليل وتركوا الوادي عن طريق بعض المسارات المعروفة لديهم فقط، متفادين بحذر مراقبة أو رؤية الجنود الأتراك لهم، وعثروا في الكهوف على عدد قليل من أشياء بسيطة للرجال والماعز ومواد تتكون من التين المجفف تم تثبيتها على العصي، استولى عليها هؤلاء المنتصرون وحملوها تعبيراً عن النصر في المعسكر على أنها آلهة لعبدة إبليس، كان وجه الباشا راضياً تماماً عن هذه النقطة، وأشار إلى جلالة القاضي أن تُرزم الأصنام بعناية وتُرسل إلى

القسطنطينية بواسطة أحد التتار الخاصّين، بينما كانت هناك محاولات لاكتشاف مكان تراجع الهاربين، وظل المَخيّم التركي بالقرب من قرية ميركان واغتنمت هذه الفرصة لزيارة أجزاء أخرى من سنجار. يقع مقر حاكم المنطقة في القرية وقد بُني بين أنقاض المدينة القديمة "سينغارا" بالنسبة للجغرافيين القدماء و"سنجار" بالنسبة للعرب، ويقع الحصن الطيني الصغير الذي أنشئ قبل بضع سنوات على تلة في وسط بقايا الجدران والأسس القديمة، ولكن يبدو أن الجزء الرئيسي من المدينة القديمة قد احتل السهل في الأسفل وتجمع حول هذا الحصن، في وقت زيارتي وجدت ما يقارب مئتي أسرة، ويختلط السكان الإيزيديون في القرية مع المسلمين بخلاف سكان المناطق" الأخرى، وقد اتسم هؤلاء الأخيرون بسهولة شعائرهم الدينية وتشابه لباسهم مع اللباس الإيزيدي بحيث أنه من الصعب تمييزهم عن الكافرين، كنت أقع باستمرار في أخطاء واستحضر الهتاف الصّارخ جداً × لا سامح اللّٰه ! " سيكون من الصعب أن أشير بأيّة درجة من اليقين، إلى أن أطلال بلدة سنجار أكثر قدماً من الفتح الإسلامي، فقد أصبحت مكاناً له أهمية في العصور الأولى للإسلام، وكان لها حكامها شبه المستقلين، وهنالك آثار للعديد من المباني الجميلة، والجزء السفلي من المئذنة التي شيدت والمسجد الكبير في الموصل من الأجر والطابوق الملون، وهو مكان واضح من جميع أجزاء السهل، وهناك ينابيع وفيرة جداً داخل دائرة من الجدران القديمة، والهواء صحي والتربة غنية وخصبة ومنتجة.

وقد بنيت جميع قرى سنجار على سهل واحد، وترتفع المنازل على جوان التل حيث تحيط بها المدرَّجات التي شُكلت من الحجارة الصلبة المَكدّسة الواحدة فوق

الأخرى كالجدران لتثبيت التربة القليلة، وتُزرع هذه المدرجات بأشجار الزيتون والتين، وقد تم العثور على عدد قليل من حقول العنب بالقرب من بعض القرى، وكانت المنازل ذات السقوف المَسَطحة نظيفة للغاية وأنيقة وغالباً ما تحتوي على شقق عدة، وأما جدرانها الداخلية فمليئة بالفجوات الصغيرة كثقوب الحمام التي يستفاد منها للزينة أحياناً، ولحفظ الأواني المنزلية وممتلكات صاحب المنزل أحياناً أخر فهي تكسب الغرف المظهر الأصلي والرائع جداً، وتزيد جماليتها كَتل من الطلاء الأحمر والأسود رُسمت على الجدار الأبيض، على شكل بقع، بطريقة الزخرفة.

كان التين المجفف التجارة الرئيسة بل الوحيدة التي يقوم بها سكان سنجار والذي يشتهر به هذا الجزء من تركيا، ويُزود جميع الأسواق في الأقاليم المجاورة، ولما كانت التربة خصبة ووسائل الري وفيرة فقد بات من الممكن أن تُزرع الذرة ومختلف المواد المفيدة للإنتاج في الكثير من المساحات الواسعة من الأراضي الصالحة المحيطة بالقرى، إلا أنه وبسبب تدمير سوء الحكم للشعب فإنه لم يعد باستطاعتهم الآن زراعة الذرة بما فيه الكفاية لتلبية احتياجاتهم المباشرة[1].

وفي عام ١٨٤٧ بينما كان لايارد ينهي عمله في نمرود قبل مغادرته إلى الموصل في موعده المحدد في شهر تموز من ذلك العام، وجهت حكومة السلطان ضربة حاسمة ضد بدرخان بك وتقدم جيش تحت قيادة الكرواتي الجنرال عثمان

(١) كيست، ص.٢٣٤، بعض التقارير عن سنجار، بقلم الدكتور الراحل فوربس ـ الأوروبي الوحيد، إلى جانبي، الذي أعتقد أنه قد زار هذه المنطقة الفريدة، يمكن العثور عليها في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية

باشا من الأناضول إلى جزيرة ابن عمر التي كانت قد استسلمت دون قتال وذلك من قبل يزدانشير ابن أخ بدرخان بك الذي كان قد أزيح من مركز القوة، انسحب الأمير إلى دَرْكَله رافضاً عرض رسّام بالتوسط، وتركه حلفاؤه الواحد تلو الآخر.[1]

الحمير البرية، والعودة إلى الموصل

لا يزال الباشا مُتوقفاً في ميهركان، ولأني كنت حريصاً على العودة إلى الموصل لاستئناف الحفريات، استأذنته للخروج وركبت عبر الصحراء إلى تلعفر، ورافقتني مجموعة صغيرة من الفرسان غير النظاميين وتعتبر هذه المرافقة ضرورية، حيث كان عرب العنزة يتسكعون حول المخيم وينهبون المتشردين وكرفانات المؤن، ومع اقتراب المساء رأينا تجمعاً بالقرب من جدول صغير، ما بدا أنه عبارة عن مجموعة كبيرة من العرب المرتحلين إذ تقف خيولهم بجانبهم، وعندما أصبحنا على مقربة منهم ولم يكن بالإمكان تجنّب العين المتيقظة للبدو ونحن على أهبة الاستعداد للمواجهة، وضعتُ الأمتعة وسط مجموعتي الصغيرة وانتشر الفرسان على أوسع نطاق ممكن للمبالغة في أعدادنا، اقتربنا بحذر، وفوجئنا لنرى أن الخيول لا تزال باقية دون راكبيها، بينما لا نزال نقترب منها، كانت جميعها تجري بسرعة نحو الصحراء، تبين أنها حمير بَريّة، حاولنا متابعتها وبعد عدو لمسافة صغيرة توقفت للنظر إليها وتأملتها بما فيه الكفاية لرؤيتها جيداً، إلا أنها لمجرد عرفت بتتبعنا لها زادت من سرعتها وما لبثت أن اختَفَت في

(١) كيست، ص.٢٣٤

العراء، وصلت الموصل في غضون يومين حيث اتخذت طريق كيسي كوبري وتجنبت الصحراء خلف "أبو ماريا" التي عبّرناها في مسيرتنا إلى سنجار.

مساعدة لايارد للذهاب إلى جزيرة بوتان وديار بكر

وفي تلك الفترة ثار بدرخان الكوردي ضد العثمانيين في ديار بكر وكان مستبداً جائراً في قتل الإيزدية بدافع الدين، ما جعل الإيزدية يتطوعون إلى جانب عثمان باشا الكرواني عام ١٨٤٧م ـ ويتصدون لبدرخان إلى جانب السلطات العثمانية، ولا ندري الدور الذي لعبه الشيخ ناصر في هذه المعركة إلا أنه تمكن من أسر أحد مؤيدي بدرخان وهو (رسول آغا) شيخ قرية فندق، وعندما أجمع الإيزدية على قتله منعهم الشيخ ناصر وأنقذ حياته من الموت، وكأنه بذلك يود مساعدة هذا الأسير مستقبلاً، وهذا ما حدث فعلاً فعندما قدم لا يارد من إسطنبول عام ١٨٤٩م أرسل الشيخ ناصر مبعوثاً إلى رسول أوصاه باستقبال لايارد وإيصاله بسلام إلى لالش وقد حدث ذلك فعلاً ٧)

كرر لايارد زيارته للشيخ ناصر عام ١٨٤٩م وكرر باجر زيارته له عام ١٨٥١ ووصفه يقول: إن الشيخ ناصر متواضع هادئ يحب الخير وترتسم في ملامحه أمارات الحزن)، من هنا يتضح أن الشيخ ناصر كان يوثق العلاقات مع الإنكليز لحماية الإيزيدية من العثمانيين والقبائل العربية والمتعصبين الإسلاميين في المدن وشمالي العراق في نفس الوقت.

ويذكر كيست : في عام ١٨٤٩م أرسل الشيخ ناصر رسالة شكر إلى الوزير الأعظم في الآستانة وذلك بعد محادثات أجراها مع لايارد وستراتفورد كاننغ،

وتضمنت الرسالة تعهده بإقناع الإيزدية بالخدمة في الجيش العثماني وذكر لهم أن أسلافهم الإيزدية كانوا قد خدموا جميعاً إلى جانب القوات العثمانية في جيش مراد الرابع، إلا أن الشيخ ناصر اقترح على الوزير أنه وبسبب المذابح التي تعرضوا لها فإنه يرتَئي قبول الباب العالي بإعفائهم من الجيش لخمس سنوات متتالية مقابل بدل نقدي، وأن تكون خدمتهم بعد هذه السنوات في وحدة مسيحية بدلاً من الوحدة المسلمة -

وفي طريق عودتهم أمضوا ليلة ضيوفاً عند شيخ الإيزديين (الأمير جاسم بك) بباعذرة. ويقول الرحالة أغناتييف بريزين، زيارة لليزيدية في العام ١٨٤٣م، تتكون باعذرة من مائة عائلة إيزيدية، وذكر عن الأمير : الشيخ في غاية الوسامة ويتسم بسماحة الطبع، ذو عينين صغيرتين وأنف مستقيم ولحية سوداء مهيبة، يكاد زيه يكون عربياً يختفي تحت عباءة بيضاء ذات خيوط رباط حمراء قانية، زبون عربي مقلم بالأصفر مشدود بحزام أصفر وأخضر وتحته سراويل بيضاء، وينتعل حذاء (بابوج) عربياً ويتعمم بعمامة حمراء ذات أهداب وفي حزامه خنجر وبيده مسبحة، بسبب لطف الاستقبال لم يتجرأ الكاتب على طرح أسئلة صريحة تتعلق بممارسات الإيزيدية الدينية(٣٥).

ومما يثير الدهشة أن بادجر في ذكره لزيارة مجموعته المتعة إلى موطن الأيزيديين يُسقط اسم إيليا نيولاييفيتش المساهم الغريب الذي شاركهم في الزيارة والبالغ من العمر أربعاً وعشرين سنة، والمحاضر في جامعة كازان، كان قد قضى اثني عشر يوماً في منطقة الموصل في خضم رحلته لثلاث سنوات والتي كرسها

للدراسات اللغوية والبحوث العامة في الشرق الأدنى مدعوماً من قبل وزارة التعليم الروسية[1]،

وبعد أربعة أشهر وفي شباط من العام ١٨٥٣م، خلع ـ وبصورة فجائية ـ الأمير حسين بك (الذي كان يتمتع بشعبية واسعة في أوساط قومه) وذلك من قبل حلمي باشا والي الموصل[2]، وما مهد لذلك هو الخلاف حول شروط وأحكام البدل عن المجندين الإيزديين، الشيء الذي كان الإيزديون يدينون به، لكن قيل: إن السبب الحقيقي وراء ذلك كان غضب واستياء الوالي الناجم عن رفض الشيخ ناصر لعرض الباشا بدفع ٢٠٠ قرش (٠ ر ١٦ ر ١) جنيه استرليني لجواد، استولى عليه، وقدر الشيخ قيمته بـ ٢٠٠٠ قرش[3] الأمير الإيزيدي الجديد الذي عينه الوالي حلمي باشا كان نسيب الأمير حسين بك، والذي يدعى جاسم بك[4]، شاب وصفه رسام بأنه كان ممقوتاً (شديد البغض) قوطع في الديانة الايزدية من قبل القوالين والشيوخ()، كان عهده وجيزاً، المسؤول العثماني ترافقه قوة خيالة، نصب جاسم بك أميراً، كان توقفهم الأول في دار الشيخ ناصر في إيسيان حيث استدعي حسين بك للحضور شخصياً، الشيء الذي فعله امتنانه الكبير لسيادة الوالي

---

(١) أغناتييف بريزين، زيارة لليزيدية في العام ١٨٤٣م، نقلاً عن هنري فيلد، جنوب كوردستان دراسة أنثروبولوجية، ترجمة جرجيس فتح اللّه، دار آراس، أربيل ٢٠١٢، ص ١٨٠

(٢) كيست، ص٢١٧

(٣) كيست، ص ٢٦٠

(٤) جاسم بك، وقد أشار صديق الدملوجي إلى صلاته السابقة في كتابه (الإيزيدية) ص ٢٥، وكذلك إدموندز في كتبه (حجة إلى لالش) ص ٣٠ حين ذكر زيجة مير حسين بك "غير القانونية" من امرأة من عائلة عبد اليسك "المنبوذة" من قبيلة شيوخ شمساني، وليس هنالك تفاصيل أخرى عن هذا الخلاف كما أنه لم يشر أي كاتب إلى جاسم

لتفضله بتعيين أمير آخر وعلق بصورة تبعث الأسى بأن موقفه قد أغرقه في ديون" ، (قدر رسام ديونه بأنها بلغت ١٢٢٠٠٠ قرش أو ١١٠٠ جنيه سترليني).

وحول الخلاف الذي نشب بشأن تسليم قصر باعذرة إلى الأمير الجديد، تحدث جاسم بك "بطريقة تنم عن الازدراء وعدم الاحترام تجاه حسين بك، الأمر الذي أدى إلى سخط واستياء الإيزديين الذين وقفوا وأطلقوا النار على جاسم بك في الحال (كذا)، سحب أحد تابعي جاسم بك سيفه، وبالمقابل وجه حسين بك إليه ضربة سيف شديدة.

ركب حسين بك جواده عائداً إلى باعذرة، جمع عائلته وفَرَّ إلى جبل سنجار في حين وافق الشيخ ناصر على الذهاب إلى الموصل برفقة المسؤول، ولكن في الطريق أنقذته جماعة كبيرة من الخيالة الإيزديين، وخوفاً من الانتقام هجر القرويون في الشيخان بيوتهم تاركين حقولهم غير محروثة. برقية رسام ذات الصفحات السبعة التي بعثها إلى السفارة البريطانية اختتمت بخبر مفاده (أن الشيخ ناصر قد وصل لتوه إلى المدينة، ويتناهى إلى مسمعي أن الباشا قد طلب منه عمل ما هو ممكن لإعادة الاستقرار بين صفوف الديانة)، لام نائب القنصل الباشا بسبب النتائج المترتبة على صفاقته واتهمه بالتواطؤ مع أشراف الموصل، "الذين لهم ضلع طويل في الحادثة التي يُؤسف لها" وأنهم يخططون لإرسال تقرير إلى العاصمة لتبرئة تصرفاته،

مصالح كثيرة كانت معرضة للخطر

كان كريستيان رسام قد وقع مؤخراً اتفاقاً مع حسين بك بخصوص اقتسام المحصول الزراعي، وقام ببناء مخزن جديد في باعذرة[1]، وقد عرض فرارُ الأمير وهجرةَ العمال الزراعيين في الحقول من القرى هذا الاستثمار للخطر، وذلك مباشرة في الوقت الذي كانت ترتفع فيه أسعار الحبوب إثر توقعات نشوب الحرب مع روسيا، وفي شهر نيسان من العام ١٨٥٣ زال قلق نائب القنصل، عندما منحه الوالي حق الحجز على محصول الإيزديين[2]

إن إعفاء حسين بك أخذ وقتاً أطول، وفي حزيران لم يعر الباشا اهتماماً لمناشدة الحكومة له بضرورة قيام الجنود بحراسة أمن الحدود، ونظم بدلاً من ذلك حملة تتألف من ٦٠٠ من حاملي البنادق، و ٣٠٠ من خيالة غير نظاميين، و ١٥٠ رجلاً من رجال المدفعية مع ثلاثة مدافع ميدانية، كان وجهتها سنجار، مع تعليمات بضرورة جباية الضرائب المستحقة غير المدفوعة وأسر حسين بك،[3] وفي الآخر أعيد حسين بك إلى موقعه لكن تفاصيل إعفائه غير مذكورة، ذُكر تغيير

---

[1] كيست، ص ٢٦٢ مقال لوبدل في نيويورك ديلي تريبيون، ص ٥، عدد ٢٦ آذار ١٨٥٣

[2] **كيست، ٢٦٢**

[3] مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٩٤ برقية **كريستيان** رسام المرقمة ٨ في ٢٠ حزيران ١٨٥٣ إلى السفارة، **كيست، ٢٦٣**

الزعامة في الديانة الأيزيدية لأول مرة في تقرير لأحد الرحالة في ١٨٧٥ وتم تأكيده تاريخياً في ١٩٤٩ [١]

[١] كوستاف باولي Von Hosn Kefa am Tigris bis Bagdad مجلة MGGL العدد ١٢ (١٨٨٩) ص ١٠٦، صديق الدملوجي "الإيزيدية" ص ٢٣-٢٤ و ٤٦٩، سي، جَي، إدموندز "حجة إلى لالش" ص ٣٠،

الأمير حسين بك بن علي بك (١٨٢٨- ١٨٧٩م)

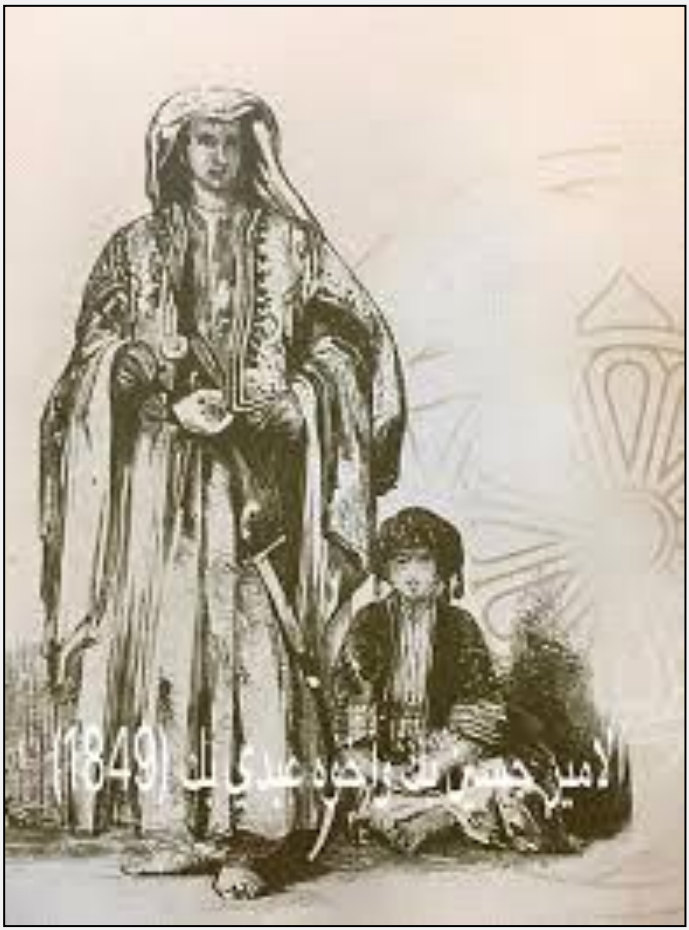

حسين بك وحياته الاجتماعية

حسين بك : هو الأمير حسين بك بن الأمير علي بك بن الأمير حسن بك بن الأمير جولو بك بن الأمير بداغ بك بن الأمير ميرخان بك بن الأمير سليمان بك بن الأمير حسن بك بن الأمير شريف بك بن الأمير عفدي بك (عبدالله) بن الأمير سليمان بك بن الأمير صالح بك بن الأمير حسين بك الكبير بن الأمير زينل بك بن الأمير حمزة بك بن الأمير هادي بك.

حسين بك صغير أكثر مما ينبغي للتفكير كثيراً في الشؤون العامة، وهو مشغول بالزعامة بحيث ليس له وقت للاهتمام بأجمل فتاة من رعاياه ـ اللاتي يفضلن أن يكن موضع إعجاب زعيمهن الشاب[1] .. وقد تزوج من (شمسا الشمسانية[2]، روشي كلي ونعامي من بسميرية قرية كندالة / شرق شيخان، غزو من بيت شيخ عبدال بسك [3]

كان صغيراً عندما أعدِم أبوه علي بك الكبير من قبل الأمير الأعور، فاستلم الإمارة [4]ابن عمه جاسم بك بن صالح بك، وبعد أن شب وترعرع قام بقتل جاسم

---

(١) كيست ص ٢٤٢

(٢) اعتقد الكثير من الإيزيدية ومنهم الباحثون الحاليون بأن زواجه هذا إنما أراد أن يتم التزواج بين طبقات الشيوخ الثلاثة ـالشمسانية، الآدانية والقاتانية فيما بينهم كما كانت قبل الصراع الشمساني الآداني في القرن الثاني عشر الميلادي، وينحصر الزواج بين الإيزيدية في الطبقات الثلاث (الشيوخ فيما بينهم ـالبيرانيون فيما بينهم وجميع المريديين بما فيهم القوالون والفقراء)

(٣) صديق الدملوجي، الإيزيدية، ط٢ ٢٠١٠، ص ٧٢

(٤) حدود الإمارة (شيخان) المناطق التي تقع بين نهر خابور ونهر الزاب ومن جبل مقلوب إلى جبل سنجار. ينظر : عدنان زيان فرحان, الكرد الإيزيديون في إقليم كردستان, (السليمانية:

بك واستولى على الإمارة (١٨٣٨م- ١٨٧٩م) تمكن من جمع شمل الإيزدية بعد الذي حل بهم من غزو الأمير الراوندوزي.

كان حسين بك صديقاً للسير هنري أوستن لايارد المنقب والبحاثة الإنكليزي وذهب إلى إسطنبول بإرشارد منه وتوصل إلى السلطان عبد المجيد واشتكى إليه النكبة التي حلت بالإيزدية، فعطف عليه السلطان وواساه وأنعم عليه فمنحه رتبة (قابي جوخه داري- حاجب البوابة الرسمية). بعد عودته من إسطنبول سنة ١٨٤٩م. [١]

وكان للأمير دور مؤثر في العفو عن الخدمة العسكرية، إذ رفع عريضة في سنة ١٨٧٢ م موقعة من قبل عدد من وجهاء الإيزدية إلى إسطنبول بواسطة مشير رؤوف باشا والي بغداد، يدعون فيها إلى رفع الجندية عن الإيزدية، ومن أهم أعماله [٢]:

١- إعادة بناء الكثير من القبب والمزارات.

٢- ترميم مبنى ضريح شيخادي في معبد لالش.

٣- بناء قصر الإمارة الحالي في باعذرة الشاخص حتى يومنا هذا.

٤- بناء خزينة الرحمن لحفظ التراث الديني في باعذرة عام ١٨٧٢م.

٢٠٠٤), ص٥١. لكن وفق معلوماتنا أن الإمارة تحدها من الشرق منطقة كلك الإيزيدية وقرية عبدالعزيز والقرى المجاورة لها، ومن الغرب قرى بابيرأ وجكان ومشرفة، ومن الشمال لحفا قائديا وفي الآونة الأخيرة شملت منطقة دوباني لقبيلة دنا، ومن الجنوب بعشيقة وبحزاني.

(١) صديق الدملوجي،الإيزيدية، ط٢، ٢٠١٠، ص ٧٠

(٢) شمو قاسم دنايي، الرحالة البريطاني هنري لايارد هل كان منصفاً للإيزيدية، مجلة لالش (٢٤) دهوك ٢٠٠٦، ص ٣٩

٥ـ الاهتمام بعلماء الدين.

ولمكانته الرفيعة كأمير للإيزيدية فقد زاره الرحالة جون أوشر (عضو الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية) يوم ١٠/ كانون الأول /١٨٦٤م، وقضى ليلة مع الأمير في عين سفني[١] يصف هذا الرحالة الأمير الذي زاره في صباح اليوم التالي تصحبه جماعة من القوالين ذوي الثياب البيض، إنه شاب هادئ وملامحه تنم عن الذكاء ولكن نظراته غافية وثقيلة ومكفهرة)، كان قد أخبر بأمر حسين بك ونزعته المتمثلة للأسف بميله إلى الخوض في التيارات العنيفة، وحمل إليه رسالة من المستر كريستيان رسام نائب القنصل الإنكليزي، ولكن نظراته كانت غافية وثقيلة ثم علم لاحقاً بانّ عبوس وجهه كان نتيجة استلامه في ذلك وصلاً لدين يطلب دفعة بإلحاح من قبل كريستيان رسام.

ثم إن صداقة كريستيان رسام الطويلة الأمد مع الإيزيديين بدأت تتزعزع، إذ كتب في سنة ١٨٦٠م بأن حسين بك كان يفرض ضريبة على قومه بمعدل أعلى مما

(١) جون أوشر: رحلة من لندن إلى بيرسبولس، جون أشر، مشاهدات جون أشر في العراق، ترجمة:جعفر خياط، مجلة سومر، مديرية الآثار العامة،بغداد، ١٩٦٥م، وكذلك كتابه، ص ٤٠

يرسله إلى السلطات في الموصل[١]، وفي سنة ١٨٦٦م اطلع رحالة فرنسي[٢] على أمر من أن إيرادات السنجاق كانت قد أقطعت لوكيل القنصلية الإيطالية مقابل ٤٠٠٠٠ قرش ٣٦٠ في السنة.[٣].

---

(١) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٦٠٣، برقية كريستيان رسام المرقمة ٢١ في ٢١ كانون الأول ١٨٦٠ إلى السفارة. (جون أشر) بالإنجليزية (John Ussher F.R.G.S: رحال بريطاني، (زميل الجمعية الجغرافية الملكية (Fellow of the Royal Geographical Society:ومقرها في لندن، في صيف عام ١٨٦٤م، قام برحلة طويلة إلى موقع الآثار الإيرانية المعروف باسم برسبوليس، [١]أو تخت جمشيد، القريب من شيراز .وزار في رحلته أوروبا ومناطق داغستان و جورجيا و أرمينية و بلغراد و أوديسة و ديار بكر و حلب و نصيبين وزاخو، و الموصل و بغداد و كربلاء و النجف وآثار بابل في الحلة وزار الطائفة الإيزيدية وغيرها إضافة إلى إيران .طبعت ونشرت رحلته في لندن سنة ١٨٦٥م، باللغة الإنجليزية تحت عنوان) : رحلة من لندن إلى برسبوليس: بما في ذلك التجوال في داغستان، جورجيا، أرمينية، كردستان، وبلاد فارس A Journey From London To Persepolis: Including Wanderings In . Daghestan, Georgia, Armenia, Kurdistan, Mesopotami, And Persia).[٢] ثم ترجمت جزء من رحلته وهو الجزء الخاص بالعراق إلى العربية من قبل جعفر خياط ونشرتها مجلة سومر عام ١٩٦٥م، تحت عنوان: مشاهدات جون أشر في العراق).. المصدر ويكيبيديا

جون أشر: مشاهدات جون أشر في العراق، ترجمة جعفر الخياط، بيروت ٢٠٠٧م، ص١٢١، وكذلك رحالة أوربيون في العراق، مشاهدات جون أشر في العراق، ترجمة جعفر الخياط، دار الوراق ٢٠٠٧، ص ١٣١-١٣٣

(٢) كلوم لوجين: Voyage dans la Babylonie لاتور دوموند، العدد ١٦ (١٨٦٧م) ص ٩٤. أدولفو ريفادينيرا: رحلة إلى سيلان ودمشق والخليج الفارسي وميسوبوتاميا وخرائب بابل، ص ١٢٧-١٢٩.

(٣) كيست، ص ٢٧٥ ، كلوم لوجين: Voyage dans la Babylonie لاتور دوموند، العدد ١٦ (١٨٦٧م) ص ٩٤. أدولفو ريفادينيرا: رحلة إلى سيلان ودمشق والخليج الفارسي وميسوبوتاميا وخرائب بابل، ص ١٢٧-١٢٩.

ووصلت أخبار جيدة أكثر تبشيراً في ذلك اليوم، وصل قوالان راكبان أنهكتهما رحلة إلى الإيزديين فيما وراء القوقاز البعيدة، كانوا أكثر حظاً من البعثة السابقة التي اعترض سبيلهما أمير بدليس وقتل أفرادها، وبعد أن وضعوا بنادقهم جانباً تقدم السعاة لتقبيل يد حسين بك وأفادوا بأن الإيزديين فيما وراء القوقاز كانوا في ثراء وغنى، وأنهم قدموا لهما قرابين وعروضاً كبيرة إلى خزينة الأمير.

وفي ١٨٤٧م على بعد ثلاثين ميلاً شمال الموصل، رحبت بهم مجموعة خيالة يقودهم الشيخ ناصر الذي وصفه الدكتور ساندوذ بـ " الرجل البالغ من العمر أربعين عاماً (من مواليد ١٨٠٧م)، له سيمياء ذكية ومطبوع على الاعتدال" وكان الأمير حسين بك طبقاً لما أفاد به الطبيب " شاحب الوجه، شاب مريض في التاسعة عشرة، صبي لا لحية له "، ولم يكن الشاب الجميل الذي التقاه لايارد في العام ١٨٤٦م بعد، لكن ساندوذ يستحضر بعض جاذبية الشخصية السابقة لدى الشاب في الوصف.

وفي أواخر أيلول ١٨٤٦م ترك لايارد الموصل برفقة ترجمان القنصلية ودليل إيزيدي، وإثر وصوله إلى باعذرة في الصباح التالي استقبلوا من قبل وفد يترأسه حسين بك وكان يرتدي عباءة بيضاء فضفاضة مصنوعة من الأنسجة الفاخرة فوق سترة غنية وثوب أنيق، حاول تقبيل يد لايارد والأخذ بلجام جواده لكن لايارد اعترض بلطف وودٍ محتضناً الأمير على الطريقة السائدة في البلد وسارا معاً إلى داره، وكان حسين بك حسبما يصفه لايارد:

في حوالي الثامنة عشرة من عمره ـ أي أنه من مواليد ١٨٢٨م حسب وصف لايارد عام ١٨٤٦م والدكتور ساندوذ الذي رآه عام ١٨٤٧م ـ : انه من بين أكثر الشباب الذين التقيتهم طوال حياتي وسامة، ملامحه كانت عادية ورقيقة في عينيه بريق والتماع تتدلى خصلات شعره الطويلة من تحت عمامته الملونة بالأسود القاتم[١].

يسترسل لايارد في وصفه: عمامته ذات اللون الفاتح وسترته الحمراء المطرزة بأناقة بالذهب تلمع كالسحلية تحت أشعة الشمس، يرتدي فوقها جبة بيضاء تشبه إلى حد كبير الشاش في رقته وشفافيته ولم تكن تخفي روائع النقوش الذهبية، وغمد فضي ثقيل يحمل سيفاً معقوفاً يعود لوالده الراحل.[٢]

الإمارة ما قبل تولي الأمير حسين بك

تقلصت سلطة الإيزيدية في العهد العثماني بعد سقوط إمارة داسن ومحمودي، لم تبقَ لهم إلا إمارة شيخان[٣]. وأثناء سلطة حسين بك (١٨٣٨م-١٨٧٩م) كانت هناك صراعات عسكرية وسياسية داخلية وكذلك مع الدولة العثمانية وكان الإيزيديون يئنون من جراحاتهم التي تسببت لهم بها الحملة الظالمة لأمير سوران محمد باشا الراوندوزي (الأمير الأعور) عام ١٨٣٢م، والذي

(١) كيست، ص ٢٢٧

(٢) كيست، ص ٢٤١

(٣) أرشد حمد محو. الكورد الإيزيديون في كتب الرحالة البريطانيين من مطلع القرن التاسع عشر الى نهاية الحرب العالمية الأولى, رسالة ماجستير غير منشورة, ص١٧.

كانت علاقاته مع المجاورين له في حالة من الارتباك وعدم الاستقرار، لكن بهمته وتعاون بابا شيخ (شيخ ناصر) استطاع أن يعيد الحياة إلى الإمارة من جديد[١].

في شيخان ازدهرت حالة الإيزيديين تحت قيادة حسن بك الذي أعاد بناء معبد لالش في ١٨٠٦م، ولكنه قتل غيلة بعد سنوات قليلة من قبل أمير العمادية[٢]

وبعد خمسين عاماً استنسخ مستشرق ألماني قصيدة تحكي قصة معركة وقعت بين أميرين من بهدينان، والتي تمكن رجال قبائل شيخان ودَنَادي أثناءها من أخذ ثأر حسن بك.[٣]

كان حسن من خلف صالح بك في الإمارة، ويقال عنه إنه كان يحظى بالاحترام والمكانة الكبيرة من قبل أفراد قبيلته، لكنه هو الآخر قتل من قبل شخص يضمر له الحقد والضغينة في الموصل. وتبعت ذلك فترة من التنافس والصراع الداخلي انتهت بأن تبوأ علي بك (العظيم) بن الأمير حسن بك الإمارة الإيزيدية[٤].

---

(١) ارشد حمد، ميركه ها شيخان لسه ردمى حسين بك، ناميلكة سةنته رى بيشكجي،

(٢) كيست، ص ١٤٧:

(٣) ريج، ج ٢، ص ٨٦، ليس موقع صالح بك في شجرة عائلة كول واضحاً. سي. جَي. إدموندز: حجة إل لالش، ص ٢٨-٢٩ يذكر أنه ابن عم لمير حسن بك وأنه من " الفرع الرئيس " للعائلة وله ابن اسمه علي وحفيد اسمه جاسم. الدملوجي: الإيزيدية، ص ٣٢ يقول إن صالح بك هو ابن لعلي ووالد جاسم، إلا أن الشجرة المواجهة للصفحة ٢٢ تظهر أن صالح بك هو ابن لمير حسن بك، ربما كان ثم أكثر من شخص واحد يحملون الاسم نفسه.

(٤). كيست، ص ١٤٨

عاش الإيزيديون بتفاهم وصداقة مع جيرانهم النصارى، فقد تواجد وتصاحب جماعة منهم مع النساطرة في جبال هكاري شمال العمادية حتى بداية القرن التاسع عشر حين رحلوا إلى شيخان وجبل سنجار[١].

كما أن إيزيديي سنجار يرتبطون تقليدياً بعلاقات أخوية مع المسيحيين، ووفق إحدى المصادر (كَتب قبل مصالحة ١٨٣٠ بين البطرياركية وروما) أن زعيمهم الشيخ كان يقوم بزيارة رسمية إلى القوش[٢] كل عام. ومثال آخر على الصداقة بين الإيزيديين والمسيحيين نقل عن قرية رضوان التي تقع شرق دياربكر على الضفة اليسرى لكرزان / خرزان (فرع من دجلة يعرف منذ فترة طويلة بنهر اليزيدخانة) حيث يقيم حالياً رجال قبيلة خالتي والتي كانت مهيبة ذات يوم، يعيشون معاً في أمن ودعة مع جيرانهم المسيحيين. قام الزعيم الإيزيدي ميرزا آغا ببناء كنيسة للأرمنيين وداراً للقس غازار تير غفانديان وعَلّم ميرزا آغا أولاده اللغتين الأرمنية والتركية.[٣]

وفي الربع الأول من القرن التاسع عشر ترأس ميرزا بك إمارة ذات حكم ذاتي، وكان في صراع مستمر مع الزعماء الكرد الآخرين ومع جباة ضرائب السلطان، حتى أن مآثره وبطولات محاربيه لا تنكر أن عدداً كبيراً منهم كانوا من الأرمنيين

---

(١) كيست، ص١٤٩ا

(٢) كيست، ص١٤٧لوكاس إنجيجيان Ashkhara kirutiun نقل عنه هنري أ. هومز في " الطائفة الإيزيدية في ميسوبوتاميا " وكذلك أوكست وموريتز

(٣) كيست، ص١٤٨

ويقودهم كاهن سابق يدعى بوغوص، لازالت ذكراهم حية في الفلكلور الكوردي.[١]

وفي حزيران من العام ١٨٢٩م زار الشاعر الروسي ألسكندر بوشكن أخاه الضابط في فرسان نيذيطورودسكي، واشترك في الالتفاف الحاسم حول الموقع العثماني على قمة جبل هوغانلي الذي كان يشكل عائقاً على الطريق إلى أرضروم، من بين الذين حضروا إلى الواجب تحت قيادة الجنرال راييفسكي قائد الخيالة الروس، ولفت انتباه الشاعر "رجل كالغول طويل القامة يلبس رداءً طويلاً أحمر ويعتمر قلنسوة سوداء، زعيم الكتيبة الإيزيدية التي تخدم مع الجيش الروسي، الشاعر الذي كان يحمل معه نسخة من كتاب كارزوني "ملاحظات حول الإيزيديين" طلب معرفة ديانته وشعر بالارتياح عندما علم أن الإيزديين يعبدون اللّٰه لا إبليس[٢].

كان مصدر معلومات الشاعر بوشكن حسن آغا البالغ من العمر ستين عاماً وزعيم قبيلة حَسَنلي التي كانت تسكن في الأقاليم العثمانية قرب بإيزيد ـ واحدة من العديد من القبائل الكردية التي شعرت بهبوب رياح جديدة في شرق الأناضول ـ كانت سترته الحمراء ذات الحواشي المصممة من الفراء هديةً من الجنرال جافجادزه اعترافاً له بخدمته الجليلة مع الروس في الاستيلاء على ألشكرت غربي بإيزيد.[٣]

---

(١) كيست، ص ١٥٠

(٢) Eskere boyik, bi kurtayi diroka, ezdiyen ermenistane l ٧٩

(٣) عسكر بويك أكتاي، العدد ٧: المادة رقم ٧٦٨، ص ٧٦٨-٧٦٩. تقرير الكونت باسكيفيتش في ٢٣ أيلول ١٨٢٨ إلى القيصر.

حسين بك والمستشرقون

سمح حراس المعبد لمجموعة بادجر بقضاء الليل في باحة المعبد نهاية عام ١٨٤٣م، وهي خدمة لم ينلها أجنبي آخر. ومما هو مدهش أن بادجر في ذكره لزيارة مجموعته الممتعة إلى موطن الأيزيديين يسقط اسم المساهم الغريب الذي شاركهم في الزيارة وهو إيليا نيولا ييفيتش البالغ من العمر ٢٤ سنة، والمحاضر في جامعة كازان، وكان قد قضى اثني عشر يوماً في منطقة الموصل في خضم رحلته لثلاث سنوات والتي كرسها للدراسات اللغوية والبحوث العامة في الشرق الأدنى مدعوماً من قبل وزارة التعليم الروسية.[١]

يعطينا تقرير برزين حول زيارته إلى لالش والذي نشر في دورية موسكوفية في ١٨٥٤ بعد سنتين من صدور كتاب بادجر يقدم لنا صورة أكثر تكاملاً، وحقائق أكثر حول الرحلة تتخللها انطباعات حيوية ذات ألوان متعددة، وخاصة فيما يتعلق بالزعيم الشيخ (المذكور أعلاه) وعن بادجر نفسه، الذي كان قد وصف بأنه "مالطي لطيف، رجل مستقيم ذو خلق وطباع حسنة" كان برزين كاتباً غزير الإنتاج.

إن تغيير الزعامة في الديانة الأيزدية ذكر لأول مرة في تقرير لأحد الرحالة في ١٨٧٥ وتم تأكيده تاريخياً في ١٩٤٩م.[٢]

---

(١) كيست، ص٢١٧

(٢) نفس المصدر، ص٢٢٢

وفي ربيع عام ١٨٥٠م انتقلت عائلة بادجر من الموصل إلى دار استأجرها لهم كريستيان رسام في القرية الأيزيدية (بعشيقة)، ولم يزر بادجر لالش هذه المرة، فقد كان الزعماء الإيزديون غائبين لحضور عيد رأس السنة في سهل شيخان، وفي ١٨ نيسان جاء الشيخ ناصر والأخ الأصغر للأمير إلى بعشيقة حيث زينت مداخل العديد من البيوت "بشقائق النعمان الحمراء البرية"، وبعد رقص ومأدبة مراسيمية زار الزعماء الإيزديون نائب القنصل.

وجاء في يوميات السيدة بادجر تشير إلى أن "الشيخ ناصر بدا رجلاً هادئاً ومتواضعاً وملامحه تنم عن حب الخير لكنها تخفي حزناً عميقاً [١].

قامت الاحتفالات في اليوم التالي وفي المساء زار حسين بك عائلة كريستيان رسّام، وتلاحظ السيدة بادجر في يومياتها أن هنالك قدر كبير من الغيرة والحسد بين الشيخ ناصر والأمير حسين بك، وأن الأمير "غلام يافع لا أكثر، ولديه ثلاث زوجات في غير أوانه".

فيما تلاه سار موكب مهيب تصحبه المزامير والدفوف برفقة سنجاق شيخان من بحزاني إلى بعشيقة، مرّ السنجاق المقدس يرافقه اثنان من البير يلوحان بالمنجزات أمامها، وفي اليوم الأخير ببعشيقة سمح للسيدة كريستيان رسام والسيدة بادجر بإلقاء نظرة على السنجاق، ورسم تخطيط له.

وفي أيلول ١٨٥٠م في طريق عودتهم إلى الموصل زار باون وساندرزكي لالش وقضيا ليلتهما مع الشيخ ناصر في قرية (إيسيان)، تصرف زميل لايارد في السفر القوال يوسف كمترجم، وفي الإجابة على إحدى الأسئلة خُيِّل إليهم أن الشيخ ناصر

---

(١) نفس المصدر، ص٢٤٩

يقول: إن تاريخ ضريح الشيخ آدي يعود إلى ما قبل سنة ١٨٠٣م، وقد خلف مستوى النظافة والكد والعمل في القرية الإيزيدية بعشيقة انطباعاً جيداً لدى ساندرزكي مما حدا به إلى أن يسجل في يومياته أنه سوف يستمتع بتبشير هؤلاء بتعاليم المسيحية.

في تشرين الأول من العام ١٨٥٢م دعا كريستيان رسام عوائل المبشرين إلى احتفال الخريف الإيزيدي، وضمت المجموعة التي كان يقودها نائب القنصل وماتيلدا رسام لوبدل وزوجته وطفلتها وزوجة ويليامز وطفلتها، وعند اقترابهم من قرية باعذرة سبقهم كريستيان رسام لترتيب مستلزمات إقامة المجموعة في مخزنه الجديد، ولدى وصولهم استقبلهم حسين بك، وقدمهم إلى القوال (سيفوك) الذي كان قد رافق زميله يوسف في وفد العام ١٨٤٩م إلى إسطنبول، و قام برواية الفترة التي قضاها في السفارة البريطانية، المكان الذي بقي فيه حوالي السنة حضر خلالها عدة حفلات راقصة واستقبالات حافلة، وتذكر القوال أنه في إحدى هذه المناسبات كانت زوجته قد ارتدت ثوباً حريرياً مهدى إليها من قبل الليدي كننط أعيد تصميم عنقه ليتناسب والأسلوب التقليدي المستدير الذي يلبسه الإيزديون.[١]

في الصباح التالي انضم حسين بك والقوال إلى كريستيان رسام ولوبدل في رحلة إلى دير ربان هرمز،

ورافق الأمير عشرة من الخدم والحرس يحملون رماحاً طويلة، وأحزمة تتدلى منها الخناجر، ومناديل زاهية، وشالات بيضاء.. وكانت رؤوس وصدور الخيول

(١) كيست، ص٢٥٧

مزينة ومبهرجة، وعلى الطريق التقوا "بجماعات من الزوار الحجاج كانوا في طريقهم إلى لالش، تكسوهم الثياب البيضاء، يحملون الطناجر وأواني الطبخ على أكتافهم أو فوق رؤوسهم، بعضهم كان يمتطي الحمير وآخرون يسارعون الخَطى راجلين حاملين أسلحتهم والمسدسات في أيديهم مع الأطفال".

رئيس الدير، الذي كان قد أسر في العمادية وبقي على الحياد، أراهم حجرات الرهبان وقبور البطاركة ومصلى الكنيسة، حيث حفر هنري لوبدل اسمه على الحائط إلى جانب أسماء جوستين ثيركنس وهنري لايارد وكلوديوس ريج، همس رئيس الدير خلسة بالموافقة عند استجابة راهب لطلب حسين بك ببعض التراب من فوق ضريح ربان هرمز الذي عرف بأنه يساعد في إزالة الحمى ثم قاد زواره، لاحظ لوبدل أن فريقهم كان مؤلفاً من كلداني وإيزديين، وكاثوليكي إنجليكاني سابق وأحد التابعين للكنائس المستقلة، يتجهون إلى حجرة حيث قدم لهم العشاء المؤلف من الدجاج، والرز، والعنب، والخيار، والتين، تم غسلها جيداً بالنبيذ أو الشراب. وكان لوبدل ينتمي إلى جمعية أمهرست المضادة للمسكرات، جماعة تمسك عن تناول المشروبات الحارة، الشراب، الأوبيوم والتبغ"[1] لم يتناول أي شراب، لكنه لاحظ أن حسين بك قد جرع عدة أقداح منه، وقال القوال سيفوك أن لونه الأحمر يذكره بالبراندي الذي كان السفير البريطاني يزوده بزجاجتين منه يومياً في إسطنبول !".[2]

---

(١) كيست، الصحفة نفسه

(٢) زيارة لوبدل إلى دير الربان هرمز والأيزديين مفصلة في أرشيفات (ABC) ٤ و ٨ و ١٦، المجلد الأول، المادة ٨٣، رسالة لوبدل في ٢٠ كانون الأول ١٨٥٢ م إلى أندرسن. وقد وردت أيضاً في مقالتيه في ١ كانون الأول ١٨٥٢ و ١٤ كانون الثاني ١٨٥٣ م والمنشورتين في

كتب لوبدل أن موكب الصباح التالي القادم من باعذرة إلى معبد الشيخ آدي كان مجللاً بوجود القنصلين في كامل دروعهم مع خناجرهم وسيوفهم ذات المقابض الفضية وسراويلهم الحمراء الضيقة وطرابيشهم ذات الشرابات وصداراتهم المذهبة الحواشي وشواربهم السوداء".

شاهد الزوار المراسيم في لالش من البداية إلى النهاية، شهدوا صدق ما قاله لايارد، بينما كريستيان رسام الذي يعامله الجميع بقدسية لا تقل عن الشيوخ تشاور مع الزعيم الإيزيدي، وقام لوبدل بزيارة الشيخ ناصر وقدم إلى زوجاته الثلاث ذوات الوجوه الفسيحة الواضحة، الشيخ نفسه الذي كان ذا وجه هادئ وودي أخبرهم بأن الكتب الوحيدة التي تملكها القبيلة هي بحوزته [1].

وقاموا لاحقاً بزيارة إلى المعشر النسوي لعائلة حسين بك، ولاحظوا صفات زوجاته الأربع:

المتوردات الوجنتين ذوات المزاج الخاص، الفاترات الهمة، العصبيات المتشائمات وكلهن كن حاضرات يلبسن أساور فضية ضخمة لونت عيونهن بمسحة من الكحل الأسود، رؤوسهن مكسوة بقطع الذهب والفضة، وتغطي وجوههن براقع جذابة رفعت احتراماً لحضورنا، وثمة زوجة خامسة كان يتوقع قدومها من ديار بكر[2].

(نيويورك ديلي تريبيون) في ٢٦ آذار ١٨٥٣، ص ٥، و ٢١ أيار ١٨٥٣م، ص ٥-٦. نقلاً عن كيست ص ٢٥٩.

(١) كيست، ٢٦٠

(٢) كيست، الصحفة نفسه

الخدمة العسكرية

استقر الوضع القانوني للأيزديين في العام ١٨٤٩م، لكنهم واجهوا عقبة تمثلت في تحملهم مسؤولية القيام بالخدمة العسكرية الإجبارية التي كان المسيحيون مستثنين منها (وفي الحقيقة لم يكونوا أهلاً لها) منذ أيام الخلفاء. وفي رسالة شكر في شهر تشرين الأول لسنة ١٨٤٩م، موجهة إلى الباب العالي من قبل حسين بك، أكد فيها الشيخ ناصر وثمانية و عشرون زعيماً إيزيدياً ولاءهم وإخلاصهم للسلطان واستعدادهم لخدمته، مثلما خدم أجدادهم في جيش مراد الرابع، في حين التمسوا أنه نظراً للاستنزاف الذي لحق بقواهم من الرجال نتيجة المذابح السابقة ـ إذا كان ممكناً ـ السماح لهم بدفع بدل الضرائب للخمس السنوات في جيش مراد الرابع، في حين التمسوا أنه نظراً للاستنزاف الذي لحق بقواهم من الرجال نتيجة المذابح السابقة ـ إذا كان ممكناً ـ السماح لهم بدفع بدل الضرائب للخمس السنوات المقبلة إلى أن يتمكنوا من تزويد الجيش بالمجندين، وعليه فإنهم سيقبلون مسؤولية القيام بالخدمة العسكرية، لكنهم طلبوا أن يشكل الإيزديون وحدات خاصة بهم أو يخدموا مع الجنود النصرانيين بدلاً من مزجهم بالجنود المسلمين.[١]

وفي وقت مبكر من العام ١٨٥٠م أحيط ستراتفورد كننط رسّام عِلماً بأن الامور قد رُتبت، إلا أن الرسائل الرسمية المحتوية على الشروط لا توجد في

(١) كيست، ص٢٤٥ نقلاً عن مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٠١ برقيات كريستيان رسام المرقمة (٢٣) في ٢٩ تشرين الأول ١٨٤٩ و (٦) و (٧) في ١٥ و ٢٩ نيسان ١٨٥٠م. إلى السفارة.

الأرشيفات، لكن الزعماء الإيزديين أعلنوا ارتياحهم ورضاهم، وحُذروا من قبل كريستيان رسام بعدم البوح بسر تدخل كننط في الأمر نيابة عنهم.

الفصل الذي جرى مؤخراً بين السلطة المدنية والعسكرية في الدولة العثمانية أخَّر وضع الترتيبات الجديدة موضع التنفيذ، كانت شعارات تجنيد الإيزديين لا زالت تصدر، وفي وقت ما احتجز حسين بك رهينة إلى أن تصل قوة إيزدية.[1] بعد فترة بدأت الأمور تسير على ما يرام، حيث ارتاح كريستيان رسام لأن نقص الأيدي العاملة في الحقول كان سيسبب نقصاً شديداً في حصاد الإيزديين وبالتالي سيؤخر دفع ديونه، وفي هذا الوقت كان كريستيان رسام يتحول إلى " نائب قنصل مهيب وذي نفوذ"[2] وأصبح واحداً من التجار البارزين في مدينة الموصل، متعاملاً بالجلود، والصوف، والجوز، واللوز، والحبوب. جاء الأمير حسين بك إلى الموصل لتقديم الطاعة والولاء للوالي الجديد، وهناك تم الإلحاح عليه بضرورة تهيئة أبنائه للمسؤوليات المستقبلية التي سوف تقع على عواتقهم وذلك بإدخالهم المدارس وتعليمهم، ولكن عندما أحضر حسين بك أستاذاً لتعليمهم

---

(١) كيست، ص٢٤٦ مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٠١ برقيات كريستيان رسام من الرقم (١٤) إلى (١٧) في الفترة آب ـ تشرين الأول ١٨٥٠ إلى السفارة. ساندرزكي Reise Mosul und durch Kurdistan nach Urumia ج ٣، ص ٢٨٣. وكذلك مكتب الخارجية ١٩٥ / ٤٥٩ برقية دبليو. ر. هولمز قنصل دياربكر المرقمة (١٠) في ٥ آذار ١٨٥٧ و ١٩٥ / ٦٠٣ برقيتا مالتاس المرقمة في ٢٠ شباط ١٨٥٨م و (٣٠) في ١٧ تشرين الثاني ١٨٥٧م إلى السفارة.

(٢) السير أ. هنري لايارد "سيرة ذاتية ورسائل" طبعة دبليو. بروس، ج ٢، ص ١٩٢.

القراءة والكتابة اعتبر الأمر فضيحة من قبل الديانة، وأقنع الشيوخ الصبيان بعدم حضور الدرس.[1]

وفي العام ١٨٧٢م قرر مدحت باشا أنه آن الأوان لوضع حد للحالة الشاذة التي بموجبها يستثنى أيزيديو سنجار من الخدمة العسكرية، رُقي الكولونيل محمد طاهر بك، رئيس هيئة أركان جيش بغداد بصفة مؤقتة إلى رتبة الفيلد مارشال، وأرسل إلى الموصل لإجراء إحصاء بعدد الذكور المشمولين بالخدمة.

كان كريستيان رسام مريضاً إلى درجة لم يستطع معها مساعدة الإيزديين حتى لو رغب في ذلك، ولكن تم تفادي المجابهة مع السلطات بعد استدعاء مدحت باشا إلى العاصمة، فخلفه رؤوف باشا الذي اقترح على الإيزديين إدراج اعتراضاتهم الدينية الحائلة دون قيامهم بالخدمة في الجيش العثماني في بيان[2].

وأعلن حكماء الموصل المسلمون أن ما ورد في الوثيقة الإيزيدية مضلل ولا يمت إلى الحقيقة بصلة، لكن البيان حقق غرضه. أملى الشيخ ناصر بياناً كتب باللغات العربية والتركية والفرنسية وأفصح فيه ولأول مرة عن مبادئ وقواعد السلوك التي يتطلبها الدين الإيزيدي، تعرف هذه الوثيقة بصورة عامة بـ

(١) أرشيفات وزارة الخارجية (باريس): موصل، المجلد الثاني، الملف ١٦٧ ر، برقية سيوفي المرقمة ٣٨ في ٣ تشرين الثاني ١٨٧٩ إلى الوزارة ونشرت في العدد ٧، المجلد ١٨ (١٨٨٠) من المجلة الآسيوية (باريس). نقلاً عن كيست، ص ٢٧٦

(٢) كيست، ص ٢٧٦

"التماس ١٨٧٢"م، ووقع عليها الأمير حسين بك والشيخ ناصر وخمسة عشرة من الشيوخ الرؤساء، وأرسلوه إلى رؤوف باشا في آذار عام ١٨٧٣م. [١]

في حوالي العام ١٨٧٥م صادقت الحكومة العثمانية مؤكدة بأن الإيزديين مستثنون من الخدمة العسكرية (رغم أنه وبعد مرور أربع سنوات من هذا لم يكن قد صدر أي مرسوم بتنفيذ القانون، ومسألة دفع ضريبة بدل الخدمة لم تكن قد حُسمت بعد). [٢]

سنة ١٨٥٣م طردَ والي الموصل حلمي بك (١٨٥١م- ١٨٥٧م) حسين بك من وظيفته، وعين صهره (جاسم بك) خلفاً له، وفي باعذرة بعد مشادة كلامية بين الاثنين قتل جاسم بك وأحد مرافقيه، فالتجأ حسين بك إلى سنجار وتم إخلاء قرى الشيخان خوفاً من انتقام القوات العثمانية [٣] ثم عاد إلى وظيفته [٤].

---

(١) المصدر نفسه الملفان ١٦٤ ف و ١٦٥ ف. الدملوجي: ص ١٣٥-١٣٦. مصطفى نوري باشا: عبدة إبليس، وكذلك مخطوطة عربية استنسخها جرميا شامير في ١٨٨٣ وهي محفوظة بمكتبة برلين.

(٢) جورج يونط: Corps de Droit Ottoman المجلد ٢، ص ١٦٤. كومته ف. فان دن ستيسن دي يهاي De la situation legale des sujets ottomans non-musulmans ص ٤٠٢.

(٣) كاميران عبد الصمد أحمد الدوسكي، بهدينان في أواخر العهد العثماني، مؤسسة موكرياني، للبحوث والنشر، أربيل ٢٠٠٧ ص٥١.

(٤) (٣) Johannes duchting laliş ١١ almanye ١٩٩٩.

تم الاعتراف بوضع الديانة الايزدية في إطار الإمبراطورية العثمانية من قبل السلطان، الذي استقبل الأمير حسين بك وقلده لقب (قابي جوهاداري) حاجب البوابة الرسمية.[1]

كان لايارد قد بلغ الرابعة والثلاثين عند عودته إلى إنكلترا في ١٨٥١م، ووجد هواية جديدة في السياسة والدبلوماسية، فرجع إلى إسطنبول في ١٨٧٧م ليخدم سفيراً لبريطانيا لمدة ثلاث سنوات، لكنه لم يزر الموصل مرة أخرى.

ويبدو أن الدولة العثمانية بعد نهاية هذه الثورة قد راجعت سياستها تجاه الأقليات خصوصاً بعد مشاركتها الفعالة في الثورة المذكورة، لذلك جرت إعادة التأكيد على حقوق الأقليات بفرمان (خطى همايون) في عام ١٨٥٦م[2] ويذكر الرحالة (اينسورت) أن عودة الاستقرار إلى الدولة وتعميم مبدأ المساواة بين جميع عناصر الدولة دون النظر إلى الاختلافات الدينية والقومية رسخة صدور فرمان سلطاني[3].

ويضيف الرحالة المذكور أن هذا الفرمان قد أحدث تغييراً كبيراً في أسلوب الإدارة المحلية في الولايات التابعة للإمبراطورية العثمانية كلها، ومن ضمنها مناطق الإيزيديين الذين أصبحوا أحراراً من العديد من تلك الابتزازات

---

(١) الدملوجي: الإيزيدية، ص ٢٤، يذكر أن السلطان عبد المجيد الذي توفي في حزيران ١٨٦١ هو الذي استقبله.

(٢) حول نص هذا المرسوم الذي صدر في ١٨ شباط ١٨٥٦ ينظر: سيار كوكب الجميل، تكوين العرب الحديث، دار الشروق للنشر، عمان ١٩٩٧، ص ٣٤١ ٣٤٣.

(٣) أرشد حمد محو، الكورد الايزديون في كتب الرحالة البريطانيين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية آداب، جامعة دهوك، ٢٠٠٩ المصدر السابق، ص ٥٩.

والصعوبات التي كانوا قد تحملوها في السابق[1] ويقول الدملوجي أن عودة الاستقرار إلى الدولة وتعميم مبدأ الحرية والمساواة بين جميع العناصر دون النظر إلى الاختلافات الدينية والمذهبية رسخة الفرمان المذكور، وهذا ما ساعد أيضاً على أن يستجمع الإيزيديون شملهم وينصرفوا إلى أعمالهم، وأن يستعيد أمراءهم مكانتهم السابقة، ثم يضيف الدملوجي : وكف العلماء عن فتاواهم التي اعتادوا إصدارها والتي كانوا يثيرون بها الرأي عليهم ثم يصبحون في مأمن من الاعتداءات التي كانت تعكر صفو حياتهم"[2].

استقرت مناطق الإيزيديين ولا سيما الجبل فقد تمتع بهدوء تام طيلة السنوات التي أعقبت ١٨٥٠ م حتى ١٨٦٤م عندما عاد الإيزيديون إلى السلب والنهب، وأغلب الظن أن الولاة قبل مدحت باشا كانوا قد أهملوا تمرد الإيزيدية، كما أنهم عاشوا على محاصيل الجبل الوافرة ومنعوا غيرهم من الاستفادة فاستأثروا بها[3] ولكن يبدو أن إيزيدية سنجار كانوا يدفعون للحكومة العثمانية الضرائب المترتبة عليهم بشكل طبيعي، و عندما حضر نائب والي بغداد المدعو شبلي باشا خلال هذه الفترة إلى سنجار وطلب الخراج منهم سدَّد الإيزيديون له ما عليهم من

(١) أرشد حمو محو، المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٢) صديق الدملوجي، الإيزيدية، الموصل ١٩٤٩م ص ٤٦٩ ٤٧٠.

(٣) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر/ القاهرة،١٩٦٨، ص ١٣٣.

التزامات وضرائب، وظلت منطقة جبل سنجار على هذه الحالة حتى عهد مدحت باشا[1].

في عام ١٨٨٥م، تم اتخاذ قرار آخر للسماح للايزيديين بدفع ٥٠ ليرة تركية وللخدمة في الجيش لفترة قصيرة. وافق الإيزيديون حول حلب وديار بكر وفان على القرار. لكن اليزيديين في محافظة بغداد العراقية احتجوا. اعتقل حسين بك عام ١٨٧٥م وسجن في حي الشيخ زايد ببغداد.

دفع كريستيان رسام الفدية عن الرهينة عن طريق دفعه للباشا مبلغاً مجزياً، وراتب لأن تعويضه عن ذلك سيتم من قبل الإيزيديين على فترة من الزمن بما يدر عليهم محصولهم الزراعي.[2]

مدحت باشا وإلزام الإيزيدية بالخدمة العسكرية

تولى مدحت باشا ولاية بغداد (١٨٦٩- ١٨٧٢م) وكانت أولى خطوات هذا الإداري العثماني المعروف هو فرض الخدمة العسكرية على الإيزيديين وأخذ عدد مناسب منهم للغرض المذكور وإخضاعهم للقوانين[3] وتعقدت المشكلة أكثر عندما انقسم الرأي بين رجال الدولة، هل هم مسلمون ليخضعوا لنظام التجنيد الإجباري أم غير مسلمين ليكونوا كاليهود والمسيحيين يأخذ منهم البدل النقدي؟

---

(١) عدنان زيان فرحان، الكرد الإيزديون في إقليم كردستان، مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية، السليمانية ٢٠٠٤.، المصدر السابق، ص ١٣٥.

(٢) كيست، ص ٢٢٥

(٣) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ١٨٧٦ ١٩١٤م، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، بغداد دار ومكتبة دجلة للتراث، ب، ت، ص ٥١.

ويبدو أن الرأي قد استقر أخيراً على وجوب خضوعهم لنظام التجنيد الإجباري لاعتبارهم فرقة منحرفة عن الإسلام[١].

يقول العزاوي: إن الإيزيدية في سنجار كانوا قد أعلنوا العصيان على الحكومة العثمانية لمدة خمس سنوات وتحصنوا في الجبل والتزموا ألا يدخل غريب عليهم فاستقروا على هذه الحالة وهم يعيشون على محاصيل الجبل الوافرة مانعين غيرهم من الاستفادة منها(٢). وقد صادف هذا الحادث وصول مدحت باشا إلى الموصل، فقصده أمير الإيزيدية حسين بك وذلك للترحيب به[٣]، وحين علم مدحت باشا بما حدث في جبل سنجار طلب من الإيزيديين أسماء الجناة وأمر أن يتم القبض عليهم وتأديبهم، لذا جمع قوة مؤلفة من ثلاثة أفواج وسريتين من الخيالة وأربع قطع من المدافع وعدداً من الجنود من الموصل وماردين وشهرزور، وتوجهت إلى سنجار بقيادة أحمد بك وضياء باشا متصرف لواء الموصل بعد أن زُوِّدوا بالتعليمات اللازمة من قبل مدحت باشا [٤]، وهكذا نجح مدحت باشا في فرض دفع الضرائب المتأخرة على

(١) باقر ياسين، تاريخ العنف الدموي في العراق، الطبعة الأولى، ترجمة،حمه صالح كلالي، السليمانية، مطبعة داناز، ٢٠٠٤، ص ١٩٦.

(٢) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج ٧، بغداد ١٩٣٥، ص ١٧٣.

(٣) كيست، ص ٢٣١

(٤) عبد اللّٰه علياوي عبداللّٰه علياوي، كوردستان لةسةردةمي دةولةتي عوسمانيدا، ض ٣، كتيبخانةي ئاوير، هةولير ٢٠٠٤،، ص ٨١، داود مراد الختاري، الحملات والفتاوى على الكورد الإيزيديين في العهد العثماني، سبيريز، دهوك ٢٠١٢، ص ٢٢٠ ٢٢١.

الإيزيديين في جنوب شرق جبل سنجار، بالإضافة إلى أنه أقنع القبائل الإيزيدية بتزويد وإمداد الجيش العثماني بعدد من الجنود الجدد كقاعدة سنوية[1].

أهم الحملات في عهد الأمير حسين بك

أسباب تعرض مناطق الإيزيدية إلى الحملات المستمرة في عهد الأمير حسين بك.

كانت مناطق الإيزيدية وخاصة سنجار مناطق استراتيجية للتجارة، حيث تمر القوافل التجارية فيها، وتمتاز الإمارة بخصوبة أرضها ووفرة محاصيلها الزراعية المتنوعة، كانت الحدود الفاصلة بين الكورد والعرب من أجل السيطرة على كافة الحركات المناوئة مصدراً مهماً للاقتصاد من حيث تربية المواشي والأغنام، وكانت المنطقة خلال حكمه تتعرض إلى الهجمات المتكررة أيضاً من قبل ولاة الموصل وبغداد مما تسبب بخسائر في الأرواح والممتلكات.

كانت هنالك صراعات خلال فترة إمارة حسين بك على الإمارة من قبل ولاة الموصل وولاة بغداد، بالإضافة إلى السلطات العثمانية ولكن حسين بك استطاع أن يقيم العلاقات مع السلطات المذكورة قدر المستطاع من خلال توسط الأجانب من أمثال أوستن هنري لايارد وكرستيان الرسام وزار إسطنبول عام ١٨٤٩م لينقذ المجتمع من الخدمة العسكرية وكذلك تم إرسال عريضة عام ١٨٧٢م، وبرغم ذلك، كانت هناك رافقت بعض الحملات على مجتمعه وكل حملة تحمل معها القتل والخراب والدمار.

(١) عدنان زيان فرحان، المصدر السابق، ص ١٣٧.

انحدرت ولاية الموصل بسرعة إلى حالة الفوضى والاضطراب من الحالة التي كان إينجه بيرقدار[1] يستخدم فيها القسوة والاضطهاد في إدارتها، وبقي خلفه في الحكم لمدة سنة واحدة فقط، وحل محله في العام ١٨٤٥ أحد رفاق إينجه بيرقدار في السلاح، وهو محمد باشا كريتلى أوغلو، لم تبلغ قامته أكثر من أربعة أقدام كان ذا صوت خشن وإيماءات غريبة غير مألوفة، وكان الوالي الجديد مزيناً من قبل السلطان بالنياشين لشجاعته وبسالته العسكرية، وقد دلت على ذلك آثار الجروح والندوب الباقية في جسده، بما في ذلك فقدانه لعين وأذن، لكن الشجاع الراسخ القوي والموفور الصحة في حمص كان قد أصبح الآن بديناً منحني الظهر وأعرج ويشتهر بالجشع وحب المال.[2]

(١) استلم الوالي العثماني إينجة بيرقدار محمد باشا الموصل مدينة خرائب..وتتضح من متابعة فترة ولايته طبيعة المهمة التي أنيطت به : فرض الأمن، جباية الضرائب لتمويل الجيش وحركة الإعمار في المدينة، فرض هيبة السلطان ومركزية الدولة، القضاء على حركات التمرد والعصيان في راوندوز والعمادية وتلعفر ومناطق الإيزيدية والشمر، فرض عملية التجنيد الإلزامي، فرض الأمن في المدن والقصبات في شمالي بلاد مابين النهرين وإنهاء كافة أشكال السلطات المحلية في المناطق التي تتواجد فيها الجماعات الأثنية والدينية..والعمل على الحد من المجاعات والأوبئة والعصابات التي خربت الحرث والنسل ودمرت التجارة والأسواق في الموصل..كما تم خلال فترة حكمه الممتدة قرابة ٩ سنوات من ١٨٣٥ وحتى عام ١٨٤٤ اكتشاف الأوابد الآشورية القديمة، وتمثلت حركات العصيان بخمس بؤر رئيسة هي العمادية وراوندوز وتلعفر ومناطق تواجد قبائل الشمر الحرونة وجماعات من إيزيدية سنجار التي لم تكتف بالامتناع عن التجنيد ودفع الضرائب، ينظر صلاح سليم علي، إدارة الموصل في عهد إينجة بيرقدار محمد باشا، موقع بيت الموصل وقتل الكثير من النصارى والأيزيدية بلا رحمة..

(٢) كيست، ص ٢٢٣

هجوم إينجة بيرقدار[1] على جبل شنكال عام ١٨٤٢م

قام كريتلي أوغلو بحملة تأديبية على سنجار في بداية مباشرته للحكم، حيث دبر الأمر بإغواء عدد من رجال قبيلة مهركان للمجيء إلى المعسكر العثماني ومن ثمَّ الإيقاع بهم وقتل جميع أعضاء الوفد، فقطعت رؤوس الرجال واستعبدت النساء والأطفال، بالإضافة إلى ذلك وحسبما أورده كريستيان رسّام فإن قوات الباشا عادت بحوالي أربعمئة حمار وعشرة آلاف رأس من الغنم وبعض الماشية، وبعدد كبير من الخيام والنحاس القديم . وحسب تقديرات نائب القنصل كان هنالك ما يقارب الإحدى عشرة قرية قد بقيت في الجبال فيها ألف وخمسمئة رجل ممن كانوا قادرين على حمل السلاح.[2] وفي منتصف عام ١٨٤٥م جرى هجوم محمد باشا كريتلي أوغلو بقوات حكومية على منطقتي شيخان وسنجار مرتين، كانوا يدينون له بالضرائب، وضمانة لادعاء الباشا قام جنوده بحجز الشيخ ناصر أو أنهم اعتقدوا ذلك لأن نائبه بير يدعى سينو وسمح لنفسه بأن يسجن ويعذب

---

(١) (جاء تعيين إينجة بيرقدار محمد باشا أو بيرقداري ـ كما يسميه الموصليون) في محاولة من إسطنبول فرض ضرب من المركزية بطريق استرجاع الولايات العثمانية من الأسر شبه المستقلة، وربطها بالحكومة العثمانية مباشرة وتطبيقاً للإصلاحات التي تمثل أهمها ببناء جيش يحل محل الإنكشارية التي كان السلطان محمود قد حلها، كتطبيق التجنيد الإلزامي الذي شمل في عهد مجيد الأول النصارى، ثم تنفيذ نظام ضريبي صارم لتغطية المجهود الحربي ومشتريات الأسلحة في مواجهة الخطر المصري والإبقاء على البقية المتبقية من الإمبراطورية..أي أن الإمبراطورية تحركت وفق ماتفرضه عليها الضرورة التاريخية أي [المركزية] إزاء التفكك والانفصال وبكل وسائل القوة.

(٢) مكتب الخارجية البريطانية ١٩٥ / ٢٢٨ برقيتا كريستيان رسام (١٨) و (٤٣) في ١٤ حزيران ١٨٤٥ و ٢٨ تشرين الأول ١٨٤٦ إلى السفارة.

بدلاً عنه دون أن يكشف عن حقيقة هويته، وعن قتل أعداد هائلة ونهب سنجار مما تمتلك من ضمنها عشرة آلاف رأس من الغنم.

كانت سياسة رؤوف باشا مرنة جداً لكن حلمي باشا (والي الموصل) خلق الفتنة بين عوائل الإمارة مما تسبب في انهيار دور الأمير وقتل حسين بك ابن عمه جاسم بك، وهروبه إلى سنجار ثم سجنه وعلى إثرها توفي ١٨٧٩م.

وهكذا تسببت سياسة مدحت باشا بالمشاكل للإيزيدية بفرض القانون الإجباري للخدمة العسكرية. [١]

حملة والي الموصل طيار باشا على سنجار سنة ١٨٤٧م

في ذلك الوقت وصل والي جديد إلى الموصل، وهو الخامس في غضون ثلاث سنوات، طيار باشا الذي وصفه لايارد: "بشيخ جليل مهيب، لطيف المعشر، مهذب السلوك، ذو كياسة في تعامله مع الأوربيين، واسع الاطلاع في المواضيع المتعلقة بأدب وتاريخ بلاده، إن إمكانية فرص أفضل في ظل طيار باشا، والنيات الحسنة لنائب القنصل البريطاني، شجع إيزيديي الشيخان على إعادة الاحتفال بعيدهم السنوي عيد الحشد الذي لم يحتفل به منذ سنوات عدة، وجه الشيخ ناصر وحسين بك دعوة إلى هرمز رسام ولايارد ليكونا ضيفي شرف ولم يكن بمقدور نائب القنصل الحضور فيما كان لايارد سعيداً بالموافقة على الدعوة. [٢]

---

(١) كيست، ص٢٢٤

(٢) كيست، ص٢٢٤

علاقة حسين بك مع يزدانشير وحلمي باشا

في شباط (١٨٥٣م) خلع وبصورة فجائية الأمير حسين بك الذي كان يتمتع بشعبية واسعة بين أوساط قومه، وذلك من قبل حلمي باشا والي الموصل، وما مهد لذلك هو الخلاف حول شروط وأحكام البدل عن المجندين الإيزديين، فهاجر حسين بك مع عائلته إلى منطقة سنجار[١].

حصلت بعض الاضطرابات في الشيخان واتهم بها، قبضت الحكومة عليه وألقته في السجن ثلاث سنين.

لم يستطع حسين بك الاستقرار وتمشية أمور إمارته كما ينبغي لكون المحيطين به لا يودونه ولا يودون الخير للإيزيدية، لذلك كانوا يتسببون له بالمشاكل باستمرار، واستمر حلمي بك بالعداء ضده عن طريق يزدانشير وتشجيعه بالتعدي على الإيزيدية.

تسلم حلمي باشا الأوامر بتقديم المساعدات المالية ليزدانشير بك ابن أخ بدرخان بك الذي خانه، وكان يزدانشير بك قد اقترح تنظيم جيش قوامه ٨٠٠ فارس و ٧٠٠ رجل لخدمة السلطان على الجبهة القوقاسية، وكان ويزدانشير الذي كان رجلاً وسيماً ذا سلوك عسكري وشارب صغير أسود[٢] قد استبدل في جزيرة ابن عمر بمسؤول عثماني ولا يزال يعيش الآن في الموصل، حيث كان يتردد على نائب القنصل البريطاني، وكان معروفاً بآرائه الشديدة التطرف، سمعه لوبدل

---

(١) جون س كيست، الحياة بين الكرد.. تاريخ الإيزيديين، ترجمة عماد جميل مزوري، سبيريز، ٢٠٠٥، ص ٢٥٩.

(٢) كيست، ص ٣٢٢

ذات مرة وهو يذكر أنه يرغب في شرب دم كل إيزدي، ويهودي ونصراني مستثنياً أصدقاءه كشخص مثلي[1].

كانت وجهة يزدانشير التالية شمال وادي دجلة، فاستولى على سيرت بعد أن تسبب بهزيمة القوة العثمانية الصغيرة التي أرسلت ضده، وبعث برسل إلى الروس مقترحاً اللقاء عند بدليس أو وان. وتوجه عندئذ إلى رضوان، حيث استعرض قدراته أمام لوبدل وأخبر راوي نائب القنصل البريطاني في ديار بكر بأنه : كان شاهد عيان على عملية قتل نفذها البك نفسه، في أوقات مختلفة لما يقارب الخمسة وعشرين أو الثلاثين إيزيدياً الذين اعتبرهم تعصبه الشديد يستحقون الذبح، كما عرض ٥٠٠ قرش ٠ ر ١٠ ر ٤ جنيه سترليني على أي شخص يستطيع أن يأتيه بإيزيدي حي فقط للاستمتاع بقطع رقبة هذا البائس التعيس[2].

وصل إلى جزيرة ابن عمر في شباط عام ١٨٥٥ طابور من الجنود تحت قيادة رشيد باشا والي بغداد، المذهل والمثير أن الذي زعم بأنه شخصياً قبل استسلام بدرخان بك، وقوة أخرى جهزها حلمي باشا تتألف من ٢٠٠٠ خيالة إيزيديين تحت إمرة الأمير حسين بك الذي عرف في يزدانشير بأنه عدوه اللدود أكثر من الوالي نفسه.

---

(١) كيست، ص ٢٢١

(٢) مكتب الخارجية البريطانية ١٩٥ / ٤٥٩ برقية هولمز المرقمة ٢٢ في ١ حزيران ١٨٥٥ إلى السفارة، نقلاً عن كيست، ٢٦٧.

كتب رسام مرتاحاً بأن الأيزيديين هزموا الثوار خارج زاخو ودخلوا المدينة دون مقاومة، وأن حسين بك قد استولى على المدينة باسم فخامته السلطان، أما على الضفة الغربية لنهر دجلة فقد استولى جنود بغداد على جزيرة ابن عمر بعد معارك طاحنة، وفرّ يزدانشير وأخوه إلى حامية جبلية.[1]

واستعدت قوة رشيد باشا للهجوم الحاسم، لكن الثورة انتهت بطريقة غير متوقعة، وفي وقت مبكر من آذار عام ١٨٥٥م أرسلت ماتيلدا رسام ترجمان القنصلية للنزول إلى واجهة النهر عند الموصل، المكان الذي عبرت منه للتو جماعة من الرجال فوق دجلة الفائض، وتألفت المجموعة من يزدانشير بك وأخيه وخمسة عشر تابعاً، يرافقهم ضابط عثماني يحمل عدم تعرض صادر عن الجنرال ويليامز باسم الحكومتين البريطانية والفرنسية، حاول جنود حلمي باشا أسرهم، ولكن بعد أربع ساعات من المشادات الكلامية سمح للترجمان بمرافقة الكرد إلى حيث نائب القنصل البريطاني وبقي يزدانشير هناك خمسة أشهر، إلى أن أرسلت السفارة تعليماتها إلى الوالي العثماني الذي كانت لديه أوامر بإرساله إلى إسطنبول.

إن مسؤولية استسلام يزدانشير وما تبع ذلك بصورة عامة تعود إلى نائب القنصل الذي صادف تواجده في جزيرة ابن عمر حوالي تلك الفترة، أخبر مارشمعون المراسل الروسي الكولونيل كرشكا تتسكي بأن الزعيم الكردي كان قد خدع من قبل كريستيان رسّام.[2]

---

(١) كيست، ٢٨٦

(٢) كيست، ص ٢٨٦

تعاون حسين بك مع يزدان شير

تزامنت تلك الأحداث مع ما شهدته بهدينان من حملات عثمانية على الإيزيديين في منطقة الشيخان، حيث اتهمتهم السلطات العثمانية بالامتناع عن الانخراط في صفوف الجيش والقيام بالتمرد ومهاجمتهم للقوافل[1] ولم يكن لدى حسين بك مجالاً إلا التعاون مع عدو الأمس (يزدان شير) والمساهمة في معاركه ضد العثمانيين، لأن تطوراتٍ قد حدثت في الدولة العثمانية خلال سنة ١٨٥٤. حيث أنه بعد تنفيذ شامل للتجنيد الإجباري بحق كافة مواطنيها أصبح الإيزيديون أيضاً مكلفين بالخدمة العسكرية، وكانت هناك مقاومة كبيرة للتجنيد في الجيش العثماني في أوساط الإيزيديين وخصوصاً لدى إيزيدي سنجار[2].

ففي أوائل عام ١٨٥٥م وصلت الثورة إلى الموصل، حيث شارك حسين بك في الثورة الكوردية بقيادة يزدان شير. وفي هذي الأثناء استولى الثوار في الموصل على مصنع للمدفعية وطردوا ممثلي السلطات المحلية كما استولوا على الخزينة. وقدم الإيزيديون دعماً قوياً لقوات عز الدين شير بسبب استيائهم من السياسة العثمانية تجاههم، ودحر أمير الإيزيدية حسين بك قوة عثمانية مؤلفة من خمسة آلاف مقاتل، واستولى على خمس آليات عسكرية وسيطر على مدينة

(١) كاميران عبد الصمد أحمد الدوسكي، بهدينان في أواخر العهد العثماني، مؤسسة موكرياني، للبحوث والنشر، أربيل ٢٠٠٧، ص ٥٠.

(٢) عدنان زيان فرحان، المصدر السابق، ص ١٣٣.

سعرت[1]، كما انضم إلى الثورة أيضاً إيزيديو سنجار كان لهم الدور الفعال في الاستيلاء على مدينتي الموصل وسعرت[2].

وجدت الحكومة التركية نفسها في وضع صعب للغاية، فالقطعات العسكرية الأساسية كانت مرابطة على الجبهة الروسية التركية، وفي كانون الثاني عام ١٨٠٠م انطلق الجيش من بغداد بقيادة كنغام باشا لمحاربة عز الدين شير، إلا أن هذا الجيش الذي تم تجميعه وعلى عجل من حاميات المدن قد مُني بالهزيمة عند أول اشتباك مع الكرد بالقرب من مدينة سيرت. وانضم إلى الثوار السكان المحليين من العرب واليونانيين، كما لم يُخف الأرمن تعاطفهم مع الانتفاضة[3].

ولم يأخذ من السكان سوى مبلغ معين من المال لصالح الجيش، وكانت القيادة الروسية تأخذ النقود من السكان نقداً لقاء المؤن. وقد أدى سقوط قارص في تشرين الثاني عام ١٨٥٥م إلى وقف العمليات العسكرية على جبهة القفقاس بصورة أساسية. كشفت حرب القرم عن وجود تناقضات عميقة بين السكان الكرد والسلطات التركية، هذه التناقضات التي تجلت بوضوح أثناء انتفاضة عز الدين شير، وفي الوقت ذاته أبدى الكرد تعاطفاً كبيراً مع الروس، كما استمر التذمر في كوردستان بعد الحرب.

---

(١) جليلي جليل وآخرون، الحركة الكوردية في العصر الحديث، ترجمة د. عبدي حاجي، مؤسسة موكرياني للنشر، ط ٢، أربيل ٢٠١٢، ص ٢٧

(٢) عبد اللّٰه علياوي، المصدر نفسه، ص ٦٨، لازاريف، القضية الكردية ١٨٩٦ ١٩١٧ ترجمة: كاوس قفطان، الجزء الأول، بغداد، مطبعة الجاحظ، ١٩٥٩، ص ٥٠.

(٣) جليلي جليل وآخرون، الحركة الكوردية في العصر الحديث، ترجمة د. عبدي حاجي، مؤسسة موكرياني للنشر، ط ٢، أربيل ٢٠١٢، ص ٢٧

وفي عام ١٨٥٦ اندلعت انتفاضة كوردية كبيرة، كانت الحركة قد بدأت في ولاية دياربكر بين عشائر رشكوتانلي[١] وبين الكورد الإيزيديين، كما ثارت منطقة ديرسم الجبلية وجرت اشتباكات بين الكرد والقوات التركية في بالك موش، ووان، وأرضروم. وحسب ما أعلنه، مورافيوف فإن (الاضطرابات المعروضة آنفا يفسرها السكان في باشلك بإيزيد وكأن الكرد والإيزيديون يترقبون وصول القوات الروسية). وقد تجلت ميول الكرد المعادية للأتراك ونضالهم في سبيل الحفاظ على وضع مستقل بعد حرب القرم بصورة أكثر وضوحاً في ديرسم[٢].

اضطرت تركيا في معركة (كريم) إلى سحب جزء من قواتها الحربية المواجهة للجيش الروسي من المناطق الكردية [٣]، واندلعت شرارة الانتفاضة الكردية الأولى من بحطان في مقاطعة هكاري أثناء الحرب الروسية التركية [٤]، وتحطمت القوة العسكرية العثمانية المؤلفة من (٥٠٠٠) جندي، وتمت السيطرة على مخازن الأسلحة الثقيلة في الموصل إضافة إلى الخزينة المالية، و على خمسة مدافع وكان هذا الانتصار للانتفاضة، وتمكن أكراد سيرت من السيطرة على مناطقهم وقتلوا أكثر من قائمقام في المنطقة، ووصل عدد المنتفضين إلى ستين

---

(١) يرأس عشيرة رشكوتا عائلة فليتي قتو / الكردي المسلم والعشيرة مكونة من المسلمين والإيزيدية والمسيحيين، الإيزيدية عائلة محمد تكجا وأقرباؤه. لقاء مع السيد محمد تكجا يوم ٢٠١٧-٧-١١

(٢) جليلي جليل، المصدر نفسه، ص ٣٠

(٣) د ئةفراسياو هةورامي، كورد لة ئةرشيفي رووسياوسؤظيةت دا، ثيَداضوونةوةي كورديةكةي مستةفا غةفوور، دةزطاي موكرياني، هةولير ٢٠٠٦ ،ل ٤٢٣

(٤) باسيل نيكتيين، الأكراد، نقله إلى العربية طائفة من الكتاب، قدم له المستشرق لويس ماسينيون، دار الروائع، لبنان، بيروت ١٩٥٨ ص ١٩٧.

ألف شخص [١]، ووصلت الانتفاضة إلى بتليس ثم الموصل ووان وبغداد[٢]، لكن تعاون الإنكليز مع العثمانيين أخمد الانتفاضة في تشرين الثاني ١٨٥٥م، التي بدأت من جديد سنة ١٨٥٦م على أسس ووعود روسية للأكراد المسلمين والإيزيدية، لكنهم لم يفوا بوعدهم [٣]، كان أكثر مقاتليه من الكورد الإيزديين، وفي الكثير من الأحيان كان الترك يحاربون الإيزدية لأنهم من مقاتلي رؤساء الأكراد ويساندونهم، لذا كانوا يحرضون الكرد المسلمين على محاربة الإيزدية باعتبارها حرباً مقدساً [٤] وفي هذه السنة (١٨٥٥م) اقتاد الأتراك يزدين شير إلى القسطنطينية حيث لقي حتفه، وهكذا أصبح بطلاً وطنياً خلدت الأناشيد الشعبية الكردية ذكراه[٥].

شنكال في عهد حسين بك

عانى جبل سنجار والمنطقة التي كانت قد فصلت إدارياً ومنذ سنوات عن ولاية الموصل وألحقت بدير الزور عانت كثيراً تحت نير الحكم الجائر والقاسي لأحمد بك، أدى تعيين المسؤول المحلي لصفوك آغا الذي ينتمي إلى قبيلة مصقورة ليكون

---

(١) د جليلى جليل، ل ٢٨٠.

(٢) د ئەفراسياو هەورامى، كورد لە ئەرشيفى رووسياوسۆڤيەت دا، ل ٤٢٣

(٣) سعيد خديده، چەند بەر پەرەک ل دور هەلويستێ موسل وبەغدا. ژێدەرێ بەرێ

(٤) kemal tolan ١٣٠٤.

(٥) باسيل نيكتين: مستشرق روسي كبير، ولد سنة ١٨٨٥م في بولونيا، وقد أولى الأكراد اهتماماً في أبحاثه، توفي في باريس سنة ١٩٦٠، من أهم كتبه: الكرد، ينظر: أرشاك بولاديان، الأكراد، ص ١٦٧، ص ١٩٧.

"رئيساً للجبال" إلى نشوب صراعات ونزاعات بين القبائل، وفي ١٨٧٥م قتل أحمد بك وهو يحاول إخماد نار الفتنة، وانتقاماً له قام والي دير الزور بإعدام عدد من الزعماء من ضمنهم صديق لايارد عيسى آغا زعيم مهركان الذي كان قد حارب ضد طيار باشا.[١] وفي ما يقارب هذا الوقت١٨٧٥م اعتقل الأمير حسين بك، ووضع تحت الإقامة الجبرية في الموصل بتهمة إثارة الاضطرابات والمشاكل في شيخان[٢] .

ومع حلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تستمر العلاقات بين الإيزيديين والدولة العثمانية في مجراها الطبيعي، ولكن في شباط عام ١٨٥٣م توترت العلاقات بين الإيزيديين والسلطات العثمانية في ولاية الموصل وخصوصاً بين والي الموصل حلمي باشا (١٨٥١ م ١٨٥٧م) والأمير حسين بك فتدخل الوالي المذكور في الشؤون الداخلية للديانة الإيزيدية وقام بخلع الأمير حسين بك عن إمارة الإيزيديين وذلك لأنه لم يدفع للسلطات العثمانية البدل العسكري المترتب على أبناء طائفته، ولكن يبدو أن السبب المباشر كان رفضه بيع باشا الموصل فرساً من نوع نادر كان يمتلكه رغم أنه دفع فيه مبلغاً ملائماً[٣].

---

(١) إسماعيل بك جول: الأيزيدية في الماضي والحاضر، قسطنطين زريق، بيروت ١٩٣٥،ص ١١٦-١١٨. الدملوجي، ص ٥٠٥. هرمز رسام: آشور وأرض نمرود، ص ٣٠٧-٣٠٨. إدموندز، ص ٦٠-٦٦.

(٢) كيست، ص ٢٧٨

(٣) عدنان زيان فرحان، المصدر السابق، ص ١٣٢.

تم تعيين جاسم بك أميراً جديداً للإيزيدية[1] وبتأييد من حلمي باشا ، ووصف كريستيان رسام هذا الأمير بأنه مكروه لدى الإيزيدية وخاصة عند رجال الدين لذلك كان حكمه قصيراً، وبغية تنصيب الأمير الجديد رافق جاسم بك مسؤول رسمي عثماني مع فرقة مشاة لحمايتهم وإلى بيت الشيخ ناصر الزعيم الديني الإيزيديين في قرية إيسيان[2].

بينما يذكر الدملوجي: عندما قتل علي بك بن حسن بك (المتزوج من روشي ونعام) كان ابنه حسين بك صغيراً، أعلن جاسم بك إمارته على الإيزيدية. وبعد أن أمضى ثلاث سنين في منصب الإمارة كان حسين بك قد كبر واشتدت ساعده، فقتله في قرية × إيسيان " قريباً من باعذرة وقبض على الإمارة. كان لصاحب الترجمة ثلاث أخوات : فتزوج الأولى حسين بك واسمها روشي وتزوج الثانية أخوه سليم بك واسمها × شيرين " وتزوج الثالثة أخوه عبدي واسمها (خمي، وهي أم ميان خاتون بنت عبدي بك) حسين بن علي بك بن حسن بك الذي كان صغيراً عندما توفي أبوه فقبض على الإمارة ابن عمه جاسم بك بن صالح بك. وبعد أن شب وترعرع قتل جاسم بك واستولى على الإمارة. وكانت الملة الإيزيدية

(١) كان لجاسم بك ثلاث أخوات : تزوج الأولى حسين بك اسمها (روشي) وتزوج الثانية أخوه سليم بك واسمها (شيرين) وتزوج الثالثة أخوه عبدي بك واسمها (خمي) وهي أم ميان خاتون بنت عبدي بك. ينظر صديق الدملوجي، الإيزيدية، ط٢ ٢٠١٠، ص ٧٠ بينما يذكر الدملوجي في ص ٧٢ بأن شيرين كانت بنت جاسم بك وتزوجها سليم بك.

(٢) صلاح بابا شيخ ناصر، المصدر السابق، ص ٩٧.

آنذاك معرضة للانقراض بسبب النكبة التي حلت بهم من قبل الأمير الأعور أمير راوندوز عام ١٨٣٢م[١]

حيث دعى حسين بك شخصياً أيضاً وهناك تم احتجازه من قبل القوات العثمانية، لأنه مدين بمبلغ كبير للوالي وفي نزاع حول تسليم مقر الإمارة في باعذرة إلى الأمير الجديد، تحدث جاسم بك مع حسين بك بأسلوب مهين جداً، الأمر الذي أغضب الإيزيديين المتفرجين فأطلقوا النار على جاسم بك فأردوه قتيلاً، وقد حاول أحد أتباع جاسم بك إشهار سيفه في وجه الأمير حسين بك لكن الأخير تمكن من قتله[٢].

وبعد أربعة أشهر وفي شباط من العام ١٨٥٣م، خلع وبصورة فجائية الأمير حسين بك الذي كان يتمتع بشعبية واسعة في أوساط قومه وذلك من قبل حلمي باشا والي الموصل.[٣]

وما مهد لذلك هو الخلاف حول شروط وأحكام البدل عن المجندين الأيزيديين، الشيء الذي كان الأيزديون يدينون به، لكن حسبما قيل: إن السبب الحقيقي وراء ذلك كله كان غضب واستياء الوالي الناجم عن رفض الشيخ ناصر لعرض الباشا بدفع ٢٠٠ قرش (٠ ر ١٦ ر ١) جنيه إسترليني لجواد استولى عليه، وقدر الشيخ قيمته بـ ٢٠٠٠ قرش الأمير الأيزيدي الجديد الذي عينه الوالي حلمي باشا

---

(١) صديق الدملوجي، الايزيدية، ط٢ ٢٠١٠، ص ٧٠

(٢) Cuest, op. cit, p. ١١٠ – ١١١.، كاميران عبد الصمد أحمد الدوسكي، بهدينان في أواخر العهد العثماني، مؤسسة موكرياني، للبحوث والنشر، أربيل ٢٠٠٧، ص ٥١.

(٣) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٩٤، برقية رسام المرقمة (٤) في ٢٦ شباط ١٨٥٣ إلى السفارة، نقلاً عن كيست، ص ٢٦٠.

كان نسيب الأمير حسين بك، والذي يدعى جاسم بك وزوجته اسمها (ميمى)[1]، شاب وصفه كريستيان رسام " بأنه كان ممقوتاً وقوطع من الديانة الأيزيدية من قبل القوالين والشيوخ[2] كان عهده وجيزاً، المسؤول العثماني ترافقه قوة خيالة نصبت جاسم شخصياً "الشيء الذي أبداه امتنانه لسيادة الوالي لتفضله بتعيين أمير آخر وعلق بصورة تبعث الأسى إذ أغرقه موقفه في ديون (قدر كريستيان رسام ديونه بأنها بلغت ١٢٢٠٠٠ قرش أو ١١٠٠ جنيه استرليني).

حول الخلاف الذي نشب بشأن تسليم قصر باعذرة إلى الأمير الجديد، تحدث جاسم بك "بطريقة تنم عن الازدراء وعدم الاحترام تجاه حسين بك، الأمر الذي أدى إلى سخط واستياء الأيزيديين الذين وقفوا وأطلقوا النار على جاسم بك، سحب أحد تابعي جاسم بك سيفه، لكن بالمقابل وجه حسين بك إليه ضربة سيف شديدة[3] .

ركب حسين بك جواده عائداً إلى باعذرة، جمع عائلته وفرَّ إلى جبل سنجار في حين وافق الشيخ ناصر على الذهاب إلى الموصل برفقة المسؤول، وفي الطريق أنقذته جماعة كبيرة من الخيالة الأيزيديين، وخوفاً من الانتقام هجر القرويون في الشيخان بيوتهم تاركين حقولهم غير محروثة.

---

(١) مقابلة مع شيخ ميرزا سينو الختاري يوم ٤-١-٢٠٢٠

(٢) جاسم بك هذا مجهول النسب. وقد أشار صديق الدملوجي إلى صلاته السابقة في كتابه (الإيزيدية) ص ٢٥، وكذلك إدموندز في كتبه (حجة إلى لالش) ص ٣٠ حين ذكر زيجة مير حسين بك "غير القانونية" من امرأة من عائلة عبد اليسك "المنبوذة" من قبيلة شيوخ شمساني، وما من تفاصيل أخرى عن هذا الخلاف كما لم يشر أي كاتب إلى جاسم.

(٣) صديق الدملوجي، الإيزيدية، ص ٢٣.

بعد هذه الحادثة رجع حسين بك إلى باعذرة وجمع عائلته وأمواله وهرب إلى جبل سنجار خوفاً من انتقام السلطات العثمانية التي اقتادت الشيخ ناصر إلى الموصل، لكن تم إنقاذه في الطريق من قبل مجموعة من الفرسان الإيزيديين، وخوفاً من العقاب ترك ساكنو القرى التابعة لمنطقة الشيخان قراهم، وتوجهت قوة عثمانية إلى جبل سنجار لجمع الضرائب ثانية وإلقاء القبض على حسين بك، وكان للتدخل البريطاني مجدداً الفضل في عودة الأمور إلى مجاريها[1].

مصالح كثيرة كانت معرضة للخطر

وقع كريستيان رسام مؤخراً اتفاقاً مع حسين بك[2] بخصوص اقتسام المحصول الزراعي وقام ببناء مخزن جديد في باعذرة[3]، إن فرار الأمير وهجرة العمال الزراعيين في الحقول من القرى عرَّض هذا الاستثمار للخطر، وذلك مباشرة في الوقت الذي كانت ترتفع فيه أسعار الحبوب إثر توقعات نشوب الحرب مع روسيا، وفي شهر نيسان من العام ١٨٥٣م زال قلق نائب القنصل عندما منحه الوالي حق الحجز على محصول الإيزديين[4].

ان إعفاء حسين بك أخذ وقتاً أطول، وفي حزيران لم يعر الباشا اهتماماً لمناشدة الحكومة له بضرورة قيام الجنود بحراسة أمن الحدود، ونظم بدلاً من ذلك حملة

---

(١) المصدر نفسه والصفحة

(٢) حەسەن بەگیّ كۆسە: حەسەن بەک میری ئیّزدیانبوو، كۆسەبوو واتە ریش و سمبیّلی نەبووە.

(٣) كيست، ص ٢٢٢، مقال لوبدل في نيويورك ديلي تريبيون، ص ٥، عدد ٢٦ آذار ١٨٥٣م.

(٤) دوروثي سيلاي فرانك (اليانكي من نيويورك إلى جنات عدن) مخطوط غير منشور، ص ٢٠٦ نقلاً عن كيست، ص ٢٦٢.

تتألف من ٦٠٠ من حاملي البنادق، و ٣٠٠ من خيالة غير نظاميين، و ١٥٠ رجلاً من رجال المدفعية مع ثلاثة مدافع ميدانية كانت وجهتها سنجار، مع تعليمات بضرورة جباية الضرائب المستحقة غير المدفوعة وأسر حسين بك[١].

أعيد حسين بك إلى موقعه لكن تفاصيل إعفائه غير مذكورة

سجلت يوميات لوبدل أنه في الخامس من تشرين الأول ١٨٥٤م زار جميعهم لالش، حيث أخذنا صور دَغَرية ـ التصوير الدَّغَري: طريقة قديمة في التصوير الفوتوغرافي على ألواح خشبية للشيخ ناصر وحسين بك، وهما يترأسان كالعادة مراسيم احتفال الخريف الإيزيدي.

قتل جاسم بك بالقرب من هذا الباب في الشارع، كان الباب خشبياً حينها والآن استبدل بالباب الحديدي.

(١) كيست، ص ٢٦٣، مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٩٤ برقية رسام المرقمة ٨ في ٢٠ حزيران ١٨٥٣م إلى السفارة.

أغنية حول لجوء حسين بك إلى سنجار بعد قتله لجاسم بك.

(حسێن بەگێ "لێ جانێ لێ جانێ") [1]

ئولێ جانێ، لێ جانێ لێ جانێ،
لێ جانێ لێ جانێ،
غەزاڵی، دەڵاڵی بێمرادێ،
سێ زەری وێ چوونە قڕشە،
ئو لێ جانێ، غەزاڵی، دەڵاڵی،
وەیلا ل م بارمایێ،
سێ زەری وێ چوونە قڕشە،
ل کەریەکێ ئو ت بنێڕە بەڕیا شەمالا جوانا،
غەزالە ل گەل یەکی خفشە.
لێ وەیلێ، لێ وەیلێ، لێ وەیلێ،
ئو گاڤا حسێن بەگێ زەری بوو سواری شەهێب بوو،
ئو بەری وی کەتە خانومانێت چیایێ شنگاڵی،
دەرباس کر بۆڕکێ وانکا سەیدە،
گەمیا چەمپەرکاتێ،

---

[1] یەک ژ میرێن ئێزدییان بوو، ب غەدر هاتە کوشتن. ئەڤ ستران ڕەحمەتیێ شێخ موس ل سالا ١٩٧٦ گوتییە.

ئو بەریّ ویّ کەتە بانیا وسڤا ، ماشکێت بەکرا[1]

مالا ئوسیّ دۆغۆ[2] ، ویّ دەمیّ دگۆتنیّ کەلا خوینیا ،

ئەریّ ویّ هنگیّ گۆ دوڤامیّ ،

ب خودیّ دلداریا دلا ل تانا دەستا رِە کفشە ،

وەرە لۆ لۆ لۆ لۆ لۆ لۆ لۆ

ل حاِلی کاکیّ نیزا بەگیّ ب تنیّ بیّ ،

لۆ لۆ...

غەزاِلی دۆڤامیّ ،

مەگری ب هەردۆ چاڤێت خوە د رەش ،

هێسترا نەبارینە ،

ل سەر وی زەبوونیّ شامی قوتکیّ ئەتلەس ،

لاوکیّ م سواریّ شهێب بوو ،

کەکیّ شەمیّ بوو ،

ب شال و شاپکێت بۆتانی بوو ،

ب کورکیّ بە رِێڤی بوو ،

ئی ب چوگانیّ زیڤیّ بوو ،

دەلاِلی بەعەدرا شێخا بوو ،

میر حەجیّ ئێزدیا بوو

---

[1] وسڤا ، بەکرا : د گوندێن ئێزدیاینە ل باکوریّ چیاییّ شنگالیّ .

[2] ئوسیّ دۆغۆ : مەزنیّ عەشیرەتا جوانا بوو .

بەرێ وی کەتە وانکا وانێ،
وانکا سەیدا،
دەرباس کر چەمبەرکاتێ،
بۆڕکێ تەتەرا،
بەرێ وێ کەتە بانیا ئوسڤا، چەمێ بەکرا،
ل مالا ئۆسێ دۆغۆ بوو،
ل کەلا خوینیا بوو، ل ماشکێ بەکرا.

***

وأغنية في مقتل الأمير حسن بك من قبل أمير العمادية زبير بك

عەدلانێ گازی کرێ: گورجی خانمێ،
بلا خودێ ئاڤا نەکە مالا هەر سێ پەیاییێت سریچکە
ب تەحریکا زۆبێر پاشا[1]، دەربەکا لێدانە حەسەن بەگێ[2] کۆسە،
کاکێ چۆل بەگێ، سواریێ بۆزێ، کاکێ چۆل بەگێ،
جە ب خودێ واوێلەکە گران کەتە بەعەد[3] را شێخا،

---

[1] زوبێر پاشا: پاشای ئامێدی بوو
[2] حەسەن بەگێ کۆسە: حەسەن بەک میری ئێزدیانبوو، کۆسەبوو واتە ریش و سمبێلی نەبووە.
[3] ژ تاڤێ حەیا تاڤێ، ئەڤ پارچە ستران هێژا خەلەف حالێ ئاڤێتە سەر ستران شێخ موسی.

حزنی و گریەکی بێتەشە [1] کەتە چیایێ شنگالی،

ئەوێ شەمەلا جوانە مالا حسێنێ [2] دوملینا لۆلۆ،

لۆلۆ، لۆلۆ، دە لۆلۆ، لۆلۆ

جە ت بخێر هاتی میرێ جارێ،

تە ب خێر هاتی.

لۆلۆ عەدلانێ، گازی کرە گورجی [3] خانمێ،

گرێ محەمەد عەرەب بشەوتێ، گرەکی ب شکێرا،

خوەزکە منە ب وێ رۆژەکێ بێ،

گاڤا ل حەسەن بەگێ کۆسە، سواریێ بۆزی، ئەو کاکێ چۆل بەگێ،

ستەنبۆلا شەوتی داینە سەفەتێ زێرا،

لۆلۆ عەدلانێ،

گازی کرە گورجی خانمێ،

بلا خودێ ئاڤا نەکە مالا هەر سێ پەیاییێت سریچکە،

ب خودێ ب تەحریکا زوبێد پاشا،

دەربەکا لێدانە حەسەن بەگێ کۆسە، کەکێ چۆل بەگێ سواریێ بۆزی،

---

[1] کیست، ص٢١٩ . صديق الدملوجي "الإيزيدية" ص ٢٣-٢٤ و ٤٦٩.

[2] حسێن دومەلێن: حسێن دونبلی (دوملی) پاشای شنگال بووە مالا حسێن بەگێ رەشا خوە ئاڤێتبووە مالا حسێن دوملی پاشای شنگال.

[3] مقابلة مع شيخ ميؤزا سينو يوم ٢٠-٢-٢٠٢٠

جه ب خودێ کوشتینه،

میرزا ئاغای شەرەفا،

ئەو شیرینێ دلێ م عەڤدێ بەگێ برا ڤێرا،

لۆ لۆ، لۆ لۆ، لۆ لۆ، لۆ لۆ، لۆ لۆ،

دەلۆ لۆ، دە لۆ لۆ ب خێرهاتی میرێ جارێ.

ژ تاڤێ حەیا ب تاڤێ،

بەژنا حەسەن بەگێ کۆسە زراڤە ژ تایێ سماقێ،

هەچیێ علم و جەوابەکە حەسەن بەگێ کۆسە،

کاکێ چۆل بەگێ ژ مرِە بینێ

ئەزێ بدەمێتێ، ب شەهدەتیا شێخادی رۆژا جەمایێ،

هەر سێ خەلاتێت بەر بەرێ رەواقێ.

دە لۆ لۆ ت ب خێر هاتی جارێ[1].

لاسو، الموسيقي الأعمى، رسم تخطيطي من قبل س.ج.

[1] ژ تاڤێ حەیا تاڤێ، ئەڤ پارچە ستران هێژا خەلەف حالێ ئاڤێتە سەر سترانا شێخ موسی.

مقتل جاسم بك

وفي وقت ما في بداية العام ١٨٤٠ على الأرجح بين ك[١] رانت المؤرخة في شهر كانون الأول من العام ١٨٤١م، وزيارة بادجر وبرزين في خريف عام ١٨٤٣م، انتهى عهد الأمير جاسم بك إلى نهاية عنيفة إذ تقدم حسين بك الابن الصغير لعلي بك الكبير من جبل سنجار إلى قرية إيسيان على مقربة من باعذرة، المكان الذي قتل فيه ابن عمه وانتخب هو أميراً تحت وصاية الشيخ ناصر الذي كان آنذاك بابا شيخ ويقيم في إيسيان[٢].

ويقول شيخ ميرزا سينو الختاري[٣] : حينما تم عزل صالح بك بن حسن بك من السلطة وقتله هاجرت زوجته (روشي) مع ابنها الوحيد (جاسم) [٤]من باعذرة إلى قرى (شريخان، خورسباد[٥]، قرَقوينلي) وعاشت فترة هناك ثم عادت إلى قرية (إيسيان) تم الترحيب بالشاب جاسم حيث بنى قصراً فوق القرية وعين الحراس والخدم والحشم له، وازدادت شعبية واحترام الناس (لجاسم بن صالح بك).

---

(١) Amed gokcen , osmanli ve ingiliz arsiv belgeleerinde yezidiler. Istenbul ٢٠١٢. L ٥٧

(٢) كيست، ص٢١٩ . صديق الدملوجي "الايزيدية" ص ٢٣-٢٤ و ٤٦٩.

(٣) مقابلة مع شيخ ميؤزا سينو يوم ٢٠-٢ -٢٠٢٠

(٤) Amed gokcen , osmanli ve ingiliz arsiv belgeleerinde yezidiler. Istenbul ٢٠١٢. l ٦٠.

(١) ئة ئةز.

الوثيقة العثمانية حول مقتل جاسم بك

ا/م ك ت ـ و م رقم الملف ١٣٠ رقم التسلسل ٨٢ـ١٩١٦١ .

٢٥ جمادى ١٢٦٩ هجري ٤ـ٥ـ١٨٥٤م

القبض على قاتلي أمير الديانة الإيزيدية :

من موظفي الموصل في قضاء شيخان من الديانة الإيزيدية الأمير حسين فيما يخص حق الديانة المذكورة بأنواع الظلم الموصوفة وبعدم قبول من جنابة الحكومة الوصايا والتنبيه ماعدا الجرأة لعدم القبول بغير ذلك التقرب من الديانة المذكورة بالميول الخيرية يستوجب ذلك المذكور استبداله بآخر يشغل مكانه بسبب لزوم الحقيقة من الديانة المذكورة، وبتنصيب جاسم مع الموافقة، وبهذه الوجهة يتوجب إجراء اللازم المذكور حسين، وبعد ذلك يعمل بالزراعة والحراسة ولا يتحرك دون موافقة الدائرة وتم بالتأكيد تبليغه، وحتى المذكور جاسم العازم على الإقامة في قرية إيسيان الواقعة في الناحية المذكورة من أنصار حسين ما يقارب العشرين رجلاً مسلحاً هجموا على المذكور جاسم بالضرب والقتل وجرحوا اثنين من رجاله وفروا، يتوجب إرسال موظفين للتحري عنهما في الأطراف كلها للقبض عليهم وتسليمهم لإجراء المحاكمة والإشعار في وقت توارد تحريراتكم مع ملف الضبط ويصبح الأمر منتهياً، ومن ذلك نشوء الكيفية مجلس الولاية لدى الحوالة وحسب سياق الاستعداد المذكور بالجسارة على الحركة المحرمة بخلاف الموافقة على جواز ذلك الإقدام على التحري وأخذه وكيفية إجراء المحاكمة اللازمة لرأس

الضحايا وعدم ميول هؤلاء إلى الجانب الأجنبي وبخصوص الشروع بالحصول يذكر بإعلام طرفنا بموجب التحريرات التي يتم إجراؤها في سياق همة الأفعال كتب[1].

بسبب تخصيص القصر للسيد جاسم[2]م حدثت منازعة أدت إلى مقتل السيد جاسم الإيزيدي مع علي الإيزيدي، ومن جهة المير السابق تقرر بحقه الإعدام وترتيب الضبط من جديد حسب الأصول.

إلى متصرف الموصل

في ولاية الموصل / ناحية شيخان ـ بسبب تخصيص جاسم القصر لسيادته في قرية باعذرة بين أمير الديانة الإيزيدية جاسم مع المير السابق حسين، اندلعت منازعة بينهم حتى تدخل على الإيزيدي بينهم، المير السابق المذكور ضرب المذكور جاسم بالسيف على رأسه و ساعده الأيمن و يده اليسرى، و ضرب المذكور علي على رأسه ويديه عمداً أيضاً، جرح ومات المذكور جاسم متأثرا بجراحه في الحال وبعد مرور خمسة عشرة يوماً توفي على الإيزيدي.

طلب مناصرو المقتولين إجراء المرافعة اللازمة، أطلق الورثة سراح القاتل، في البداية تم تنظيم كتابين كإعلام شرعي مرسل، لتصفية الديون الواقعة على القنصل الإنكليزي وبحسب ظهور الإشعار أخذت كفالة القنصل الإنكليزي وأخلي سبيله بالبيان، إجراء اللازم من مجلس الموصل بالضبط الإنهاء والكيفية بالتحويل إلى مجلس الولاية لسؤال القضاء الشرعي، فتوى الإعلام المذكور غير

---

[1] Amed gokcen , osmanli ve ingiliz arsiv belgeleerinde yezidiler. Istenbul ٢٠١٢. L ٥٧

[2] تل ـ طر.

موافق لسابق لأحوال الخصوصيات المذكورة تعقيباً للشرع الشريف وبعد الرؤية بالصك الشرعي إنهاء الإعلام وما سيلزم من الإعلامات المذكورة مؤشرة على الهامش وتمت الإعادة في هذا الباب إجراء اللازم لفحوى مقتضى الإعلام وإظهار الهمة في سياق تسير تنظيم الضبط [1].

جاسم - بەگ

٧٦

لۆلاوۆ، لۆلاوۆ، لۆلاوۆ،

جارسم ـ بەگۆ، لۆلاوۆ،

زاڤایێ بیست و پێنج رۆژانۆ،

حنا زاڤاتیێ ل سەر دەست[2] اوۆ،

ئەزج بکم، کولا بۆکا سەر ب خێلی د دلێ مۆمییا بۆرکۆردا شاخ و پەر ڤەداوۆ،

ئە [1] زانم یەکا هاتییە سەرێ جارسم ـ بەگێ م رەبەنێ، نەهاتییە سەرێ یوسڤێ یەبییا ، ژ دەستێ برا د بنێ بیرادا ماوۆ،

ئە زانم، کۆ نەهاتییە سەرێ مەمێ ئالاوۆ، کۆ دەستێ وی ژ دێ و باڤێ وی قەتییاوۆ،

تەخت و تاجێ زێڕێن باژارێ موخورزەمینێ بێ خوەیی ماوۆ،

---

(١) Amed gokcen , osmanli ve ingiliz arsiv belgeleerinde yezidiler. Istenbul ٢٠١٢. l ٦٠.

[2] شيخ كندور كوزلي من شيوخ سجادين من قرية خرشنيا جنوب دهوك

بەرێ وی کەتە وەلاتێ خەریبانێ و خوربەتێ جزیرا بۆتاوۆ،

هەستیێ وی د بنێ سنگدانێدا رزییاوۆ،

لۆ لاوۆ،ن لۆ لاوۆ، لۆ لاوۆ،

جارسم ـ بەگۆ، لۆ لاوۆ،

کەلا چاملی بێلانگێ بشەوتە نیڤێ دنێ،

تلێ [۲] حەمیدییا شەوتێ، خإلی بەرفێ سۆر و زەر کەتنێ،

ئەز چۆمە دیوانا حوسەین ـ بەگێ، خەتیب ـ بەگێ،

میرەکێ بیست و پێنج گوندێ شێخا ، من گۆ،

وە چما دەربەکێ لێدایە بەژن و بالا جارسم ـ بەگێ

من رەبەنێ، تایێ ب تەنێ،

ئەز ڤێگا ل سەر لاشێ جارسم ـ بەگێ خۆ رەبەنێ سەکنیم، سێ نیرێژێ خۆنێ ژ بەژی و بالا زراڤ رژیانە خالا ڤێ گەردەنێ.

لۆ لاوۆ، لۆ لاوۆ، لۆ لاوۆ،

جارسم ـ بەگۆ، لۆ لاوۆ،

بەژنا جارسم ـ بەگێ من زراڤە ژ تایێ ڤێ رحانێ.

وێ شین دکە ل سۆکا بەدلیسێ ل دەڤێ دکانێ،

ئیرۆ چار رۆژێ منە ئەز دگەرم، لەشی جارسم ـ بەگێ من نەخویانێ،

ئەز چۆمە دیوانا حوسەین ـ بەگێ، خەتیب ـ بەگێ، میرەکێ بیست و پێنج گوندێ شێخا ، من گۆ، وە چما دەربەکێ لێدایە بەژن و بالا جارسم ـ بەگێ، لەشا جارسم ـ بەگی من کانێ؟

لۆلاوۆ، لۆلاوۆ، لۆلاوۆ،

جارسم ـ بەگۆ، لۆلاوۆ،

بەژنا جارسم ـ بەگێ من زراڤە ژ تایێ تەنێ،

وێ شین دکە ل تلێ حەمێدییا شەوتێ، دەڤکێ خەتێ،

ئەز چۆمە دیوانا حوسەین ـ بەگێ، خەتیب ـ بەگێ میرەکێ بیست و پێنج گوندێ شێخا، من گۆ، وە چما دەربەکێ لێدایە بەژن و بالا جارسم ـ بەگێ م رەبەنێ، تایێ ب تەنێ؟

ئەز ڤێگا سەر جارسم ـ بەگێ خۆ سەکینم، سێ تیرێژە خۆنێ ژ بەژن و بالا زراڤ رژییا سەر کۆستەکا سەحەتێ.

لۆلاوۆ، لۆلاوۆ، لۆلاوۆ،

جارسم ـ بەگۆ، لۆلاوۆ،

ئە زانم یەکا هاتییە سەرێ یوسڤێ نەبییا، ژ دەستێ برا د بنێ بیرادا ماوۆ.

ئە زانم، کو نەهاتییە سەرێ مەمێ ئالاوۆ، کو دەستێ وی ژ دێ و باڤێ وی قەتییاوۆ،

تەخت و تاجێ زێرێن باژارێ موخورزەمینێ بێ خوەیی ماوۆ،

بەرێ وی کەتە وەلاتێ خەریبانێ و خوربەتێ جزیرا بۆتاوۆ،

هەستییێ وی د بنێ سنگدانێدا رزییۆ.

ويذكر شاكر فتاح قائلاً: بعد فترة من الزمن. وكان ذلك في عهد السلطان (عبد الحميد العثماني) حيث استراح الإيزيديون في هذا العهد أيضاً، وكان (العلي

بك) المذكور ابن اسمه (حسين بك)، انقلب على جاسم بك وقتله وقتل معه شيخ كندور، الرجل الذي ساعده في قتل (جاسم بك) بدلاً عن القيام بمكافأته كما ينبغي. واستعاد أمراء الشيخان قوتهم وسلطتهم فقويت شوكتهم أيضاً، و في عهد حسين بك عمّت الفوضى منطقة الشيخان مرة أخرى، ومع أن حسين بك كان قد زار إسطنبول وابتهج له السلطان عبد العزيز فأظهر له محبته في البداية إلا أنه قبض عليه بعد عودته إلى الشيخان وزجه في السجن ثلاث سنوات، ولما طال سجنه وبدأ الشيب يغزو رأسه دون أن يطلق سراحه اتفق ابنه الكبير (هادي بك) مع أخيه (حسن بك) وأعلن تسلمه منصب الأمير، ثم استولى على السناجق والأماكن الدينية، وشرع يجمع الأموال فلم يرق ذلك لباقي رجال العائلة الأميرية، وظهر عمه (عبدي بك) في الميدان، وانتفض علي هادي بك وأخوته سليمان بك وعلي بك فقتل كل من (هادي بك وحسن بك) في قرية ختارة وتمت استعادة السناجق والأماكن الدينية.[1]

ومن خلال هذه الكوارث كلها يتبين لنا أن أمراء الإيزيدية هؤلاء وبسبب روحهم العدائية ونرجسيتهم وغرورهم لم يتعظوا، بل إنهم لم يستعيدوا وعيهم أو يستفيدوا من عبر التاريخ ودروسه الذي كان يعيد نفسه على مسرح حياتهم باستمرار، وإنما قاموا بأعمال سيئة متى ما سنحت لهم الظروف للقيام بذلك، حتى أن اعتداءاتهم طالت أفراد عائلاتهم. والواقع أن الاخوة الإيزيديين ليسوا الوحيدين الذين يعانون من هذه المحنة بل جميع الأكراد عانوا منها نتيجة التخلف

(١) شاكر فتاح، الإيزيديون والديانة الإيزيدية، ترجمة دخيل شمو الحكيم، بيروت١٩٩٧، ص ١١٥

والجهل. ومن باب الإيمان المطلق سنبقى نفتقر إلى الوطنية والوئام والحب والإخاء ونتعرض إلى المزيد من الكوارث الأخرى، بل وسنظل نعاني من التعاسة والشقاء وداء الجهل والعشائرية. لقد دامت إمارة (حسين بك) أربعين عاماً واستطاع بفضل ذكائه ودهائه ونظرته الثاقبة ومهاراته أن يلم شمل شعبه ويعيده إلى الوجود، بعد موت حسين بك جلس ابنه ميرزا بك على كرسي الإمارة وفي عهده نظم الفريق عمر وهبي بشار التركي العثماني مجزرة أخرى بحق الإيزيديين في الشيخان وسنجار، وكان ينوي آنذاك أن يدخلهم الى الإسلام عنوة. اضطر ميرزا بك وبديع بك إلى أن يعلنا إسلامهما، إلا أن إسلامهما هذا لم يدم أكثر من ثلاثة أسابيع ليعودا إلى ديانتهما، ومات ميرزا بك سنة (١٨٩٤ م) فنصب أخوه علي بك نفسه وريثاً وبقي في سدة الإمارة سبعة عشرة عاماً، إلا إن عهده كان صعباً بالنسبة له وللإيزيديين على حد سواء، فقد كان مليئاً بالمضايقات والعذاب والمتاعب بل إن شعبه ظل يعاني مرارة ظروف العيش وأسباب الحياة، فقد قلت محاصيلهم وخارت سلطتهم ومع ذلك فإن السلطات العثمانية كانت تطاردهم وتلاحقهم وتضيق عليهم الحريات وتكتم أنفاسهم وتعمل على إذلالهم ليس لشيء سوى لامتصاص خيراتهم، بالإضافة إلى أن السلطات العثمانية طالبتهم بأداء الخدمة العسكرية، ولم يكن الإيزيديون يستسيغون ذلك البتة، لأنهم كانوا يعدون هذا الأمر مخالفاً لتعاليم وطقوس ديانتهم، فأراد أمير الإيزيدية إسكات القادة الأتراك عن طريق تقديم الرشاوى الكبيرة إليهم إلا أنه لم يتحقق مرامه بل قتل وهو نائم في سريره إلى جانب زوجته (ميان خاتون)، فنصب ابنه سعيد بك أميراً وكان عمره آنذاك اثني عشر عاماً، وكانت أمه ميان خاتون تشرف علية وترعاه

ولم يكن مقبولاً عند الإيزيديين بسبب تصرفاته فقد كان ميالاً للاستمتاع بالمسرات واللهو وإقامة الولائم فأظهر الإيزيديون في الشيخان وسنجار عصيانهم أكثر من مرة. [1]

فترة احتجازه في السجن :

ألقت السلطات العثمانية القبض على حسين بك في ١٨٧٥م وأودعته السجن مما دعا ابنيه هادي و حسن إلى استغلال غيابه والسيطرة على أموال السناجق، وقد غضب بذلك عمهما عبدي الذي شجع شقيقهما مرزا وعلي على مواجهتهما ، فقتل الأشقاء وسقط كل من هادي وحسن في المواجهة التي أدمت قلب حسين بك فمات من الكمد في سجنه عام ١٨٧٩م وفي السنة نفسها في ١٨٧٩ التقى عبدي بك بالشيخ ناصر وطلب منه إدارة شؤون الإيزيدية.

حيث استأنف الشيخ ناصر مهامه بالاتصال بالقنصل الفرنسي في الموصل وكان في هذا العمر قد أتقن اللغة الإنكليزية فلم يعد يعتمد على قوال يوسف للترجمة له مع الأجانب، وفي عام ١٨٨٣م وسع الشيخ ناصر من نشاطاته فاستضافه نائب القنصل الروسي كارتشوف والمترجم بروسكي واصطحابهما إلى لالش حيث أطلعهما على جانب من أسرار الديانة الإيزدية ومصادر الأموال الميرية والسناجق السبع. وفي عام ١٨٨٩م توفي الشيخ ناصر بعد زيارة قصيرة لعين سفني مسجلاً صفحة وضاءة في تاريخ خدمته لشعبه وعقيدته ووطنه بعد قرن تقريباً كان حافلاً بالسعي الحثيث والنشاط الذي لا يعرف الكلل، ولعله بذلك

(١) شاكر فتاح، الإيزيديون والديانة الإيزيدية، ، ص ١١٦

قد تجاوز جسراً من المخاطر والمذابح.. ليسلم الراية من بعده إلى جيل آخر توجب عليه مواجهة أعتى تحدٍ للوجود الإيزيدي وهو الخط المتمثل بالسلطان عبدالحميد الثاني[1].

وخلال فترة احتجازه قام مقامه في إدارة شؤون إمارة الديانة شقيقه الأصغر عبدي بك(٢)، ووَجدَ اثنان من أبناء حسين بك، هادي وحسن[3] في ذلك فرصة للحصول على السناجق[4]، والاستيلاء على الإيرادات الأميرية، ووقف ابنان آخران ميرزا وعلى في صف عمهما عبدي بك.

---

(١) د. صلاح، من مشاهير الكورد بابا شيخ ناصر مجلة لالش " ١٦ ص ٩٩

(٢) كان يساعد أخاه الأمير حسين بك في أعماله وله مكانة ممتازة في نظر الشعب، وعندما زار لايارد باعذرة كان صغيراً لم يتجاوز العاشرة من العمر وقد رسمه بالقلم وهو جالس على الأرض إلى جانب شقيقه الأمير حسين بك، وبعد مقتل ابني حسين بك (هادي وحسن) وإطلاق سراح حسين بك من السجن، ترك عبدي بك باعذرة واختار الإقامة في قرية بحزاني ثم في قرية ختارة ينظر : صديق الدملوجي، الإيزيدية، ط٢ ٢٠١٠، ص ٧٢

(٣) تزوج هادي من (ماشي) وتزوج حسن من (روشي)وكلتاهما من بسميرية كندالة ينظر : صديق الدملوجي، الإيزيدية، ط٢ ٢٠١٠م، ص ٧٤

(٤) عندما تتم ضيافة القوالين حاملين الطاووس في هذا اليوم المبارك، يكثرون من إحراق البخور وإيقاد الشموع والقناديل يسهرون على حراسة السنجق خوفاً من أن تمتد إليه يد أجنبية.. وينحر صاحب الدار الذي نزل السنجق ضيفاً عليه بقرة أو ثوراً إكراماً له، ويصنع أهل القرية طعاماً وافراً فياكلون ويشربون ويأنسون. وفي اليوم الثاني يضع القوالون السنجق في حقيبتهم ويذهبون به إلى قرية أخرى. ما يقال عن سرقة عدد من الطواويس وتسربها إلى متاحف أوربا اتضح لنا أن الطاووس أو السنجق، هو التمثال الذي يرمز به الإيزيدية إلى إلههم وقد يعبدونه ويقدمون إليه نذورهم وخيراتهم ويحرصون على ألا تقع أنظار الآخرين عليه أو تمتد يد إليه. والأوربيون الذين يحرصون على كل أثر نفيس أو نادر لا يسعهم أن يتركوا متاحفهم خالية من مثل هذا التمثال الذي يمثل الألوهية عند شعب له شأنه وله تاريخه، لذلك

بعد مرور عام، هُزِم المتمردان وقتلا من قبل عمهم (عبدي بك) والشقيقان (ميرزا وعلي) في قرية ختارة/ جنوب القوش مع مجموعة من أعوانهم بعد قتال

اقتنى المتحف البريطاني تمثالاً يقال أنه خرج من معبد لليزيدية في الدهادية ؟ قرب ديار بكر في كردستان عام ١٨٣٨ كان لدى الإيزيدية الساكنين في المنطقة الخالتية، وقد قدمه المستر × أيمر شويغره من كلكتا عام ١٩١٢م للمتحف كهدية. و بحث عن هذا التمثال المستر ر. هـ. و. أمبسن في كتابه × طاووس ملك " المطبوع ي لندن عام ١٩٢٨ وزين به أول صحيفة من كتابه وذكر فيه أنه متشكل من ثلاث قطع ومرتكز على قاعدة ومطلى بالأثمد (الأنتيمون) وقد زينت حاشية ذيله بصور بشر وحيوانات (صور الإنسان والغزال في القسم العلوي منه) ورأسه مرصع بأحجار الفيروز ويبلغ ارتفاعه ٣٥ عقدة. ونحن ننكر أن يكون هذا الطاووس للإيزيدية أو خرج من أيديهم، فإن الطواويس السبعة الموجودة عند الإيزيدية تخالفه شكلاً وحجماً وجميعها على شكل واحد وهي ما بين الحمام والبطة وكل منها يكون من قطعة واحدة، ولا طلاء أو نقوش عليها، وارتفاع أحدها لا يزيد عن ثماني عقد. وإذا سلمنا جدلاً بأن لليزيدية طاووساً على الشكل الذي وصفه و خرج من أيديهم حقيقة فيجب أن يكون قد خرج من الشيخان، لا من الدهادية في منطقة الخالتية في ديار بكر، فالتقليد الديني لم يبح لأحد من الإيزيدية مهما كانت منزلته الدينية أن يكون في حوزته سنجق عدا الأمير الجالس على كرسي الإمارة، ولو كان ليزيدية الخالتية سنجق لوجب أن يكون ليزيدية سنجار وطور عابدين وحلب وبدليس ووان سنجق مثلهم، وهذا لا تجوزه الشريعة الإيزيدية مطلقاً، ثم أين هو معبد الدهادية " في المنطقة الحالية في ديار بكر ؟ نحن واثقون بأنه لا يوجد محل تسكنه الإيزيدية يحمل هذا الاسم في هذه المنطقة لا فيما مضى ولا في الحال الحاضر. وللأب أنستاس الكرملي مقال بعنوان × الاكتشافات الجديدة حول الأسرار الإيزيدية " نشرته مجلة × أنثروبوس " في عددها السابع من سنة ١٩١١ م مع تصوير يشبه تماماً الطاووس الذي أهداه المستر شويغر للمتحف البريطاني وضع مقابل ـ الصفحة ٢٣ من المجلة ذكر فيه : × إن هذا الطاووس هو أحد الطواويس الأربعة المسروقة من قبل رشيد باشا عام ١٨٣٨م وقد عثر عليه في دكان بائع عاديات ببغداد مسلم يسمى علي باعه بعد بضع سنوات إلى مسيحي مثر اسمه فتح اللّٰه عبودا. ولما كان هذا الخبر يخالف التقاليد الدينية الإيزيدية التي تقضي حتماً بجعل الطواويس في حوزة الأمير، ينظر صديق الدملوجي، الإيزيدية، ص ٥٩

شديد، وجاءت والدتهم (نعامي خاتون) متنكرة إلى حيث حُجز حسين بك لتطلعه على ما حدث، فأجاب "إني كنت أفضل سيطرتهم على الإمارة بدلاً من فقدان حياتهم". [١]

يأتي ذكر آخر لمحة عن حياة حسين بك في يوميات رحالة ألماني كانت قد أتيحت له فرصة مقابلته في الموصل في شهر كانون الأول من العام ١٨٧٥، بوجه جهم، في دار قديمة مظلمة وجد الزائرون الأمير مريضاً وهو مضطجع في فراشه في غرفة كبيرة لا تدفئة فيها وليس هنالك أي أثر لأي محادثة قد تكون جرت بينهما، ولكن التعابير التي تلاحقك في نظرات عيونه، أقنعت كاتب اليوميات بأن هناك أساس لما يشاع بأن حسين بك المأسوف على خيانته لعائلته وطائفته له كان يكرس حياته الكئيبة لشرب الخمر وإشباع رغباته وشهواته الحسية في محاولة فاشلة لإبعاد شبح خوفه من أن يقتل من قبل أعدائه. [٢]

وبعد ثلاث سنوات من الإقامة الجبرية أطلق سراحه، لكن سلطته كانت قد تقلصت، كانت الصلاحيات المطلقة قد سُحبت من الأمير والتي كان قد تمتع بها سابقاً، و نصب في مكانه إداري عثماني في باعذرة [٣]، وكانت القضايا الإجرامية تأخذ مجراها عبر إجراءات قضائية في نظام المحاكم العادية، تم إطلاق سراح حسين بك من السجن في عام ١٨٧٥ (بعد أشهر قليلة من اعتقاله) ولكن

---

(١) الدملوجي، ص ٥٧٥. أدموندز، ص ٣٠.

(٢)كيست، ص ٢٧٨-٢٧٩، كوستاف باولي: Von Hosn kefa am Tigis bis Bagdad.

(٣) كيست، ص ٢٧٨- ٢٧٩

تدهورت صحته، وتوفي حسين بك كسير الفؤاد، عام ١٨٧٩م وهو في الخمسين من عمره. [١]

الهجرة الى روسيا

نتيجة للسياسات العثمانية الشمولية، فر عام ١٨٧٧م جزء من اليزيديين إلى روسيا مرة أخرى. تحت قيادة ابن شقيق ميرزا بيك، علي بك، استقر حوالي ٣٠٠٠ من اليزيديين حول الكسندروبول. هاجرت قبيلة Sipki ، بقيادةEmer Axa ، إلى Kars بين ١٨٧٩-١٨٨٢م، التي كانت بعد ذلك تحت الحصار الروسي واستقرت هناك. وفقًا لتعداد عام ١٨٩٧م، عاش حوالي ١٥٠٠٠ من الأيزيديين في منطقة ما وراء القوقاز في روسيا. تشير التقديرات إلى أن هذا العدد ارتفع إلى ٤٠،٠٠٠ في عام ١٩١٦م. [٢]

في السنوات ١٨٩١-١٨٩٢م، شنت الإمبراطورية العثمانية هجمات إبادة جماعية على اليزيديين. هذه المرة كان الهدف هو إزالة الايزيديين، الذين انخفض عددهم إلى مليون، بالكامل وإزالتهم من التاريخ.

غادر الموصل إلى اسطنبول في ربيع عام ١٨٩١م وفدا من اربعة أشخاص (جنديان و اثنان من الملالي) نقلوا أوامر السلطان عبد الحميد (١٨٧٦-١٩٠٩م).

---

(١) الدملوجي، ص ٢٤-٢٥. فيتال كونيه: المجلد الثاني، ص ٧٧٤. وثائق الخارجية الفرنسية: الموصل، المجد الثاني، الملفات ٣٠٧ ر- ٣١١ ف، برقية سيوفي المرقمة ٨١ في ٣ نيسان ١٨٨٢ إلى الوزارة.

(٢) يو. س. كارتسوظ: Zametke o turetskikh yezidakh د. ل. إي. بروظسكي: الإيزيدية ودينهم. لقاء مع الأميرة ونسة الأموي في تشرين الأول ١٩٨٣م.

وجاء في الرسالة التي بعث بها عبد الحميد للوفد أن الايزيديين من أصل مسلم وأنه تقرر إعادة اليزيديين إلى دين "الحقيقة". وبصرف النظر عن ذلك، ذكّرت الرسالة أيضًا بأن الايزيديين لم يدفعوا ضرائب عسكرية لمدة عامين. في يوليو ١٨٩١م، تم استدعاء الايزيديين إلى الموصل لترحيلهم من قبل السلطات العثمانية. الملابس الزرقاء، التي يكرهها الإيزيديون كثيرًا، كان يرتديها ٢٢ سجينًا أيزيديًا، بما في ذلك ميرزا بك. كان هذا ازدراء كبير للايزيديين[١].

نهاية حسين بك

يذكر د صلاح: في عام ١٨٧٢م حدثت مشادة بين حسين بك وحلمي باشا وذلك لسببٍ من أنه كان لحسين بك حصان باهظ الثمن، دفع لقاءه حلمي باشا باون ونصف وأراد شراءه لكن حسين بك رفض وقال: إن ثمنه يزيد عن خمسة عشر باوناً وأنه لن يبيعه للباشا حلمي مما دعا الباشا إلى فصله من المير.

ثم عين حلمي باشا جاسم بك أميراً بديلاً عن حسين بك، وبعد أيام من ذلك زار جاسم بك قرية إيسيان ونزل ضيفاً على الشيخ ناصر وكان حسين بك ضيفاً نازلاً عنده في الوقت ذاته، وعندما التقى حسين بك بجاسم بك تحدث جاسم بك بلغة غير متحشمة مع حسين بك الأمر الذي أغضب الإيزدية فبادروا إلى إطلاق النار على جاسم بك وأردوه قتيلاً ما دفع أحد حراسه إلى سحب سيفه وبالمثل فعل حسين، فاستلّ سيفه وضرب الحرس وقتله، كل ذلك حدث في إيسيان في غياب الشيخ ناصر.

---

(١) كيست، ص ٢٣٧

وفي الليلة التالية عمد حسين بك إلى السفر إلى باعذرة مع أبنائه الأربعة وأمواله وهرب إلى جبل شنكال خوفاً من انتقام السلطات العثمانية التي تحركت فعلاً باتجاه إيسيان واقتادت الشيخ ناصر إلى الموصل وفي الطريق اعترض الإيزدية رجال الخيالة العثمانية بالسلاح، وكان الشيخ ناصر قد طلب منهم اللجوء إلى جبل شنكال وترك حقولهم إلى حين تهدأ الأوضاع وتعود الأمور إلى مجاريها الطبيعية، ومجدداً كان للتدخل البريطاني الفضل في عودة الشيخ ناصر إلى إيسيان[1].

السلطة ما بعد حسين بك

وتنازل علي بك (الابن الأكبر لحسين بك) عن الإمارة لأخيه الابن الثالث ميرزا بك ولم يستجب الابن الثاني للأمر كأخيه الأكبر، وبعد مجادلات ومشادات حادة ركب الأخوان مسلحين بكامل أسلحتيهما متوجهَين نحو الجبل المطل على (عين سفني/ مركز قضاء الشيخان الحالي) إلى أن غابا عن الأنظار خلف القمة، وبعد برهة رجع ميرزا بك وحيداً ونودي به أميراً ثم وبعد تعويض مناسب صودق عليه أميراً.[2]

(١) . صلاح سليم علي، إدارة الموصل في عهد إينجة بيرقدار محمد باشا، ومقاله بعنوان (شيخ ناصر) مجلة لالش الثقافي، العدد ١٦، دهوك ٢٠٠١ م.

(٢) يو. س. كارتسوظ: Zametke o turetskikh yezidakh د. ل. إي. بروظسكي: الأيزيدية ودينهم. لقاء مع الأميرة ونسة الأموي في تشرين الأول ١٩٨٣م.

طيلة فترة قيامه مقام الأمير كان عبدي بك يحكم الإيزيديين ويساعده في ذلك المخلص الشيخ ناصر [١] وبدافع اللهفة إلى استحصال [٢] معلومات عن الأيزيديين، كان نائب القنصل سعيداً عندما قام الشيخ ناصر بزيارته في العام ١٨٧٩م وكان قد[٣] جاء إلى الموصل لمقابلة الوالي حول الخلاف الناشب بشأن دفع ضريبة بدل الخدمة، ويصفه سيّوفي بأنه: "رجل يقارب الستين من عمره، له ملامح ودية تنم عن الذكاء ويتميز سلوكه بالتواضع والتأدب الجمّ والصدق والوقار، وكان يرتدي ثوباً طويلاً وعليه سترة فرو تغطيها جبة صوفية سوداء ويضع على رأسه عمامة بيضاء ملفوفة حول غطاء رأس أسود اللون، شبيه بتاج البابا المثلث الشكل".

بعد إطلاع نائب القنصل على أن ميرزا بك كان لا يزال بانتظار اعتراف الحكومة به أميراً كشف الشيخ ناصر ـ ولأول مرة ـ عن مصادر[٤] الواردات الأميرية، لسنوات عديدة كان القوالون يزورون المجتمعات الأيزيدية المنتشرة والمتبعثرة بُغية جمع التبرعات حاملين معهم السناجق المقدسة لإثبات سلطتهم وصلاحيتهم، وكانت هناك سبعة أو ثمانية سناجق لكن الآن توجد خمسة فقط، يحتفظ المسيحيون في الموصل بأحدها امتناناً لدين لهم على حسين بك، وآخر كان في الحقيقة بحوزة سيَوفي حيث ابتاعه بعد فترة وجيزة من وصوله إلى الموصل .

(١) الدملوجي، ص ٢٥ و ٤٧٠. إسماعيل، ص ٢.
(٢)المصدر نفسه والصفحة
(٣) كيست، ص٢٨٥
(٤) كيست، ص٢٨٥

ذكر نائب القنصل ٨٣٦٠ أيزدياً و ٥٤٠ مسلماً وقال: لا مسيحيين يعيشون في الثماني عشرة قرية في الجبال، المنطقة الإدارية التي ـ(١) ضمت في حينها تلعفر أنتجت سنوياً خمسمائة ألف بوشل من القمح والشعير، ودفعت خمسمائة ألف قرش (٤٥٠٠ جنيه سترليني) للضرائب[٢]

المصادر:

ـ جون س كيست، الحياة بين الكورد، تاريخ الإيزيديين، ترجمة عماد جميل مزوري، دار سبيري(٣)ز، دهوك ٢٠١١م.

ـ السير أ. هنري لايارد "سيرة ذاتية ورسائل" طبعة دبليو. بروس، ج ٢.

ـ لايارد " نينوى وبقاياها " ج ١، ص ٣٠٩ـ٣٢٤ و ج ٢.، دار المأمون بغداد ١٩٩٨م

ـ أوستن هنري لايارد، نينوى وآثارها، المجلد الأول، ترجمة خضر علي سويد، بيروت ٢٠١٨م

ـ مكتشفات أرمينيا ـ وكردستان ـ مكتشفات أطلال نينوى وبابل مع رحلات إلى أرمينيا وكردستان والصحراء للآثاري البريطاني أوستن هنري لايارد ترجمة شيرين بيش مراجعة وتحرير د أحمد أبيش، هيئة "أبو ظبي" للسياحة، دار الكتاب الوطنية، ٢٠١٢م.

(١) AE / CPC، الموصل، المجلد ٢، برقية سيوفي ذات الرقم ٩٧ في ١٤ حزيران ١٨٨٣، و ١٣١ في ١١ كانون الأول ١٨٨٥م إلى الوزارة، نقلاً عن كيست، ص٢٨٧.

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) د صلاح، بابا شيخ ناصر، مجلة لالش العدد ١٦، دهوك ٢٠٠١م، ص ٩٧

ـ أغناتييف بريزين، زيارة لليزيدية في العام ١٨٤٣م، ترجمة جرجيس فتح اللّه، دار آراس، أربيل ٢٠١٢م.

ـ هنري فيلد، جنوب كوردستان دراسة أنثروبولوجية، ترجمة جرجيس فتح اللّه، دار آراس، أربيل ٢٠١٢م.

ـ صديق الدملوجي،الإيزيدية، ط٢، ٢٠١٠م.

ـ جون أشر: مشاهدات جون أشر في العراق، ترجمة جعفر الخياط، بيروت ٢٠٠٧م.

ـ أوربيون في العراق، مشاهدات جون أشر في العراق، ترجمة جعفر الخياط، دار الوراق ٢٠٠٧.

ـ جون س كيست، الحياة بين الكرد.. تاريخ الإيزيديين، ترجمة عماد جميل مزوري، سبيريز، ٢٠٠٥.

ـ رحلة ريج، المقيم البريطاني في العراق عام ١٨٢٠ إلى بغداد ـ كردستان ـ إيران"، كلوديوس جيم ريج. نقلها إلى العربية بهاء الدين النوري (الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٨ م).

ـ أرشد حمد محو، الكورد الايزديون في كتب الرحالة البريطانيين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية آداب جامعة دهوك، ٢٠٠٩.

ـ صديق الدملوجي، الإيزيدية، الموصل ١٩٤٩م.

ـ عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث، دار الكاتب للطباعة والنشر،١٩٦٨.

-عدنان زيان فرحان، الكرد الإيزديون في اقليم كردستان، مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية، السليمانية ٢٠٠٤م..

ـ علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ١٨٧٦ ـ ١٩١٤م، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، بغداد دار ومكتبة دجلة للتراث.

ـ باقر ياسين، تاريخ العنف الدموي في العراق، الطبعة الأولى، ترجمة حمه صالح كلالي، السليمانية، مطبعة داناز، ٢٠٠٤م.

ـ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج ٧، بغداد ١٩٣٥م.

ـ عبد اللّٰه علياوي عبداللّٰه علياوي، كوردستان لةسةردةمي دةولةتي عوسمانيدا، ض ٣، كتيبخانةي ئاويَر، هةولير ٢٠٠٤م.

ـ داود مراد الختاري، الحملات والفتاوى على الكورد الإيزيديين في العهد العثماني، سبيريز، دهوك ٢٠١٢م.

ـ كاميران عبد الصمد أحمد الدوسكي، بهدينان في أواخر العهد العثماني، مؤسسة موكرياني، للبحوث والنشر، أربيل ٢٠٠٧م.

ـ م. س. لازاريف وآخرون، تاريخ كوردستان، ترجمة د عبدي حاجي، دار سبيريز للنشر، دهوك ٢٠٠٦م.

-لازاريف، القضية الكردية ١٨٩٦ ـ ١٩١٧م ترجمة: كاوس قفطان، الجزء الأول، بغداد، مطبعة الجاحظ، ١٩٥٩م.

ـ جليلي جليل وآخرون، الحركة الكوردية في العصر الحديث، ترجمة د. عبدي حاجي، مؤسسة موكرياني للنشر، ط ٢، أربيل ٢٠١٢م

ـ د ئەفراسياو هەورامى، كورد لە ئەرشيفى رووسياوسۆڤيەت دا، پێداچوونەوەى كوردييەكەى مستەفا غەفوور، دەزگاى موكريانى، هەولێر ٢٠٠٦م

ـ باسيل نيكتيين، الأكراد، نقله إلى العربية طائفة من الكتاب، قدم له المستشرق لويس ماسينيون، دار الروائع، لبنان، بيروت ١٩٥٨م

ـ سعيد خديده، چەند بەر پەرەک ل دور هەلويستێ موسل وبەغدا.

ـ أرشاك بولاديان، الأكراد من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادي وفق المصادر العربية، ترجمة مجموعة من المترجمين، دار التكوين، دمشق ٢٠٠٤م

ـ إسماعيل بك جول: الإيزيدية في الماضي والحاضر، قسطنطين زريق، بيروت ١٩٣٥م

ـ كاميران عبد الصمد أحمد الدوسكي، بهدينان في أواخر العهد العثماني، مؤسسة موكرياني، للبحوث والنشر، أربيل ٢٠٠٧م

- Johannes duchting diroka kurden êzidî wergêr rêzan demir laliş (١١) almanye ١٩٩٩.

ـ شاكر فتاح، الإيزيديون والديانة الإيزيدية، ترجمة دخيل شمو الحكيم، بيروت١٩٩٧م

ـ صديق الدملوجي، الإيزيدية، ط٢ ٢٠١٠م

ـ الكورد الإيزيديون في كتب الرحالة البريطانيين من مطلع القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الأولى, رسالة ماجستير غير منشورة.

ـ د. صلاح، من مشاهير الكورد بابا شيخ ناصر مجلة لالش " ١٦

ـ سعيد الديوجي، الإيزيدية، المجمع العلمي العراقي، ١٩٧٣م

ـ الدكتور سامي سعيد الأحمد، الإيزيدية، ١٩٧١م

المجلات :

ـ شمو قاسم دنايي، الرحالة البريطاني هنري لايارد هل كان منصفاً في حق الإيزيدية، مجلة لالش (٢٤) دهوك ٢٠٠٦م

ـ Kemal tolan rewşa ezidyan di dema impiratoriya osamaniye de laliş (١٦) dihok ٢٠٠١.

ـ أرشد حمد، ميركه ها شيخان لسه ر دمى حسين بك، ناميلكه سەنته رى بيشكجى

ـ مقابلة مع شيخ ميؤزا سينو يوم ٢٠-٢-٢٠٢٠م

ـ مقابلة مع شيخ ميرزا سينو الختاري يوم ٤-١-٢٠٢٠م

- لقاء مع جوزت خالتي بتاريخ ٤-٨-٢٠١٩م في مدينة هانوفر الألمانية، الذي كتب عن لايارد في الصحف والمجلات باللغة الألمانية.

علاقة لايارد

مع بابا شيخ (شيخ ناصر بن شيخ رشي)

المقدمة

يسرد التاريخ جميع الأحداث بالفعل السلبي والإيجابي، عندما يتحرك الأمير أو المرجع الديني من أجل إنقاذ ملته من محنة ما فذلك من واجبه أولاً، وثانياً يعتبر إنجازاً تاريخياً له تجاه ذلك المجتمع الذي تحت إمرته أو العائد إليه، على الرغم من أن واجبات المرجع الديني (بابا شيخ) إرشاد الإيزيدية من خلال الاجتماعات الدينية وزيارة القرى والإجابة عن التساؤلات المتعلقة بالأمور الدينية وتوضيحها ومن جهة أخرى تحديد مواعيد الأعياد الدينية وزيارات المعبد وأداء المراسيم الدينية في تلك الأعياد الرسمية، لكن شيخ ناصر كان يمتلك الرؤيا البعيدة لمستقبل الإيزيدية وكيفية المعالجة الآنية لمشاكل الإيزيدية والانفتاح نحو العالم الخارجي وتوطيد العلاقات مع الأجانب الذين يمتلكون اليد الطولى في الدولة العثمانية، ولابد من إيجاد الحلول المطلوبة مع ولاة الموصل وسلاطين الدولة العثمانية عبر طرف ثالث ويفضل أن يكون ذلك الطرف أجنبياً، وهكذا نجح بالاتفاق مع الأمير حسين بك ووجهاء الإيزيدية .

حيث قدم دعوة إلى عالم الآثار أوستن هنري لايارد ورافقه في حضور عيد (جما) في معبد لالش، برغم أنه ليس من عادة الإيزيدية تقديم دعوات إلى الناس لحضور هكذا مناسبات ومراسيم الدينية في المعبد، ويرحب المجلس الروحاني بجميع الزوار من الإيزيدية ومن الأديان والملل الأخرى، لكن للضرورة أحكام، لبى لايارد تلك الدعوة وتجول مع شيخ ناصر (بابا شيخ) في كافة أجزاء المعبد حيث شرح له بالتفصيل عن قدسية المعبد وكيفية أداء المراسيم، ومن ثم طلب منه التعاون مع الإيزيدية للخروج من مأزق هو سوء العلاقات بين الإيزيدية

والعثمانيين ومطالبة الأخير بأداء الإيزيدية الخدمة العسكرية الإلزامية، علماً بأنه تم إعفاء الأديان والمعتقدات الغير المسلمة جميعها من الخدمة الإلزامية وكنا من ضمنهم، ولكن الآن يطالبوننا بالانخراط في الخدمة أسوةً بالمسلمين، تعهد هنري لايارد بذل قصارى جهده مع السفارة البريطانية في إسطنبول لإيجاد حل لكافة المشاكل الإيزيدية مع الدولة العثمانية .

الشيخ ناصر/ بابا شيخ الإيزيدية

ولد الشيخ ناصر عام (١٨٠٧ وتوفي ١٨٨٩م) لأسرة نبيلة من شيوخ الايزدية ـ شيوخ الشيخ فخر وترعرع في قرية إيسيان القريبة من باعذرة وكان يتلقى تعليمه في كنف أسرته، ويقول جون كيست (تحتفظ بمكتبة فيها معظم الكتب عن الإيزدية فضلاً عن مؤلفات في التراث الصوفي والتاريخ والبلدانيات) [١] رسمه لايارد، من كتابه بابلون

ويتم دفن جميع من يتوفى من البابا شيوخ في مقبرة (مهدر) في قرية بوزان[٢] الواقعة شرق ناحية القوش بمسافة (٥) كلم، ومن الشيوخ الذين حملوا مهام بابا شيخ وجلسوا على سجاد (ملك فخرالدين).

---

(١) د صلاح،بابا شيخ ناصر، مجلة لالش العدد ١٦ ، دهوك ٢٠٠١م، ص ٩٧

(٢) بازيد البسطامي: وهو زين الدين بن بابير مقدار بن طيفور بن عيسى بن سروشان، ولقب بالباز(بازيد) وكذلك لقبوه (بازيد الرماح) لشهرته برمي الرمح ويسمونه الإيزدية (بازيدىَ رم زراف) وكذلك يكنى بازيد البسطامي نسبة إلى مدينة البسطام التي كانت يعيش فيها أجداده وعشيرته البسطاميون، ولقبوه بالاختيار لأنه تسلم منصب (اختياري مةركة هـ) في لالش وهو منصب بابا شيخ في العقيدة الإيزدية، ولد زين الدين في مدينة يزد الإيرانية حوالي ٣٧٦هـ ٩٨٩م، وكان عمره ست سنوات عندما هاجر والده بابير من مدينة يزد إلى قرية (كرفقير) في

شجرة عائلة بابا شيخ ناصر /

من تصميم حفيده سلام شيخ رشيد / من مجمع مهد ـ شيخان

كوردستان العراق، للمزيد : ينظر، ريسان حسن البسطامي، بازيد البسطامي الاختيار عند الإيزدية، إربيل ٢٠٠٠م، ص ٩.

١ـ ئيزدي نمير ـ بازيد البسطامي، كان الاثنان اختيارية مركه هـ، ولم تكن هناك سجادة الجلوس آنذاك.

٢ـ شيخ فخرالدين / وهو أول من جلس على السجادة كاختيار مركه ه(١)ـ.

---

(١) شيخ ناصر (بابا شيخ) (١٨٠٧ ـ١٨٨٩م) ولد في أسرة نبيلة من شيوخ (شيخ فخرالدين)، وترعرع في قرية إيسيان/قضاء شيخان والقريبة من باعذرة، وكان يتلقى تعليمه في كنف أسرته التي تحتفظ بمكتبة تضم معظم الكتب عن الإيزدية فضلاً عن مؤلفات في التراث الصوفي والتاريخ والبلدانيات، من أبرز نشاطه، توثيق الأواصر بين شيوخ وأمراء الإيزدية في جبل شنكال، لاسيما إيزدية المهركان، وكرس أموال السناجق لتجديد ضريح الشيخ آدي، وكنشاط سياسي، في عام ١٨٤٣م استقبل الروسي برجين والإنكليزي بادجر واصطحبهما إلى لالش، وفي آذار١٨٤٣م استقبل شيخ ناصر في إيسيان البعثة التبشيرية الأمريكية برئاسة عزاريا سميث الذي قدم له هدية من الخزف الصيني وطلب منه سنجقاً (رمز الطاووس). استمر شيخ ناصر بإدارة شؤون الإيزدية وإرسال السناجق إلى موطن الإيزدية في أرمينيا و سوريا وتركيا وشمال العراق وخصص وارداتها لإغاثة الفقراء وتكريس الأهداف الدينية من خلال حل مشكلات الديانة في كل مكان، سنة ١٨٤٥م تعرض الإيزدية في شنكال إلى حملة إبادة بقيادة قرتلي أوغلو وتصدى شيخ ناصر لهذه الحملة بإرسال المتطوعين الإيزدية، لصدها مما دعا السلطات العثمانية إلى إصدار أمر باعتقاله وإرسال قوة عسكرية لتنفيذ الأمر، إلا أن السيد (سينو) من أتباعه ذكر لهم بأنه هو شيخ ناصر فاقتادوه بدلاً عنه إلى الموصل حيث تلقى تعذيباً بالنيابة عن بابا شيخه ولم يفشِ السر حفاظاً على كرامة الشيخ ناصر ومكانته الروحية بين الإيزدية.

في عام ١٨٤٦م عين طيار باشا واليا على الموصل وكان موالياً للأوربيين وعرف الشيخ ناصر بالموقف الودي للوالي تجاه الأوربيين، وتوجه إلى حسين بك وأقنعه بالتوجه إلى البريطاني هنري لايارد وكرستيان رسام ودعوتهما إلى إيسيان وكان كريستيان نائب القنصل البريطاني في الموصل واعتذر لكثرة مشاغلته إلا أن هنري لايارد قبل الدعوة وصاحب الشيخ ناصر بسرور إلى إيسيان وأثناء الاستضافة شرح لهانري التهديدات التي تعرض إليها الإيزدية وطلب منه التوسط عند الوالي طيار باشا لصالحهم، قبل لايارد ذلك وطلب من الشيخ ناصر زيارة باعذرة ومنها إلى لالش فقبل الشيخ ناصر بذلك وعين دليلا له وهو سينو وعندما وصل لايارد باعذرة

٣ـ شيخ بدر ـ ويقال شيخ آقوب.

٤ـ شيخ خوشينا.

٥ـ شيخ سارا.

٦ـ شيخ ختاري.

٧ـ شيخ عيدو.

٨ـ شيخ جم.

٩ـ شيخ مشحل

١٠ـ شيخ سام.

١١ـ شيخ ميرؤ.

١٢ـ شيخ درويش.

١٣ـ كؤجك بريم، ويقال من (١٨٣٣ـ ١٨٤٤م)، بينما تذكر الروايات حينما جاء الفارس (درويش عبدي الذي استشهد عام ١٧٩٠م) إلى المعبد كان الجالس على سجادة ملك فخرالدين كوجك بريم أي بابا شيخ.

١٤ـ شيخ رشكي مواليد ١٨٤٣م.

١٥ـ شيخ ناصر بن شيخ حسين بن شيخ رشكي ١٨٤٤م ـ

١٦ـ شيخ علي بن إبراهيم بن أوصمان بن شيخ ناصر ١٩١٨م.

ولدت زوجة حسين بك طفلاً سماه لايارد علي تخليداً لذكرى والد حسين بك الذي استشهد في راوندوز وبعد أيام صحب حسين بك لايارد إلى لالش وهناك التقوا بالشيخ ناصر الذي سبقوهما ويخبرنا لايارد عن الشيخ ناصر بأنه (شخصية جذابة يتصف بلطف الطباع والسلوك المهذب والذكاء السياسي)، للمزيد ينظر، جون كيست، تاريخ الإيزدية، وكذلك الدملوجي في كتابه الإيزيدية، ومجلة لالش العدد (١٦) آب ٢٠٠٦م، ترجمة د صلاح.

١٧ـ شيخ إسماعيل بن حجي شيخ إبراهيم بن شيخ أوصمان (١٩١٨م ١٩٢٢م).

١٨ـ شيخ حجي ناصر بن شيخ علي (١٩٢٢م-١٩٥٤م).

١٩ـ شيخ حجي بن شيخ إسماعيل (١٩٥٤ـ ١٩٧٧ م)، توفي بتاريخ ١٤/ ١٠/ ١٩٧٧م وجرت مراسيم الدفن بوضعه على الأكتاف بمسافة أكثر من كيلو متر وبحضور جمع غفير من المعزين من الإيزيدية والمسيحية والإسلام(١).

٢٠ـ شيخ الياس بن شيخ حجي بن شيخ ناصر بن شيخ علي (٣/ ١٢/ ١٩٧٧ـ ٧/ ٦/ ١٩٩٥م).

٢١ـ شيخ ختو بن شيخ حجي بن شيخ إسماعيل (١١/ آب/ ١٩٩٥م)١ تشرين الاول ٢٠٢٠م). [٢]

٢٢ـ شيخ علي (تولد ١٩٧٩م) بن شيخ الياس بن شيخ حجي بن شيخ ناصر بن شيخ علي ١٥ـ١١ـ٢٠٢٠

يعتبر بابا شيخ ناصر من الشخصيات الفذة والمرموقة في تاريخ الكورد الإيزدية، استطاع أن يدير كفة الصراع المحلي والإقليمي الذي واجه بني جلدته أيام توليه منصبه بكل حكمة ودهاء،

(١) هذا ما أخبرني نجله المحامي عيدو بابا شيخ بتاريخ ٢/ ٤/ ٢٠٠٨

(٢) جون س كيست، الحياة بين الكورد، تاريخ الإيزيديين، ترجمة عماد جميل مزوري، دار سبيريز، دهوك ٢٠١١ص. ٢٣٠

كان ذو حنكة وخبرة في الأمور السياسية والاجتماعية والدينية قل نظيرها في تلك الظروف العصيبة بين أفراد عمومته.

تجدر بنا الإشارة إلى أن الشيخ ناصر كان أميناً على أسرار العقيدة الإيزدية وكان يعرف مصادر السناجق السبعة وأسرارها وأماكن تواجد الإيزدية في الأقاليم وكيفية الحصول على الموارد الأميرية وتخصيصاتها وكان يتميز بالكرم حيث ما برح مديوناً بسبب سخائه وإنفاقه على ضيوفه من البعثات التبشيرية والآثارية ومحاولات تمشية أمور الإيزدية لدى الدولة، كما في الاقتداء والوصاية والكفالة وما إلى ذلك فقد أنفق على جون باون من جعبته في التبشير للكنيسة الكندية مبالغ طائلة، وكان بصحبة جون باون كارل ساندر سسكي من بافاريا كما قابل هنري الويدل الأمريكي عام ١٨٥٢م وعندما طلب لوبدل الكتب المقدسة من الشيخ ناصر لم يمنع عنه هذه الكتب للاطلاع أو الاستنساخ، وذلك لأن الكوجك رفض إطلاع لوبدل على هذه الكتب وكانت مجمل ديون الشيخ ناصر على ضيوفه قد بلغت ١١٠ باون (١٠) [1]

اتبع بابا شيخ ناصر سبل عصرية سلمية ودبلوماسية في حل المشاكل المستعصية التي واجهت الإيزدية في عصر افتقدت السبل العلمية في (٢)مواجهة القضايا المصيرية للكورد الإيزدية سيما أن القوى المعادية لم تكن تفهم بغير كفة البابا نام القوة والبطش وسفك الدماء وكان في مواجهة المشاكل الداخلية بين أبناء الإيزدية بالمرصاد ولم يبتعد عنها إلا بعد أن يتم حلها.. ضرب بابا شيخ ناصر

(١) جون س كيست، ص. ٢٣٠

د. صلاح، من مشاهير الكورد بابا شيخ ناصر مجلة لالش " ١٦ ص ٩٦(٢)

صفعة في العلاقات الدولية والإقليمية حيث استقبل البعثات الأجنبية المختلفة بكل رحابة صدر ووجه الرسائل عبر مبعوثيه إلى مراكز القرار في الآستانة والمدن والمناطق المجاورة، حقيقة كان شخصية يُحتذى بها ويُعتَمد عليها، شخصية ساهمت مساهمة فعالة في إحياء الوجود الإيزدي واستمراره. [1]

في عام ١٨٤٧م على بعد ثلاثين ميلاً شمال الموصل، رحبت بهم مجموعة خيالة يقودهم الشيخ ناصر (الذي وصفه الدكتور ساندوذ بـ " الرجل البالغ من العمر أربعين عاماً (تولد ١٨٠٧م)، له سيماء ذكية ومطبوع على الاعتدال ")، ولكن عندما زار شيخ ناصر الموصل واستقبله القنصل البريطاني في سنة ١٨٧٩م وكان قد جاء إلى الموصل لمقابلة الوالي حول الخلاف الن(٢) اشب بشأن دفع ضريبة بدل الخدمة.

التعاون الجاد بين حسين بك وبابا شيخ ناصر أدى إلى السيطرة على ما تبقى من الإيزيدية بعدما تعرضوا إلى أبشع عملية إبادة في التاريخ من قبل أمير راوندوز محمد الأعور، تمت معالجة الوضع المأساوي للإيزيدية رويداً رويداً. [3]

---

(١) ساندرسيزكي، ج ١، ص ٢٧٤-٢٧٥. نقلاً عن جون س كيست، الحياة بين الكورد، تاريخ الإيزيديين، ترجمة عماد جميل مزوري، دار سبيريز، دهوك ٢٠١١ م ص ٢٢٥

(٢) الكورد الإيزيديون في كتب الرحالة البريطانيين من مطلع القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الأولى, أرشد حمد محو رسالة ماجستير غير منشورة, ص١٧-١٨.

(٣) المصدر نفسه .

كانت لأمراء الإيزيدية السلطة المطلقة على أبناء الديانة الإيزيدية، لذا كان التعامل مع الأمير يتم من قبل السلطة العثمانية بالأسلوب المرن والاعتراف بإمارته وسلطته وأحياناً بالعداوة والهجوم على مناطقهم[1].

شيخ ناصر و بادجر

وفي ربيع عام ١٨٥٠م انتقلت عائلة بادجر من الموصل إلى دار استأجرها لهم رسام في القرية الإيزدية (بعشيقة)، لم يزر بادجر لالش هذه المرة، كان الزعماء الإيزديون غائبين لحضور عيد رأس السنة في سهل شيخان، وفي ١٨ نيسان جاء الشيخ ناصر والأخ الأصغر للأمير إلى بعشيقة حيث زينت مداخل العديد من البيوت "بشقائق النعمان الحمراء البرية"، وبعد رقص ومأدبة مراسيمية زار الزعماء الإيزديون نائب القنصل.

يوميات السيدة بادجر تشير إلى أن الشيخ ناصر" بدا رجلاً هادئاً ومتواضعاً وملامحه تنم عن حب الخير لكنها تخفي حزناً عميقاً".[2]

زخر اليوم التالي بالاحتفالات، وفي المساء زار حسين بك عائلة رسّام، وتلاحظ السيدة بادجر في يومياتها بأنه كان هناك الكثير من الغيرة والحسد بين الشيخ ناصر والأمير حسين بك، وأن الأمير "غلام يافع لا أكثر، ولديه ثلاث زوجات في غير أوانه".

---

(١) كيست، ٢٤٩

(٢) المصدر نفسه .

في اليوم التالي سار موكب مهيب تصحبه المزامير والدفوف برفقة سنجاق شيخان من بحزاني إلى بعشيقة، مرّ السنجاق المقدس يرافقه اثنان من البير يلوحان بالمنجزات أمامها، وفي اليوم الأخير في بعشيقة سُمح للسيدة رسام والسيدة بادجر بإلقاء نظرة على السنجاق ورسم تخطيط له.[1]

وفي أيلول ١٨٥٠م طريق عودتهم إلى الموصل زار باون وساندرزكي لالش، وقضيا ليلتهما مع الشيخ ناصر في إيسيان، وترك مستوى النظافة والكد والنشاط في القرية الإيزيدية بعشيقة انطباعاً جيداً لدى ساندرزكي ما حدا به إلى أن يسجل في يومياته بأنه سوف يستمتع بتبشير هؤلاء بتعاليم المسيحية.[2]

وفي تشرين الأول من العام ١٨٥٢م دعا رسام عوائل المبشرين إلى احتفال الخريف الإيزيدي، وضمت المجموعة التي كان يقودها نائب القنص(٣)ل وماتيلدا رسام لوبدل وزوجته وطفلتها وزوجة ويليامز وطفلتها، وعند اقترابهم من باعذرة سبقهم كريستيان رسام لترتيب مستلزمات إقامة المجموعة في مخزنه الجديد، وعند وصولهم استقبلهم حسين بك، وقدمهم إلى القوال سيفوك الذي كان قد رافق زميله يوسف في وفد عام ١٨٤٩م إلى إسطنبول، وللتسرية عن الجماعة قام برواية الفترة التي قضاها في السفارة البريطانية، المكان الذي بقي فيه حوالي السنة حضر خلالها عدة حفلات راقصة واستقبالات حافلة، وتذكر القوال أنه في

(١) كيست المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٩-١٢٤.
(٢) كيست، ص٢٥٣ المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٩، و ج ٣، ص ٢٨٣-٢٩٧.
(٣) كيست، ص٢٥٧

إحدى هذه المناسبات كانت زوجته قد ارتدت ثوباً حريرياً مهدى إليها من قبل الليدي كنط أعيد تصميم عنقه ليتناسب والأسلوب التقليدي المستدير الذي يلبسه الإيزديون[1].

في صباح اليوم التالي انضم حسين بك والقوال إلى رسام ولوبدل في رحلة إلى دير ربان هرمز، ورافق الأمير عشرة من الخدم والحرس يحمل(٢)لون رماحاً طويلة وأحزمة تتدلى منها الخناجر ومناديل زاهية وشالات بيضاء والتقوا بجماعات من الزوار الحجاج وهم في طريقهم إلى لالش.

أراهم رئيس الدير الذي كان قد أسر في العمادية وبقي على الحياد حجرات الرهبان وقبور البطاركة، ومصلى الكنيسة، حيث حفر هنري لوبدل اسمه على الحائط إلى جانب أسماء جوستين ثيركنس وهنري لايارد وكلوديوس ريج، همس رئيس الدير خلسة بالموافقة عند استجابة راهب لطلب حسين بك ببعض التراب من فوق ضريح ربان هرمز الذي عرف بأنه يساعد في إزالة الحمى ثم قاد زواره، لاحظ لوبدل أن فريقهم كان مؤلفاً من كلداني وإيزديين وكاثوليكي إنجليكاني سابق وأحد التابعين للكنائس المستقلة، توجهوا إلى حجرة حيث قدم لهم العشاء المؤلف من الدجاج، والرز، والعنب، والخيار، والتين، تم غسلها جيداً بالنبيذ أو الشراب. ووأمسك لوبدل الذي كان ينتمي إلى جمعية أمهرست المضادة للمسكرات عن تناول المشروبات الحارة، الشراب، الأوبيوم والتبغ"[3] لم يتناول أي

---

(١) كيست، ص٢٥٧

(٢) تايلر " لوبدل " ص ٤٣.

(٣) تايلر " لوبدل " ص ٤٣.

شراب لكنه لاحظ أن "حسين بك قد جرع عدة أقداح منه وقال سيفوك أن لونه الأحمر يذكره بالبراندي الذي كان السفير البريطاني يزوده بزجاجتين منه يومياً في إسطنبول [١].

كتب لوبدل القادم من باعذرة إلى معبد الشيخ آدي عن موكب الصباح التالي أنه كان مجلجلاً بوجود القنصلين في كامل دروعهم مع خناجرهم وسيوفهم ذات المقابض الفضية وسراويلهم الحمراء الضيقة وطرابيشهم ذات الشرابات وصداراتهم المذهبة الحواشي وشواربهم السوداء".

مضيف شيخ ناصر[٢]

وفق ما كتب على حجر في باب مضيفه أن (شيخ ناصر بن بابا شيخ رشكي ١٨٠٧م ١٨٨٧م) لم يتولَ منصب اختيارية المركه بعد وفاة والده، لأن شيخ رشكي أوصى الأمير والإيزيدية وهو على فراش الموت بأن يتولى من بعده المنصب الزاهد كوجك إبراهيم وهو من طبقة المريدين من أهل سنجار، وكان قد ترعرع في

(١) زيارة لوبدل إلى دير الربان هرمز والإيزديين مفصلة في أرشيفات (ABC) ٤ و ٨ و ١٦، المجلد الأول، المادة ٨٣، رسالة لوبدل في ٢٠ كانون الأول ١٨٥٢ م إلى أندرسن. وقد وردت أيضاً في مقالتيه في ١ كانون الأول ١٨٥٢ و ١٤ كانون الثاني ١٨٥٣ والمنشورتين في (نيويورك ديلي تريبيون) في ٢٦ آذار ١٨٥٣م، ص ٥، و ٢١ أيار ١٨٥٣م، ص ٥-٦. راجع أيضاً تايلر " لوبدل " ص ٢١٣-٢٢٥.

(٢) لقد زرت عوائل أحفاد شيخ ناصر وزرت آثار مضيفه وداره في قرية إيسيان / غرب شيخان (١٠) كلم وأخذت القياسات والمعلومات والتقاط الصور،يوم ٢-٢-٢٠٢٠.

بعشيقة وبحزاني ثم في قريتي خوشابا ونفيرية ومن ثم قرية كابارا وكان في جلسة بابا شيخ في إيسيان في أكثر أوقاته.

وجاءت الوصية حسب رؤيته ونبؤاته، وحينما توفي كوجك بريم وبعد فترة من بقائه في المنصب تنصب شيخ ناصر (اختيار المركه).

ومن أبناء شيخ ناصر (١ـ أوصي وأبناؤه قرو ـ رشو، ٢ـ حسين وأبناؤه مراد وناصر، ٣ـ ميرزا وأبناؤه خديدة ـ كوجي ـ هسن، ٤ـ حجي وأبناؤه مجيد).

أما أحفاده :

ـ قرؤ وأولاده (مراد ـ عيدو)

ـ رشو وأولاده (إبراهيم ـ أوصي ـ الياس)

ـ مراد وأولاده (مراد وأولاده ناصر ـ جاسم ـ حسين ـ حسن ـ زيدو)

ـ قياس مضيفه (١٤م * ٣م وسقفه مكون من ١٨ عمود خشبي) ومساحة الدار ٣٠م* ٢٠م

ـ غرفة النياشين (٣م *٦م)

أبرز وأول ما قام به في شبابه سعيه لتوثيق الأواصر[١] بين شيوخ وأمراء الإيزدية في القرى المجاورة من جهة وشيوخ وأمراء الإيزدية في جبل شنكال لاسيما الإيزدية المهركان، وقد نجح الشيخ ناصر في محاولاته هذه من خلال إحيائه لطقوس الطوافة في لالش و تكريس أموال السناجق لتجديد ضريح الشيخ آدي

(١) إيسيان: قرية غرب قضاء الشيخان بمسافة ١١كم

وشراء الأضاحي التي تقدم قرباناً لطاووس ملك كل سنة، ما خوله إلى منصب بابا شيخ في إيسيان. برز أول نشاط سياسي للشيخ ناصر عام ١٨٣٤م عندما استقبل الروسي برجين والإنكليزي بادجر واصطحابهما إلى لالش.

وفي آذار ١٨٤٣ م استقبل الشيخ ناصر في إيسيان البعثة التبشيرية الأمريكية برئاسة عزاريا سميث الذي قدم له هدية من الخزف الصيني وطلب منه سنجقاً (رمز الطاووس) إلا أن الشيخ ناصر غضب ورفض هدية البعثة التبشيرية ولم يوافق على اصطحابهم إلى لالش.[١]

استمر الشيخ ناصر بإدارة شؤون الديانة الإيزدية وإرسال السناجق إلى موطن الإيزدية في أرمينيا وسوريا وتركيا وشمالي العراق، وتخصيصها لإغاثة الفقراء وتكريس الأهداف الدينية من خلال حل مشكلات الديانة في كل مكان، ولم يحدث أي تطور سياسي خلال هذه الفترة حتى عام ١٨٤٥م حيث تعرض الإيزدية في جبل شنكال الحملة إبادة بقيادة قرتلي أوغلو، وقد تصدى الشيخ ناصر لهذه الحملة بإرسال المتطوعين الإيزدية لصدها مما دعا السلطات العثمانية إلى إصدار أمر باعتقال الشيخ ناصر وإرسال قوة عسكرية إلى إيسيان لتنفيذ ذلك إلا أن سينو أحد أتباع الشيخ ناصر كان قد ذكر لهم بأنه الشيخ ناصر، فاقتادوه بدلاً عنه إلى الموصل حيث تلقى تعذيباً نيابة عن شيخه، ولم يُفشِ السر حفاظاً على كرامة الشيخ ناصر ومكانته الروحية بين الإيزدية [٢].

(١) د. صلاح، من مشاهير الكورد بابا شيخ ناصر مجلة لالش " ١٦ ص ٩٦
(٢) د صلاح،بابا شيخ ناصر، مجلة لالش العدد ١٦، ص ٩٧

وفي عام ١٨٤٦م أصدرت الحكومة العثمانية مرسوماً مفاده تعيين طيار باشا والياً على الموصل وكان ولاء طيار باشا للأوربيين أكثر مما هو عليه إزاء العثمانيين ولا تخبرنا المصادر كيف[١].

عرف الشيخ ناصر الموقف الودي للوالي تجاه الأوربيين. إلا أنه سرعان ما توجه إلى حسين وأقنعه بالتوجه إلى البريطاني هنري لايارد وكريستيان رسام ودعوتهما إلى إيسيان، وكان كريستيان نائب القنصل البريطاني في الموصل فاعتذر لكثرة مشاغله إلا أن هنري لايارد قبل الدعوة وصاحب الشيخ ناصر بسرور إلى إيسيان، وفي أثناء الاستضافة شرح لهنري التهديدات التي تعرض إليها الإيزدية وطلب منه التوسط عند الوالي طيار باشا لصالحهم فقبل لايارد ذلك وطلب من الشيخ ناصر زيارة باعذرة ومنها إلى لالش فقبل الشيخ ناصر بذلك وعين دليلاً له وهو سينو. [٢]

وكثيراً ما احتفظوا سراً بالمعتقدات الخاصة بالديانة كانوا على اتصال مع الكهنة الإيزيديين، كان الشيخ ناصر قد غادر المنطقة، ويستعد للاحتفالات الدينية عند معبد لالش، زرت زوجته وكنت راضياً عن الضُيّافة الصادقة لاستقبالي الخاص ولنظافة المنزل وأثاثه الهزيل، ويبدو أنّ المساكن كلها التي دخلتها على حد سواء أنيقة وبُنيت بشكل جيّد، بعضها يقف وسط حدائق صغيرة مليئة بالورود وبالقرب منها تيارات من المياه الجارية التي تدفقت من الينابيع الوفيرة التي تنبع من التل المرتفع فوق القرية، وصل فارسان في وقت متأخر بعد

(١) المصدر نفسه والصفحة

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢١

الظهر، كما لو كانا قادمين من رحلة طويلة وقد تمزقت ملابسهما ، وكان وجهاهما بلون البرونز وخشنين من جراء الطقس، واستقبلا بمظاهرات عامة من الفرح من قبل سكان القرية الذين تحَشَدُوا حولهما ، فألقيا أسلحتهما وقبَلا يَديّ ومن ثم يدي الزعيم، وكانا قد عادا من بعثة إلى فرع من الإيزيديين الذين عبروا الحدود قبل بضع سنوات وقد لجأ من طغيان الأكراد إلى الأراضي الروسيّة، وفي مناسبة سابقة أرسل الإيزيديون من شيخان وفداً مفوضاً لهم إلى إخوتهم، وطلبوا مساعدة مالية لدعم رجال الدين وإصلاح قبر الشيخ عدي، بيد أن المندوبين الذين سقطوا في أيدي زعيم بطلس قد قتلوا ، وكان الفارسان اللذان وصلا لتوّهما أوفر حظاً من سابقيهما ليس فقط لنجاتهما من العديد من أخطار الرحلة بل لإعادة مبلغ كبير من المال، ووصفوا الحالة المزدهرة لأولئك الذين زاروهم، والعجائب التي رأوها في جورجيا ، وتركتهم في خضمّ حشدٍ كبير من الرجال الذين كانوا يستمعون بلهفة إلى أقربائهم.

كان الشيخ ناصر يوثق العلاقات مع الإنكليز لحماية الإيزدية من العثمانيين والقبائل العربية والمتعصبين الإسلاميين في المدن في شمالي العراق الوقت نفسه . وفي عام ١٨٤٩ أرسل الشيخ ناصر رسالة شكر إلى الوزير الأعظم في الآستانة وذلك بعد محادثات أجراها مع لايارد وستراتفورد كاننغ ،وتضمنت الرسالة تعهده بإقناع الإيزدية بالخدمة في الجيش العثماني وذكر لهم أن أسلافهم الإيزدية كانوا قد خدموا جميعاً إلى جانب القوات العثمانية في جيش مراد الرابع إلا أن الشيخ ناصر اقترح على الوزير بأنه وبسبب المذابح التي تعرضوا لها ، فإنه يرتئي قبول

الباب العالي بإعفائهم من الجيش لخمس سنوات متتالية مقابل بدل نقدي وأن تكون خدمتهم بعد هذه السنوات في وحدة مسيحية بديلاً عن نظيرتها المسلمة[1].

محاولة محمد كرتلي لسجن شيخ ناصر

ويقول صلاح سليم علي في مقال له حول (إدارة الموصل في عهد إينجة بيرقدار محمد باشا) يخبرنا[2] لايارد في أماكن أخرى عن الشيخ ناصر الإيسياني الزعيم الديني للديانة الإيزيدية وأسره من قبل محمد كريدلي (أو كرتلي) باشا والي الموصل بعد محمد شريف باشا (١٨٤٤م) الذي أعقب إينجة بيرقدار محمد باشا على ولاية الموصل، فنلاحظ أن وصف لايارد لهذا الباشا غالباً ما يؤخذ على أن المقصود هو إينجة بيرقدار محمد باشا، وكان لايارد قد نعت كريدلي (كرتلي) بأقبح النعوت وباستحقاق واضح، ويعرف هذا الباشا باسم محمد إينجة بيرقدار أي محمد النحيل حامل البيرق، كان جاهلاً وفاسداً، فقد تمكن من الحفاظ على شيء من النظام في مقاطعة الموصل، إذ حدَّ من حركة البدو وكان مصدر ذعر للسراق وقطاع الطريق، لكنه اضطهد الناس والمفهوم الوحيد الذي لديه في حكمهم هو أن ينتزع أكبر كمية من الأموال منهم، وبالنتيجة ساد البؤس والعوز في كل مكان وكانت معظم الأموال التي يحصل عليها تُرسل إلى القسطنطينية (إسطنبول)

---

(١) كيست، ص ٢٢٢

(*) تحسنت علاقات جرميا شامير مع الكنيسة الكلدانية بمرور الزمن، وفي شتاء ١٨٨١-١٨٨٢ م استعار مخطوطاً سريانياً من الب

٤٥ طريرك الياس الرابع عشر لاستنساخه لمصلحة زافاو، لكنه بقي بروتستانياً شديد التمسك.

للحصول على تأييد المتنفذين في الباب العالي والموظفين الكبار في القصر، للحفاظ على مركزه وقوته.

وعندما زرته بصحبة السيد أينزورث والسيد رسام، رأيته محاطاً بحشد من الكتاب والعسكر من قوات الخيالة غير النظامية يرتدون ثياباً زاهية متنوعة، وإلى جانبهم حملة النرجيلة والخدم من كل نوع ممن يعدون ملحقاً ضرورياً لأبهة ومكانة الباشا الذي يحمل بيرقاً من ثلاثة ذيول خيل.

وفي نص آخر لوليم فرانسيس أينزورث الذي صاحب كريستيان رسام ولايارد في مقابلتهما لإينجة بيرقدار محمد باشا أن رسام كان توسط في كفالة البير سينو الذي حجزه محمد كرتلي بديلاً عن الشيخ ناصر الإيسياني بهدف ابتزاز الإيزيدية وإجبارهم على دفع فدية كبيرة.

عندما كان محمد أوغلو كريتلي باشا في السلطة كان الإيزيدية من بين أهداف طمعه وطغيانه، فحاك بطريق الغدر والخيانة مؤامرة للإمساك بزعيمهم الديني، إلا أن شيخ ناصر الإيسياني تمكن من الإفلات، فأمسكت زمرة كرتلي برديفه بدلاً عنه ووضعته في سجن في الموصل، وتكتم الإيزيدية على الأمر لحبهم لزعيمهم فتحمل بديله (بير سينو) التعذيب والأذى، وتمكن السيد (كريستيان) رسام الذي اتصل به الإيزيدية من التوسط فأطلق سراحه مقابل مبلغ كبير من المال تعهد سكان الشيخان بتسديده من محصول حقولهم، ونفذوا تعهدهم في الوقت المحدد ومنذ تلك الأزمة باتوا ينظرون إلى القنصل البريطاني باعتباره حامياً لهم.

وفي الواقع إن الشيخ ناصر الإيسياني كان قد وثق علاقات صداقة قوية مع لايارد وأينزورث وكريستيان رسام قبل محاولة كرتلي إلقاء القبض عليه وإيداع وكيله سينو السجن، ولم يكن الشيخ ناصر في الواقع غائباً عن مذابح محمد الراوندوزي للإيزيدية في قراهم ومطاردته لهم في تل قوينجق الذي أخذ اسمه من تلك المذبحة، إذ تعني كلمة كوي إنجاق (ذبح النعاج) كما لم ينس اغتيال محمد الراوندوزي لقريبه الشيخ علي.

قرر كارتسوظ الانتظار حتى حلول فصل الربيع حيث تذوب الثلوج قبل أن يقوم بزيارة البطريرك، كفاصل مؤقت لحياة الملل التي كان يعيشها، قبل كارتسوظ دعوة موجهة إليه من ميرزا بك الذي كان قد تعرف عليه لمجرد وصوله إلى الموصل. مهتماً ومنذ فترة طويلة بالاعتقادات الإيزيدية والعادات، واستحصل نائب القنصل من والد الترجمان جرميا على نسخة من مخطوط عربي حول المبادئ والتعاليم الإيزيدية كتب من قبل راهب في دير ربان هرمز.

تألفت المجموعة من روسيين ثلاثة والدكتور بروفسكي والترجمان واثنين من الخدم وعدد من البغالين، وغادرت الموصل حوالي نهاية العام، وفي باعذرة انضم إليهم ميرزا بك الذي رافقهم إلى المعبد، وبينما كانوا يدخلون وادي لالش حينما صاح جرميا: " Wild romantisch " (معبراً عن المنظر الرومانسي المثير للطبيعة الخلابة. م)، وهو يحني رأسه ليمر تحت مدخل حجري للمعبد.

استضافهم الشيخ ناصر خلال زيارة الروس إلى لالش والتي دامت يومين.

وفي الملاحظات التي سجلها خلال رحلته، تذكَرَ كارتسوظ الشيخ ناصراً بأنه ذلك الرجل الطويل القامة والنحيل المفرط في الغطرسة والذي أتعبه الزوار

بوابل من أسئلتهم، ووجده بروفسكي المتهكم الساخر "لا مبالياً فظاً يفلح في ترك انطباع جيد على الناس بلحيته الطويلة البيضاء ولسانه الزلق". [1]

اَدخلوا إلى مبنى الحرم حيث ضريح الشيخ آدي ورأوا في غرفة مجاورة الأيقونات البرونزية المقدسة ـ الطاووس العظيم، الذي قدر بروفسكي وزنه بـ ٦٧٨ رطلاً، وخمس بقايا أثرية مقدسة أكثر صغراً في الحجم. وأخبروا بالوارد السنوي الذي تدره الجولاتفكل عام ـ ٦٠٠٠ باوند تركي ٥٤٠٠ جنيه سترليني وفقاً لرواية كارتسوظ و ٨٠٠٠ باوند تركي طبقاً لبروظسكي.[2].

وقد أصبح للشيخ ناصر موقعه الأكثر قوة بعد الحوادث الماضية وإقالة حلمي باشا، فكتب في عام ١٨٧٢م عريضة إلى أوزون باشا وطلب منه فيها إعفاء الإيزدية من الخدمة في الجيش العثماني وحصل فعلاً على موافقة الباشا على طلبه، غير أن مشاكل جبل شنكال كانت متواصلة فقد ألقت السلطات العثمانية القبض على حسين بك في ١٨٧٥م وزجته في السجن مما دعا ابنيه هادي و حسن إلى استغلال غيابه والسيطرة على أموال السناجق، الأمر الذي أثار غضب عمهما عبدي الذي شجع شقيقهما ميرزا وعلي على مواجهتهما مواجهة أسفرت عن سقوط هادي وحسن وموت حسين بك كمداً، وفي سنة سجنه نفسها عام ١٨٧٩ م التقى عبدي بك بالشيخ ناصر وطلب إليه إدارة شؤون الإيزيدية. [3]

---

(١) د. ل. إي. بروظسكي: الإيزيديون ودينهم، داس أوسلاند، العدد ٥٩ (١٨٨٦) ص ٧٦١ـ ٧٦٧ و ٧٨٥ـ٧٩٠. راجع أيضاً ف. أ. رومانوف: Poklonniki Diavola في Prioda I Lyundi العدد ٩ (١٨٩٨) ص ٧٣٩ـ٧٤١ و ٧٥١ـ٧٥٣.

(٢) زاخاو و (المخطوطة رقم ١٣٩). هربرت بيركس: حياة ومراسلات توماس فالبي فرينج.

(٣) د. صلاح، من مشاهير الكورد بابا شيخ ناصر مجلة لالش " ١٦ ص ١٠٠

علاقة لايارد مع القوال

يوسف حسين الدوملي البحزاني

كلمة لابد منها

ولد قوال يوسف بن قوال حسين الدوملي البحزاني حوالي سنة ١٨١٦م حسب وصف الآثاري هنري أوستن لايارد في أسرة متدينة في قرية بحزاني التابعة لناحية بعشيقة شمالي مدينة الموصل بحوالي ١٥ كيلومتر. وينتمي إلى عائلة القوالين، والقوالون من الشخصيات التي تدرس وتحفظ النصوص المقدسة الإيزيدية، ويعملون على تلاوتها ، ويعزفون على الآلات الإيزيدية المقدسة (الدف و الشباب)، ولكل نص مقدس لحن فردي، ولكي يصبح الواحد قوالاً ، لابد ان يخضع للتدريب الذي يمكن أن يمتد لعدة عقود.

كان والده رئيسا للقوالين، وإنساناً نشطاً ملماً بالأمور الدينية والدنيوية ويمتلك ثقافة عالية ويتقن اللغات الثلاث (الكردية والعربية والإنكليزية)، رافق لايارد في العديد من الجولات وهو مترجمه، حاول استغلال تواجده مع لايارد للاستفادة من علاقاته الواسعة مع مسؤولي الدولة العثمانية من أجل توطيد العلاقات بين السلطات العثمانية الحاكمة والمجتمع الإيزيدي إذ لم يكن بمقدور الإيزيدية تحدي الامبراطورية العثمانية، وكان من الضروري جداً أن تكف الدولة العثمانية عن ملاحقة الإيزيدية، والغدر بهم وإرسال الحملات المدمرة لهم، وهذا من جهة استغلال الدين الإسلامي، من جهة أخرى أن الدولة العثمانية كانت تطالب الإيزيدية الالتحاق بالخدمة العسكرية إلا أن الإيزيديين كانوا رافضين لذلك وطالبوا السلطات بمعاملتهم كما تعامل بقية الأقوام الأخرى من غير المسلمين كالمسيحيين، لكن الولاة والسلاطين رفضوا ذلك بحجة أن الإيزيدية ديانة

غير معترف بها وأنهم قطاع طرق وخاصة في منطقة سنجار، و يشكلون عبئاً ومصدر خوفٍ للقوافل التجارية المارة ما بين الموصل وماردين .

أراد القوال يوسف الإفصاح عن النصوص الدينية للديانة الإيزيدية للسلطان والولاة وأن يبين أن المعتقد الإيزيدي يعبد اللّٰه الواحد الأحد، وأنها ديانة مسالمة لا تود إيذاء البشرية بأي شكل من الأشكال، والايزيديون ليسوا بأشرار، ولا يعبدون إله الشر، إنما هي ديانة مسالمة تدعوا بالخير لكافة الأمم والأديان، وبالتالي اراد القوال يوسف جاهدا من جلب قرار لإعفاء الايزيديين من الخدمة العسكرية الإلزامية.

ومن جانب آخر حاول قوال يوسف استغلال مبادرة السلطان العثماني عبد المجيد الأول (١٨٢٣-١٨٦١م) الذي كان يحاول فرض الإصلاحات في إمبراطوريته، لتشمل هذه الحرية الدينية كافة الاديان ويمنع عنهم الظلم والعبودية.

في تلك الفترة كان الأمير حسين بك وبابا شيخ ناصر ورئيس القوالين يوسف حسين على اتفاق تام وكان هنالك تعاون فيما بينهم بالمستوى المطلوب، كانوا يتشاورون بما يخص أبسط القرارات لإنقاذ المجتمع الإيزيدي من محن عديدة، والمعضلة الكبرى آنذاك كانت استقطاب الخدمة العسكرية الإلزامية للإيزيدية.

قد يتساءل القارئ من أن العديد من المناطق والقرى التي مر بها لايارد لا يقطنها الإيزيدية، لماذا تم تدوينها في الكتاب؟ هنا نتيجة تواجد القوال يوسف مع لايارد في تلك الرحلات فقد بات من الضروري تدوينها ، ولكون القوال كان

الدليل والمترجم والشرقي العارف بالمسالك الصعبة المؤدية إلى المدن والقرى النائية ويستطيع التفاهم مع الأهالي من الكورد والعرب وحتى الترك .

إن دعوة لايارد من قبل القوال يوسف لحضور حفلة زفاف لأحد أقرباءه، كانت لتقوية علاقته مع الإيزيدية من جانب، ومن جانب آخر ليكتب عن عادات وتقاليد الإيزيدية للشعوب في الغرب، من الأجدر أن يطلع المجتمع الأوربي والغربي والعالمي برمته على عقيدتنا الدينية وعاداتنا وتقاليدنا الموروثة من أجدادنا . وقد ذكر لايارد الإيزيدية في أكثر مؤلفاته بأسلوب مختلف في كل من كتابيه على الرغم من أن الحدث واحد، مع درج بعض الملاحظات البسيطة الإضافية والتعقيبات على سبيل المثال ما كتبه حينما زار قرية الرضوانية والحفاوة والتكريم من قبل ابن أخ ميسكى زازا وعائلته .

لايارد يصف ملابس القوال يوسف

حافظ القوال على لباسه الذي يميز ديانته ومنصبه فقد اعتمر عمامة سوداء اللون أحاطت بوجهه الداكن السمرة وملامح وجهة المعبرة والمتناسقة، والتقت بعباءة مخططة خشنة النسيج كانت تتدلي براحه فوق ثوب من الحرير الأحمر. [1]

(١) الآثاري البريطاني أوستن هنري لايارد،مكتشفات أطلال نينوى وبابل مع رحلات إلى أرمينيا وكردستان والصحراء ترجمة شيرين بيش مراجعة وتحرير د أحمد أبيش، هيئة "أبو ظبي" للسياحة، دار الكتاب الوطنية، ٢٠١٢ ص ٢٤-٢٥

ولادة قوال يوسف وإنقاذ الإيزيدية مع أوستن هنري لايارد من محنة

حتى الآن لم يتعامل أحد بشكل مكثف مع حياة قوال يوسف وعمله، باستثناء جون س كيست حتى الإيزيدية فشلوا في التعامل معه على الرغم من أنه من أبرز الشخصيات الإيزيدية وأكثرها نشاطًا في القرن التاسع عشر. هذه المقالة التفصيلية سوف تغطي حياة وعمل قوال يوسف.

إن المصادر الرئيسية لحياة قوال يوسف هي روايات الرحالة البريطانيين، ولا سيما روايات عالم الآثار أوستن هنري لايارد الذي كانت له صداقة وثيقة مع الإيزيدية، ودافع عنها سياسياً وأصبح صديقًا لرؤسائها و من بينهم قوال يوسف، الذي رافق لايارد في عدة رحلات، سمح لـ قوال يوسف كأول شخص خارجي يكتسب رؤية عميقة في المجتمع والدين الإيزيدي. مهد هذا الانفتاح النادر بينهما الطريق للايارد للتخلص من التحيزات العديدة ضد الإيزيديين في رحلات طويلة شهدت الكثير من المغامرات المثيرة التي شكلت صداقتهم المتبادلة.

لذلك، يمكن وصف قوال يوسف كأول شخصية إيزيدية، فتحت نوافذ الديانة الغامضة للإيزيدية على العالم الخارجي حتى الآن، وبفضل عمله هذا نجت العديد من النصوص المقدسة الإيزيدية وبقت الى يومنا هذا.

ولد قوال يوسف في قرية بحزاني في شمال مدينة الموصل / العراق الحالي[1] وينتمي إلى عائلة القوالين. والقوالون شخصيات دينية مهمتها تلقين وتلاوة

(١) بحزاني قرية تابعة إلى ناحية بعشيقة التي تبعد ١٠ كم عن مدينة الموصل وساكنيها ٩٥٪ من الإيزيدية والبقية مسيحيون، تشتهر ببساتين الزيتون .

النصوص المقدسة للإيزيدية والعزف على الآلات الإيزيدية المقدسة (الدفّ) والشبّاب.

وقد فقد الإيزيدية كتابهم الديني المقدس نتيجة حملات الإبادة والتشريد والهجرة، وكان يتم تناقل النصوص الدينية شفاها من جيل إلى جيل، ولهذا السبب التمس الإيزيدية تقاليد شفهية متطورة للغاية. إن النصوص المقدسة التي أطلقها الإيزيدون (قول ـ التراتيل) هي مصدر الأساطير الإيزيدية، النظرة إلى الكون، وماهيته. لذلك يُشار إلى قوال يوسف بواسطة الإيزيدية كـ (حامي الإيزيدية) . و مقر القوالين يتواجد في قريتي بحزاني وبعشيقة في شمال الموصل.

كان على قوال يوسف أيضاً إكمال هذا التدريب الطويل الأجل. قضى شبابه في وقت كانت فيه الإيزيدية بوضع مهدد ومحبط للغاية . ودون أي من اللغط يمكن القول إن الإيزيدية كانوا على وشك إن يخمد وجودهم من قبل الأمير الكردي محمد رواندوزي في آذار ١٨٣٢م، في منطقة الشيخان وهي مستوطنة رئيسية للإيزيدية، حيث يقع معبدهم لالش وقريتا بعشيقة وبحزاني جنوبها، حيث كانت إحدى أكبر حملات الإبادة المدمرة ضد الإيزيدية، وكان عدد مقاتلي الأكراد اكثر من ٥٠٠٠٠ وأغلبهم من راوندوز.

تم التخلي عن الإيزيدية من قبل أهالي الموصل وإمارة بهدينان الكردية الذين ظللوا تحت حمايتهم وخدمتهم بالفعل. لقد تم القضاء على ثلثي سكان الإيزيدية في شيخان واستعباد الآلاف من النساء والأطفال ممن بيعوا في الأسواق، استمرت حملة الإبادة هذه من قِبل بدرخان بك، أمير بوتان الكردي. يضاف إلى ذلك

الحملات القاسية للقادة العثمانيين أمثال رشيد باشا وحافظ باشا ضد شنكال والتي أسفرت عن مقتل غالبية السكان في شنكال.

كان والد قوال يوسف اسمه (قوال حسين حجي)، من سلالة الإيزيدية المؤثرة والشعبية، ينحدر عن عشيرة دوملي، تلك العشيرة ذات التاريخ العريق في الديانة الإيزيدية، وتوفي رئيس القوالين في إحدى رحلاته المستديرة في شنكال بالقرب من قرية (الدينا) الإيزيدية.

عالم الآثار البريطاني أوستن هنري لايارد، الذي أصبح صديقًا لقوال يوسف، يقول:

"في ذكرى المتوفى يأتي الناس بالأضاحي، الأغنام ولكن لا أهمية دينية لذلك، ويتم توزيع اللحوم التي غالباً ما تحصل على مبلغ من المال من الفقراء. ولم أقتنع بهذا العزاء الذي لم يكن له غرض سوى الترويج للشفقة والإحسان، ومع ذلك ضحيت بالأغنام على قبر القوال وأضاف إليها أحد رفاقي المسافرين وتم توزيع اللحوم على المحتاجين. "

بين عامي ١٨٤٤ و ١٨٤٩م تم تعيين قوال يوسف خلفاً لوالده ورئيساً لكل الجولات. ومنذ ذلك الحين كان مشغولاً بتنظيم الاحتفالات الدينية والجولات إلى أقصى المجتمعات الإيزيدية، و قبل كل شيء توجب تدريب العديد من القوالين الجدد تحت إشرافه.

في هذا الوقت كان السلطان العثماني عبد المجيد الأول (١٨٢٣-١٨٦١م) يحاول إقامة الإصلاحات في إمبراطوريته التي كان ضمنها الحرية الدينية لجميع الجماعات الدينية ووقف العبودية.

يقول لايارد عن نظافة الدور الإيزيدية : لقد زرت العديد من القرى في نينوى وديار بكر ولم أرَ كبيوت الإيزيدية من ناحية النظافة، حينما زرت شيخان كنا نميز بيوت الإيزيدية عن غيرها".

في ربيع العام ١٨٥٠ م زار لايارد مرة أخرى جبل سنجار، يرافقه القوال يوسف وثلاثة أشخاص إيزيديين آخرين. وجد القائد العثماني نفسه في بلد سنجار محاصراً داخل جدران حاميته البائسة المنكوبة برفقة ثكنة عسكرية تحتوي على أعداد قليلة من الألبان، كادوا يموتون جوعاً، حيث أن زعماء القبائل استأنفوا أعمالهم غير القانونية وأشاعوا الفوضى مرة أخرى. أقنع لايارد زعيم المهركان عيسى بعقد الصلح مع القبيلة المجاورة التي أقامت احتفالاً مسرفاً بمناسبة عيد الحب وعرضت على زوارها هدايا من التين المجفف المصفف في خيوط بأشكال غريبة، كانت البضائع ذاتها اللافتة للنظر والتي حيّرت طيار باشا في السنة ١٨٤٦"م.

نتيجة عدم التزام الإيزيدية بالتجنيد الإلزامي للخدمة العسكرية في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، عاش الإيزديون في ظروف صعبة ومازال الأعداء يسبون نساءهم ويباع أطفالهم في الأسواق بغية استعبادهم، وطالبتهم الحكومة العثمانية بأداء الخدمة الإلزامية في ١٨٤٣م وفق قانون جديد تم بموجبه إلزام الأديان غير المسلمة بأداء الخدمة لكونها كانت سابقاً حصراً على المسلمين فقط، لتشمل غير المسلمين من المسيحيين والإيزيدية واليهود. تدهورت أحوال الإيزيدية وحاولوا إيجاد وسيلة للتخلص من الخدمة العسكرية لأنهم لا يستطيعون أداء الواجبات الدينية مع المسلمين في الجيش، وتباحثوا فيما بينهم

وعقدوا اجتماعات وجلسات، وساءت العلاقة بين الإيزيدية والدولة العثمانية نتيجة عدم تمكنهم من الانخراط في الجيش لوجود التزامات دينية ستحول الخدمة بينهم وبين الالتزام بها، وتمت مطالبتهم بالخدمة للمرة الأولى في سنة ١٨٤٧م لذا يؤكد لايارد : في هذه السنة طالبت الدولة العثمانية الإيزيدية وبقية الأديان غير المسلمة بالخدمة العسكرية، وهكذا تعاملوا معهم وبالمثل مع الدروز والمسيحيين والأنصارية. ساءت ظروف هذه الأقليات الدينية لصعوبة الانخراط مع القوات الحكومية المسلمة التي تطبق شعائر الخلافة الإسلامية، لذا لم يستجب الإيزيديون للقرار ولم ينصاعوا له، ففي الجيش لابد من تناول بعض الأطعمة وارتداء الملابس المحرمة في الديانة الإيزيدية. من هنا تسلط الاضطهاد عليهم وتوالت عليهم الهجمات، ولا تزال السلطات المتطرفة تعرض أطفالهم للبيع.

وضمن نظام جديد حددوا لهم ايالة رقم (٢٥)، أدرك الأمير حسين بك خطورة القرار من ناحية لا يود التصادم مع السلطات العثمانية بعدم تنفيذه ومن جهة أخرى يخشى على الإيزيدية في حال ذهاب الشباب إلى الخدمة أن تتعرض قراهم إلى الانتهاكات والسلب والنهب من قبل القبائل المجاورة، لذا تشاور الأمير مع بابا شيخ ناصر الرئيس الروحاني للديانة، وتم إرسال وفد إلى إسطنبول برئاسة القوال يوسف (رئيس القوالين) وأربعة أشخاص آخرين بمعية لايارد إلى الحكومة ونظراً لوجود علاقة بين السفير البريطاني سر ستراتفوَرد جاننط والحكومة في إسطنبول وهو من أصدقاء لايارد، بعد مشقة الطريق وصلوا إلى دار لايارد في إسطنبول.

ويذكر لايارد:" عند وصول الوفد إلى داري حاولت استغلال الوقت، زرنا السفير البريطاني ستراتفوَرد جاننط، فهو شخص مشهود له بالإنسانية وتقديم العون للمظلومين، وعلى الفور أوصل شكوى الوفد إلى السلطان." وقرر السلطان:

أولاً : رفع الغبن عن الإيزيدية وذلك بمنع بيع أطفالهم في أسواق النخاسة أو معاملتهم كعبيد، والاعتراف بديانتهم ولهم الحرية في أداء طقوسهم الدينية.

ثانياً : في حال أدائهم الخدمة يتم التعامل وفق تعاليمهم الدينية.

ثالثاً: إطلاق سراح جميع الموقوفين من أبناء الديانة الإيزيدية. ومن خلال هذه الفقرة عند عودة لايارد إلى الموصل استطاع أن ينقذ فتاة إيزيدية تم اختطافها من قبل والي الموصل و تحريرها، ولكن الأهالي استاؤوا.

ونتيجة حصول وفد القوال يوسف في عام ١٨٤٩م على قبول مطالبهم قدم الأمير حسين بك وبابا شيخ ناصر رسالة شكر إلى الحكومة، وعبرا عن ولائهما إلى الحكومة العثمانية وطلبا أن يُطبق قرار إعفاء الإيزيدية من الخدمة الإلزامية لمدة خمس سنوات حيث يتم دفع البدل النقدي عوضاً عنها، لأنهم فقدوا الكثير من شبابهم في الحملات السابقة، وبيَّنا أن الإيزيديين سيلتزمون بقوانين الخدمة شريطة أن يُفرَزوا في وحدات خاصة بهم أو مع الأخوة المسيحيين لأنهم لن يستطيعوا أداء الخدمة مع المسلمين.

وهذا نصُّ الرسالة :

نصوص رسائل إيزدية إلى الباب العالي

والسير ستراتفورد كننط ، نصوص رسائل إيزدية إلى الباب العالي والسير ستراتفورد كننط في برقيته المرقمة ٢٣ في ٢٩ تشرين الأول العام ١٨٤٩م إلى السفير البريطاني بإسطنبول، كتب كريستيان رسام نائب القنصل في الموصل ما يلي :

لي الشرف لأن أقدم إلى سعادتكم رسالة من الديانة الإيزدية، التي سلمني إياها كل من حسين بك والشيخ ناصر والزعماء الآخرين يوم أمس لإرسالها إلى سعادتكم، ليعبروا مرة أخرى عن شكرهم وامتنانهم العميق للعطف الكبير الذي أظهرتموه تجاه قومهم وخاصةً تجاه القوال يوسف والوفد الذي توجه إلى القسطنطينية، كما كتبوا أيضاً رسالة إلى رشيد باشا (الباب العالي) يشكرون سموه للعهود التي قطعها على نفسه أمام القوال يوسف، وعبروا عن استعدادهم بعد أربع أو خمس سنوات من النظام (الخدمة العسكرية الإلزامية ـ المترجم) أن يقدموا لهم بعد ذلك بعض الضمانات بشأن ديانتهم، كانت نصيحتي لهم بأن يقدموا رسالتهم عبر الباشا ويلتمسوا رفعها من قبل سيادته . آمل من سيادته أن يقوم برفع رسالة الأيزديين، و دون شك سيسرُّ الباب العالي ما ورد فيها من تفانيهم في خدمة السلطات ووزيره.

والرسالة الموجهة إلى السفير البريطاني السير ستراتفورد كننط تُقرأ كما يلي :

(مثال الزعماء العظام، فخر النبلاء، ذوو الصيت، السفير الرفيع المقام البيك، أطال اللّٰه عمره آمين. نكتب إلى سعادتكم أنه قبل أيام قليلة عاد القوال يوسف إلى منطقتنا وسرد علينا كل ما لاحظه في الاستقبال المضياف الذي أقامه سعادتكم له، والدعم والتشجيع والنصائح المخلصة بشأن رفاهيتنا نحن الديانة الإيزدية، جميعنا نقدم شكرنا لسعادتكم، إنه من عطف سعادتكم الذي لا حدود له أن تمدوا يد المساعدة إلينا والتي لم نكن نحلم بنيلها، وتأكدنا من إخلاصكم تجاهنا عند تسلمنا للمراسيم الملكية التي فيها أمرت الدولة العلية بموجبها ألا يتعرض أحد لأبنائنا وبناتنا والتحريم المطلق لبيعنا كعبيد، ومن أن الدولة العلية مصممة على حماية أرواحنا وممتلكاتنا، مَن يكون من الدناءة والوضاعة أو عاقاً بحيث لا يقدر لطفكم الفائق ؟ لا، لقد أصبح كرمكم محفوراً في أفئدتنا فيما يتعلق بما نَقَله إلينا القوال يوسف مِن أن الدولة العَليّة قد عقدت العزم على رفض التجنيد العسكري الإلزامي لطائفتنا، جوابنا أن مرسوم سيدنا السلطان مطاع ولا أحد سوف يخرج عن طاعة هذا المرسوم الهام، ولكن نأمل في أن تستثنينا الدولة العليّة لمدة خمس سنوات إلى أن تتحسن أحوالنا وطائفتنا التي كانت تضطهد من قبل الوزراء السابقين ـ أن تنمو وتزدهر. بعد ذلك متى ما طلبت الدولة العلية منا أداء الخدمة الإلزامية سيكون شبابنا على استعداد تام لخدمة الإمبراطورية. فقط نأمل أنه عند فرض التجنيد علينا ألا تخلطوا أبناءنا بالجنود المسلمين، أن يتم فصلهم في وحدات خاصة مع الجنود المسيحيين وألا تهدد السلطات عقيدتنا. ليس لدينا ما نرد به على أفضال سعادتكم، لكننا ندعو اللّٰه

دائماً لأن يحميكم ويطيل من أمدكم لشهرتكم في دعم البؤساء والفقراء التعساء).

الرسالة مؤرخة في ١٤ ذي القعدة ١٢٦٥ هـ(١ تشرين الأول ١٨٤٩م) وموقعة من قبل الشخصيات التالية، من اليمين إلى اليسار:

الصف الأعلى: حسين خرتو شيخ خالد شيخ لاشكي، مراد قاسم، الياس وايا، تمو كالو، شيخ باريان شيخ عبدال، شيخ دالو شيخ كوجك، شيخ ميرزا شيخ إسماعيل، عبدي أمير الدانادية، حسين أمير الشيخان الإيزدية، والشيخ ناصر شيخ الإيزدية (وقّع الأخيران بالأختام).

الصف الأوسط: قوال يوسف قوال خدر، قوال ئادو قوال خدر، قوال خليل قوال حميد، قوال علي قوال سليمان، قوال إسماعيل قوال جيم، قوال محمد قوال خدر، قوال مراد قوال يوسف، قوال ثير سينو ثير حسني ثير ئابو، و سالو شالو.

الصف الأدنى: إبراهيم هوشابا، رَشتا جبل لايلون، درويش باتي، مراد بازو، شيخ سليمان إسماعيل، وخدر محمد.

نسخة عن رسالة الأيزديين إلى الباب الأعظم تحمل التاريخ ذاته الموجود على الرسالة الموجهة إلى السفير لكن دون أية تواقيع وتقرأ كما يلي :

(نموذج النبلاء رفيعو المستوى، فخر البابات العليّة من الشامة الرائعة والأصل النبيل، سموكم الباب الأعظم، حفظكم اللّٰه دوماً ورعاكم بفضل أنبيائه ورسله آمين.

يقدم هذا الالتماس إلى سموكم الرؤوف: نحن الديانة الأيزدية خدمكم، بعثنا إليكم خادمكم الشيخ يوسف لإيضاح همومنا على عتبة شفقتكم وعطفكم.

وسررنا كثيراً عندما سمعنا بأن سيادتكم يتعاطف مع وضعنا وبأنكم تدخلتم نيابة عنا لدى مولانا وسيدنا السلطان عبد المجيد ـ نصره اللّٰه ـ لتمدوا حمايتكم على عقيدتنا وطائفتنا ورفاهنا كما هو الحال مع بقية رعاياكم الآخرين من المسيحيين واليهود. كان موضع بهجتنا (أعلمنا القوال يوسف بأن مولانا السلطان شعر بالعطف تجاهنا) وأصدر أمراً بتحريم بيعنا واستعباد أطفالنا، وألا يُسمح لأحد بالتدخل في أمور ديننا. نحن الديانة الإيزدية قاطبة نقدم امتناننا مثلنا كمثل بقية رعاياكم، نحن المعدومون والفلاحون البسطاء ندعو اللّٰه دوماً أن يشمل مولانا السلطان عبد المجيد بتفضيله وأن يطيل في عمره ويمنحه النصر على كل أعدائه وأن يقوي الدولة العليّة. نحن نتوسل إلى رأفتكم لأن تنظروا إلينا بعين العطف والشفقة، لأن الحماية التي أضفيتموها علينا وعلى عقيدتنا لم ننلها من قبل أبداً من أي وزير سابق. بالإضافة إلى أن القوال يوسف قد أطلعنا على أنه في نية الدولة العليّة أن تفرض علينا نظام التجنيد الإلزامي، نحن عبيدكم، وهذه فكرة لا نخجل منها، نحن عالمون بأنه في الماضي وخاصة في عهد السلطان مراد ـ أنار اللّٰه ضريحه ـ قدمنا الخدمات العسكرية إلى سمو مقامه عندما طلب منا الجنود، وكنا دوماً على استعداد لخدمة مولانا السلطان، لكننا نلتمس من تقديركم الواسع الحكمة أن يتم استثناؤنا من الخدمة الإلزامية لمدة خمس سنوات، إلى أن تتحسن أحوالنا وتنمو وتزدهر طائفتنا التي اضطهدت من قبل المسؤولين السابقين. بعد ذلك متى ما طلبت سيادتكم منا أداء الخدمة العسكرية فإن شبابنا سيكونون على أتم الاستعداد لخدمة الدولة الإمبراطورية. نحن فقط نستعطف التفهم والتقدير الرؤوف للدولة العليّة بأنه عندما تجندون

من صفوفنا ألا تخلطوا أبنا ءنا مع الجنود المسلمين، وأن تفصلوهم في وحدات خاصة بهم أو الاندماج مع الجنود المسيحيين، وألا يهدد أحد عقيدتهم. إننا من رعاياكم ومنذ أمد طويل، عندما كنا نتعرض للملاحقة والاضطهاد افترضنا بأننا نُعتبر قطيعاً مهملاً دون مالك، لكننا على ثقة تامة أننا رعايا مخلصون لفخامة مولانا السلطان وعلى يقين بأن أي غبن يلحق بنا فإن لنا دولة ستعمل على إزالة ذلك الظلم والإجحاف بحقنا. وكذلك كنا شبه الغنم المفقود والضائع لكن الآن لدينا من يحمينا ودولة نفخر بها. سوف لن ننسى الأعمال الصالحة التي قام بها سيدنا الذي نكن له كل الإعجاب والتقدير، سعادة كامل باشا (والي الموصل) الذي في يوم وصوله إلى منطقتنا أظهر عطفاً عظيماً على حالتنا وحقق العدل بين صفوفنا، عطفه تجاهنا كان عظيماً، و ندعو اللّٰه الجبار أن يحمي لنا سعادة مولانا عبد المجيد خان وينصره على أعدائه ويديم الدولة العلية إلى الأبد ويقويها).

من هو ستراتفور كننك ؟

مع دخول القرن التاسع عشر كان الوضع السائد آنذاك في الدولة العثمانية لا يبشر بأي أمل في ظل التهاوي المتسارع وفشل محاولات الإصلاح السابقة، بريطانيا كانت تسعى للحفاظ على تماسك السلطنة فقد كانت تخشى أي تغير في موقفها كرجل أوروبا المريض في واقع عالمي متوتر بسبب حروب نابليون وأطماع روسيا وخشيت من تحالف الاثنين على اقتسام السلطنة.

قررت بريطانيا تقوية سفارتها بهدف مساعدة العثمانيين على الإصلاح وأوفدت الدبلوماسي ستراتفورد دي رادكليف أحد أفراد أسرة كاننج الشهيرة إلى القسطنطينية عام ١٨٠٨ لمساعدة المبعوث البريطاني روبرت أدير، وبعد عامين أصبح ستراتفورد السفير وأصبح الرجل الذي سيلعب دوراً مهما في إنقاذ السلطنة من الانهيار.

في هذا العام جددت فرنسا وروسيا بحث تقاسم السلطنة بينهما وكانت القوات الروسية تسيطر على ولاشيا ومولدافيا وكانت في نزاع مع إنجلترا وكرد فعل على هذا التحالف قامت النمسا بالسعي للتوسط بين الباب العالي وإنجلترا لحل الخلافات بينهما ونجحت الوساطة وتم توقيع معاهدة الدردنيل في ١٨٠٩م.

شنت روسيا الحرب على العثمانيين وتدخل ستراتفورد السفير البريطاني لإنقاذ السلطنة ونجح في استغلال الخلاف الروسي الفرنسي عام ١٨١١م في عقد معاهدة بوخارست بين السلطنة وروسيا وكانت المعاهدة بمثابة إنقاذ للسلطنة من مخططات الاقتسام التي وضعها نابليون بونابرت.

الخدمة العسكرية للإيزيدية :

بعد مغادرتي الموصل عام ١٨٤٧م بدأت حملة التجنيد الإلزامي بين سكان الباشالق من المسلمين لتشمل الإيزيديين الذين أعفوا من الخدمة في السابق مع المسيحيين نظراً لما ينصُّ عليه قرآنهم من عدم قبول مشاركة غير المسلمين في جيش الدولة، وهذا ما عملت به أغلب الدول الإسلامية. ونظراً لكونهم غير ملحدين فقد شملهم التجنيد كما شمل الدروز والنصيرية في جبل لبنان من المسلمين. لذلك قررت الدولة أن تلحق الإيزيديين بالخدمة العسكرية كغيرهم، وعلى إثر ذلك تم تطبيق الأنظمة بشكل صارم مما أدى إلى التصعيد في عمليات العنف والقمع من جانب بعض السلطات المحلية. كانت للإيزيديين أسبابهم الأخرى التي تدعوهم إلى مناواة أوامر الحكومة، ذلك أنهم لا يستطيعون أن يكونوا نظاميين ما لم يخالفوا بعض أحكامهم الدينية كالاستحمام مثلاً عند الجنود الأتراك المسلمين مرة في الأسبوع وفي ذلك ما يدنسهم. كذلك فإن اللون الأزرق الذي يرتديه الجنود الأتراك بالإضافة إلى عدد من قطع لباسهم الموحد الأخرى هي أمور ممنوعة منعاً باتاً وفق قانونهم، ناهيك عن عدد من الأطعمة التي تدخل في النظام الغذائي للجند.

أما الضباط المسؤولون عن التجنيد فلم يكونوا يكترثون لتلك الاعتراضات، بل على العكس من ذلك فقد كانوا يطبقون أوامرهم بيد من حديد مستخدمين في ذلك قوة مفرطة.

وقد كان الإيزيديون دائماً على استعداد لتلقي أصناف العذاب في سبيل نصرة دينهم، حتى أن عدداً منهم لقي حتفه في التعذيب الذي كانوا يتعرضون له، فضلا عن ذلك فقد تعرضوا لأعمال القمع والابتزاز غير الشرعي من قبل حكام محليين.

أما أولادهم فكانوا عرضة للبيع العلني كما تعرض آباؤهم الذين رفضوا جهاز الإصلاح الحكومي الذي طبق على المقاطعات للملاحقة والقتل بسبب دينهم[1].

وفي ضوء تلك الأحداث علم زعماء الطائفة حسين بيك والشيخ ناصر بتواجدي في القسطنطينية فأرادوا وساطتي لعرض مشاكلهم على السلطان بإرسال نائب عنهم آملين مساعدتي للوصول إلى بعض وزراء الدولة. لذلك تم اختيار قوال يوسف ورفاقه لهذه المهمة وتم جمع الأموال من أبناء الطائفة لتغطية مصاريف تلك الرحلة.

وبعد تعرض الوفد للعديد من الصعوبات والمخاطر وصل أفراده إلى العاصمة ووجدوا مكان إقامتي. ولم أتوانَ عن تعريفهم بالسير ستراتفورد كانينغ الذي عُرف بعدم تأخره في بذل ما بوسعه لدعم القضايا الإنسانية مكرساً نفوذه وسلطته، وعلى الفور عمد إلى إيصال مظالمهم إلى الباب العالي ونتيجة لتدخله صدر فرمان إمبراطوري ينص على إعفاء الإيزيديين من كافة الإلزاميات غير الشرعية، ويمنع بيع أبنائهم في سوق النخاسة، ويُوفّر لهم الغطاءُ لممارسة معتقداتهم الدينية، مانحاً إياهم حق المساواة مع كافة طوائف الإمبراطورية الدينية الأخرى.

---

[1] الآثاري البريطاني أوستن هنري لايارد، مكتشفات أطلال نينوى وبابل، ص ٢٣.

كما أنهم قد مُنِحوا وعداً باتخاذ التدابير الضرورية لإعفائهم من متطلبات الخدمة العسكرية التي قد تتعارض مع معتقداتهم الدينية. وذلك بلا ريب واحد من الأمثلة الكثيرة على حسن استخدام النفوذ وتوجيهه على الشكل الأمثل لخدمة القضايا الإنسانية دون اعتبار لعرق أو لون، والذي يضيفه السير ستراتفورد كانينغ وسام شرف على صدر الإنكليز، وافق قوال يوسف بعد انتهاء مهمته على العرض الذي قدمته له بالرجوع معي إلى الموصل. أما مرافقوه فكانوا ينتظرون الحصول على بعض الوثائق من الباب العالي وهذا ما منعهم من ترك القسطنطينية إلى أن تنتهي مهمتهم.

مشاكل الإيزيدية في الالتزام بالخدمة العسكرية في عهد السلطان عبدالمجيد

بعد فترة من الهدوء والطمأنينة للإيزيدية عاد السلطان عبدالمجيد إلى إلزام غير المسلمين بالخدمة العسكرية وبدأت المشاكل مع الإيزيدية مرة أخرى.

في عهد السلطان عبدالعزيز (١٨٦١-١٨٧٦م) تجددت الاتهامات مع الإيزيدية وبعث بجنرال عسكري (محمد طاهر بك) من إسطنبول إلى الموصل سنة ١٨٧٢م وطلب من الإيزيدية تجنيد (١٥٠٠٠) خمسة عشر ألف جندياً، وأمهلهم (١٠) عشرة أيام.

وخلال هذه المدة قدم الإيزيديون تقريرهم إلى محمد طاهر بك.

أسباب صدور العريضة

يذكر الدملوجي في ص ٤٧٤، العريضة التي رفعها لفيف من وجهاء الإيزيدية في الشيخان حول طلب إعفائهم من التجنيد الإجباري، نثبتها هنا لما احتوته على أخبار هامة عن معتقداتهم وأصول ديانتهم.

ذكر أحد الكتاب وهو أحمد تيمور عام ١٩٢٩م ما يلي : عندما دخلت تركية في حربها مع الروس عام ١٣١١ هجرية. جاء أحد قوادها المدعو طاهر بك إلى الموصل لتجنيد توابع الولاية على اختلاف نحلها، ولكن الإيزيدية امتنعوا عن التجنيد بدعوى أن ديانتهم لا تساعدهم على ذلك، ورفع الرؤساء منهم عريضة إلى أمير الآلاي العسكري تضمنت الموانع الشرعية التي تحول دون ذلك، لكن رد عليه الدملوجي :

أ. أن دخول تركية الحرب مع روسية وقع عام ٢٩٣ ام وليس عام ١٣١١ ه.

ب. لم يكن مجيء طاهر بك إلى الموصل لتجنيد توابع الولاية على اختلاف نحلها بل لتجنيد الإيزيدية خصيصاً، وكان ذلك في زمن ولاية مدحت باشا على بغداد (من مارت ١٢٨٥ إلى مايس ١٢٨٨).

ج. لم يرفع الإيزيدية عريضتهم التي تحتوي على الموانع الشرعية لقبولهم التجنيد إلى أمير الآلاي طاهر بك، بل رفعوها إلى المشير رؤوف باشا الذي خلف مدحت باشا في ولايته على بغداد، وذلك في تاريخ ١١ آذار ١٣٨٩. ٢٨ شباط ١٨٧٢.

بينما يذكر الديوه جي: كانت الدولة العثمانية قد أوفدت أمير آلاي طاهر بك إلى الإيزيدية لتجنيد ١٢٠٠ جندي. فجمع الوالي أميرهم ووجهاءهم وقرأ

عليهم مرسوم السلطان عبد العزيز (١٢٧٧-١٢٩٣- ١٨٦١ - ١٨٧٦ م . فالتمسوا من الوالي أن يمهلهم عشرة أيام، لينظروا في أمرهم. وبعد انقضاء المدة رفعوا عريضة إلى المشير رؤوف باشا والي بغداد يلتمسون عرض مطاليبهم التي ذكروها فيها إلى الدولة العثمانية، فرفعها المشير المذكور في ١١ آذار سنة ١٢٨٩ رومي الموافق ٢٨ شباط سنة ١٨٧٣م ونقلنا العريضة عن كتاب (فريدة السنية في كشف عقائد الإيزيدية) لمحمد ذخري بن الخياط. ذكر أنه نقلها عن أصل العريضة. وقد أبقينا ما فيها من أخطاء لغوية ونحوية و تعابير عامية على ما هي عليه حفظا للأصل المعروض إلى حضرة ذي العزة مير آلاي أركان الحرب طاهر بك أفندي. ثانياً : لما أمرتمونا بإعطاء البقايا العسكرية على موجب القانون الشاهاتية وهي نفرات (جنود) القرعة الشرعية. ومعلوم عند حضرتكم أنه لا يمكن أن نعطي النفرات المطلوبة على موجب القانون المذكورلأنه سيتسبب ببعض الخلل في ديانتنا ، ولأجل ذلك لم يتم قبوله لما صار لنا من طرف والينا صاحب الدولة حضرة الباشا دام إلى يوم الجزاء استرحام. وحضرتكم أيضاً عرفتمونا بنود القانون قامة الهمايونية المذكورة، و كثرة مراحم دولتنا الدولة العلية، دامت إلى يوم القيامة على كل الرعية، ذلك الوقت ملتنا (٢) تكلمنا بقول سمعنا وطاعاً وامتثالاً لأمر ولي الأمر أعطينا سنداً، واستناداً إلى التلغراف (٣) الذي ورد من الولاية المؤرخ ١١ كانون الثاني سنة ١٢٨٨ كتبنا هذه المواد الآتية المحيطة لجميع مرامنا ومقصودنا وما لنا قصد سوى هذا الذي ذكرناه في أدنى العرضحال (العريضة) أفندم [١].

(١) سعيد الديوجي، الإيزيدية، المجمع العلمي العراقي، ١٩٧٣ ص ٢٢١

كان الإيزيدية إلى قبل نصف عصر أو أكثر يجتنبون مخالطة غير الإيزيدي ويحرصون على كتم مبادئهم عنه. وعندما أحرجتهم الظروف على رفع هذه العريضة إلى الحكومة وكشفوا بها عن كثير من أسرار ديانتهم ومعتقداتهم، تلقتها الأيدي باهتمام زائد واتخذتها كوثيقة يرجع إليها عند البحث عنهم. ولذلك ما من بحث تم عن هذه الديانة إلا وأتي بها، ولكن بعد أن قَدِّم فيها وأَخِّر وتم تحريف بعضها عن مواضعه، وقد اخترنا تعريب النسخة التي أوردها المستشرق الفرنسي موسيو (ف. نو) في مجموعة نصوصه لقربها إلى الصِّحة قياساً بغيرها، فإنه بعد أن ذكر : أن هذه العريضة كانت قد رفعت إلى الآستانة بواسطة رؤوف باشا والي بغداد ومشيرها في ١١ آذار عام ١٢٨٩ مالية عثمانية (٢٨ شباط ١٨٧٢ م) قال : في زمن السلطان عبد العزيز (١٢٤٥- ١٢٣٩ ه) أتى أمير الألاي طاهر بك. [١]

ويضيف صديق الدملوجي : لجمع (١٢٠٠٠) جندي نظامي من الإيزيدية الداسنيين، فاستدعى الوالي أشرافهم وأمراءهم وقرأ المرسوم السلطاني عليهم، فطلبوا مهلة عشرة أيام لكي ينظروا في هذا الأمر، وبعد انقضاء الأيام العشرة قدموا إلى مقام الولاية عريضة قالوا فيها : نحن أبناء الأمة الإيزيدية حيث يتعذر علينا القيام بالخدمة العسكرية التي تكلفنا الحكومة بها، نؤثر أن نقدم إلى الحكومة المساعدة المالية عوضاً عن الرجال كبقية المسيحيين واليهود، والأسباب التي تحول دون الخدمة العسكرية هي كثيرة نذكر منها أربعة عشر سبباً :

(١) صديق الدملوجي، الإيزيدية، ط٢، ٢٠١٠، ص ١٩٧

الأول : يجب على كل يزيدي، كبيراً كان أم صغيراً، امرأة أم فتاة، أن يحج إلى صورة الملك طاووس ثلاث مرات بالسنة، أي في شهر نيسان وأيلول وتشرين الثاني، ومن أهمل ذلك يعد غير مؤمن بالمذهب الإيزيدي.

الثاني : إذا لم يزر الإيزيدي قبر الشيخ عدي بن مسافر قدس اللّٰه سره، ولو على الأقل مرة واحدة في السنة (١٥- ٢٠ أيلول) يكون غير مؤمن عندنا.

الثالث : يتحتم على كل يزيدي أن يبحث كل صباح عند شروق الشمس عن التراب المبارك ليمرغ به فمه في مكان منزوٍ يرى فيه نور الشمس ويسجد له، ولا يجوز أن يكون هناك مسلم أو مسيحي أو غير مؤمن، وإن أهمل ذلك يعد كافراً.

الرابع : يجب على كل زيدي أن يقبل يد أخيه الأبدي أو خادم المهدي ويد شيخه وبيره (رئيسه) وإذا ترك ذلك يعد كافراً. [١].

الخامس : هذا أمر لا تجوزه شريعتنا : لما يبدأ المسلمون بالصلاة صباحاً يقولون " أعوذ باللّٰه من.... اه" فإذا سمع أحد منا هذا وجب عليه إما أن يقتله أو يقتل نفسه وإذا لم يفعل ذلك يعد كافراً.

السادس : حين يموت أحدنا يجب أن يحضر موته أخوه الأبدي وشيخه وبيره وأحد القوالين ليقول له هذه العبارة × أنت أيها الساجد لملك طاووس تموت في الإيمان الموجود عليه الذي تعبده، أعني الإله السامي لا في إيمان آخر، وإذا أتاك أحد وقال لك في الإسلامية والمسيحية واليهودية أو في ديانة أخرى لا تؤمن به، لا تتبعه لأنك إذا عرفت ديانة أخرى ما عدا ديانة (طاووس ملك) التي تسجد له فتتبعها ستموت غير مؤمن.

. السابع : عندنا ما ندعوه ببركة الشيخ عدي وذلك هو التراب الذي نأتي به من قبر الشيخ عدي، فكل يزيدي لم يحمل من ذلك التراب شيئاً معه، ولم يأكل منه عند كل صباح يعد كافراً. وإذا مات أحد منا وليس معه من التراب المبارك فيموت كافراً أيضاً.

الثامن : يجب على الذين يقومون بفريضة الصوم ألا يصوموا إلا في وطنهم ولا يجوز لهم الصيام في محل آخر، لأنه يتحتم على كل واحد منهم في صباح كل يوم من الصوم أن يذهب إلى بيت شيخه أو بيره وهناك يبدأ بصومه ويحل صومه مساء في بيت أحدهما حيث يشرب خمر شيخه المقدس وإذا لم يشرب كأساً أو كأسين لا يقبل صومه ويعد كافراً.

التاسع : إذا سافر أحد أبناء الملة الإيزيدية إلى بلدة غريبة وبقي فيها على الأقل سنة ثم يعود إلى وطنه فلا يستطيع أن يعيش مع زوجته ثانية ولا يعطيه أحد منا امرأة، وإذا فعل أحد منا ذلك يعد كافراً.

.العاشر : من حيث اللباس، فكما قلنا في العدد الرابع، كل واحد منا له أخ الأبدية وله أيضاً أخت الأبدية، وحين يخيط أحد منا قميصه لا يجوز أن يثقب الرقبة إلا أخت الأبدية بنفسها وإذا لم تفتح هي ذلك لا يجوز لبس القميص، وإذا لبسه يعد كافراً.

الحادي عشر : إذا خاط أحد الإيزيدية قميصاً أو شيئاً جديداً ولم يغسله في الماء المبارك المأخوذ من محراب الشيخ عدي لا يجوز لبسه، وإذا فعل ذلك كان غير مؤمن.[1]

(١) صديق الدملوجي ص ٢٠٠

الثاني عشر : لا يجوز عندنا اتخاذ الألبسة الزرقاء ولا نستطيع أن نمشط رأسنا بمشط مسلم أو مسيحي أو يهودي ولا نستطيع أن نحلق رؤوسنا بموسٍ لغير مؤمن، إلا إذا غسلناه بماء الشيخ عدي المبارك، وإذا لم نفعل ذلك نكون غير مؤمنين.

الثالث عشر : لا يجوز لليزيدي أن يدخل المرحاض ولا الحمام أو يستعمل ملعقة أو كأساً قد استعملها مسلم أو غير مؤمن.

الرابع عشر : أما بخصوص القوت، فالبون عظيم بيننا وبين المذاهب الأخرى، فإننا لا نقدر أن نأكل السمك ولا القثاء ولا البامية والقرع ولا الفاصولياء ولا الملفوف ولا الخس.

- **رئيس الملة الإيزيدية / حسين أمير الشيخان.**
- **الرئيس الروحاني للملة الإيزيدية / شيخ ناصر.**
- **رئيس قرية مام رشان / بير سليمان[1](بير سليمان مام رشي)**
- **رئيس قرية بيبان / حسين كاروانى[2]**

---

(١) بير سليمان من بيرانية هاجيال كان مام رشي و أحفاده حالياً ساكنين في قرية موسكان وهم بيرانية الدوملية (وتقع قرية موسكان جنوب قرية مهد)

(٢) من أحفاده قوجي قادو وجندي اوصي... مازال أبناؤه يعيشون في قرية بيبان يقول حفيده (سعود داود بيباني).

كاروانى كان من سكان پيدى ورحل مع أولاده الاثنين حسين وحجي وسكنوا في قرية بيبان وحينها كان حسين كاروانى أباً لأربعة أولاد هم (عيدو، جندي، حجي، اوصي) وكان مختار القرية في ذالك الوقت وأحد وجهاء المنطقة.

عيدو ابنه الأكبر قتل من قبل عائلة لاستيكا من أهل بوزان من شيوخ أمادين، عيدو والد (قادو) كان مختار لقرية بيبان وابنه (قوجي)، والابن الثاني حجي كان أباً لفتاة واحدة، جندي كان والد علي وعلي كانت له ابنتان، أوصي كان ابن حسين الصغير وله من الأولاد جندي وكاروانى،

- **رئيس قرية خطارة / أيوب شيرؤ [١]**
- **رئيس قرية ده هكان / حسن عرب [٢]**
- **رئيس قرية خورزا / نرمو [٣]**
- **رئيس قرية باقصرة / علي إبراهيم [٤]**
- **رئيس قرية خوشابا / الياس مصطفى**
- **رئيس قرية بعشيقة / علو[٥] - بينما يذكر سعيد الديوه جي بأنه (جمعة فهد)**
- **رئيس قرية كاباره / كوجك قاسو [٦]**
- **رئيس قرية سينا / عبدو [٧]**
- **رئيس قرية عين سفني / كركو علي**
- **رئيس قرية كبرتو / طاهر سعدون [٨]**
- **كرى بان / صعو داود**

تم بناء مزار شاه سوار بزمن حسين كاروانى و كانوا يوقدون (چراء القنديل) ونحن مازلنا نوقده في دارنا في السويد حتى الآن.

ولعوائل حسين كاروان علاقات ودية مع أقربائهم الذين بقوا في بيدة وأصبحوا مسلمين ومنهم عوائل (خدر فتاح أوصي وإبراهيم حجي ملو).

(١) مازال أحفاده يعيشون في القرية منهم شيرو ودومان وإسماعيل حسو.

(٢) حسن عرب علي الهيلاني.

(٣) مازال أحفاده يعيشون في قرية خورزا في مجمع شيخكة/ ناحية القوش.

(٤) أحفاده حالياً يغيشون في عين سفني والعديد منهم هاجروا في الآونة الأخيرة إلى أوربا.

(٥) كوجك علو الجحركي.

(٦) أحفاده يعيشون في قرية كابارة ضمن مجمع نسيرية ومنهم المهندس ناظم شمو والأستاذ زيدو إسماعيل.

(٧) عبدو القائيدي من فخذ ستري زركي.

(٨) من أحفاده حاكم نمركجو والبقية يعيشون في مجمع خانك.

- **موسكان / مراد سودو [1]**
- **خانك / عثمان جولو. [2]**
- **رئيس قرية قصرإيزدين / شيخ خيرو[3] ـ بينما يذكر سعيد الديوه جي بأنه (شيخ حيدر[4]).**

رأي الكتاب والباحثين حول العريضة

يقول صديق الدملوجي: إن هذه المسائل التي احتج بها جماعة من يزيدية الشيخان وعلى رأسهم الأمير حسين بك والرئيس الروحاني للملة الإيزيدية الشيخ ناصر بأنها مانعة لقبولهم التجنيد، لم تكن لتعبر تعبيراً صادقاً عن معتقداتهم، وقد بالغوا فيها قصد أن يضطروا الحكومة إلى عفوهم من الخدمة العسكرية وأخذ البدل العسكري منهم أسوة بالملل غير المسلمة، وكانت الحكومة تشدد الخناق عليهم لقبول الخدمة العسكرية ولم تعترف بأنهم خارجون عن الإسلام. وقد كان الإصرار الذي تبديه الحكومة في إرغامهم على قبول الخدمة العسكرية في نصف العصر الأخير في حكمها في العراق من أعظم المشاكل التي لاقوها في حياتهم، فألف نوري باشا الكريدي في ولايته على الموصل رسالة عن

---

(١) مراد سودو الدوملي كان موسكي و حالياً أحفاده في قرية مام رشان.

(٢) مازال أحفاده يعيشون في قرية خانك.

(٣) الدملوجي ص ٢٠٢، سعيد الديوجي، الإيزيدية، المجمع العلمي العراقي، ١٩٧٣، ص ٢٢٥، الدكتور سامي سعيد الأحمد، الإيزيدية، ١٩٧١، ص ٢١٥.

(٤) شيخ حيدر مامكي من عائلة الشيوخ الشمسانية، ومازالت عوائل أحفاده تحتفظ بسند عقاري في العهد العثماني باسمه في قرية قسر إزدين، وذكره جون س كيست في كتابه تاريخ الإيزيدية أن عائلتهم كانت تمتلك المصحف الأسود .

معتقداتهم وأصول ديانتهم سماها " عبدة إبليس " أوضح فيها الموانع التي تحول دون قبولهم في الجندية، وبرهن على ضرورة أخذ البدل العسكري منهم أسوة بالملل غير المسلمة، وطبع هذه الرسالة في مطبعة الولاية وبعث بها إلى رجال الحل والعقد في إسطنبول بغية إنزالهم عند هذه الفكرة، فلم يلق نجاحاً. وقد كثرت الأقوال في المحافل الرسمية عن الأسباب التي دعت هذا الوالي إلى وضع هذه الرسالة وانتقد عليها. *** [1] طَبعت منها أربعون نسخة في مطبعة الموصل سنة ١٣١٩ هـ بصورة سرية كتب عليها دوكلاي سلطنة سنيه به تقديم أولمق أوزرة بالكز قرق نسخة موصل ولايت مطبعة سنده طبع أولتشدره وقد أعاد طبعها (جلال نوري) الكاتب المشهور في مطبعة جهاد في إسطنبول وهي متداولة بين الأيدي [1].

الذي جرى مؤخراً بين السلطة المدنية والعسكرية في الدولة العثمانية أخَّر وضع الترتيبات الجديدة موضع التنفيذ، كانت شعارات تجنيد الأيزديين لا زالت تصدر، وفي وقت ما احتجز حسين بك رهينة إلى أن تصل قوة إيزدية.[2]

استغل المجلس الروحي في لالش، أعلى سلطة دينية في تلك الحقبة، هذه الفرصة لتحرير الإيزيديين من الخدمة العسكرية، والمطالبة بالحرية الدينية

---

(١) الدملوجي ص ٢٠٢

(٢) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٠١ برقيات رسام من الرقم (١٤) إلى (١٧) في الفترة آب ـ تشرين الأول ١٨٥٠ إلى السفارة. ساندرزكي Reise Mosul und durch Kurdistan nach Urumia ج ٣، ص ٢٨٣. وكذلك مكتب الخارجية ١٩٥ / ٤٥٩ برقية دبليو. ر. هولمز قنصل دياربكر المرقمة (١٠) في ٥ آذار ١٨٥٧ و ١٩٥ / ٦٠٣ برقيتا مالتاس المرقمة في ٢٠ شباط ١٨٥٨ و (٣٠) في ١٧ تشرين الثاني ١٨٥٧ إلى السفارة.

والاحتجاج على العبودية وفقًا للشريعة الإسلامية، ولم يكن للإيزيدية حقوق تذكر، فقد صاغ المجلس رسالة موجهة إلى الوزير الكبير للسلطنة وأعد وفداً إلى إسطنبول. تم تعيين قوال يوسف حسين رئيساً للوفد الذي يتألف من خمسة كبار الشخصيات الإيزيدية.

It was night before we reached Bukra, where we were welcomed with great hospitality. The best house in the village had been made ready for us, and was scrupulously neat and clean, as the houses of the Yezidis usually are. It was curiously built, being divided into three principal rooms, opening one into the other. They were separated by a wall about six feet high, upon which were placed wooden pillars supporting the ceiling. The roof rested on trunks of trees, raised on rude stone pedestals at regular intervals in the centre chamber, which was open on one side to the air, like a Persian Iwan. The sides of the rooms were honeycombed with small recesses like pigeon-holes, tastefully arranged. The whole was plastered with the whitest plaster, fancy designs in bright red being introduced here and there, and giving the interior of the house a very original appearance.

Interior of a Yezidi House at Bukra, in the Sinjar.

وفد الإيزيدية المرافق للايارد في عام ١٨٤٩م

وكذلك انضم إلينا رجل يعرف بعبد المسيح وهو كاثوليكي سوري من منطقة ماردين، يتميز بالنشاط والثقة تعرفت إليه خلال إقامتي السابقة في آشور، وجدناه في العاصمة لحسن الحظ في الوقت نفسه. أما الرفاق الآخرون فهم محمد آغا وهو قواص ورجل أرمني سركيس. هذا ولقد اتفقت مع بيرقدار المخلص الذي تفانى في خدمتي خلال رحلتي الأولى والذي رافق المفوضية الإنكليزية في عملية ترسيم الحدود بين تركية وفارس على أن نلتقي في مدينة الموصل حال رجوعي، أما آخر الملتحقين بمجموعتي فهو (قوال يوسف) الزعيم الديني للطائفة الإيزيدية مع أربعة من كبار أعيان المقاطعات المجاورة لديار بكر جاؤوا إلى القسطنطينية منذ شهور عدة[١].

في أكتوبر من عام ١٨٤٨م، تم إجراء الاستعدادات لرحلة الوفد، بدعم من عالم الآشوري هرمزد رسام (١٨٢٦ ـ ١٩١٠م)، الذي ساعدهم على السفر إلى إسطنبول ويلتقي الإيزيدية بالسفير البريطاني ستراتفورد كانينج (١٧٨٦ ـ ١٨٨٠م)، تم تمويل تكلفة السفر وتقديم الطعام للوفد من خلال تبرعات الإيزيدية.

في بداية عام ١٨٤٩م، توجه الوفد المؤلف من خمسة رجال برئاسة قوال يوسف إلى إسطنبول. وبما أن الرحلة لم تكن آمنة بالنسبة للإيزيديين غير الشرعيين فقد رافق الوفد خمسة رجال مسلحين آخرين.

في الوقت نفسه كان لايارد بالفعل في اسطنبول، حيث شغل منصباً في السفارة البريطانية. بعد بضعة أشهر في إسطنبول زار وفد إيزيدي منزل لايارد

---

(١) الآثاري البريطاني أوستن هنري لايارد، مكتشفات أطلال نينوى وبابل، ٢٠١٢، ص ٢١.

وطلب المساعدة، لم يتردد صديق الإيزيدية منذ فترة طويلة في التوسط مع السفير المؤثر ستراتفورد كانينج.

يصف لايارد قوال يوسف في أول لقاء له على النحو التالي: "ارتدى القوال ملابس ملته. كان وجهه مظلماً وملامحه التعبيرية العادية مظللة بعمامة زرقاء، وعباءة مخططة من الخام بطيَّات واسعة تسقط فوق ثوب من الحرير الأحمر. "

كما أن ستراتفورد كانينج لا يميل إلى إضاعة الكثير من الوقت وعمل لصالح الإيزيدين. فمن خلال جهوده إلى جانب الوفد ووضع الإيزيديين أصدر السلطان أمراً بالنهي عن عبوديتهم و منحهم الحرية الكاملة فيما يخص الدين والمساواة مع جميع الأديان الأخرى في الإمبراطورية وحررهم من الخدمة العسكرية.

في المخطوطات البريطانية، يتم الاحتفاظ بكل من خطابات ستراتفورد كانينج ورسالة الإيزيدية إلى الوزير العثماني الكبير، وتم نشرها لأول مرة بواسطة جون س كيست، و الموقعون على الرسالة الموجهة إلى السلطنة هم الإيزيدية القادمون من قبل الزعيم العلماني مير حسين بيك، الزعيم الديني الشيخ ناصر، قوال يوسف والعديد من الشخصيات الإيزيدية ورؤساء القرى.

بعد أن أنهى قوال يوسف مهمته، اقترح لايارد أن يرافقه إلى الموصل. بعد سنوات تلقى لايارد أخيراً الدعم اللازم لمواصلة التنقيب في نينوى و نيابة عن المتحف البريطاني رافقه في هذا المشروع هرمزد رسام والفنان البريطاني فريدريك كوبر والطبيب همفري ساندويث.

وافق قوال يوسف على اقتراح لايارد وانضم إلى شركته للسفر، وظل الأعضاء الأربعة الآخرون في الوفد الإيزيدي في إسطنبول حتى اكتمال الوثائق من قبل الباب العالي وتسليمها لهم.

خلال فترة الإقامة اغتنم الموسيقي البريطاني لوي الفرصة لتسجيل بعض ملاحظات الأغاني الإيزيدية. ثم قام قوال يوسف بالعزف على الناي وبدأ بقراءة بعض النصوص المقدسة والرثاء الإيزيدية. وهكذا ظهرت أولى الوثائق المسجلة للأغنية الإيزيدية وسجله لوي في عام ١٨٤٩م في إسطنبول.

استكملت الاستعدادات للمغادرة في ٢٨ أغسطس ١٨٤٩م، وغادرت المجموعة المحيطة بميدان ليوارد وقوال يوسف إسطنبول على متن سفينة بريطانية.

المسيرة المنتصرة عبر رضوان

في ٣١ أغسطس، وصلوا إلى ميناء طرابزون واستمروا في رحلتهم في اليوم التالي في جميع أنحاء البلاد في رحلة قافلة ووصلوا إلى أرضروم في ٨ سبتمبر. بعد أن قام لايارد بتجهيز قافلة سيارته في الرحلة القادمة، واصل طريقه إلى بيتليس. في الطريق استقبلت مختلف القرى بحرارة واستضافت شركة السفر ولم يستطع المسافرون الأوربيون الوقوف إلى جانب الآثار القديمة والمباني. في بيتليس علم لايارد أن ثلاثة من أقارب قوال يوسف قتلوا في عام ١٨٤٧م على يد الأمير الكردي شريف بيك خلال جولتهم السنوية في قرى الإيزيدية بالقرب من بيتليس. وتم نهب التبرعات المالية من الإيزيدية وكذلك ممتلكات القوالين. هُزم شريف بيك وأسر قبل أشهر من وصولها إلى بيتليس. أكد لايارد لقوال يوسف

مساعدته بمساعدة من الحاكم، صادر لايارد عقار شريف بك واستعاد الممتلكات المسروقة من مجتمعه لصالح قوال يوسف.

في ٢٠ سبتمبر، غادروا بيتليس واختار لايارد طريقاً للقافلة التي تمر عبر قرية إيزيدية في خرزان، لأنه أراد زيارة الإيزيدية. بعد بضعة أيام وصلوا إلى قرية هيميكي وعزيدي لوجود حادث مع القرويين وقوال يوسف:

"عندما غربت الشمس، غادر الناس ونزعوا أجهزتهم. لقد رأوا فرقة كبيرة من الفرسان تقترب منا وتعتبرنا قوات غير نظامية ـ إرهاب قرية في آسيا. غطى قوال يوسف الآن وجهه بالكفية العربية التي كان يرتديها في ذلك الوقت وركب بين الناس وطالب اللجان والأوساط بنبرة قاسية. أحنى الفقراء رؤوسهم ولم

يبدوا أي مؤشرِ امتثالٍ لهذه الرغبة، و كانوا يخشون أن يقدموا إجابة رافضة. فرح القوال للحظة لإحراجه ثم نزع الكفية عن وجهه وصاح: "يا أيها الناس الأشرار، ألا تريدون أن تقدموا خبزًا لكاهنكم أتريدون أن تخرجوه جائعاً من بابكم؟" ألقيت المجارف والشوك جانباً وهرع الرجال نحو القوال واندفعوا لتقبيل يديه وأسرع صبي إلى القرية يحمل الأخبار، وعلى الفور خرجت النساء والأطفال والشيوخ لأداء التحية لنا. كانت بضع كلمات كافية لشرح من أين أتينا وماذا نريد. وكان الجميع حريصاً على خدمتنا، وقبل أن ننظر حولنا كانت الخيول قد عُبئت و الخيام قد نُصبت والحملان قد جلبت. سيطر الإبهام على الوضع وكان عليهم إلقاء نظرة مطولة على كاهنهم وتصديق ما يرونه بعد انتشار شائعة من قبل المسلمين الذين سمعوا برحلة قوال إلى القسطنطينية، فنشروا أخباراً من أن قوال يوسف كان هناك و تم إعدام رفاقه بأمر من السلطان وأنه لم يتم رفض مطلب الإيزيدي فحسب، بل إن عذاباً جديداً كان جاهزًا ينتظرهم.

لمدة ثمانية أشهر لم يتلقوا أية أخبار عن القوال، وقد عزز هذا الصمت الطويل خوفهم وقلقهم، أماتَ؟ لكنهم يرونه على قيد الحياة مرة أخرى، فاحتفلوا بمهرجان شاركت فيه القرية بأكملها .

تجمع شيوخ القرية حول قوال يوسف، وكان الحديث على أقصى قدر من الدقة حول الأحداث الفعلية منذ إقامته في إسطنبول، الاجتماع مع لايارد، العريضة إلى الباب العالي ومغادرته مع لايارد، وأعد الإيزيدية وليمة لضيوفهم وذهب بعض الشباب الإيزيديين إلى قرى الإيزيدية المجاورة لإعلامهم بوصول قوال يوسف.

في صباح اليوم التالي، استيقظت المجموعة السياحية على أصوات الضوضاء والفرح، وبين عشية وضحاها استعد العشرات من رجال الإيزيدية من القرى المجاورة لمرافقة المسافرين، وكان زعيمهم آقۆ رئيس قرية Gozelder. وصف لايارد لأقو: "محارب شهير في معارك الإيزيدية، ورغم أن لحيته كانت رمادية بالفعل إلا أنه لا يزال رجلاً شجاعاً". لا تزال الأغاني الإيزيدية تذكر بطولات آقو رزكۆ"Aqoyê Rizgo".

دعا آقو المسافرين لتناول العشاء، سافر لايارد الذي لم يتمكن من رفض هذه الدعوة مع مجموعته، التي كان يرافقها الآن العديد من رجال الإيزيدية في اتجاه قرية Gozdelder. في الطريق إلى هناك، استقبلتهم قوات الإيزيدية الأخرى حتى وصل عدد المرافقين إلى مئات الرجال. عند وصولهم إلى غوزيلدر، استقبلوا مرة أخرى بحفاوة وسعادة.

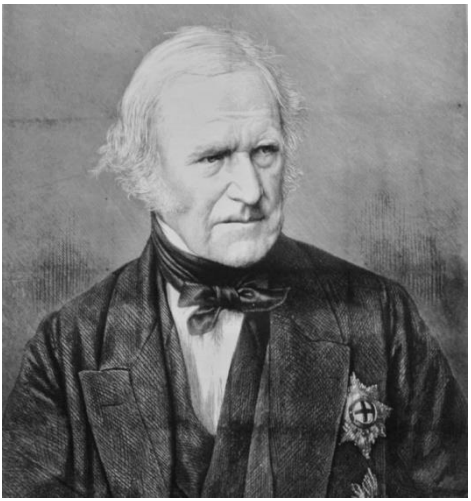

في الطريق التقوا بثلاثة من أقارب قوال يوسف، الذين انضموا إلى المجموعة. لقد كانت فرحة لايارد أكبر عندما أدرك أنه التقى بهم في لالش قبل ثلاث سنوات.

ستراتفورد درس أحوال السلطنة وبعث تقارير إلى وزارة الخارجية في لندن جاء فيها أن الحكومة سيئة بصورة شديدة وأن رجالها الذين يدركون مساوئها ليست لديهم الحكمة أو الشجاعة اللازمة لإصلاحها، وتنبأ ستراتفورد بأن الدمار سوف يحل بالدولة لأنها فاسدة حتى النخاع ولأن الحكومة ذاتها هي رأس الفساد.

حصل وفد القوال يوسف على جميع مطالبهم بتوقيع من السلطان عبد المجيد وأضاف السلطان لا يجوز التعامل بالقسوة مع الإيزيدية لأي سبب كان ولهم الحرية في أداء المراسيم الدينية الخاصة بهم.

كان هذا القرار قراراً تاريخياً بالنسبة إلى الإيزيدية وبعدها لم يتم التعدي على الإيزيدية، وعاشوا حياة حرة إلى نهاية حكم السلطان عبدالمجيد عام ١٨٦١م ولم يطلب منهم أداء الخدمة خلال هذه الفترة، هذه المكتسبات كانت بفضل لايارد والسفير البريطاني في إسطنبول.

A Kellek or Raft on the Tigris

CHAPTER XXI.

لايارد وقوال يوسف وقوال سيفوك[1] عند إيزيدية خَرزا

أراد لايارد العودة إلى الموصل لإكمال عمله في تنقيب الآثار، خرج من إسطنبول للتوجه إلى طرابزون بواسطة سفينة مع قافلة من الأشخاص وبمعيته قوال يوسف، ومن ثمَّ للتوجه إلى الموصل عبر الطرق البرية، ولم تكتمل بعض أوراق مجموعة الوفد المرافق لقوال يوسف، حاول القوال الحصول على بعض الخرائط للسير بموجبها للوصول إلى الموصل (إسطنبول ـ طرابزون ـ بايبورت ـ أرضروم ـ هنس ـ بحيرة نازك ـ بحيرة وان (القلعة وطاطوان) بتليس ـ زيارت ـ خَرزا ـ رضوان).

بالقرب من بتليس وقبل ثلاث سنوات (١٨٤٦م) قتل ثلاثة من أقرباء قوال يوسف من قبل ميرزا شريف بك، وحاول لايارد أخذ المبلغ المنهوب من القوالين بعد

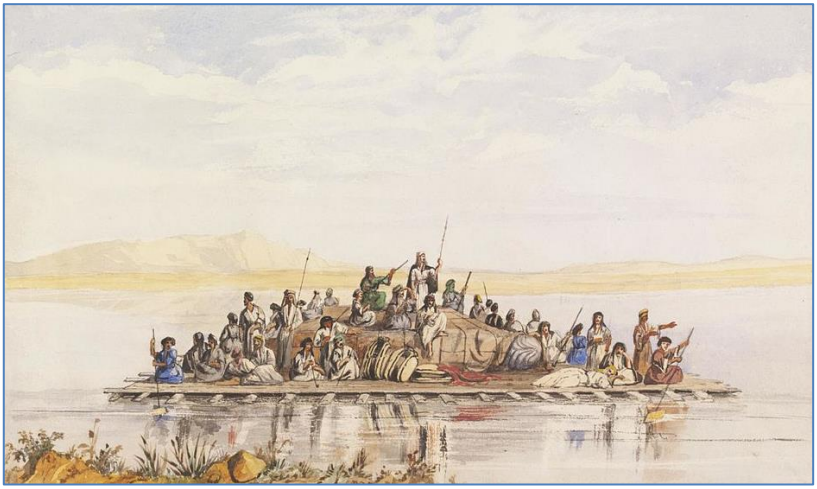

(١) من أحفاده رئيس القوالين الحالي / قوال بهزاد بن قوال سليمان بن قوال سفو بن قوال سليمان بن قوال سفوك بن مراد بن سيفان sivan

أن جمعوا الخيرات من قرى الإيزيدية، وحصل على الموافقة من رشيد باشا، وراجع لايارد إدارة بتليس وتم استحصال المبلغ المذكور وسلمه إلى قوال يوسف.

وصلنا إلى أرض دوز منطقة خورزا عصراً وتوجهنا إلى قرية (حمكا) الإيزيدية، كان القرويون يتوجهون إلى منازلهم من البيادر بعد غروب الشمس و حينما رأوا قافلتنا توقعوا أننا مجموعة من العساكر (باشك بزوك) الذين كانوا مصدر خوف لأهالي المنطقة.

أخفى قوال يوسف ملامح وجهه بواسطة كفية وذهب إليهم طلباً منهم مكاناً لينناموا فيه ومساعدتهم بالطعام والشراب، القوم الفقير مشبكين رؤوسهم بالانحناء، لم يشعروا بالارتياح لقدومنا وحاولوا عدم إيوائنا بعدها رفع القوال كفيته عن وجهه وقال : هل تودون طرد قوالكم دون إيوائه وإطعامه ؟

جاء الجميع وقبلوا يد القوال مرحبين بنا أجمل ترحيب، البعض منهم ركض نحو القرية ليبشر الأهالي بقدوم القوال إلى القرية، خرجت القرية عن بكرة أبيها رجالاً ونساءً وأطفالاً لاستقبال القوال، تزاحموا فيما بينهم من أجل تقديم المساعدة لنا، أخذوا الحصن إلى المعلف نصبوا خيمة كبيرة وذبحوا الخرفان كانت فرحة كبيرة، سُرَّ هؤلاء المظلومون بمجيء القوال، فقد كانت هناك شائعة بين مسلمي المنطقة تفيد بأن القوال قد ذهب إلى إسطنبول وقتل مع من معه بأمر من السلطان وتم رفض طلب الإيزيدية وهناك تهيأ العسكر للهجوم عليهم، وثم إن ثمانية أشهر مضت لم يزرنا فيها القوالون، هذا السكوت والغياب كان مصدر قلق لنا، ثم جلس وجهاء القرية مع القوال وطلبوا منه أن يروي لهم عما كلف به وعن رحلته منذ بدئها إلى

حين وصوله إليهم، وعن وضع الإيزيدية في شيخان وسنجار، كان يوم فرح عظيم لأهالي القرية. [1]

(١) في عام ١٨٤٨م وبعد إقامة في إنكلترا استغرقت بضعة شهور بغية استعادة نشاطي، بعد أن أنهكني طول المقام في مناخ الشرق والتعرض الظروفه القاسية، صدرت أوامر تفيد بضرورة التحاقي بمركز عملي في سفارة مملكتنا في تركية، في تلك الفترة لم ير مجلس أمناء المتحف من ضرورة لمتابعة الحفريات في الموقع الأثري لمدينة نينوى القديمة. كما أن تدهور حالتي الصحية وضيق الوقت حالا دون أن تعرض نتائج أبحاثي الأولى المزودة البرشما للآثار ونسخ عن النقوش المنقولة عن الآثار الآشورية أمام جمهور القراء قبل عودتي للشرق. ولم تنشر إلا بعد فترة من مغادرتي، وهذا ما جعلها لا تخضع لعملية التمحيص الدقيق والمراجعة التي تقتضيه أعمال من ذلك النوع. و عندما كنت في القسطنطينية علمت لأول مرة ما كان للرأي العام في إنكلترا من ردة فعل تجاه هذه الاكتشافات، وكيف تم تلقيها على أنها إيضاحات ألقت ضوءاً جديداً على نصوص من الكتاب المقدس من جهة و على التاريخ القديم سواء أكان الديني منه أو المتعلق بحياة الناس، ودعوني هنا وفي مستهل حديثي أعبر عن بالغ تقديري واحترامي لما يتمتع به الإنكليز من حيادية في نقدهم البناء تتغاضى عما قد يعتري الإنسان من عجز و نقص، سعياً للوصول إلى أهداف أسمى وأنبل، خاصة إذا تم السعي إليها بإخلاص وتفان كبيرين. ولا يمكن التعبير عن امتناني تجاه ما نلته من تشجيع لا مثيل له إلا بالمسارعة لتلبية دعوة مجلس أمناء المتحف دون تردد، بتشجيع من الرأي العام لمتابعة أعمال الحفريات في آشور مرة ثانية. حيث طلب مني تقديم خطة عمل لعمليات التنقيب، وبناء على ذلك وضعت ما وجدته أفضل وأنجع طريقة للحصول على أهم وأروع النتائج التي تمكننا بالوقت ذاته من الحصول على معلومات دقيقة تتعلق بالتاريخ القديم واللغة والفنون، ليس في آشور فقط، ولكن في شقيقتها مملكة بابل أيضاً. ولعل برنامجي كان على قدر من الشمولية والاتساع بحيث بدا وكأنه صعب الإنجاز وأن تبنيه غير مكفول النتائج ولكني كنت مصممة على العودة إلى الموقع الأثري في نينوى لإتمام التنقيب بين آثارها. تمت التحضيرات في إنكلترا بشكل سريع وفوري، وبالطبع ليس بالشكل الكافي. وقد دعت الحاجة إلى فنان يرسم بصدق ودقة الآثار المتداعية التي يصعب نقلها من مكانها، لذلك فقد رشح مجلس أمناء المتحف السيد × إف. كوپر " للالتحاق بالحملة. وصاحبه كذلك السيد × هرمزد رسام " الذي يعرفه جمهور قرائي بعد

قص القوال عن قضية الإيزيدية ومطاليبهم إلى الحكومة في اسطنبول وبين تفاصيل ما قدمه لايارد والسفير البريطاني والنتائج الايجابية وهو متفائل بمستقبل زاهر للإيزيدية، قدم اهالي القرية ما تمكنوا من الكرم إلى مجلس لايارد .

مشاركته الكبيرة في اكتشافاتي الأولى حيث لحقوا بي إلى مدينة القسطنطينية. وكذلك انضم الدكتور ساندويذ Sandwith وهو طبيب إنكليزي كان في زيارة للشرق إلى مجموعتنا.

(١) كوشانا قرية إيزيدية، تسكنها فخذ الشمسكية وهم من القزليين، يرأسهم محو عفدو، ووادي كوشانا من الوديان المعروفة والمشهورة في جغرافية المنطقة ويقع في شمال القرية، لها طريقان واسعان الأول يمتد إلى خورزا والثاني إلى رضوان، ووضع محو عفدو صخرة كبيرة على جانب منتصف الطريق من أجل فرض الضرائب وتسمى (صخرة الضرائب) ذات يوم أراد شخص من قبيلة كوجر المسلمة العبور فلم يسمح له محو إلا بعد أن يدفع ضريبة المرور من الطريق ولكنه رفض دفع الضريبة وتشاجرنا وقتل محو، وحالياً تسمى القرية بالتركية (كشانا) وتسكنها المسلمون.

(١) تعتبر رضوان مدينة وليست قرية (المقصود عام ١٨٤٩م) ولها مكانتها في المنطقة، تحتوي على (٨٠٠) عائلة منهم (١٠٠) عائلة أرمنية و (٤٠ـ٥٠) عائلة كلدانية والبقية من العوائل الإيزيدية، تقع على سهل كبير ويجري فيه النهر ويصب في نهر دجلة الجاري من دياربكر، وكانت فيها مديرية ولكن حينها المدير لم يكن متواجداً، يقع قصر (ميرزكى زازا) في أعلى التل، لكن حينها لا تسكن وماثلاً إلى الانهيار.

مجلس لايارد يتحول من كوزلدر إلى قرية (كوشانا)[1] ومن هناك توجهوا إلى رضوان[2]

وقال لايارد قبل وصولنا إلى الرضوانية، توجه قوال يوسف ولايارد إلى رضوان برفقة أكثر من ١٠٠٠ متسابق ومواطن وصلوا إلى قرية رضوان التي توقعت قيام حفل استقبال أكبر. ومرة أخرى يأتي القادمون من القرى المجاورة وخاصة القرى المسيحية القريبة من رضوان ومجالس الأرمن ومعهم الطبل والزرنا لاستقبال الضيوف. سار القرويون وفي أيديهم زهور وفروع الأشجار، والموسيقيون يضربون على الطبول والمزامير في الأعلى. تجمع الإيزيدية والمسيحيون في قرية رضوان لحضور حفل الاستقبال، ووصف لايارد على نحو مناسب "مسيرة النصر". تم استقبالنا من قبل رئيس إيزيدية رضوان (نازى ـ كان في الرابع عشر من عمره ـ) ابن شقيق ميرزا زازا (ميسكى زازا) وتمت استضافتنا

(١) كوشانا قرية إيزيدية، تسكنها فخذ الشمسكية وهم من القزليين، يرأسهم محو عفدو، ووادي كوشانا من الوديان المعروفة والمشهورة في جغرافية المنطقة ويقع في شمال القرية، لها طريقان واسعان الأول يمتد إلى خورزا والثاني إلى رضوان، ووضع محو عفدو صخرة كبيرة على جانب منتصف الطريق من أجل فرض الضرائب وتسمى (صخرة الضرائب) ذات يوم أراد شخص من قبيلة كوجر المسلمة العبور فلم يسمح له محو إلا بعد أن يدفع ضريبة المرور من الطريق ولكنه رفض دفع الضريبة وتشاجرنا وقتل محو، وحالياً تسمى القرية بالتركية (كشانا) وتسكنها المسلمون.

(٢) تعتبر رضوان مدينة وليست قرية (المقصود عام ١٨٤٩م) ولها مكانتها في المنطقة، تحتوي على (٨٠٠) عائلة منهم (١٠٠) عائلة أرمنية و (٤٠ـ٥٠) عائلة كلدانية والبقية من العوائل الإيزيدية، تقع على سهل كبير ويجري فيه النهر ويصب في نهر دجلة الجاري من دياربكر، وكانت فيها مديرية ولكن حينها المدير لم يكن متواجداً، يقع قصر (ميرزكى زازا) في أعلى التل، لكن حينها لا تسكن وماثلاً إلى الانهيار.

وعجَّت رضوان بالناس، و في الجلسة تحدث قوال يوسف عن قرار السلطان بإعفاء الإيزيدية من الخدمة الإلزامية ومساواتهم مع المسلمين في حقوقهم و منع التعدي عليهم.

بُني داره من الطين (اللبن) وتم دفن ميرزك في مقبرة بالقرب من النهر وأقيم قبره بشكل لائق وجذاب، وبنى ميرزا كنيسة للأرمن جنوب قصره، وقد استيقظ لايارد على صوت ناقوس الكنيسة ولاحظ كيف يؤدي الأرمن المسيحيون طقوسهم الدينية في قرية إيزيدية.

ويقول حفيده جون س كيست : عندما زار جدي لايارد (والد والدتي) قرية حمدونة سنة ١٨٤٩م تعرض إلى وعكة صحية كاد يموت بسببها، وكان هناك حكيم في القرية فعالجني لذا كتب في وصيته إلى أحفاده طلبه بتقديم مساعدة إلى أهالي القرية، لذا حين زار جون س كيست سنة ١٩٨١م هذه القرية و اجتمع مع الأهالي عرض عليهم تقديم مشروع بسيط على نفقته بناءً على وصية جده فطلب الأهالي منه بناء بئر ارتوازي ونفذ طلبهم، وهذه صور المذكور . [١]

(١) الصور من برنامج تلفزيوني (التاريخ المخفي).

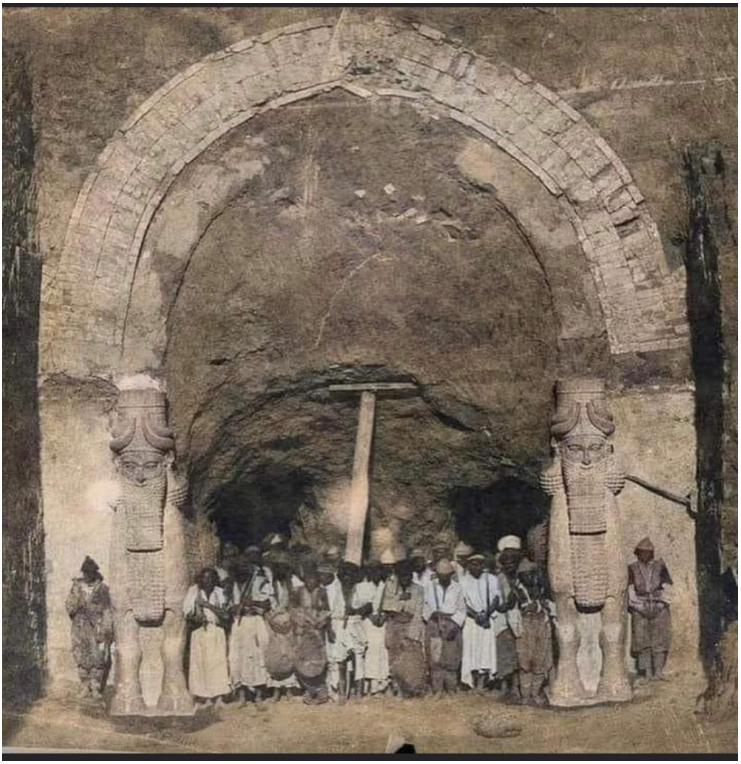

صورة بوابة خورسباد / شمال الموصل عام ١٨٥٢م مجموعة من عمال المنقبين والباحثين عن الاثار وأكثرهم من الديانة الايزيدية على بوابة (لاماسؤ-الثور المجنح) والصورة محفوظة في المتحف البريطاني

PELFİLM
DÎROKA VEŞARTÎ
GUNDÊN ÊZÎDIYAN / ÊLIH
ABONE OL

PELFİLM
DÎROKA VEŞARTÎ
GUNDÊN ÊZÎDIYAN / ÊLIH
ABONE OL

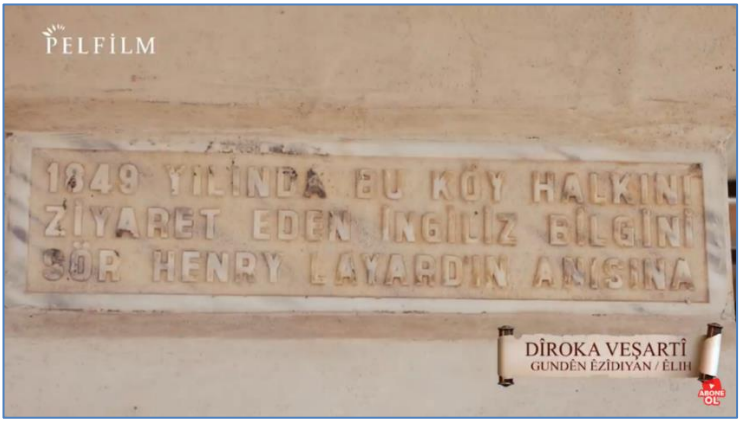
PELFİLM
1849 YILINDA BU KÖY HALKINI
ZİYARET EDEN İNGİLİZ BİLGİNİ
SÖR HENRY LAYARDIN ANISINA
DÎROKA VEŞARTÎ
GUNDÊN ÊZÎDIYAN / ÊLIH
ABONE OL

PELFİLM
DÎROKA VEŞARTÎ
GUNDÊN ÊZÎDIYAN / ÊLIH
ABONE OL

قال لايارد: نعم كما أرى بعيني، هذه تعطي دلالات مهمة للأجيال القادمة أيضاً ويجب أن تتحرر الشعوب من العقلية البائدة، وهذه رسالة لهؤلاء الاشخاص الذين يؤكدون على استعمال القوة من أجل إصلاح المجتمع، فعلاً هذه هي روح المدنية الحقّة وعلى المجتمع الاستفادة من هذه المدينة .

قبل ستة وثلاثين سنة من زيارة لايارد زار كننَر سنة ١٨١٣م مدينة الرضوانية ويقول : كانت رضوانية عاصمة الإيزيدية وقصر الرئيس على ضفاف النهر الذي يجري من خرزا وملك ضفاف دجلة، تقطنها (٢٠٠) عائلة من الإيزيدية والأرمن والكلدانية.

لم يكن الرئيس متواجداً فيها بل كان شقيقه يمثله والذي أحسن استقبالنا وإكرامنا والاحتفاء بنا، حضر أهالي القرية جلستنا، وهناك رأيت أرمنياً يتحدث معنا بكل أدب وتبين أن الرئيس يعتمد عليه وأنه موضع ثقة عنده.

يقول (كننر) كما ذكر لايارد: إن الإيزيدية ملتزمون بعقائدهم الدينية الموروثة ولديهم الصبر ليتحملوا المصائب لأجلها، وليست لهم أية نية للتعامل السيئ مع جيرانهم ومع من يعيشون بينهم، فالألفة والتفاهم شعار حياتهم مع الأرمن، في ذلك الوقت كان تعداد الإيزيدية من خرزا إلى الجزيرة (١٠٠٠٠)عشرة آلاف نسمة.

خلال ٣٦ سنة بين كننر ولايارد أصبح تعدادهم من ٢٠٠ عائلة إلى ٨٠٠ عائلة في الرضوانية علماً بأنه حدثت حملة إبادة الرضوانية خلال فترة حكم ميرزا زازا التي بسببها تقلصت نسبة الإيزيدية، لكن نتيجة الزواج والإنجاب ازدادت نسبة

السكان شيئاً فشيئاً وكانت هنالك هجرة من القرى الإيزيدية الأخرى أيضاً إلى الرضوانية.

لايارد وقوال يوسف عند مرورهم بالقرى الإيزيدية

هناك ثلاثة طرق من بدليس إلى الجزيرة. اثنان منهما جبليان عبر سعرد يمتازان بالصعوبة و شدة الانحدار تمر بهما القوافل، والثالث طريق ملتوٍ متشعب عبر وديان الفرع الشرقي من نهر دجلة.

اخترت الطريق الأخير لأنه مكنني من زيارة قرى الإيزيدية في مقاطعة خرزان Kherzan.

غادرنا تبليس في اليوم العشرين وعند خروجنا من حدائق البلدة وجدنا أنفسنا داخل غابة من البلوط في غاية الروعة، تقع في أحد أعمق الأودية وأضيقها والتي تكثر في كردستان. تمر تحتها أنهار تتخللها أنهار غزيرة، كان على البغال المثقلة بالأحمال أن تتكبد عناء عبورها كل مئة ميل على وجه التقريب لعدم وجود الجسور، و إن وجدت فلا يمكن السير فوقها في فصل الربيع، فصل ذوبان الثلوج وارتفاع مستوى المياه. وفي الخريف والشتاء تكتسي المنحدرات في فصلي الخريف والشتاء بخيام الكوجر السوداء، وهم الأكراد الذين يتوجهون صيفاً إلى المراعي العالية. أما القبائل التي تقطن الأودية فهم سلوكين Selokeen و همكي Hamki وبابوزي Babosi الذين قتلوا أقرباء قوال يوسف. ولا توجد قرى أخرى قرب الطريق الرئيسية اللهم إلا إذا كان ذلك في فروع الوادي الرئيسي، أو في النتوءات الصخرية الشديدة الانحدار والتي لا يمكن الوصول إليها، أو في مجاهل

الأدغال. وهناك آثار بعض الخانات والجسور تقف شاهدة على طريق التجارة القديمة التي مرت عبر تلك الجبال. تلك الأعمال بالإضافة إلى المنشآت العامة تنسب كلها إلى السلطان مراد أثناء حملته الشهيرة ضد بغداد سنة ١٦٣٨ للميلاد.

رحلة لايارد إلى طرابزون مع قوال يوسف الدوملي

في الثامن والعشرين من أغسطس ١٨٤٩ انتهت تحضيراتنا وتركنا البوسفور متجهين إلى طرابزون على باخرة إنكليزية. لكن حجم مجموعتنا وصعوبة تنقلاتها لم يترك لنا من خيار سوى الانطلاق على شكل قافلة. فقررنا الابتعاد عن طرق السفر المعتادة لنمضي عبر أرمينيا وكردستان حباً باكتشاف الجديد من المنطقة من وجهة نظر جغرافية ومن ناحية أخرى لأغراض سياسية، و ذلك لخضوعها منذ وقت قصير لهيمنة الحكومة التركية.

وطئت أقدامنا اليابسة في مدينة طرابزون في يوم الواحد والثلاثين وبدأت رحلتنا على الأرض في اليوم التالي حيث تقع بين المرفا وأرضروم بلدة لطالما قطعها المسافرون والرحالة و أشبعوها وصفاً وبياناً، ومنها تمر القوافل بين فارس والبحر الأسود، وكذلك خطوط التجارة الكبرى بين أوروبا وآسيا الوسطى. أما الطرق المسلوكة فهي ثلاثة. الطريق العليا أو الصيفية وهي الأقصر ولكنها الأكثر انحداراً وفيها التواءات جبلية يستحيل عبورها عندما يتساقط الثلج

وتدعي جايرلر (٨٢) نسبة إلى مراعيها العالية التي تراعى فيها خيول القوافل العابرة [١].

أما الطريق الوسطى فتتمع بالعديد من المزايا التي تختلف بها عن الطريق العليا، لكنها نادراً ما تطرق من قبل التجار الذين يفضلون الطريق السفلى رغم طول المسافة التي يقطعونها عبر گمش خانه أو مناجم الفضة.

وتلتقي الطرق جميعها في بلدة بيبورت الواقعة على منتصف بين البحر وأرضروم. ورغم ازدهار التجارة في تلك الطرق لم يتخذ أي إجراء لتحسينها إلا مؤخراً. وهي لا تعدو أن تكون ممرات جبلية يملأها الطين أو الغبار حسب تقلبات الطقس. وقد بنيت الجسور عندما فرض على الحكام المحليين القيام بإعادة بناء وترميم عدد من المنشآت العامة، واعتبر الأمر واجباً يمليه الذين من قبل بعض العائلات ذات النظام الوراثي التي تتمتع بشيء من الاستقلالية والتي حكمت المقاطعات كباشوات وبيكوات. لكن تلك الجسور سرعان ما تداعت للسقوط والتهاوي، الأمر الذي استدعى توقف التجارة لأيام عديدة وفي أحيان كثيرة بسبب ارتفاع مستوى المياه أو خروجها عن مسارها. وهذه هي إحدى مساوئ الحكومة المركزية التي أسسها السلطان محمود وطبقت بصرامة في تلك الفترة.

إذ أن الحكام المحليين الذين ينالون مرتبات ثابتة وقليلاً ما يبقون في مراكزهم لأكثر من شهور قليلة لا يولون للتنمية اهتماماً في مناطق نفوذهم. أما الأموال التي خصصها الباب العالي للمشاريع العامة فهي بالكاد تكفي، وغالباً ما يتم تبذيرها قبل أن تصرف في موضعها الصحيح.

---

[١] الآثاري البريطاني أوستن هنري لايارد، مكتشفات أطلال نينوى وبابل، ص ٢٧

ومنذ أن بدأت زيارتي لطرابزون بدأوا بإنشاء طريق للعربات ابتداء من المرفا وحتى حدود فارس، ولكن من المؤكد أن إنجازه لن يتم شأنه شأن جميع الأعمال التي تركت دون إتمام، أو أنها ستكون عرضة للانهيار نظراً لتركها دون صيانة، ومع ذلك فإن التجارة مع بلاد فارس تعتبر إحدى أهم واردات الإمبراطورية التركية.

وإذا لم تتلق الدعم الكافي لاستمرارها فمن المؤكد أنها ستتحول إلى بلاد أخرى. إن شواطئ الساحل الجنوبي للبحر الأسود التي لم تعبرها باخرة تقريباً خلال اثنتي عشرة سنة، ترسو الآن في موانئها بواخر تابعة لشركات ثلاث تحط رحالها في المرافئ الرئيسية أسبوعية على وجه التقريب، وهناك مجال للمزيد من فرص التبادل التجاري و عبور المزيد من السفن. وإن عملية إنشاء خطوط مواصلات بحرية بين المرافئ والعاصمة جعل التجارة الداخلية تزخر بنشاط لم تألفه من قبل، وأسس لتواصل بين سكان المناطق النائية للإمبراطورية وبين العاصمة الأمر الذي من شأنه أن يعزز عملية النمو الحضاري ويقوي سلطة الحكومة الشرعية. كما أن الإبحار السليم في بحر خطر وغير آمن، كالبحر الأسود بحاجة ماسة إلى مرافئ على أعلى درجات الجاهزية. في طرابزون حوض سفن واحد إلا أنه لا يليق بمرفأ تجاري ضخم يتمتع بتلك الأهمية، فهي من المدن التي تعتبر بمثابة أحد

المواقع التاريخية النموذجية الشهيرة في الماضي، وهنا تبرز أهمية وجود مرفأ لائق قبل أية مزايا محلية أخرى [1].

على الشاطئ الجنوبي مرفأ واحد هو بارتين وليس هنالك حوض سفن آخر على الشواطئ الجركسية، لذلك فإن ذلك المكان كان مرشحاً لأن يصبح سوقاً تجاريةً كبيرة، وذلك نظراً لاتساعه وأمنه من جهة، وللتسهيلات التي يوفرها من اتصالات داخلية مع فارس وجورجيا وأرمينيا من جهة أخرى. انطلاقاً من هذا المرفا يمكن للحكومة التركية أن تتتابع إنشاء الطريق الذي بدأت به في طرابزون، هذا إذا لم تعارضها قوى سياسية مناهضة لأي تقدم ملموس يطرأ على الإمبراطورية العثمانية بإصرار وعناد كفيل بكبح جماح ي نجاح. خلف مدينة طرابزون وعلى طول الشاطئ الجميل تبدو الجبال بقممها الشامخة مزينة بأشجار ضخمة من أبهى الأنواع من شأنها أن توفر مردوداً لا حدود له من الخشب للتجارة أو الحرب. وعدد كبير آخر من الينابيع يشق طريقه إلى البحر عبر مسالك ضيقة وصخرية. أما المناطق التي تتوفر لها الحماية الطبيعية فتمتلئ بالقرى والأكواخ التي تقطنها غالبية من اليونانيين الأشداء, وفي الربيع يضوع في الأرجاء عبق روائح الأزهار الشذية، وتلتف الأعشاب المعرشة حول جذوع الأشجار العملاقة. وفي الصيف تكتسي الأراضي المرتفعة بعشب المراعي ويقود سكان السواحل ماشيتهم إلى الهضاب العالية لرعيها. وتغذي الغابات مياه أمطار يولدها

(١)(١) الآثاري البريطاني أوستن هنري لايارد، مكتشفات أطلال نينوى وبابل مع رحلات إلى أرمينيا وكردستان والصحراء ترجمة شيرين بيش مراجعة وتحرير د أحمد أبيش، هيئة "أبو ظبي" للسياحة، دار الكتاب الوطنية، ٢٠١٢ ص٣٠

حزام مائي الأنهار الممتدة على طول ساحل البحر الأسود بعرض يصل إلى ثلاثين أو خمسين ميلاً، ثم نأتي إلى نهاية غابات الخشب والأودية الوعرة والصخرية لتحل محل جبال أعلى على الغالب تتخذ أشكالاً دائرية يكسو بعضها الثلج بشكل دائم وتخلو من الخشب والخضرة عدا في فصل الصيف حيث تغطيها الورود الألبينية والأعشاب.

أما سكان القرى الواقعة في الوديان فيسكنها الأتراك، واللاز (المسلمون) والأرمن، حيث تتمتع بأراض خصبة تنتج الحنطة بوفرة..

أما مقاطعات أرمينيا وكردستان والتي تمر عبرها طرقاتنا من أرضروم إلى الموصل فهي غير معروفة كما ينبغي، لذلك فهي تستحق التوقف عندها ملياً. وتظهر الخارطة بأن طريقنا يمر مباشرة عبر بحيرة وان مروراً ببدليس وانتهاء بجزيرة بوتان، وقد فتح حديثاً أمام القوافل.

وقد اتخذ الأكراد من ضفاف تلك البحيرة ملاذاً لهم. وبعد سقوط أحد أقوى رؤسائهم وهو بدرخان بيك تم إخضاعهم الواحد تلو الآخر واقتيادهم إلى الأسر. ولم تمض بضعة شهور إلا ولحقهم إلى الأسر بيكوات بدليس الذين قاوموا الجنود الأتراك لمدة طويلة ومعهم أخمد التمرد في ذلك الوقت في كردستان [1].

خلال فترة الإقامة، اغتنم الموسيقي البريطاني لوي الفرصة لتسجيل بعض ملاحظات حول الأغاني الإيزيدية. ثم قام قوال يوسف بالعزف على الناي وبدأ

(١) الآثاري البريطاني أوستن هنري لايارد، مكتشفات أطلال نينوى وبابل مع رحلات إلى أرمينيا وكردستان والصحراء ترجمة شيرين بيش مراجعة وتحرير د أحمد أبيش، هيئة "أبو ظبي" للسياحة، دار الكتاب الوطنية، ٢٠١٢ ص٣١

بقراءة بعض النصوص المقدسة والرثاء الإيزيدية. وهكذا ظهرت أولى الوثائق المسجلة للأغنية الإيزيدية وسجلها لوي في عام ١٨٤٩ في إسطنبول.[١]
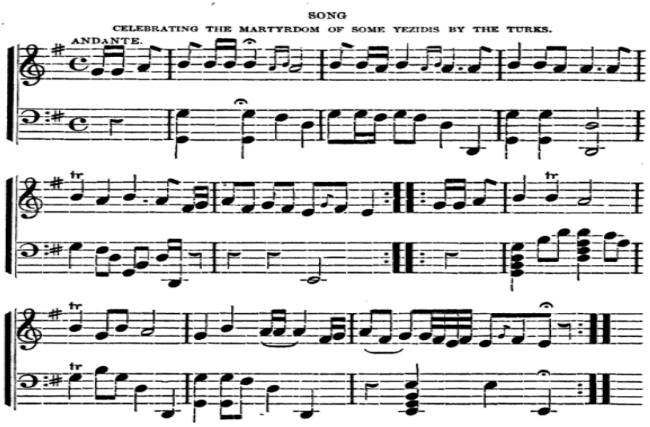
استكملت الاستعدادات للمغادرة في ٢٨ أغسطس ١٨٤٩، وغادرت المجموعة المحيطة بميدان ليوارد وقوال يوسف إسطنبول على متن سفينة بريطانية.[٢]

كان قوال يوسف قد أوضح للايارد في إحدى جولاته السابقة في شنكال، أن السنجق راية منزل الزعيم الإيزيدي، وأنه فيما سبق تعرض لهجوم عصابة عربية من اللصوص وتمكن من إنقاذ السنجق المرافق له وإخفائه وإعادته إلى لالش. وقدم لايارد رسماً لهذا السنجق[٣].

---

[١] qewal yusuf und die reis emit sir austen henry layard, *Êzidi* press juli ٢٠١٧

[٢] qewal yusuf und die reis emit sir austen henry layard, *Êzidi* press

[٣] qewal yusuf und die reis emit sir austen henry layard, *Êzidi* press juli ٢٠١٧

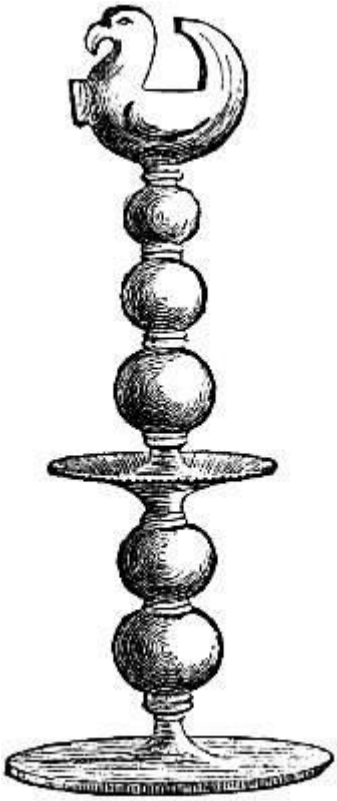

خلال رحلتهم عبر البلاد، استضافتهم القرى المحيطة وتم تزويدهم بالطعام والإمدادات. فخلال الرحلة روع قوال يوسف المسافرين الأوربيين بحكايات عن عمليات السطو التي قام بها الأكراد في أراضيهم و كان لايارد يستمع إليه.

لاحظ لايارد أن الحراس كانوا يقرؤون الشعر الديني وطلبوا المزيد من المعلومات حول الحادث، وعده قوال يوسف بتسليمه أحد نصوصها المقدسة. وفي صباح أحد الأيام تسلم لايارد مخطوطة تتألف من عدة صفحات تحتوي على تأبين عربي تكريماً للشيخ عدي، كانت هذه هي المرة الأولى التي يمنح فيها يزيدي الغربا ء

حق الوصول إلى هذا النص. تمت ترجمة النص بواسطة لايارد إلى اللغة الإنجليزية وما زال أساساً لبحوث الإيزيدية.

تلا قوال يوسف عدة تراتيل مقدسة أمام لايارد وشرح له أن الإيزيدية امتلكوا العديد من هذه الكتابات قبل أن يحرق الأكراد بعض الكتب المقدسة خلال مذبحة محمد رواندوز في شيخان.

من رضوان إلى الموصل

تأخر لايارد في الرضوانية، عندما علم حسين بك بأن لايارد في الطريق إلى الموصل بعث برجاله إليه كي يرافقوه خوفاً من قطاع الطرق والأعداء، لأن قوال يوسف أرسل مبعوثاً إليه وطلب منه إرسال حماية للايارد، وحينها علمت جميع قرى الإيزيدية أن لايارد في الطريق إلى الموصل، وقبل وصوله إلى القرى كان الناس في استقباله.

وقد مر لايارد بالقرى التالية من الرضوانية إلى الموصل (كوندوك ـ تللة ـ جلك كهوارا فوندوك ـ فينيك ـ مانسورا ـ جزيرة ـ تَكهتان ـ ديربوون ـ سيميل ـ تللسقف ـ تلكيف ـ موصل)

أهالي قرية ديربون الإيزيدية قدموا ما بوسعهم من ضيافة للايارد ومجلسه وكان رئيس القرية (عبدي آغا)، وحينما حل لايارد ضيفاً عليهم أعلموا بأن العرب قد هجموا على القرى الإيزيدية المجاورة وهذه القرى من أبناء عشيرة عبدي آغا، جهز عبدي آغا مجموعة من الفرسان وقادهم إلى مكان الحدث لمساندة أبناء عشيرته، وأبدت زوجته حسن ضيافتنا ولم يعد عبدي آغا مساءً ولزم المكان هناك

حتى فجر اليوم الثاني، حيث استطاع أن يقتل خمسة من العرب المهاجمين وخسر أحد أبناء عمومته وأصيب شقيقه إصابات بالغة، وطلب من لايارد التوجه إلى تللسقف فمن المحتمل أن يعاود العرب هجماتهم مرة أخرى، ولم يستطيع أن يرسل مجموعة من الرجال مع لايارد لأنه كان بحاجة إلى من يبقى مع الرجال وأسلحتهم في حال حدوث طارئ .

احتفلت جميع القرى الإيزيدية بالمناسبة واطمأنوا بالاستقرار النفسي لكون القرار صادر من السلطان العثماني بإعفاء الإيزيدية من الخدمة الالزامية والاعتراف بدينهم ويمنع تعرضهم إلى الحملات والتعدي عليهم .....

سنة ١٨٤٩م واصل عمله مع ١٠٠ شخص في تنقيب الآثار في تل قوينجق لمدة سنتين وعاد في صيف ١٨٥١م إلى تكليس وخلال هاتين السنتين كان قد زار العديد من القرى الإيزيدية وكانت له صداقة حميمة مع حسين بك، وساند الإيزيدية كثيرا .

سنجق وبقايا إمارة إيزيدية

تم نقل لايارد الذي أراد أن يتعافى من قسوة الرحلة إلى الكنيسة المحلية وبدأ بدراسة تاريخ رضوان. لقد علم أن رضوان كانت ذات يوم منطقة إيزيدية قوية ذاتية الحكم وناسي ابن أخت ميرزا آغا آخر أمير مستقل لرضوان. تم بناء الكنيسة التي أقام فيها بواسطة ميرزا آغا خصيصاً للمسيحيين الذين يعيشون في منطقته، بالنسبة إلى لايارد كانت هذه الإيماءة مثالاً رائعاً على التسامح

والتحرر من التحيز، و ربما كان يستحق أن يحذو حذوه ويقلده أشخاص أكثر تحضراً".

حتى وقت متأخر من الليل احتفل سكان رضوان بوصول لايارد وقوال يوسف معاً. شربوا المشروبات الكحولية، الحديث والرقص حتى الصباح .

أثناء جولات القوالين كانوا يحملون دائماً تمثالاً مقدساً إلى الإيزيدية، وهو (سنجق طاووس). طلب لايارد من قوال يوسف أن يريه سنجقاً ويعطيه معلومات عن الحادث، ليس لدى قوال يوسف والآخرون اعتراضات فدخلوا غرفة مع لايارد، وبين يوسف له أن سنجق هو راية منزل الزعيم الإيزيدي، وأن عصابة من العرب كادت أن تسطو عليه ذات هجوم لولا أنه تمكن من إنقاذه وإخفائه وإعادته إلى المعبد. بعد الإفطار، واصلوا رحلتهم إلى الموصل ورافقهم بعض الإيزيديين المسلحين، قدم إيزيدي من رضوان كلباً ليصبح رفيق سفر لهم.

لمُّ الشمل مع الأصدقاء القدامى

أرسل قوال يوسف من قبله رسلاً إلى لالش، المعبد المركزي للإيزيديين لإبلاغهم بالأحداث.

على مقربة من ديربون التقت الفرسان الايزيدية المسلحة بشكل غير متوقع. لقد هاجم العرب في الآونة الأخيرة الإيزيدية في المنطقة، وقام الزعيم مير حسين بك والزعيم الديني شيخ ناصر، بإرسال الفرسان لمرافقة قوال يوسف والمسافرين. بعد يوم واحد وصلوا إلى المجتمع الإيزيدي في سميل.

استقبلهم الرئيس الإيزيدي عبدي آغا ، وقبل أن يتمكنوا من تناول الطعام معاً وصل فرسان إيزيديون مرهقون إلى القرية، وذكروا أن الغزاة العرب قد اقتربوا لمهاجمة الإيزيدية، فاعتذر عبدي آغا وركب حصانه برفقة مقاتليه ومضى لمواجهة المهاجمين.

بقيت الشركة في قلعة عبدي آغا ، التي لم تعد حتى اليوم التالي، ونصحت المجموعة السياحية بمواصلة الرحلة في أقرب وقت ممكن لأن المنطقة لم تعد آمنة هذه المرة، و لا يمكن لأي فارس إيزيدي الانضمام إلى المجموعة و كانت هنالك حاجة إليها في الحرب ضد المعتدين العرب. غادر عبدي آغا على عجل وعاد إلى القتال.

قرر القوال و لايارد المضي على الفور وعلى بعد بضعة كيلومترات من سميل كانوا يشاهدون متسابقاً يلاحقه مهاجم عربي وعندما رأى المهاجم قافلة قوال يوسف لم يتخل عن الاضطهاد، قال المتسابق الشاب إن الإيزيدية قد هُزِموا و غزا العرب المنطقة. في الوقت نفسه تقدم جيش كبير من الفرسان و بدأت المجموعة السياحية من العرب المذكورين تستعد للقتال. ثم شق قوال يوسف و لايارد الطريق أمامهم للاستفسار.

في الطريق رأوا مجموعة من الفرسان المتسابقين قد أقدموا نحوهم و اقتربوا منهم، شعر لايارد وجماعته بالقلق وتوقعوا أن يكون القادمون من العرب المهاجمين أنفسهم يوم أمس، فتحضروا لأي مفاجئة و ركز قوال يوسف انتباهه على العمامة السوداء، وعندما اقتربوا تبين لهم أنهم رجال الإيزيدية فلم يلبثوا وأن اندفع بعضهم نحو الآخر مع صرخة فرح وابتهاج، ففي لحظة كانوا محاطين

بالأصدقاء، حسين بك وشيخ ناصر ومجموعة من علماء الدين والقوالين والوجهاء الذين جاؤوا من مسافة (٦٠) كم يمتطون الأحصنة لاستقبال لايارد وجماعته، فتعانقوا. "ركبوا لمرافقتي إلى الموصل لمسافة تقارب الأربعين ميلاً خلال الليل، لم يكن لفرحتهم حدود في لحظة رؤيتهم لنا وبالمقابل شعرت بالامتنان والود وتأثرت لهذا الصدق والخير".

لقد تعلموا بسرعة أن رسالة الفارس الشاب لم تكن صحيحة. نجح عبدي آغا ومقاتلوه بهزيمة المهاجمين، بعد ذلك ركبوا معاً إلى الإمارة الإيزيدية في شيخان. واغتنم لايارد الفرصة لزيارة أصدقائه القدامى في المنطقة، وبعد شهر واحد من لقاء الوفد الإيزيدي تمكن لايارد بمساعدة رسام في الموصل من تحرير فتاة إيزيدية مستعبدة وإعادتها إلى أسرتها.

عاد قوال يوسف إلى قريته واضطر إلى اتخاذ الترتيبات اللازمة حيث سيُعقد قريباً مهرجان لالش الذي يُحتفل به سنوياً في شهر أكتوبر باعتباره أحد أهم المهرجانات، زار لايارد برفقة القوالين ودعاه إلى هذا العيد. لم تفت لايارد تلك الفرصة وقبل الدعوة.

رحلة مصالحة في شنكال

في ربيع عام ١٨٥٠م، قرر لايارد القيام برحلة استكشافية إلى شنكال. قبل أربع سنوات قام بالفعل بهذه المحاولة، لكنه اضطر إلى التخلي عن هذا المشروع لأن الإيزيدية في شنكال كانوا في حرب مفتوحة ضد حاكم الموصل.

رافق لايارد قوال يوسف وثلاثة آخرين من الإيزيدية، في البداية وصلوا قرية ميهركان التي قاتلت حاكم الموصل قبل أربع سنوات بنجاح وهزمت قواته، علموا أن سكان ميهركان كانوا في نزاع مع قرية بَكرا الإيزيدية. حاول قوال يوسف تسوية الخلافات مع لايارد و تمكنوا من إقناع عيسى آغا ، رئيس ميهركان، بالوصول إلى المصالحة في بكرا.

قرية بَكرا

وفي إحدى مؤلفاته يذكر لايارد الراغبين بزيارة قرى الشمال أو الجانب الشمالي للجبل وفي الوقت ذاته لوضع حد إن أمكن لإراقة الدماء بين ساكني المنطقة و حثهم على الخضوع للوالي.

لقد غادرتُ البلدة بعد ظهر اليوم التالي برفقة قوال يوسف وبقيت الخيام والأمتعة والعمال تحت حراسة (البيرقدار). اتبعنا طريقاً متعرجاً على طول جانب التل إلى ميركان، القرية التي دمرها طاهر باشا في زيارتي الأولى لسنجار. هذا الجزء من الجبل مغطى بطبقات رقيقة من أحافير بيضاء من الحجر الجيري الذي ينفصل على شكل رقائق هائلة ويسقط في الوديان، تاركاً مجموعة لا حصر لها من الأشكال الفردية في الصخور الجيري و بعض الأماكن، يتم تقسيم الانحرافات إلى مسارات إلى الأعلى و بعدد من الخطوات في أماكن أخرى.

المظهر العمودي للبازلت (صخور بركانية صلبة سوداء). ينتج هذا الحجر الجيري بالكاد شفرة من الغطاء النباتي ولونه أبيض حليبي وكلاهما يعكس الوهج الشديد لأشعة الشمس، مؤلم جداً للعيون.

في الليل، وصلوا إلى قرية بَكرا ورحب السكان بحرارة بضيوفهم. كتب لايارد قائلاً: "كان أفضل منزل في القرية قد تم إعداده لنا، والذي كان على غرار منازل الإيزيدية في النظافة." [١]

---

[١] qewal yusuf und die reis emit sir austen henry layard, *Êzidi* press juli ٢٠١٧

قرى سنجار

كانت ميركان في حالة تمرد دائم ورفض لدفع الضرائب ولاستلام مرشد باشا الموصل، و كنت في بادئ الأمر متشككاً إلى حد ما في إمكانية استقبالنا من قبل عيسو رئيس القبيلة الذي خرج للقائي وسار بنا إلى منزله. وسرعان ما حاصرنا رجال القرية الرئيسيون. كانوا في حالة حرب مع قبائل "الشمال" قبل أيام قليلة، في قتال وفقدان للعديد من الرجال من كلا الجانبين. وبتأييد من قوال يوسف سعيت إلى جعلهم يشعرون أن السلام والوحدة فيما بينهم لم يكن ضرورياً فقط لرفاههم، وإنما لرفاهية الإيزيديين في كردستان وأرمينيا الذين استعادوا على المدى الطويل وعداً بالحماية من الحكومة التركية. بعد نقاش مطول، وافق الرئيس على مرافقتي إلى قرية بكرا المجاورة و التي كانت في حالة حرب معها منذ فترة.

هنالك مساران من مهركان إلى الشمال، أحدهما متعرج عبر الوديان الضيقة والآخر يعبر شول (وادي متعرج) دير الجبل، اخترت الثاني لأنه مكنني من الحصول على رؤية شاملة للبلد المحيط ومن أخذ العديد من نقاط الاهتمام. تتم زراعة المنحدرات حول القرى باجتهاد وعناية ويتم جمع الأحجار بجهد كبير. التي تنتشر فوق المدرجات مدعمة بجدران من الحجارة الموجودة كما في انحرافات جبل لبنان. تزرع هذه المراحل التي ترتفع الواحدة فوق الأخرى بأشجار التين و يُربى بينها أحياناً محصول هزيل من القمح أو الشعير.

إن دقة هذه القطع المدرجات تعطي انطباعاً إيجابياً للغاية عن صناعة الإيزيديين. بالقرب من قمة التل مررنا ببناء أبيض مخروطي مظلل ببستان من

الأشجار، كان قبر والد مراد، أحد رفقاء قوال يوسف، و بحسب ملاحظات قوال أنه توفي متأثراً بالطاعون بالقرب من المكان قبل بضع سنوات.

كانت الجدران معلقة بقرون الغنم المذبوح المقدس من قبل الحجاج العرضيين. لم أكن أتوقع جمال ومدى المنظر الذي فَتح حولنا في الجزء العلوي من الممر.

التل السنجاري سلسلة من التلال المنفردة التي ترتفع بشكل مفاجئ(منحدر) في وسط الصحراء من قمتها، لذلك تمتد العين من جانب واحد فوق مستوى البرية الشاسعة الممتدة حتى نهر الفرات.

ومن ناحية أخرى فوق السهل الذي يحده دجلة وجبال كردستان الشامخة كانت كل من نصيبين وماردين ظاهرتين من بعيد. ١ يمكن أن تتشابه مع تلال باعذرة والشيخ عدي، والعديد من قمم جبال الألب الكردية المعروفة خلف النطاقات السفلية، التي تميز كل منها بوضوح بمخططه الحاد المسنن و كانت مغطاة بالثلوج.

مرتفعات تياري وبوتان إلى الجنوب وبدت تلال سنجار الصناعية كثيرة إلى الشمال، يمكنني تمييزها لكن القليل من تلك البقايا. شرعنا بالتحديق في هذا المشهد الرائع حقاً و الذي أضاءه غروب الشمس. نادراً ما رأيت منظراً أكثرَ إثارةٍ للإعجاب من تلك السهول اللامحدودةِ الامتدادِ و الاتساع والتي يتناقل وينقل صورتها العرض. الضوء وظلال السحب العابرة التي ترفرف على وجه الأرض، الظلال التي تطول مع نهاية اليوم، تسفر عن متغيرات و تأثيرات باستمرار وتنوع متفرد بالجمال.

وصف الضيافة والدور في قرية بكرا

منزل الإيزيدية في قرية بَكرا (شنكال)، ١٨٥٠م، رسمه لايارد.

كان الليل قبل أن نصل إلى بكرا، حيث استقبلونا بترحاب وحفاوة كبيرة. كان أفضل منزل في القرية قد هُيِّئَ لنا وكان أنيقًا ورائعاً ونظيفاً كمنازل الإيزيديين عادة، تم بناؤه بشكل غريب حيث قَسِّمَ إلى ثلاث غرف رئيسية تفتح الواحدة على الأخرى.

وتم فصل الغرف بجدار يبلغ ارتفاعه ستة أقدام وضعت عليه أعمدة خشبية تدعم السقف المرتكز على جذوع الأشجار ورُفعت على قواعد حجرية غير مرتبة لكنها منتظمة في الغرفة المركزية التي كانت مفتوحة من جانب واحد على الهواء كإيوان فارسي. جوانب الغرف مليئة بالعسل مع مساحات صغيرة كثقوب الحمام، مرتبة بذوق وتم تغليفها بجص أبيض وتصاميم فاخرة يتم إظهار الأحمر هنا وهناك وإظهار المنزل من الداخل بمظهر جذّاب للغاية.

جاءني شيوخ قرية بكراء بعد العشاء وجلسوا باحترام داخل الغرفة، لم يكونوا ضد المصالحة التي عرضتها والقادة المعادون استقبلوها دون تردد، ووعدت بمرافقين غداً إلى قرية أوسفا المجاورة التي كانوا على حالة حرب معها أيضاً.

في الصباح زرنا عدة منازل في القرية تم بناؤها جميعاً على التصميم ذاته وكانت بالقدر ذاته من الأناقة و النظافة حيث استقبلتنا النساء دون تخفٍ.

المسافر الذي ينظر إلى الأسفل من ماردين لأول مرة إلى سهول بلاد ما بين النهرين لا يمكنه أن ينسى الانطباع الذي يتركه فيه هذا المشهد الفريد، رؤية المنظر من تل سنجار تقدمه بصورة في غاية الجمال والتنوع.

الوجوه شاحبة اللون ليست مغطاة بشكل تام، والمتزوجات يلبسن الفساتين البيضاء ويضعن المناديل البيضاء، و الحبل الصوفي عند ذقونهن و حول رؤوسهن، أما الفتيات فيلبسن القمصان والفستان وفوقها حرير زيتوني طويل مفتوح مبطن عند الخصر بحزام من قطع من (السيبر)، ويلففن مناديل حول رؤوسهن ويزيننها بقطع من النقود أو الخرز أو الزجاج، لكن الإيزيديين في سنجار الآن فقراء، فجميع حليهم قد وقعت في يد الأتراك أو بيعت لأجل دفع الضرائب، أما الرجال فلديهم

بشرة مظلمة و عيون سوداء ثاقبة وأطراف متناسقة ومتماسكة بقوة و قادرة على تحمل التعب الشديد، أما لباسهم فيتكون من قميص و بنطلون فضفاض (شروال) وعباءة بيضاء وعمامة سوداء يتدلى منها شعرهم، و نادراً ما يحملون بنادقهم الطويلة في أيديهم، لكنهم يحملون المسدسات في منطقتهم وسيفاً ملازماً لهم وصفاً من الخراطيش المصنوعة من القصب المقطوع على صدرهم، وهذه الإضافات تمنحهم مظهراً غريباً من الضراوة. بعض الناس لا يثقون بشخصياتهم.

وعند الإيزيدين وبموجب قوانينهم الدينية يمنع لبس القميص الشرقي في المقدمة وهذه من إحدى العلامات المميزة للتعرف عليهم لمجرد النظر إليهم.

لغة أهالي سنجار كردية والقليل منهم يتكلمون العربية، وفقاً لبعض التقاليد فهم من سلالة مستعمرة من شمال (SjTia سجتيا) و الذين استقروا في بلاد ما بين النهرين في الفترة القريبة نسبياً لكني لم أتمكن من الحصول على معلومات دقيقة بهذا الخصوص، و لم ينسحبوا إلى أماكنهم الحالية قبل سقوط الأمير العربي pality و غزو تيمورلنك في نهاية القرن الرابع عشر.

على الرغم من الشجار أبدى شيوخ القرية كرم الضيافة لعيسى آغا وأشاروا إلى استعدادهم للمصالحة. استخدم قوال يوسف ولايارد الآن هذا المثال للتوفيق بين القرى الإيزيدية المتحاربة الأخرى بنجاح.

التقيا مع مراد في قرية الدينا، و كان من الممكن الترتيب لإطلاق سراحه من الموصل منذ أربع سنوات، ثم قاموا بزيارة قبر والد قوال يوسف بالقرب من القرية.

كتب لايارد عن ذلك: "في السهل أدناه، في وسط بستان، يوجد قبر لقوال حسين والد يوسف، الذي توفي في إحدى جولاته في سنجار:" كان كاهناً تقياً ومؤثراً، ولا يزال قبره يُزار كمكانٍ للحج، و تخليداً لذكرى المتوفى يتم تقديم أضاح من الأغنام هنا".

كان الإيزيديون في حالة حرب مع محافظ الموصل لأنهم رفضوا دفع الضرائب، كما اندلعت حرب مع قبيلة شمر العربية مع وسطاء من كلا المعسكرين، يمكن التوصل إلى اتفاق بين الإيزيديين وقبيلة شمر على عدم مهاجمة بعضهم البعض في المستقبل، وبالإضافة إلى ذلك تم تنظيم الطريقة التي يجب أن تدفع بها القرى الضرائب بشكل عادل، عرض قوال يوسف على سكان الإيزيديين أمواله الخاصة لدعم هذا الأمر وكانوا ممتنين للغاية لكاهنهم. قال لايارد:" أعطيته رسائل إلى السلطات في الموصل الذين أوصيتهم بمثل هذا الاتفاق باعتباره مفيداً لهدوء الجبال و لكنز الباشا." أصبح قوال يوسف في الواقع المستأجر للدخل الذي دفع لأجله ما يزيد قليلاً عن ٣٥٠ جنيهاً إسترلينياً.

كان سكان سنجار سعداء جداً بهذه الخدمة التي قدمها أحد إخوانهم في الدين، تلبسهم حماس متجدد لزراعة التربة، ومنذ ذلك الحين امتنعوا عن مهاجمة بعضهم البعض، بعد ذلك مضى كل من لايارد وقوال يوسف في طريقه المنفصل، كان لايارد لا يزال مشغولاً بأعمال التنقيب والبحث وعمل لاحقاً في السفارة البريطانية في إسطنبول، بينما واصل قوال يوسف واجباته الدينية كرئيس للقوالين حتى وفاته. [١]

[١] qewal yusuf und die reis emit sir austen henry layard, *Êzidi* press juli ٢٠١٧

الجانب الشمالي من الجبل مأهول بالسكان الإيزيديين و مزروع بشكل جيد بينما التربة ضئيلة لا تسمح للزارعة. تقع قرية نقسي (نكسي Naksi) على بعد ثلاث أرباع ميل غرب قرية بكرا وبين القريتين مدرجات و مصاطب من أشجار التين، استمررنا في التجول رغم أن السكان خرجوا لمقابلتنا لكنهم سافروا إلى قرية (أوسفا)، حيث يفصل بينهم و بين نقسي وادٍ صخريٌّ، وكان أهل القرية في حالة حرب مع جيرانهم، كنت أركز حرصي فقط على إجراء مقابلة مع رئيسها على الرغم من كوننا محط السخط و التمرد.

موقع قرية (أوسفا) رائع جداً إذ تقع على حافة وادٍ عميق خلفه صخور شاهقة ووديان ضيقة تمتلئ جوانبها بكهوف طبيعية، على الصخور المتدلية الشاهقة فوق القرية يوجد مكانان مقدسان للإيزيديين يتميزان عن بعد بأبراج بيضاء مخددة.

التقيت (بولو) الذي كان مدير المدرسة حيث قادني إلى منزله وكان هنالك تجمع كبير في منزله، وقد شارفت على مناقشة الهدف من زيارتي، وهو نينوى وبابل وتم حث رؤساء ميركان وبكرا على تقديم ما لديهم وحث زعماء ميركان وبكرا على تقديم عروض ومناقشة الموضوع.

تم الاتفاق على شروط والترتيب الودي المصدق عليه بموافقة عامة، وتم ذبح قربان للاحتفال بالمصالحة. سُلق اللحم على طريقة Yeziili مع البصل ونوع من الجفون [1]، قدم على المائدة في أوعية خشبية كبيرة.

بالإضافة إلى مجففة التين المربوط، حيث يتم رص حبات التين في خيط كعقد وبأشكال متنوعة، كانت تقدم لنا كهدايا.

بعد أن تمت تسوية المسائل السياسية تحول الشباب إلى مكان مفتوح في الخارج بجانب القرية للتمرن على رمي البنادق، لقد أثبتوا لقطات ممتازة ونادراً ما كانت تضل الهدف.

قرى بوران (مهجورة الآن)، جوندي جايلي، تتبع كوشنه والدينا إلى الغرب من أوسفا، بالكاد نصف ميل بين كل منهما. تم تجميعهما معا على جانب الجبل، من الأعلى والأسفل مقسمة إلى تراسات ومزروعة بأشجار التين، تتم إزالة الأحجار السائبة بعناية من كل قطعة أرض مهما كانت صغيرة ومبنية في الجدران.

تزرع كروم العنب في أعلى المنحدرات، قضينا الليل في (الدينا) أسفل القرية يوجد (ziarc / i) مكان رائع محصور بجدار أبعاده دائرية، في السهل تحتها في وسط بستان من الأشجار، يوجد قبر قوال حسين والد قوال يوسف، الجانب الجنوبي الشرقي محاط بالأسوار الترابية.

ركبنا في طريق مباشر إلى بلدة سنجار، حيث إقامة الحاكم. لم يكن هناك مسار طريق محدد، وكانت الجمال ترعى على طول الطريق، وكانت هنالك أعشاب قصيرة، وتشتت الفرسان والمشاة في السهل بحثاً عن لعبة.

ركب (سطام) ناقته السريعة برفقة مجموعة إلى أخرى، وحث على الحفاظ عليها، إينزة غازوس Aneyza gazous*(حزب النهب، شابو من القبائل الفارسية) بين الحين والآخر كانت تجتاح هذا الجزء من الصحراء، كانت المراعي ممتعة للغاية ولم يسيطر عليها أي خوف من الخطر بحكمة الشيخ.

كان الجميع يشاركون في تجميل المشهد المؤثر و كان (هرمزد) يترأس في بعض الأحيان رأس دبكة الجبور، رددوا أغانيهم الحربية المرتجلة بكلمات مناسبة لمواقف

مناسبة. وتكونت مجموعة (جوقة) ترقص وتمرح والرجال يلوحون بأسلحتهم ويرفعون مناديلهم ذات الألوان الزاهية كأعلام في نهايتها الرماح.

كانت ابتسامة البدو تحمل رصانةً بازدراء واضح إزاء تلك الأجواء الصاخبة من الفرح، فقط القبائل التي لمست أياديها المحراث من تستحق ذلك الحبور، حتى النساطرة تملكهم الحماس، صدحت الأغاني الجبلية وهم يسيرون على طول الطريق. كما اقتربنا من سفح التلال وجدنا مخيماً كبيراً شكل جزءاً منه جبور التابع للشيخ عبد العزيز والجزء الآخر من قبيلة سنجار تسمى مندكا الإيزيدية، تحت قيادة زعيم معروف باسم "الأفندي" الذي يتمتع بالتأثير القوي في هذه المنطقة، ترجلت في رحلة قصيرة تجنباً لمخالفة الآداب العامة، فرفضُ أكل الخبز أو قضاء الليل بعد النزول بالقرب من خيمة يُفسَّر على أنه استهزاء شديد بصاحبها، لقد قاومت بصعوبة طلب أفندي في استضافته لي. لم نصل إلى بلدة سنجار حتى بعد غروب الشمس، القافلة بعد عشر ساعات في مسيرة متواصلة.

وكانت الخيم تقع على قطعة أرض صغيرة وحشائش ضخمة في مركز الأنقاض تشبه المستنقع دون أحجار و قمامة، و أمام باب الخيمة مئذنة مرتفعة مائلة و أطلال اخرى من الصروح العربية، إلى اليمين كان هناك جدار قديم فيه مسار متدلٍ من تحت، معظم مجاري المياه عذبة ولا تزال هنالك ينابيع وخزانات المدينة القديمة.

سرعان ما امتلأت خيمتي بأهلهم وظلوا في نقاش متحرك حتى انقضى الليل، الآثار التي كانت لدينا من بينها(eiK aniped) هي تلك الموجودة في مدينة سنجار، عاصمة إمارة عربية في وقت (Calijjhs). كثيراً ما أكد أمراؤها على

الاستقلال وصوغ المال، يحكمون من الخابور والفرات إلى حي الموصل. تم تضمين المقاطعة ضمن نفوذ المحتفل به صالح الدين (صلاح الدين من الحروب الصليبية)، وزارها أكثر من مرة. [1]

حفل زفاف إيزيدية بعشيقة في ربيع عام ١٨٥٠م

تلقى لايارد دعوة من قوال يوسف، :"دعيتُ هذه المرة لحضور حفل زفاف ابنة أخت يوسف في بعشيقة" قبل لايارد الدعوة وسافر إلى بعشيقة. يروي لايارد وصفاً مفصلاً جداً لتقاليد الزفاف الإيزيدية:

"على امتداد مدينة بعشيقة (باشيك) قابلنا القوال يوسف برفقة أنبل سكان القرية على ظهور الخيل وحشد كبير سيراً على الأقدام برفقة الموسيقيين والأطفال، الذين قدموا الحملان كعروض. كان بالفعل في اليوم الثاني من حفل الزفاف.

في اليوم السابق، وقع الطرفان وسط جو من المرح والرقص، جرى العقد أمام شهود عاديين. بعد وصولنا، اقتيدت العروس برفقة جميع سكان القرية الذين ارتدوا ثيابهم الأكثر أناقة و استخدم القوالون المطبق والطبول وهم متجهون إلى منزل العريس..

غطيت العروس بحجاب كثيف من الرأس إلى أخمص القدمين، وكانت مخبأة في زاوية غرفة مظلمة خلف الستائر.

مكثت هنا و كان الضيوف يدخنون لمدة ثلاثة أيام، بعد ذلك سمح للعريس بالاقتراب منها، كان فناء المنزل ممتلئاً بالراقصين على مدار اليوم في النهار

(١) نينوى وبقاياها ص. ٢١٤، ٢١٥.

ومعظم الليل، لم يسمع أي شيء سوى هتافات النساء بصوت عالٍ وضجيج الطبول والصفارات. في صباح اليوم الثالث، تم إحضار العريس وقادته من قبل أصدقائه انتصاراً من منزل إلى منزل آخر، حيث تلقى هدية صغيرة في كل مكان ثم وضع في حلقة من الراقصين والضيوف والمشاهدين، ثم رطبوا العملات المعدنية الصغيرة وضغطوها على جبينه. تم العثور على القطع النقدية المتساقطة بقطعة قماش حملها أصحابه تحت ذقنه.

بعد الحفل، هرع بعض الشباب الذين كانوا بالقرب من العريس إلى الحشد، واستولوا على أغنى الضيوف وقادوهم إلى غرفة مظلمة موصدة الباب و كانوا على استعداد لدفع فدية، لقد تم اتخاذ هذا التصرف والعنف والسجن بمزاج جيد، وتم منح هذه الأموال المجموعة للزوجين الشابين. ما تبقى من اليوم كان ينقضي في وليمة، ولم يكن هناك نقص في الراكي والموسيقى وكل ما يخصُّ حفل زفاف في الشرق.

غادر حفل الزفاف قوال يوسف إلى جانب لايارد وغيرهم من الإيزيدية ليتابع لايارد الاطلاع على بعض الصخور والوديان التي يريد استكشافها. بعد فحص عدة قرى توجهوا إلى قرية إيسيان الإيزيدية، حيث كان المقعد الديني للإيزيديين والشيخ ناصر في اليوم نفسه، الذي كان فيه مير حسين بيك في القرية أكلوا معاً وقضوا الليل في القرية، في اليوم التالي سافروا إلى باعذرة. [١]

[١] qewal yusuf und die reis emit sir austen henry layard, *Êzidi* press juli ٢٠١٧

الإيزيدون وساحر الأفاعي

مناظر واسعة في السهل، وتشكل سلسلة الثلوج في كردستان أرضية خلفية رائعة، الينابيع ترتفع في التل إما أن يتم امتصاصها بالكامل في الري أو سرعان ما تضيع في السهل المتعطش تحتها، على موازاة سلسلة جبال سنجار وادٍ طويل ضيق بالكاد عرضه نصف ميل، تتكون من سلسلة من التلال متشكلة من صخور الحجر الجيري الأبيض قابلة للتفتت حتى أن بعض مساحات التل قد غطيت بشظاياها. عدت إلى البلدة بتجوال سريع وكنا قد بلغنا القمة فيما يقارب الساعتين.

ثم وجدنا أنفسنا على منصة خضراء واسعة بكثافة مشجرة ببلوط قزم، صعدت لأرى الثلج في الزوايا المحمية، امتدت على كلا الجانبين منا سهول بلاد ما بين النهرين العظيمة، إلى الجنوب، تتلألأ تحت الشمس، توجد بحيرة مالحة صغيرة على بعد خمسة عشر ميلاً من سنجار، يسميها العرب (منيف) يحصل البدو فيها في مراعيهم الشمالية على إمداداتهم من الملح، نزلنا إلى بلدة عبر وادٍ ضيق كثيف مع البلوط والشجيرات المختلفة، يبدو أن اللعبة وفيرة.

الإيزيدي الذي رافقنا من قرية (الدينا Aldina)، أطلق النار على ثلاثة خنازير برية، ووضعنا عدة أباريق من الحجل الأحمر الكبير، و تم العثور على الوعل أيضاً بين الصخور، استغرقنا ما يقارب الخمس ساعات في عبور الجبل، كان سطام ورفاقه البدو الذين أحضرهم من خيام والده أثناء غيابي ينتظروننا، لم يكن حريصاً على البدء قبل صباح اليوم التالي ساحر الأفعى الإيزيدي مع ابنه البالغ

من العمر سبع أو ثماني سنوات، نزل عندي في خيمتي بعد الظهر وعرض حيله وسط دائرة من الناس الناظرين بدهشة.

قام الساحر أولاً بسحب عدد من الثعابين من كيس معقودة معاً والتي ذكر أحد المارة أنها من أكثر الأنواع سُماً، أخذ الطفل الزواحف بلا خوف من والده و وضعها في حضنه وتركها تلتف حول رقبته وذراعيه، حدق البدو بدهشة وصمت بما يجري، ثم تظاهر الشيخ بغضب من أحد الثعابين الذي سحب الدم من ابنه فأمسك بها وقضم رأسها بأسنانه ثم ألقى الجسد المتلوي بينهم، فتسبب الأمر بالرعب والخوف.

تلفظ بلعنات عالية على الأفعى" الكافر أنيله أقرباء إلى أبعد الأجيال". لم يستعد Suttum سطام رباطة جأشه خلال المساء كله، كنت أعود دائماً إلى التفكير العميق ثم انفجر بهدوء بتلك اللعنة على الشيخ الذي أعلن أنه قريب جداً وعلى الاتصال غير المقدس ويدي الشرير.

كان Suttum سطام قد غير دلوه من أجل فرس بيضاء ذات جمال عظيم، تدعى (عذيبة) من سلالة كحيله، ذات تناسق رائع سهلة الانقياد كالحمل و عين من نار، مع عربة نبيل، جموح في الحرب أو المطاردة، كان السرج محشواً بسيطًا مع وسادة، غالباً ما يستخدمها البدو دون ركاب.

اتبعنا طريقاً فوق الجير المكسور عند القدم من سنجار و اجتزنا المجاري المائية العميقة التي ترتديها الجداول الصغيرة التي تفقد نفسها في الصحراء، القرى، كما هو الحال على المنحدر المقابل أو "شمال"، ترتفع على جانب التل، أول ما مررنا كان كابارة التي يسكنها الإيزيديون والمسلمون و رئيسها، (رفو) الذي جاء إلينا

مع الفرسان وطلب مني أن أريه كيفية فتح نبع يسمى (سولاغ) الذي قال، كان فيه فجأة اختنقت، وتركت القرية دون ماء لسوء الحظ ، لكوني جاهلاً بالفنون التي أشادني بها لم أتمكن من تقديم أية مساعدة له ثم نزلنا بعد رحلة قصيرة عند جدول لطيف تحته قرية جديلة.

مكثنا هنا يوماً كاملاً لزيارة قبيلة (Suttum سطام) التي كانت تهاجر نحو سنجار، في وقت مبكر من الصباح، كان من الممكن رؤية حشد كبير من الأجسام المتحركة في الأفق كانت جمالاً وأغنام البريج، يليها الحشد المعتاد من الرجال والنساء والأطفال وحيوانات تستخدم للحمل (وحوش الحمل).

رشاوي، رئيس البريج، تبعثروا في أرجاء السهل بشكل تدريجي واستقروا في مراع مختلفة مع حلول منتصف النهار، تم تشكيل المخيم وجمع المتطرفين كلهم، نستطيع بالكاد تمييز الخيام السوداء نميز موقعها فقط من خلال أكاليل الشباك من الدخان الأبيض، بعد الظهر جاء إلينا والد سطوم (رشوان) برفقة عدد من مشايخ البريج، امتطى ذلولاً ذات لون أبيض مشهورة بجمالها وسرعتها و قد زُين سرجها ورقبتها بغزارة بشرابات صوفية متعددة الألوان وخرز زجاجي وأصداف صغيرة على طريقة عرب نجد، نزل الرجل العجوز عندما ركع الجمل على ركبتيه (كانت مدربة بشكل جيد) عند باب خيمتي، وألقى ذراعيه حول رقبتي قبَّل كتفي.

كان نبيل الخلق طويلاً لحيته البيضاء تحدث عن تقدمه في العمر، لكنه لا يزال يتمتع بالقوة والصلابة والخطا الثابتة، كان رشوان أحد أشجع محاربي شمّر، حين كان طفلاً جاء مع والده من المقر الأصلي للقبيلة في شمال شبه الجزيرة العربية

كقائد لفرع كبير من البريج، و لعب دوراً بارزاً في ars / v من القبيلة، ولا يزال الشباب يبحثون عنه لرئاسة غزوات بعيدة لكنه تخلى منذ فترة طويلة عما يأتيه بالمتاعب، وترك أبناءه الثلاثة الذين كان Suttum سطام للمحافظة على شرف السعدي.

لقد كان نموذجاً نبيلًا للبدو الحقيقي سواء في الشخصية أو المظهر، امتاز بمهارة وجرأة المحارب العربي وكرم الضيافة و حُسن النية كرمزٍ لبطل من أبطال الرومانسية العربية. تحدث بلهجة الصحراء الغنية مع فصاحة خاصة بعرقه، جلس معي خلال الجزء الأكبر من فترة ما بعد الظهر وبعد أن أكل الخبز عاد إلى خيمته.

جاء زعماء الإيزيديين من كرانية أو سكينية (القرية معروفة بالاسميين) إلى معسكرنا بعد منافسة رشوان، ولما كان هنالك عداء بينهم وبين البدو فقد استفدت من زيارتهم لإحداث الصلح والمصالحة، و كان كل طرف يقسم لاستضافتي ويؤكد الامتناع عن عمليات النهب والسلب مع الطرف الآخر.

حرصاً على الوصول إلى نهاية رحلتنا رفضت دعوة Suttum سطام للنوم في خيمته لكنني أرسلت القافلة.

Suttum سطام و زوجته في هذه المناسبة على جمل عربي (ذو سنم واحد) وآخر اسمه سليالة من بدو شمر، ينتهي جبل سنجار الحقيقي على بعد تسعة أميال من e-daila، حيث تنحدر التلال المرتفعة فجأة في تلال منخفضة مكسورة، شيء جميل للغاية عند النظر إلى جميع أنحاء السهل، صخور الحجر الجيري، مشجرة هنا وهناك مع قزم البلوط ذات اللون الذهبي والوديان التي لا تعد ولا تحصى.

تجعدت الجوانب وتشكلت ضلوع من الظل الأرجواني العميق، يسكن الجزء الغربي من سنجار من قبل قبيلة القيرانية الإيزيدية، سافرنا فوق السهل في خط موازٍ للجبل، و بعد ما يقارب السبعة أو الثمانية أميال وقبل حلول الظلام كنا قد تجاوزنا سلسلة من التلال المنخفضة جداً التي ترتفع إلى يسارنا.

وهكذا ركبنا بفرح فوق السهل وجلسنا ليلاً قبل أن نتمكن من رؤية الخيام، النغمة الحزينة لبومة الصحراء الصغيرة التي غالباً ما تضلل المتعب المتجول كسرت الصمت العميق، ولم نتمكن من التمييز بين الحرائق البعيدة التي عادة ما تحدد موقع المعسكر، عرفتُ و سطام أين سيتوقف البدو وبعد حوالي ساعة من حلول الظلام سمعنا صوت الدراويش المعروف جداً وصوت آخرين من عمالي ممن خرجوا قلقين لتأخرنا و للبحث عنا، وقفت الخيام بالقرب من بركة موحلة من المياه المالحة مليئة بالكائنات الحية البغيضة وروث الجمال، يسمي العرب المكان أم الذبان "أم الذباب" لكثرة الحشرات التي تجوب حوله الشغوفة بلسع الإبل والخيول التي تشرب مياه الراكدة.

كان معسكرنا مليئاً بالإيزيديين من قبيلة القيرانية التي قدمت من الخيام لرؤيتي، حملت لهم الهدايا كالغنم والطحين والتين، كانوا مع البدو و في حالة نزاع وحرب ثم سرعان ما كانت ازدحمت خيمتي الكبيرة بالضيوف الذين جلسوا على الأرض في صفوف مزدوجة، تحدثت عن إعلان السلام والوحدة فيما بينهم وأخذت منهم وعداً رسمياً بأن يلتقوا بالقبائل التي ستحتشد في المهرجان الكبير(العيد) القادم في وادي الشيخ عدي (لالش) مشيراً إلى اختلافهم.

أبناء قبيلة القيرانية الايزيدية

أسيجة في المستقبل، لقرار حسين بك والشيخ ناصر وقوالين بديلاً عن اللجوء إلى السلاح، أقمت الصلح بينهم وبين البدو، ودخل سطام في خطبة لقبيلته ووافق الطرفان على الامتناع عن التصويت، بيَّن لهم أنه ينبغي عليهم أن يجتمع سكان سنجار الأقوياء جداً والمستقلون مرة أخرى في المراعي عند سفح التلال، أو العبيد السود للشمر الذين يشعرون بالخوف من أعدائهم الإيزيديين، وكثيراً ما يرفعون عائداتهم السنوية ويُقرُون أنفسهم بشكل شبه كامل على حساب العرب، ينتظرون الآن فرصتهم فعندما تهاجر القبائل في الربيع والخريف ويسطون ليلاً على مخيماتهم وينهبون خيامهم ويطردون ماشيتهم، ولا يمكن التصدي للبدو إلا من خلال العودة إلى التلال.

عاد الإيزيديون إلى معسكرهم في وقت متأخر من الليل وعاد معي نحو مائة من فرسانهم قبل إشراقة الصباح، وعودا بالوفاء بالعهود والالتزام بما جرت مباحثته مساء اليوم السابق، ثم رافقني قوال يوسف لبعض الأميال في يوم رحلتي معهم في طريق عودته إلى الموصل.

بعد مغادرة أم الذبان دخلنا في تموج البلد حيث الوديان العميقة التي تصب فيها السيول الشتوية وكانت عروق رخام الموصل المرمر (الذي استخدمه النحاتون الآشوريون) تظهر أحياناً فوق التربة وتقطع بساطاً من الزهور والرياحين المنتشرة على وجه البلاد ثم اقتربنا من التلال المنخفضة التي تنخفض فيها سنجار إلى الغرب.

يطلق على المنطقة "الجريبة" وهي أيضاً مشجرة بشكل جيد بـ ilex والبلوط القزم، وتكثر الينابيع التي يخيم بالقرب منها بدو الشمر في الصيف، عند الالتفاف حولهم وجدنا طريقاً ممتلئاً، وهو الأول الذي رأيناه منذ دخول الصحراء، و اضطرت القبائل الصغيرة التي تتجول في الصحراء والتي تسكن القرى الواقعة على أطرافها إلى وضع أنفسها تحت حماية بعض القبائل القوية لتتجنب التعرض للدمار التام، يتلقى كل قسم كبير في شمر مبلغاً من المال أو الأغنام أو الجمال أو الذرة أو الشعير من قبيلة أو أخرى من أجل هذه الحماية، التي تحترمها دائماً الفروع الأخرى لقبيلة tlie، إذا قام فرع آخر من شمر بنهب أو جرح القبائل وبالتالي دفع المال للقوي فإن حماتهم ملزمون بتعويض خسائرهم أو الانتقام منها.

بالقرب من خيامنا كانت هناك أنقاض قرية قديمة محاطة بجدار و كان الربيع ينبسط في مكان يتوسط بينهم، لكنه كان مخنوقاً بالقمامة التي تبقى جاثمة لساعات من النهار، وقد كلف هرمزد الجبور والنسطوريين بإزالته.

قبل غروب الشمس تم تحسين إمدادات المياه وجودتها بشكل كبير، Suttum سطام الذي لم يستطع أن يظل مكتوف الأيدي تجول في السهل في دلول مع صقره بحثًا عن اللعبة، وعاد في المساء مع كيس من الحبارى، لقد جاءني قبل حلول الظلام متعبا كما لو كان يحمل ثقلاً وهماً إثر تفكير طويل مضنٍ، بعد ذلك قال: إن زوجته لن تنام تحت الخيمة البيضاء التي أقرضها إياها وأنها أعلنت أن هذه الكماليات لا تستحقها سوى سيدات المدينة، ولا تليق كلياً بزوجة وابنة البدو، قالت: إنها مصممة للغاية.

بلدة و بحيرة الخاتونية[1]

لا تزال هنالك قبيلة عربية تستوطن بلدة الخاتونية إلى ما يقارب زمننا هذا، إلا أنها كانت خاوية من سكانها بسبب العداوة الناجمة عن ادعاءات متزعِّمين متناحرين، قد يبلغ محيط البحيرة ما يقارب الستة أميال من المياه، وعلى الرغم من قلة ملوحتها شأنها في ذلك شأن الينابيع جميعها المتواجدة في ذلك الحيز من الصحراء، إلا أنها لا تصلح للشرب، ولكن الأمر من وجهة نظر البدو يبدو مبعث ومصدر منفعة للإنسان وللحيوان، فهي غنية بالأسماك، وحسبما يقال إن بعض تلك الأسماك تصل إلى حجمٍ كبيرٍ جداً. حين اقتربنا من المكان، لمح البيرقدار من يكافح ويضنى في طريق صعبٍ، وعثر على نوع من الحديد يبلغ وزنه أكثر من عشرين رطلاً، تتجمع على الشواطئ الطيور المائية إذ تنتشر أحواض المياه بأنواع شتى، نذكر من تلك الطيور طائر الكركي الفخم والبلشون الأبيض الناصع بياض الثلج.

كانت خيامنا عبارة عن(بيتشي) على حافة المياه، وعند غروب الشمس، كانت تلامس عدداً قليلاً من (السايوا) الذي ظل في السماء الغريبة تحت أشعة الشمس الذهبية، حيث تتوهج ألوان السماء، والظلال الزرقاء الصافية لتلال سنجار،

---

(١) بحيرة الخاتونية تقع في الجهة الشمالية الشرقية من محافظة ×الحسكة" في سوريا، تبعد عن مركز المدينة / ٥٠كم/. محاذاة الحدود العراقية، على امتداد سلسلة جبال ×سنجار". تعتبر بحيرة ×الخاتونية" أكبر بحيرة طبيعية في سورية، تبلغ مساحتها / ٦كم٢/. يوجد فيها عدة جزر. وأعداد كبيرة من الأسماك منها .ويكيبيديا

التي كانت تنعكس في البحيرة الساكنة مما أضفى على المشهد هدوءاً منسجماً مع جو العزلة المحيطة.

في الصباح الباكر على مضدٍ كنا قد تابعنا سيرنا، حيث قمنا بالتجسس على (Suttum سطام) وجوريف القادمين باتجاهنا، وحث أفراس الأسطول على تجاوز سرعتهما، وكان جهور قد ترك مخيمنا في أم جرجة عندما كان هرمزد في وعكةٍ صحيةٍ متأزمةٍ، كما أرسل تقريراً في الصحراء ينصُّ على أنه قد مات حقيقة، لإضفاء المزيد من المصداقية على قصته وأمره، لقد قام بوصف العملية بدقة التي اتبعها رفيقي ففي بادئ الأمر تم تمليح الجسد، ومن ثمَّ أرسل إلى فرانكستان (أوروبا) على جمل في صندوق.

بدت على سطام علامات الحزن والأسى و حين رأى الميت يستعيد حياته لم يكن لفرحته حدود، وكنا قد سافرنا فوق بلد منخفض متموج عند سفح تلال سنجار، كل وادٍ كان مفترشاً من الورود. ثم مررنا بقصبة صغيرة على بعد حوالي خمسة أميال من الخاتونية، تسمى سفتيرة حيث كانت البريج فرع من أخرصة، وتعتبر الأخرصة فخذاً من شمر(Suttum سطام)، ثم قمنا بالتوقف عند الدانتيل المائي وهو نهر يميل إلى الملوحة ويسمى ساهيل، وكانت خيامهم تبعد حوالي ثلاثة أميال عنا في تلك الصحراء، حططنا رحالنا على أرض مرتفعة فوق سفتيرة مباشرة، كان المنخفض سهلاً ذهبياً، مليئاً بالأشياء الحيوية، وكانت قبائل أخرصة (فخذ من قبيلة الشمر) وجميع القبائل تتبع حكم فرجيان التي انتشرت وتجمعت الآن في شمال سنجار قبل الهجرة الصيفية إلى مراعي الخابور، وكانت أفراسهم وجمالهم وأغنامهم قد أتت إلى منطقة (سحيل) للحصول على الماء، ويمر إلى

سحيل خلال اليوم كله صف واحد لا نهاية له من الحيوانات قبالتنا في مكان قبل معسكرنا، أخذت أراقبهم من خيمتي.

عندما توقف كل فرس وحصان لشرب الماء عند الجدول المتدفق، سمى Suttum سطام مالكه وسلالته ووصف مآثره، تم اتباع الأفراس بشكل عام من قبل اثنين أو ثلاثة مهور ممن عانوا حتى في العام الثالث، ليتمكنوا من الهرب بعد سدودهم بلا عائق في السهل بمطلق حريتهم الكاملة أما صغار خيول الصحراء فتمتاز بسرعتها وليونة أطرافها.

بينما كنت جالساً أمام خيمتي مساءً لاحظت أن مجموعة كبيرة من الفرسان تقترب من حدود معسكرنا، ثم توقفوا عند مدخل السرادق الكبير المخصص للضيوف، واعتصمت الأفراس والإبل العربية.

زيارة إلى قرية كولى

كانت قافلتنا تتألف من مجموعتين مع سانس بغال ومساعدين له من بدليس، وكانوا قد زودوني بسبعة عشر حصاناً وبغلاً من أرضروم في طريق الوصول إلى الموصل. لم تتجاوز المسافة التي اجتزناها على صهوات الخيل في اليوم الأول التسعة أميال، وكان من عادات الشرقيين أن يرافقوا المسافر خارج أبواب المدينة، وتكثر تجهيزات واستعدادات الرحلة بحيث يصعب تذكرها كلها. مكثنا لنستريح ولقضاء الليل في قرية گولى التي يمتلكها شاهان بيك الذي كان لديه توقع وعلم بقدومي، ففتح لنا بيته المبني حديثاً وزوده بكل ما لديه من

مروجات وأسباب الراحة لنمكث فيه، وأمضى المساء بصحبتي بعد أن قدم عشاءً فاخراً.

هذا الرجل ينحدر عن نسب عريق سليل عائلة مغرقة في القدم، يقال لها بيكوات دره، وقد ورث عنها الكرم وحسن الضيافة ورقي التعامل، وهذا ما كان يميز هذه الطبقة التي كانت تؤول إلى الزوال، ولذلك لا أرى وجود أي مانع من سرد شيء من أخبارها.

بعد أن انتصر الغزاة الأتراك على الإمبراطورية اليونانية قاموا ببسط سيطرتهم على الأراضي التي وقعت تحت يدهم وتحويلها إلى إقطاعات عسكرية، تتراوح مساحاتها بين الإقطاعات الكبيرة التي تمتلكها العائلات الكبرى وفقا لملاكها من الأتباع والخدم كقره عثمان في مغنيزيا وباسوان أوغلو وغيرها، وبين الصغيرة مثل السياهيات التركية الصغرى في أوروبا، حيث يقوم المالك بإرسال أتباعه لأداء الخدمة العسكرية عندما تستدعيهم الدولة لذلك، وثمة إقطاعات بينها متوسطة المساحة والحجم يمتلكها بيكوات الذره ويعني ذلك الاسم ×أسياد الوادي" المقيمون في قلاعهم المحصنة أو قراهم وهم لا يدينون للسلطان بأكثر من الولاء الشكلي علماً بأنهم مستعدون لدعمه ونصرته في أية معركة كبرى يقوم بها ضد الكفار أو في الحملات ضد العناصر المتمردة و حتى التي تكون قوية و تصدر عنها مقاومة عنيفة.

وفيما يخصُّ السلطان محمود الذي اتسم بالنظرة الثاقبة والذكاء الحاد، فقد سعى جاهداً إلى ترسيخ وحدة ومركزية إمبراطوريته لاستئصال تلك العائلات الكبيرة التي تمتعت باستقلالها الذاتي، الذي قد تكون توارثته عن السلف

القديم لها أو حظيت به من نفوذها المحلي، بالإضافة إلى هدفه في القضاء على كافة بيكوات الدره والسباهيات الأصغر. وحين لجأ إلى ذلك وسلك ذلك النهج كان قد غير نظام الملكية بأكمله والإدارة المحلية سواء السياسية منها والمالية، تارة بقوة السلاح وأخرى بالخديعة والمكر والدهاء.

وأما السلطان عبد المجيد فإنه لم يعان ما عاناه والده من صعوبات وشدائد أو خيبات أمل الحرب المشؤومة ضد روسيا، وظفر المتمردين في ألبانيا ومصر لأنه استكمل ما بدأ به السلطان محمود، فلم ينجُ أحد من بيكوات الذره أو يسلم أحد من الإبادة أو الإقالة من منصبه ومركزه فقد لقوا المصير ذاته الواحد تلو الآخر. كما تم إلغاء الإقطاعات العسكرية وفق قوانين ظالمة متعسفة ولم يحصل مالكوها على تعويض، وبذلك تم القضاء على طبقة النبلاء الوراثية الوحيدة في الإمبراطورية.

وتتباين الآراء حول الغاية والهدف من ذلك القرار وحول إيجابية نتائجه، ففي الوقت الذي نعم الناس فيه بالأمان على المستوى الفردي في أرجاء الإمبراطورية العثمانية، وتخلص الراضخون لحكم السلطان من استبداد وسطوة القادة المحليين خضعوا للقوانين السائدة في الإمبراطورية والتي تعتبر الأكثر عدالة وتسامحاً ومساواة وخسر العرش دعم عرق المقاتل الذي يتمتع بالقوة والشجاعة والتفاني اللامتناهي في الدفاع عن البلاد ضد أعداء الدولة والدين رغم انعتاقه من الأنظمة والقوانين، ذلك العرق الذي كان قد حمل السلاح التركي إلى قلب أوروبا ودب الخوف والرعب في قلوب المسيحية، ولو أنه كان جيشاً نظامياً منضبطاً إلى حد ما لكان سيعتبر بمثابة قوات الخيالة والمشاة في الجيش

التركي وفقا للنموذج الأوربي بلا شك، وذلك لأسباب وأدلة ليس من الضروري أن أتطرق إليها أو أخوض في تفاصيلها الآن، وبدأت الروح التي دعمت النظام القديم تدوي بسرعة، و لذلك يطرح السؤال نفسه في هذا الصدد: هل سيعوض الجيش الإسلامي في تركيا خسارته أم لا ؟ لم تكن البلاد بعد قد استعادت نشاطها ووعيها بعدما تعرضت له من تغيرات، وفي الماضي كان الناس يعيشون بسعادة أكبر مما هم عليه برغم ما تخلله الوضع آنذاك من ظلم واستبداد وقمع وسطوة القوة المطلقة، وكانت البلاد على درجة أرفع من التطور والازدهار.

وكان زعماء العائلات الوراثية ينظرون لأتباعهم من المسيحيين نظرة تعتبرهم ضرباً من المتاع، ولذلك فقد كانوا يحرصون عليهم حرصهم على التراب، إذ كانوا مبعثاً لتدخل الدولة، ولذلك الضرائب الباهظة التي فرضت وأنهكت كاهل العمال وأبعدتهم عن الأرض كانت تفرض عليهم عادة، وكانت الحكومة تمنح الزعماء المحليين الحرية في تطبيق القوانين، ولم تكن العائدات المقبوضة منهم سوى ربحاً صافياً لخزينة الدولة، إذ لم يكن هنالك جباة مكلفون في أمر تحصيلها أو مأمورون يلزمون بسدادها، كانت عائدات الدولة تلك توازي عائدات الحروب الكبرى ولم يكن هناك دين عام للجميع أو إشكالات أخرى.

أما الآن ففي ظل تطبيق نظام الحكم المركزي فإن تلك الإجراءات المتبعة لم تعد كافية لتحصيل تلك الدخول، وحتى أن موظفي الحكومة لم يعد لديهم أدنى اهتمام بالمقاطعات التي نهبوا منها، لذلك كانوا فهم يهملون كل ما يمكن أن يمضي بالبلاد قدماً نحو التقدم و الازدهار، أو أن يرفع مستوى مواطني مقاطعاتهم، ولكن ثمة ما يثير الاحتجاج والاعتراض، فمن الإجحاف أن يُحكم على نظام تم

تطبيقه بشكل مفاجئ كهذا النظام، وتمر تركية الآن بمرحلة انتقالية، وهذه الفرضية صحيحة رغم سلبياتها ومساوئها، لكن ما هو أكيد أن تركية كانت ستمر بتلك المرحلة إما عاجلاً أو آجلاً.

والمتعارف عليه النظر إلى هؤلاء الملاك الأتراك القدامى على أنهم مستبدون خلت قلوبهم من الرحمة وأنهم يعتاشون على السلب وسرقة المسافرين وسرقة أتباعهم، ولا شك بأن ذلك كان ينطبق على البعض لا الكل، فهنالك استثناءات بحسبما أعتقد لأن بعضهم يقعون على درجة عالية من الأخلاق والرفعة، وقد جمعتني صدف القدر ولمرات عديدة بأحد أولئك القوم الذين باتوا عملة نادرة، في أماكن نائية غير معروفة من آسيا الصغرى أو ألبانيا. وتم استقبالي بحفاوة وابتهال في آخر يوم في سفري من قبل بيك أو آغا كان على قدر من الاحترام والتقدير في منزله الفسيح الموشك الآن على الانهيار، ومع ذلك فإنه لا يزال ينطوي على بقايا الديكور والزخارف الشرقية التي تبلغ قمة الروعة.

لذلك الرجل لحية طويلة بيضاء بياض الثلج كانت تتدلى على صدره، يرتدي عمامة كبيرة تظهر هدوءه و وقاره، وملابس النبلاء التي ترفض ارتداءها الأجيال الجديدة، في بيته بهو مفتوح للضيوف والزوار، يتم استقبالهم دون أن يُسألوا عن وجهة قدومهم أو من أين هم أو ما يتعلق بوجهتهم اللاحقة، ويشاركهم الطعام والشراب، بينما يقف خدمه أمامه باحترام و إجلال كما لو أنهم كانوا أولاده لا خدمه، وينفق ما يأتيه من المال على بناء نوافير مياه يشرب منها المسافرون أو إقامة محطات لنزول القوافل فيها في البراري المقفرة، لم يكن ذلك حباً بالضيافة فحسب وإنما تطبيقاً عملياً لآداب وتوجيهات القرآن التي تلتقي مع آداب

المسيحية. جعل سلوك ذلك الرجل وتصرفاته وجوده وإيمانه وتقواه نموذجاً حياً للرجل المسيحي النبيل، هذا العرق سينتهي قريباً وأنا فخور بكوني شاهداً مع آخرين قلة على وجوده ومواجهة التعصب والتزمت وكل من يدعي مساعي الإصلاح التي سيقوم بها.

وفي العودة إلى مضيفنا في گولى، شاهان بك. الذي برغم أنه لم يكن طاعناً في السن أو بالغاً الشيخوخة، إلا أنه كان مثالاً نموذجاً للفئة التي حدثتكم عنها. وحقيقة إنه وبمجاراة التعبير الشرقي ×أوجاق زاده" (ابن أصل !)، بمعنى أن معدن أخلاقه أصيل و أصول عائلته تنحدر عن داغستان و قد أبلى وأبوه الباشا بلاء حسناً في الحرب ضد روسيا، و قصَّ عليَّ قصصاً حقيقيةً حيةً حول الاشتباكات والمواجهات التي دارت رحاها وطحنها بين أجداده وجيرانهم من زعماء العائلات الآخرين، وحدثني بأنهم ما استطاعوا الانطلاق خارج حدود إقطاعاتهم لولا دعم أتباعهم المسلحين، كما أثبت اطلاعه التام على واقع البلاد وحالها وتمكنه من معلوماته وأخباره بخصوصها في تلك الفترة.

لم يفسح لي في اليوم التالي عندما وددت المغادرة لأن أشكره وخدمه أو أن أعبر عن امتناني له ولخدمه، وإنما امتطى حصانه ورافقني وأتباعه وكلابه في مسيري لمسافة طويلة ثم عاد وإياهم إلى قريته.

من سهل باسوين إلى قرية ميران

عبرنا سلسلة جبال عالية من كولى واتجهنا نحو الشرق والغرب عبر معبر يسمى علي بابا أو علاء بابا، واستمتعتنا في قمة تلك الجبال بمشهد سهل پاسوين،

الذي كان يشتمل على تجمعات سكانية كبيرة، ويعد أفضل المناطق الزراعية المتواجدة في أرمينيا ، في تلك الآونة كان المسيحيون المستوطنون في تلك المناطق يلتحقون بالجيش الروسي الذي كان يتجه إلى جورجيا بعد نهاية الحرب الأخيرة مع تركية، وكان ذلك تارة من خلال إغرائهم وتعليلهم بوعود تمليك الأراضي وترغيبهم بالحصول على الأمان والحماية، وتارة أخرى بأسلوب القسر والإرغام. وعبر تلك الأساليب خلت تلك المنطقة من مقاطعات أرضروم المتاخمة للأراضي الروسية من سكانها الأرمن الكادحين، وفي جنوبنا ظهرت جبال بين گولى يغطيها الثلج أو ما تسمى ×بالبحيرات الألف" التي تنبع منها بعض روافد نهر الفرات والأراكس.

وحين نزلنا من معبرنا عبر منحدرات متعرجة جرداء وجدنا القرى المنتشرة على الهضاب المنخفضة الخالية من سكانها وأهلها ، وكانوا قد اعتادوا على نصب خيامهم في مثل هذا الفصل، في مثل هذا الفصل من السنة على نصب خيامهم في الأراضي المرتفعة سعياً وبحثاً عن المراعي المخضرة لمواشيهم الأراضي العليا ، وكنا قد نصبنا خيامنا في تلك الليلة بالقرب من تلك القرى في منطقة تسمى "گوندى ميران" أو كما يطلق عليها بالتركية "باي كوي" ، وتعني الشيء ذاته (قرية الزعيم) وقمنا بإرسال رجل كان يحرس مزارع الحنطة ليحضر لنا المؤن والحاجات التي طلبناها ففعل ولكن بتثاقل.

يسكن هذه المنطقة الأكراد الذين لا يزالون منقسمين إلى قبائل مختلفة، وتقع منطقة كوندي ميران والقرى المجاورة في ملك الزرهلي (لابسو الدروع) القادمين

أساساً من ضواحي ديار بكر، والذين شرعوا بعصيان مفتوح ضد الحكم بعد أشهر قليلة من زيارتنا، أغلقت طرقات البلد في وجه المسافرين والقوافل.

زيارة أرمينيا

وفي اليوم التالي تابعنا سيرنا بين الهضاب المتعرجة ترافقنا أسراب كبيرة وصغيرة من الحبارى، و قطعان من الخراف كانت تمشي بمحاذاة الطريق العام، الأمر الذي كان يشير إلى وجود قرى قريبة، ولكنها كانت كالقرى السابقة الخالية من أهلها التي اجتزناها في الأمس، بسبب × اليلاق أو مرعي فصل الصيف، و تلك القرى بقيت على حالها منذ أن مر بها زينوفون عابراً إلى أرمينيا : وكانت بيوتهم تتموضع تحت الأرض حسبما قال، ولها أبواب شبيهة بفوهة البئر إلا أنها تمتاز بالاتساع في المكان السفلي منها، حيث يكون مدخل الماشية فيه، فيضطر الناس لأن ينزلوا من خلال السلالم. في تلك البيوت تجد الماعز والخراف والأبقار والدجاج وصغاره، كانت عبارة عن فتحات إلى جانب الهضاب فيها الناس والدواجن والماشية وما لا يمكن رؤيته من مسافة بعيدة، صممت على هذي الشاكلة لتبقى قصيِّة فلا يبلغها أحد ولا يصلها موظفو الدولة أو المشاة العسكريون. ولا غرابة في أن يحدث أن يحل مسافر ضيفاً على القرية فيتعثر ويتوقف فجأة عند دخول حصانه في مدخنة أحد البيوت، أو أن يهوي عبر السطح فيجد نفسه قد أصبح فجأة بين أفراد أسرة في منزلهم، وتوجد هناك جداول صغيرة ترسم مسار جريانها في الوادي في مجارٍ تموج بالخضرة لكن ليس إلى أراس، لقد عبرنا ذلك النهر العريض جداً الذي لا يتعدى الثلاثة أقدام من حيث العمق عمقا

في منتصف النهار، ذلك النهر الذي كان في فصل الربيع يغدق بالماء ويتدفق كالسيل الجارف، كانت على ضفته الجنوبية قافلة قد حطت رحالها لتأخذ قسطاً من الراحة، ترعى خيولها وبغالها الأعشاب الطويلة، أما أصحابها فقد كانوا يغطون في نوم عميق بضائعهم متراكمة مكدسة بعضها فوق بعض. تمكنا من التعرف على بعضهم، كانوا من تجار الموصل الذين يقايضون التمر وأقمشة الموصل الخشنة بالكتان الناعم الذي يلبسه الأغنياء والنساء المصنوع في ريزه، هذي البلدة الصغيرة الواقعة على البحر الأسود بالقرب من طرابزون.

قرية كوسلي الأرمنية

ثم قمنا في فترة الظهيرة بعبور المرتفعات الجبلية الغربية لجبال التيكتاب، تلك السلسلة من الجبال العالية الجرداء التي تحتوي على ثلاث قمم يمكن رؤيتها من قمة ممر علاء بابا، ومن الذروة بانت لنا سبحان داغ أو سيباندا غ، وهي قمة مخروطية الشكل رائعة تكسوها الثلوج الدائمة، ويمكن أن تتراءى لك بشكل مفاجئ من خلال سهول شمالي بحيرة وان، من كل جهة يمكن أن تبدو لك روعة ذلك المنظر. وحين هبطنا إلى سهل هينيس الفسيح والخصيب، تراءت لنا البلدة عن بعد، لكننا عزفنا عنها وتوجهنا نحو اليسار لنتوقف لقضاء الليلة في قرية كوسلي الأرمنية الكبيرة بعد مسير شاق استغرق أكثر من تسع ساعات، حيث استقبلنا شخص تركي يدعى (مسراب آغا) بترحيب وحفاوة كبيرة في مضافته، وكانت القرية تعود إليه كسپاهيليه أو كمقاطعة عسكرية، لكن بعد تجريده من حقوقه الوراثية أوكل بجمع عائدات القرية لقاء أجر زهيد. كان يمشي مسرعاً وهو

يحمل عصا طويلة كان ذلك تقليداً وعادة بائدة ورثها عن آبائه وجدوده، إذ يمضي متجولاً بين تلك البيوت المنخفضة و بين أكوام الروث الجاف المكدسة والمبعثرة في كل مكان، والتي كانت تستخدم كوقود تدفئة في فصل الشتاء، يجمع غلة القرية من الطيور الداجنة واللبن والخبز متجاوزاً بذلك ×التنظيمات" التي كانت تفرض على المسافرين المحترمين مثلنا كما يقول: "دفع ثمن المؤن التي تنازلنا عن قبولها"، أما سكان المنطقة فلم يتوانوا عن تلبية احتياجاتنا ومتطلباتنا، وكنت قد دعوته إلى العشاء معي فلبى دعوتي وأتاني يحمل عجلاً صغيراً مشوياً واستمتعنا معاً.

من غير الممكن أن تميز سكان كوسلي أو تفرِّقهم عن الأكراد من حيث الزي أو المظهر العام، فقد كانوا أبناء خير وعلى علاقة طيبة ودية مع المزارعين المسلمين الذين كانوا يفرضون عليهم الضرائب، وخلال الحرب الروسية خلت تلك القرية وسواها من ساكنيها الذين هاجروا إلى جورجيا، إلا أن العديد من العائلات عادت فيما بعد إليها. وما إن كانوا ينهون حصاد الغلال حتى يستعدوا مرة أخرى لعبور الحدود ولربما كان ذلك لغاية أن يتملصوا من أداء بعض الالتزامات والواجبات أو الضرائب المفروضة عليهم. وكان مسراب آغا على علم بذلك، إذ قال عنهم: " أولئك الناس الذين لا خير فيهم قد أكلوا من خيرات وثمار هذه الأرض ونهلوا من عذوبة مائها ثم يعودون إلى الروس، هؤلاء واهمون كل ما فعلوه أنهم يخدعون أنفسهم وكان يتوجب عليهم البقاء هنا".

ولقد تحدث بعض المهاجرين عن مساوئ الحال والظروف التي عانى منها كل من استوطن روسيا، وأن هنالك الكثير ممن عاشوا فيها يتمنون العودة إلى

قريتهم القديمة في تركيا، ففيها ينعم الناس بقدر أكبر من الحرية والاستقلال، وتكرر ذكر ذلك من قبل الكثيرين وأكده لي بعض هؤلاء الذين عادوا إلى قريتهم ووطنهم الأم. إلا أن الحكومة الروسية كانت تراقبهم مراقبة عسكرية مركزة مشددة على امتداد خط الحدود الجورجية بغية ردهم ومنعهم من الرحيل.

في أسفل الهضاب تقع قرية كوسلي وتشكل بموقعها الحدود الجنوبية لسهل هينيس الذي يجري فيه رافد من نهر الفرات وهو "مراد صو" الفرات السفلي، قمنا باجتياز ذلك النهر القرب من حطام الجسر في قره كوپرى، أما السهل فكان خصب التربة زرعت فيه الحنطة والعنب.

في ذلك السهل تتوزع الكثير من القري التي يشير مظهرها الخارجي إلى البؤس والشقاء، وأما البيوت المنخفضة المحفوفة بأكوام السماد المجفف المكدس على السطح وفي الساحات المجاورة فلم تكن لها هيئة البيوت السكنية، وإنما كانت شبيهة بأكوام كبيرة من الروث، وكان عدد الأكراد والأرمن المسيحيين متساوياً ويعيشون الظروف الاجتماعية السيئة والمعيشية المزرية ذاتها و امتازوا بالكد والكفاح و العمل، و حين يأتي فصل الشتاء ببرده القارس وثلوجه المتساقطة لشهور عديدة، يمر عليهم دون تحصيل أو جني للثمار من الأشجار، وحتى الأخشاب تزيد المنظر قفراً وقحطاً إلا أن كثرة الكركي وطيور الماء في الأرجاء كانت تخفف من وطأة قفره ويباسه.

جبال زرناك وقرية قره كولي

عبر طريق يتخلل سلسلة جبال زرناك تركنا سهل هينيس ولاحظنا وجود مضارب من الخيم السوداء في الوديان، كانت للرحل من الأكراد الذين امتلأت الهضاب بقطعان ماشيتهم، ومن خلال الطريق كان يظهر لنا جبل شاهق تبدو في أعلى قمته آثار قلعة كان يمتلكها قطاع طرق أكراد ينهبون المسافرين ويسلبونهم متاعهم ومحمولاتهم في السهل، ثم رأينا منظراً شاملاً لسبحان داغ، عندما وصلنا إلى القمة التي ظهرت أمامنا فجأة من قرية قره گول التي كنا قد نزلنا فيها لتمضية وقت تشكل أجمل مشهد من تلك القمة الرائعة مع جبال كردستان الوعرة ونهر الفرات الذي يجري في السهل، حيث يجرُّ المزارعون الذين ثيرانهم لحراثة الأراضي ودرس القمح ومجموعة الخيالة الأكراد يحملون رماحهم الطويلة ويرتدون أرديتهم الفضفاضة، كل ذلك شكل إحدى أروع اللوحات الشرقية التي تخلف بصمة راسخة وأثراً لا يُمحى وذكريات لا يمكن اندثارها في الذاكرة فيما يخصُّ الأسفار في الشرق، ويعزِّز شعوراً إيجابياً ويكرِّس انطباعاً لا يمكن أن يزول.

أضفى القمح المدروس جمالاً على المشهد في قره گول والأمر ذاته في القرى الأخرى التي مررنا بها في الأيام اللاحقة، حيث تم جمع المحصول الكبير وأعدت الحنطة ليتم درسها وتخزينها مؤونة للشتاء بطريقة سهلة وبسيطة شبيهة بتلك التي كان الأقدمون يتبعونها في سالف زمانهم، وكان الأطفال يمتطون الأحصنة ويدورون فوق الأكوام، أو يقفون على مزلجة تم ربط حجر صوان حاد في أسفلها يسوقها ثور بين الحزم المتفرقة، كانت تلك هي ذاتها مزالج الدرس المسننة التي ذكرها إشعيا بقوله : " نؤرجاً محدداً جديداً ذا أسنان"، ولم يكن يوضع اللجام

للحيوان في جميع الأحوال " لا يلجم ثور عندما يدرس القمح " ولكنه يقوم بالتقاط حفنة الحنطة بفمه حين يقوم بدفعه الصبي أو الفتاة ممن توكل إليهم مهمة درس الحنطة، ثم يقوم الرجال والنساء بغربلة القمح حيث يرمونه و القش معاً في الهواء بمنخل خشبي لتذري الريحُ القشَّ وتفصله عن الحبوب التي تسقط على الأرض أثناء رميها، ومن ثمَّ يتم جمع الحبوب في أكوام و إنزالها على الأرض للدرس.

وبذلك يتمكن جامع العشر من الحصول على نصيبه وحصته، بينما يُحتفظَ بالقش ليكون علفاً للماشية في فصل الشتاء.

وأكراد ذلك السهل ينتمون إلى قبيلة المامنلي و يعيش زعيمهم في ملازكرد، اتسمت تلك القبيلة بقوتها وشجاعتها في الزمن الماضي و قدرتها على صرع ألفي خيالٍ قتيلاً في الحروب، كان قد أخبرني بذلك أحد صغار الزعماء الذين أمضوا معنا تلك الليلة في مضافة قره گول، لكن بعد الحرب الروسية انضم قسم من هذه القبيلة إلى الأراضي التي تم التخلي عنها.

سهول نهر الفرات

ثم قمنا بعبور الفرع الرئيسي لنهر الفرات بعد أن تركنا قره گول بقليل علماً بأنه يسهل اجتياز النهر في مثل هذا الوقت من السنة، إلا أنه يزداد عمقاً في فصل الربيع وقد يصل إلى الميل الواحد فتغزر مياهه ويفيض خارج ضفتيه ليتحول السهل بأكمله إلى سبخة كبيرة ممتدة المياه.

ثم توجب علينا اتخاذ المستنقع كطريق لنا يمكن أن نتعرض فيه إلى خطر أسراب طيور الدجاج البري، لم أرَ في حياتي هذا العدد والتنوع الهائل للطيور، ففي البقعة الواحدة الفاغرة بالمياه يتجمع الإوز والبط وأما بالنسبة للمناطق الوحلية فيكثر فيها مالك الحزين والشنقب، وينتشر الحبارى والكركي في الأماكن قليلة العشب والخضرة، ثم يغدو المكان غير صالح للسير ويستعصي العبور في الطرق السفلية عند هطول الأمطار، عندئذ تضطر القوافل القادمة لاتخاذ طريق دوراني واجتياز مسافة شاسعة في سفوح الهضاب.

حين تركنا السبخات والسهول الموحلة والموبوءة ومررنا عبر سلسلة من الهضاب المنخفضة، وابتعدنا عن بحيرة گولا چايه لى، لم نأسف لشيء، ثم توقفت بضع دقائق أمام دير أرمني.

الدير الأرمني

على مرتفع صغير يطل على السهل يقع الدير حيث كان الأسقف يتناول فطوره، بهيئة تنم عن زهده بالحياة، وكان فطوره عبارة عن القليل من الفاصولياء المسلوقة والحليب الرائب.

دعاني الأسقف لمشاركته طعامه فقبلت الدعوة وجلست وإياه في غرفة صغيرة، تكاد لا تتسع لدخول صينية تحوي طبقين أو ثلاثة، ثم شرعنا ومساعده بتناول ما فيهما، بدا القسيس جاهلاً كالآخرين من أمثاله من رجال الدين، أبدى بالغ تذمره من الضرائب و فساد الحكومة التركية، كل ما تمكنت من معرفته منه هو أن الكنيسة تحتوي جسد قديس كان قد عاش في زمن القديس غريغوريوس

المنور وعاصره، وأنها كانت فيما مضى ملاذاً آمناً ومأوىً للمصابين والمرضى الذين كانوا يلتجئون إليها بغية التداوي بالروحانيات كعلاج بديل عن الطب، وذلك المجمع يعود إلى قرية كوپ الأرمنية الكبيرة التي لا يمكن استبيان معالمها بسهولة لمجرد النظر إلى أسفل السهل.

لقد حافظت الكنيسة على بريقها وجمالها الذي كانت عليه منذ خمسة عشر قرناً مضت، وكان الأكراد قد جردوا الدير من كتبه ونفائسه. بعد مسير استغرق خمس ساعات وجدنا أنفسنا أمام بحيرة عميقة المياه عذبة محفوفة بجبال تساورها كسوار في معصم اليد، وتطفو على مياهها الزرقاء ثلاث إوزات كما رأينا عدداً هائلاً من طيور الماء.

قرية بيرون

توقفنا عند قرية بيرون الواقعة على أقصى طرف لگولا چايه لى لنقضي الليل، يقيم فيها سكانها الأكراد الذين ينحدرون عن قبيلة حسنانلو[1] إلى جانب الأرمن، وبهذا المزيج يمثلون نموذجاً حياً للتعايش في مكان يجسد القذارة والبؤس بين أكوام الروث، ولذلك كانت الأمراض والعلل والإصابات بالرمد تكثر بينهم، و ويستفحل كل ما عجز الطبيب عن مداواته لغزارة تفشيه بينهم. ثمة قصة يتداولها القرويون عن رجل فارسي يدعى الطب مر، ففي أحد الأيام وعد أهل القرية بعقار لعلاج الرمد لقاءَ مبلغ كبيرٍ من المال استحوذ عليه، وبعد الاتفاق أعطى مرضاه مسحوقاً كعلاج لعيونهم، إلا أن ذلك المسحوق لم يُجدِ نفعاً بل كان

(١) الحسنية هيقبيلة من الكورد الإيزيدية كانت حينها برئاسة يوسف بك.

الأمر بخلاف المأمول، إذ تسبب لهم بالضرر وأصاب أعينهم السليمة بالعلة ومن ثم حمل المال المجموع ومضى في حال سبيله. وحسبما أخبرني الكردي ذو المظهر البائس الذي روى لي الحكاية، والذي يبعث شكله وطريقة كلامه الشك وعدم الثقة في نفس سامعه : " ما الذي يمكن أن يفعله أحد في ظل تلك التنظيمات اللعينة ؟ (وكان يقصد الإصلاحات التي تم إجراؤها مؤخراً). وكانت المقاطعة التي دخلناها تنضوي تحت إمرة شريف بيك زعيم متمردي × الموش "، لكن مذ قبض عليه في السنة الماضية أصبحت أرض ميري ملكاً للحكومة، وعلى الرغم من أن السكان المسلمين الذين يقطنون هذا الجزء من كردستان أكراد جميعهم، فقد كان الاسم ما يعرف به سكان الخيام، أما من يقطن القرى فكان يسمى بكل بساطة × مسلم ".

قرية خرزا

في نازك بين بحيرة چايه لى والبحيرة الكبرى كانت سلسلة هضاب منخفضة يبلغ عرضها حوالي ستة أميال تفصل بينهما، وكنا قد وصلنا إلى قرية خرز الصغيرة بعد ساعتين ونصف، تلك القرية مبنية على الطرف الغربي منها، حيث كان السكان يحيطون بزعيمهم على مرتفع بجانب بيت حجري متين قويم البنيان، وتبين لي من خلال كلامه وهو يهز لحيته البيضاء كالنعامة بأنه لم يرَ أوربياً قبلي قطُّ وقد تجاوز التسعين من عمره، رمقني بعينين قد غلفتهما غشاوة من العشي أشبع فضوله بالكامل، ثم باشر بالحديث عن الفرنج بازدراء وامتعاض، وعن التنظيمات التي باعتقاده قضت على روح المسلمين وأحالت المؤمنين من الناس

إلى كفرة وصيَّرت قبيلته دماراً و خراباً ، بمعنى أنهم لن يتمكنوا بعد الآن من غزو جيرانهم. أما ابنه المماليء للباب العالي فقد تكلم عن الإصلاح بلهجة ذات وتيرة عدائية أخف وتيرة، وما يضمره في داخله ـ فاللّه أعلم به ـ من عداء ونفور لا أشك فيه. وكان يعتقد بأنه من خلال المداهنة والتملق يمكن الحصول على مكاسب ومغانم.

بدا الرجل العجوز كريماً في الضيافة بعد خطبته العصماء على الرغم مما يبديه مظهره الخارجي من بؤس وفقر، ولم يتركنا نذهب قبل أن نأكل من طيبات وخيرات ما قدمته القرية لنا.

كان طريقنا مجارياً لضفة البحيرة، وكان سكان خزز قد أكدوا أن نازك گول تصبح غنية بالسمك في فصل الربيع، وأنه لم يُصطَدْ سوى نوع واحد من بحيرة × وان "، لم أتوثق من ذلك الأمر الذي تكرر بين القرويين الذين صادفناهم إلى حين وصولنا إلى الطرف الشرقي من البحيرة، حيث وجدت أن الاتصال بينها وبين وان يجري عن طريق أخدود عميق يمتلئ بالماء خلال هطول الأمطار وذوبان الثلوج في الربيع ثم يصب بالقرب من أخلاط.

لم يكن هنالك ماء في الأخدود في هذا الفصل إلا ما يكفي لبيان التفاوت في المستويات، ففي الربيع تلتجئ الأسماك إلى الغدران وجداول الماء العذب لتضع بيوضها، ويقوم باصطيادها في ذلك الوقت سكان شاطئ بحيرة وان، وخلال بقية أيام السنة تترك الأسماك الماء المنخفض وتنجو من شباك الصيادين. الرنكة هي السمكة الوحيدة المعروفة التي تصطاد في موسمها بكميات كبيرة، حيث يتم تقديمها لتكون مؤونة العام على مدار أيام السنة، وتعتبر من المكونات

الرئيسية للصادرات. ثمة سمكة كبيرة من فصيلة البربيس موجودة في مياه نازك گول العذبة والحلوة بخلاف مياه وان المالحة كان أحد المسيحيين قد حدثني عنها...

اتجهنا إلى بلدة شديدة المنحنيات بعد أن غادرنا نازك گول، تتخللها جداول عميقة تمر فيها وتبدو وكأنها أقنية حفرت في جوف الحجارة وهذا ما نجم عن تيارات المياه الجبلية، وكانت القرى قد بنيت في عمق تلك الأخاديد بين أشجار الفاكهة المثمرة والحدائق، تغطيها صخور شاقولية وترويها مياه الجداول المتدفقة، ولا تظهر للعابر والمسافر إلا حين يصل حافة المنحدر، حيث يتبدى له هذا المشهد الخلاب بشكل مفاجئ تحت قدميه.

في بادئ الأمر ظننا أن البلدة خاوية على عروشها، حتى لمحنا بعض الفلاحين الذين يعملون في الأرض ويجرون محاريثهم في تلك الأرض الخصبة، كان هؤلاء الفلاحون أكثر نشاطاً ودأباً وكدّاً في العمل قياساً بنظرائهم من ساكني المناطق المجاورة، كانوا يحملون أغلالهم و محصولهم على عربات خشبية لا على ظهر الحيوانات شأنهم في ذلك شأن أغلب مناطق آسيا الصغرى، صُمِّمت بحرفية وإتقان فعجلاتها لا تحتوي على أية قطعة حديدية بل صُنِّعت من خشب اللوز أو البلوط أو خشب ×قرا آغاچ" أي (شوك الشجرة السوداء)، إذ يستخدم الخشب الأكثر صلابة ومتانة في صنع محور الدولاب وبذلك يتحمل الثقل الأكبر. وأيضاً تختلف محاريثهم عن تلك المستخدمة في آسيا الصغرى بإضافة لوحين متوازيين طولهما أربعة أقدام وعرضهما قدم واحد إلى شفرة الحراثة، وهذا ما يساعد على تهوية التربة وترك أخاديد عميقة ذات خطوط منتظمة.

قضينا ساعتين أو ثلاثاً ساهرين ليلاً في تلك الأرض المرتفعة حتى وصلنا فجأة إلى حافة منحدر عميق، ليتجلى لنا على مد النظر أجمل مشهد لبحيرة تساورها أشجار الغابة ويحيط الجبل بها.

بحيرة وان [1]

عند مشاهدة المسافر لبحيرة وان أول ما يمكن أن ينطبع في ذاكرته ويرتسم في خياله، هو جمال وروعة الطبيعة عند نزوله نحوها من مرتفعات أخلاط الجبلية. يتراءى له خليج بحري أزرق يمتد ليخترق اليابسة، من جهة الشرق، تحده سلسلة جبال مدببة الرؤوس تكسوها الثلوج، يتراكب أحدها فوق الآخر حتى أعالي قمم تياري وكردستان، تقع جزيرة أقد مار في أسفل تلك الجبال التي تتصف بالقداسة ومن بعيد تبدو وكأنها طيف فوق المياه، ويظهر جبل سبحان المخروطي الرائع في الطرف الأقصى منها، حيث يمتد في المناطق الدنيا من الشاطئ الغربي "نمرود داغ"، ويمتاز بتنوع الشكل والغنى بالتقاليد المحلية نزولاً إلى الأسفل، ومع اقترابنا من البحيرة تظهر لنا حدائق مدينة أخلاط القديمة وتنتصب المآذن والمساجد من فوق الأشجار، سرنا عبر مقبرة كبيرة، وبالأحرى غابة حقيقية ذات لون أحمر فاقع من حجارة الشواهد التي ترتفع لسبعة أو ثمانية أقدام، فيها زخارف

---

(١) بحيرة وان بالكرديةGola Wanê :) (بالتركية(Van Gölü: هي أكبر بحيرة في تركيا وتقع في منطقة شرق الأناضول وتبلغ مساحتها الإجمالية حوالي ١٢,٥٠٠ كيلو متر مربع بعمق ١٧٤ متر في المتوسط والبحيرة مالحة كما يتواجد في البحيرة عدة جزر صغيرة، وتطل على البحيرة عدة مدن، منها مدينة وان ومدينة أخلاط، وقد عرفت البحيرة قديماً باسم بحيرة أرجيش.[٢] وذكرها ابن عساكر أزجيش.،من يوكوبيديا.

أنيقة من الأرابسك وكتابات بالخط الكبير الذي ميز الفترة الزمنية لصدر الإسلام. تتخللها هنا وهناك تربة مخروطية جميلة الشكل مغطاة بزخرفة نباتية جميلة، وبذلك أصبحت بقايا الأضرحة الآثار الباقية لمدينة كانت قد آلت إلى الخراب، وبين المزارع تموضعت بيوت منخفضة هنا وبنيت بناءً عشوائياً من مخلفات الأبنية القديمة وبقايا تيجان ومنحوتات قديمة تم جمعها وتشكيلها على هيئة سور يحيط بها.

ضريح السلطان بياندور

قمت بالتجول خلال الأنقاض بينما كان مرافقونا ينصبون الخيام في مرج قرب أحد أجمل قبور المسلمين، تظلله أشجار باسقة ومن خلال أغصانها المتفرعة تمكنا من مشاهدة البحيرة عن بعد، تجاوت الحدائق وابتعدت عنها وقطعت جزءاً من المقبرة لأعثر على ضريح لم تعبث به يد الخراب والبلى من لون الحجارة الأحمر ذاته، كان يلمع تحت أشعة الشمس وسقفه المخروطي يرتفع على أعمدة وقناطر، وأما الجهة القبلية الجنوبية منها التي يبيمم المصلي بوجهه نحوها فقد ازدانت بأجمل الزخارف الشرقية.

وتم تصميم الإفريز الذي يدعم السقف من عدد من الزخارف الغنية التي تختلف إحداها عن الأخرى. وتنتصب أعمدته على قاعدة متينة ترتفع إلى حوالي تسعة أقدام عن الأرض، وقد رُدف طرفها العلوي بألواح متنوعة الأشكال احتوت على فتحات وكوى كثيرة الزوايا و زُيِّنت بأشكال هندسية مختلفة. وأما طرفها السفلي فكان يشكل زاوية مندمجاً ببقية أجزاء البناء، وعلى أرضية البناء

تتموضع حجرة فيها جثمان الملك المتوفي الفاني منذ زمن بعيد وأصبح رماده رمدة، وحول التربة توجد حجارة تغطي النقوش أعلاها وأسفلها، كانت شواهد لقبور أشخاص أقل شأناً. الأشجار الملتفة الوارفة الظلال تحيط بالمكان والهضاب وتجري تحتها مياه البحيرة الزرقاء الداكنة. المشهد كامل تفاصيله أشبه بلوحة قد أبدعتها ريشة الفنان ترنر، فكل تفصيلة في البناء تمثل نموذجاً معمارياً جديراً بالبحث والدراسة. ومما رواه الناس أن هذا الضريح يعود إلى القرن الخامس عشر، إلى السلطان بياندور أحد أهم قادة التتر الذين عبروا حدود فارس آنذاك.

إن هذا البناء الذي ثبت وصمد ضد برغم مؤثرات وظروف التدمير والهدم تحول الآن إلى مستودع للقمح والقش، من قبل أقوام لا يعرفون قيمة موروث لأجدادهم وتاريخهم. وثمة عدد آخر من القبور التي طالتها يد البلاء والفناء وأبلت فيها ما لم يطل سواها من مثيلاتها، إلا أنها برغم ذلك كله لا تزال تمثل نماذج متميزة في الزخرفة وفن العمارة، وتزدان قببها بزخارف دقيقة منحوتة في الحجر الأحمر، وتعود إلى سلاطين آق قيونلو وقره قيونلو من التتار بحسب المتعارف عليه محلياً، وهي قبائل الخراف البيضاء والسوداء الشهيرة.

وعبر وادٍ عميق شبيه ما وصفته سابقاً يجري نهير ماء يرتفع فوقه جسر قديم في مكان خلف تربة السلطان بياندور. وأحالت الحدائق والأعشاب حوض الوادي الضيق والمناطق المزروعة إلى لوحة طبيعية من الزخارف البديعة، وأما الصخور الشاقولية التي تحيط به من جانبيه فقد توزعت فيها بنسق منتظم، مداخل كهوف اصطناعية كانت قبوراً قديمة أو أماكن للسكن.

مدينة أخلاط

وتبدو جدران وأبراج قلعة مدينة أخلاط القديمة على كتلة حجرية ضخمة معزولة، وكانت هذي الآثار الخالدة ذائعة الصيت في التاريخ الأرمني، وإحدى أهم مراكز قوة أرمينيا.

صعدت إلى الأعلى علي أرى الآثار المهدمة وشرعت بمعاينة الكهوف المنحوتة في الصخور فألفيتها لا تزال تستخدم كأماكن للسكن وحظائر للمواشي حتى زمننا هذا. بعض المداخل الكبيرة كانت قد امتلأت بحجارة توفرت لها الحماية والراحة، وتركت بعض الفتحات الصغيرة كأبواب مفتوحة أمامها للعبور، وفي الفتحات الواقعة على الطرف المقابل من الوادي وجدت جماعات من الناس بدا الليل على ملامحها، كان رجالها طوال القامة سمر البشرة، وتتجلى مسحة من الجمال على وجوه نسائها وأطفالها، لقد كانوا أكراداً يرتدون ثياباً مزركشة فضفاضة كثيرة الألوان تميز قبيلتهم، وحين حدثتهم لمست فيهم اللطف والذكاء وروح الدماثة والخلق وكان الانفتاح يغلب عليهم.

القبور

هنالك عدد من السلالم المعلقة أو المحفورة في الصخر يمكن الوصول إلى المقابر عبرها، مزودة بمدخل مربع الشكل إلا في حال تم توسيعه فيما بعد. يبدو المدخل بسيطاً خالياً من الزخارف في مواضع ومزيناً بتاج بسيط في أخرى، ينفتح على حجرة واسعة تنتهي إلى سواها، وتقوم على المستوى نفسه أو بواسطة مجموعة سلالم معلقة موتدة إلى حجرات أعلى. ما مِن آثار تدل على كيفية إقفال

تلك المداخل ومن المحتمل أن سدها كان يتم بحجارة تدور حول مفاصل أو على بكرات تتم دحرجتها.

في الجدران أو الأرض ثمة أحواض أو أجران محفورة كانت جثامين لمتوفين تسجي فيها، ووضعت في كوى صغيرة على جوانب الغرف مصابيح إنارة، ووُجدت في جبال آشور وفارس وصولاً إلى شيراز في الجنوب قبور مماثلة لها، ولكن بأعداد قليلة قياساً بما هي عليه في أخلاط، وكانت تحتوي على بقايا أجساد الغزاة الموتى وعلى بيوت للأحياء لعصور وأزمنة عديدة.

القلعة الأثرية

اتجهنا إلى غابة شجرية مثمرة بعد أن غادرنا الوادي، وفي طريق سيرنا صادفنا عدداً من المساكن البدائية، واصلنا سيرنا حتى وصلنا إلى قلعة تركية قديمة شامخة تقع على حافة مطلة على البحيرة، مثلت صرحاً تركياً خالص الأصل والقدم بتفوقه بالتربة أو بالسور القديم المحيط بالوادي، وقد بينت الكتابات أن السلطان سليم كان قد بنى جزءاً منها و أن السلطان سليمان قد استكمل بناء الجزء الآخر، ودونت فوق المدخل الشمالي عبارة"٩٧٥ للهجرة". السور والبرج لا يزالان موجودَين، فقط يحتاجان إلى ترميم طفيف ليعودا من جديد حصناً منيعاً يضمن الأمن والحماية، وتنتصب قلعة شامخة بين جدران الحصن وهنالك ما يقارب المئتي بيت، و ترى مسجدين وعدداً من الحمامات الآيلة للسقوط التي يقطنها عدد من العائلات البائسة الفقيرة التي حال الفقر والكسل بينها وبين بناء مسكن جديد مريح بين الأطلال.

بالإضافة إلى جدار عالٍ سميكٍ في الحصن الذي يفصله عن المساكن ومدخل مثقل بالحديد مهشم موشك على الانهيار، كان يعيش فيه ولفترة قريبة من أيامنا هذي قاطع طريق كردي شهير يدعى محمد بيك، وجد في القلعة حصناً منيعاً، يغير على سكان البلدة المسيحيين مثير حفيظة السكان. لكن هذا الرجل الذي تجاوز القانون عندما تقدمت جيوش الترك هرب بعيداً، وذلك بعد أن ظفرت حملتها ضد نور اللّه بيك، مع العلم أنه كان من المفترض أن يتنقل الآن عبر جبال جنوب كوردستان.

ثم عُيِّن رجل يتمتع برؤيا نافذة لإقامة مشاريع عملية مخططة يمكن أن يعيد لأخلاط وجهها المشرق إلى سابق ازدهارها لجعلها عاصمة المقاطعات الشمالية الشرقية للإمبراطورية التركية، وذلك بعد إلقاء القبض على بدرخان بيك وعثمان پاشا زعيم أركان القوات المسلحة في الجيش التركي، كان ذلك الرجل قد اقترح تقديم قروض للأراضي وقام بحثّ سكان القرى المجاورة من حرفيي وان وبدليس وموش وحتي أرضروم على النزوح إلى البلدة مقدماً إغراءاته ومؤمِّلاً إياهم بمكاسب ومغانم جمة.

بلدة أخلاط

تقع بلدة أخلاط على ضفاف البحيرة الواسعة، وقد منحها هذا الموقع المميز الهام امتيازاً كبيراً، ويعتبر عاملاً مساعداً في دفع حركة التجارة، بالإضافة إلى هوائها النقي الصحي وقربها من الحدود الفارسية والروسية، الأمر الذي يجعلها بلدة ذات موقع عسكري استراتيجي. وكان عثمان باشا قد أعد العدة لبناء قصر

وسوق وثكنات وإعادة ترميم جدران القلعة القديمة إلا أن المنية وافته وحالت دون تحقيق طموحاته.

كانت العادة في تركيا تجري من حيث المبدأ ألا يقوم ولي الأمر بإنجاز مشاريع أو يستكمل بناء كان قد بدأ به أسلافه السابقين له، لذلك ستبقى أخلاط واحدة من أجمل البقاع التي يمكن أن تخطر على ذهن إنسان. أضحت كتلة من الدمار والخراب لا ترسو السفن على شواطئها إلا فيما ندر، و فيما يخص شؤونها التجارية أن التجارة الوحيدة التي يمكن تداولها ومزاولتها تلك التي تتم عبر سفن متداعية، وذلك حين يفسح الطقس ويكون مواتياً لمغادرة مرفأ وان الصغير في رحلة البحث عن الخشب و الحبوب في الجهة الجنوبية من البحيرة.

خضعت مدينة أخلاط القديمة التي كانت عاصمة مقاطعة بيزنوني الأرمنية للسيطرة الإسلامية في بدايات القرن التاسع، الإسلامية، لكن اليونانيين في الإمبراطورية الدنيا خاصتهم كانوا قد غزوها في نهاية القرن العاشر، ومن ثم تمكن السلاجقة من انتزعها منهم لتعود إمارة إسلامية. بقيت لفترة طويلة محط اهتمام الغزاة العرب والتتر، ثم ما لبث أن خضعت لحكم وسطوة الشاه أرمن في نهاية القرن الثاني عشر تقريباً، وبعد ذلك قام صلاح الدين الأيوبي بمحاصرتها دون نتيجة، حتى سقطت في عام ١٢٠٧ للميلاد في قبضة ابن أخيه ابن الملك العادل.

أحد الأصدقاء

عندما عدت إلى الخيام كانت الشمس تأخذ مسارها إلى الأفول، وكانت قد ألقت خيوطها الذهبية على محيا الطبيعة، ورسمت لوحة فنية تعجز ريشة الفنان كلود عن إبداعها، جلست خارج خيمتي أشبع ناظري بهذا المشهد حين قطع تأملي واستمتاعي صوت صراخ عالٍ مألوف كان قد غاب عن مسمعي لسنين طوال، التفت وإذ بدرويش عجمي يلتحف عباءة من جلد الغزال ويعتمر قبعة مخروطية حمراء مكسوة بالفرو مزركشة بخيوط سوداء وبآيات قرآنية وحكم لسيد الطائفة علي بن أبي طالب.

لم تفَق دهشتي دهشةَ ذلك الرجل حين أديت التحية المتعارف عليها بينهم، ومنذ ذلك الوقت أضحى صديقاً حميماً ودوداً لي وأحد أتباعي، وفي الحال أرسل مرافقه لإحضار طبق من الكمثرى ليقدمه لي، علماً بأن ذلك الطبق عنده لا يشكل ذلك الأمر الكبير، وأعلنني واحداً من جماعته، دون أن يواري دهشته واستغرابه من المصدر الذي اقتبست منه معلوماتي ومعرفتي بعباراته وأسرارها، لم يكن الأول من أصدقائي الدراويش، فلقد خضت الكثير من المغامرات مع أمثاله. تحت ضوء القمر الخافت كنا نتجاذب أطراف الحديث، وفجأة رأيت هرمزد يعانق شابة يلبس حريراً مزركشاً بخيوط الذهب ومدججاً بالأسلحة. كان زعيم عشيرة في الموصل المعروف بشكل جيد لدينا. عندما سمع بقدومنا سارع إلينا من قريته البعيدة ليرحب بنا ويستقبلنا ويحاول إقناعنا بالحلول عنده في منزله لكني تمنعت، وحين فشل في إقناعي بعث بخادمه إلى زوجته التي كانت سيدة من الموصل وأحد معارفي طالباً منها طهي خروف لنا، فما كان إلا أن وجدنا

أنفسنا فجأة بين ثلة من الأصدقاء ومزيج من مسيحيين ومسلمين كانوا من أخلاط حيث اجتمعنا وسهرنا وقضينا الليل معظمه قبل أن نمضي إلى النوم.

المدير

بعد طلوع الشمس مباشرة، في أولى بدايات الصباح، استكملت السير والتجوال بين الأطلال منادياً على ×المدير" أو المحافظ الذي دعاني للجلوس معه تحت شجرة تين، كان ذلك الرجل من سكان المنطقة بدا مسناً أشيب اللحية طيباً صادق اللهجة نقي السريرة، ووجدت نفسي مضطراً مجدداً للاستماع إلى عارات التذمر والاحتجاجات بخصوص الفقر والضرائب الباهظة. على الرغم من عدم إسهام القرية بحدائقها الواسعة في العائدات العامة بأكثر من عشرة أكياس دراهم أو ما قد لا يصل حتى إلى الخمسة والأربعين جنيهاً، وهذه الكمية صغيرة قياساً بالمفترض إلا أن انعدام التبادل التجارية وبعد القرية عن الطرق الرئيسية كما أسلف المدير بالذكر لي يشكل مانعاً وعائقاً ويؤثر على السيولة النقدية.

آثار أرمنية

يقع كوخ المحافظ قرب الحدود الشمالية لأخلاط، ومن الجهة الخلفية له بقليل تقع الطريق التي تمر عبر المقبرة، التي تزخر بالزخارف والمنحوتات والتي تحيط بالمنطقة على شكل حزام عريض، وتمثل آثاراً دارسة وبقايا كانت قد تراكمت مع مرور الأجيال. من غير الممكن رؤية مشهد انتصار الأموات على الأحياء إلا في الشرق.

يرقد الأموات في إنكلترا في مقابرهم ومثواهم الأخير وفوق أنقاض القبور تبنى المنازل، أما في الشرق فإن المقابر تقع تماماً في صدارة المنزل. وبعد دفن من في القبور على ساكنيها تبقى الشواهد الحجرية الضخمة شامخة وطويلة الأمد، وهنالك العديد من الترب الجميلة تتوزع بين القبور المتواضعة، تشبه بشكل عام تلك التي زرتها من قبل مع اختلافها في بعض التفصيلات الدقيقة.

خرجت من منزل المدير واتجهت إلى المنطقة القديمة في المدينة إلى حيث القبور الصخرية إذ ينقسم الوادي إلى فرعين يغذي كلاً منهما ينبوعٌ غزيرٌ في منطقة ليست ببعيدة عن نقطة اتصاله بالبحيرة، ثم تبعتهما لمدة أربعة أو خمسة أميال، صعدت بجوار أحدهما لأعبر وبعد ذلك رجعت هبوطاً بجوار الفرع الآخر بعد أن عبرت الأرض التي تفصل بينهما. مناظر طبيعية في قمة الروعة والجمال تحيط بالرافدين، تتوزع مياه الفرعين تلتقي على شلالات لتتساقط بروعة على الأرض الصخرية تحت أشجار الجوز والدردار، وتشكل الجرف الصخرية إطاراً جميلاً يساور تلك اللوحة. دخلت المكان لأرى عدداً من القبور الصخرية كانت متشابهة مع تفاوتها في الحجم، بعض الأبواب متسع لإضفاء المزيد من الموثوقية على تلك القبور كي تبدو أماكن صالحة للسكن، والقليل منها لم تلوث جدرانه بالمواد الناجمة عن أدخنة النار التي كانت تستخدم لزمن بعيد، يعيش أكثر سكان الوادي الحاليون في تلك الكهوف وعددهم قليل، وهنالك قاعات وممرات بين القبور تم نحتها في الصخور ولكن لم يتضح لي الغرض من ذلك، بالإضافة إلى وجود السلالم المعلقة التي كانت محفورة في الصخر والتي لا تقود ولا تنتهي إلى مكان، عبثاً و دون جدوى كان بحثي وتجوالي الذي قمت به علني أرى كتابة أو

أجد بقية منحوتات على الرغم أن المكان قديم بلا شك وقريب من الأماكن التي تتواجد فيها الكتابات المسمارية.

الدير الأرمني وأسقف

صادفت كنيسة أرمنية خلال تجوالي وديراً يقبع على حافة صخرية مطلة على نبع يبعد حوالي أربعة أميال عن الوادي الجنوبي، كان في الدير أسقف وراهبان يعيشون في حجرة منخفضة صغيرة بالكاد تدخل إليها أشعة الشمس والنور من خلال كوة مسدودة بقطعة ورق مشمع لدرء البرد عن المكان، واللّٰه لو رأى هذا أي كاهن صغير في إنكلترا هذا المكان المظلم الرطب لنفر منه وعزف عن رؤيته، فكيف له بالإقامة فيه؟! تفترشُ المكان حصيرةٌ ممزقةٌ باليةٌ لم يبقَ منها سوى الخيوط، كانت ممدودة على ألواح متعفنة، وأما بالنسبة لطعامهم فكان الخبز الجاف الخشن والقليل من اللبن مع حبوب الفاصولياء واللحم الرديء للاحتفال بالغفران. جلست تحت قبة مقوسة تحت الدرج امرأة كبيرة في السن، تبدو عليها مسحة البؤس، كانت تحضر طعامهم وتقضي وقتها في خض جلد الماعز بيديها النحيلتين، حيث وضعت فيه الحليب وأخذت تخفقه ذهاباً وإياباً لتحيله إلى زبدة.

كانت الخادمة المسؤولة وربة المنزل الموكلة خدمةَ الدير إليها، وأما الكنيسة فإنها تقع في الأعلى وكانت أشد ظلمة ودهمة من مكان السكن، خصص قسم منها لتخزين القمح وبعض الأدوات الزراعية البدائية الأخرى، مع ذلك كله برغم التأثيرات والآثار التي تركتها السنون وخلفها تعاقب العصور على البناء فقد بدا صلباً متيناً.

في تجوالي أطلعني على الأسقف صليبة المحفورة في الصخر خارج الدير، وقال إنه نحت من قبل أحد حواريي يسوع نفسه لذلك كان بمثابة أحد الآثار الأكثر قداسة، ومكاناً يقصده حجاج المسيحيين من المناطق المجاورة. هناك قبور بالقرب من المكان لأساقفة سابقين مبنية بالأحجار ذاتها والقبور المنقوشة التي رأيناها لزعماء التتر القدماء عند البحيرة، والتي ضُمِّنتْ بالصليب وبالزخارف الجميلة القوية التي تميز الكتابة الأرمنية بديلاً عن دوائر الزهور والحروف الطويلة عند أوائل المسلمين على اختلاف تلك الزخارف والنقوش.

برغم فقر الأسقف الشديد إلا أنه كان يتميز بسعة اطلاعه قياساً بأقرانه الذين كنت قد صادفتهم في المقاطعات، كان قد درس في العاصمة هناك وكانت الكثير من الكتب بحوزته والتي آمل أنها كانت له وللمصلين، وهنالك أعمال قيمة كانت قد طبعتها الإرساليات الأميركية وكذلك الجمعية المبجلة وهي مختاريست البندقية دون حرج من حيازتها، إلا أنه لم يتبق شيء من كتب الكنيسة ومخطوطاتها القديمة مع مخزونها الصغير من الأطباق والثريات والأشياء الثمينة. بسبب ما تعرض له المكان فآخر عملية سطو كانت على يد محمد بيك قاطع الطريق الكردي الذي كان يتحصن داخل قلعة البحيرة، وكان قد التجأ إلى الدير الأرمني بعدما طرده سكان أخلاط الساخطون عليه والغاضبون من معقله، حيث مكث فيه سنة كاملة تقريباً يعيش على محتوى مخازن الرهبان التي لا تحتوي إلا على القليل والنَّزر اليسير من المؤن، مع سلبه قبل ذهابه، وتخلى عن ذلك المأوى والممتلكات التي بحث عنها في كل زوايا الدير. دفع استبداد ذلك الزعيم أغلب سكان أخلاط إلى ترك الأرض والنزوح ولم يبق فيها سوى عشرين

عائلة مكثت جميعها في القبور الصخرية والمدرجات الصخرية المواجهة للدير، ولم يكن يسمح لهم باقتناء الحدائق والمزارع المتاخمة للبحيرة التي كانت حكراً على السكان القدامى من المسلمين ولأبنائهم فقط حق الاستفادة منها، ولكنهم كانوا يولونها حقها من العناية والرعاية، معولين على خصوبة التربة ومناسبة الطقس في زراعتها.

وأثناء تجوالي في المكان، خرج الأطفال من كهوفهم الحجرية وتجمعوا حولي، أثار منظرهم الجميل الحزن والأسف في وجداني، بدوا وهم خارجون وكأنهم من سلالة أهل الكهف.

وتوجد بقايا تربة بديعة التصميم ونقوش في نهاية الوادي على حافة المنحدر، تكسوها العرائش وتبدو كأنها معلقة فوق جدول ماء سلسبيل لجين يجري من تحتها بتؤدة ويقطعه جسر قديم متداع، يحفز ذاكرتنا على استرجاع منظر حدائق تيفولي المشهورة، وهنالك عدد آخر من الترب في الجانب الخلفي من البحيرة، التي قمت بفحصها ومعاينتها كلها بغية تدوين بعض خصائص وسمات زخرفتها، وأثناء تجوالي كان السكان المحليون يتتبعون خطاي في بحثي عن أسماء الزعماء القدامى الذين بنيت تلك الصروح إكراماً لهم، منهم إسكندر وحسن وهارون وكانوا جميعهم من سلاطين قبائل التتر أو من الپادشاه.

رحلة إلى بدليس

اقتُلعت الخيام قبل عودتي إلى المضارب وكانت القافلة تستعد للمصير القادم، ولهذا لم يكن لدي متسع من الوقت للمزيد من المكوث والبقاء في تلك

البقعة الأثيرة إلى قلبي، مضينا نسير الهوينا عبر الطريق الذي يصل إلى بدليس على طول شاطئ البحيرة. سأستأنف الحديث عن جمال وروعة الطبيعة في تلك المناطق. من المؤكد أن كل فنان عاشق للطبيعة سيجد في أخلاط موضوعاً غنياً للدراسة والتأمل والمتعة. وكل معماري أو مسافر يكون لديه اهتمام وإلمام بتاريخ هذا الفن الرفيع الذي وصل إلى ذروته في عهد حكام مصر والأندلس لا بد له و أن يطيل رحلته، فيرى آثار مدن أرمينيا القديمة البعيدة عن الطريق الرئيسي والتي لم يكتشف أحد آثارها بعد، وسيتابع كيف قام فن العمارة هذا الذي أخذ اسمه من بيزنطة فوصل إلى الدرجة نفسها من التقدم والتطور في الشرق والغرب على السواء، وكيف أنتج التلاقح والاندغام مع الزخارف الأعجمية وخطوطها المتنوعة وألوانها الغنية نسقاً فنياً ذاع وانتشر بين العرب والمسلمين والمغاربة. وسيكتشف في كل يوم أشكال وتفاصيل وزخارف تستجلب إلى ذاكرته مدارس عديدة في الهندسة المعمارية التي تتابعت في حقبة مبكرة في غرب أوربا وإنكلترا والتي لا تزال تدين بها للشرق، وهي نتاج تعانُقِه مع الغرب برابط الدين المسيحي، وكيف عاد الصليبيون بعد حملاتهم إلى بلادهم من آسيا متشربين بالذوق الشرقي الرفيع المتميز بتجانس واتحاد الألوان بالهندسة التي عززها العرب ورسخوها في البلدان أيام الفتوحات.

الجدير بالذكر وبالدراسة هذا التزاوج بين الهندسة الشرقية والغربية، وما من مثال يمكن أن يدعم قولنا ويعبر عنه بقوة كآثار المسيحية الأولى في أرمينيا وآثار الأرشكيين والساسانيين الخالدة حتى يومنا هذا في فارس، ولكن اللثام أميطَ عنها، وليس هنالك من مخططات أو رسومات أكثر أهمية من الآثار البيزنطية

وحتى الأرمينية في آسيا الصغرى يمكن اعتمادها كمادة غنية في إجراء دراسة مقارنة بين الأساليب والأنماط. هذا الاندماج بين الفن والهندسة العجمية مع فن وهندسة المسيحية الأولى تمخض عنه نمط جديد لم يُدرس بعد كما ينبغي. ومع ذلك فإنه خلق وإبداع ينطوي على الدقة والرشاقة وجمال الخطوط وعلى كل ما يجعله جديراً بحيزٍ واسع من البحث والدراسة والاهتمام.

نمرود داغ

مشينا في سفوح نمرود داغ حيث تمتد سفوح نمرود داغ من أخلاط إلى الطرف الجنوبي للبحيرة، سرنا في سفوحها واجتزنا العديد من السدود المتشكلة عن الصخور البركانية وبقايا الحمم البركانية التي تشكلت وبقيت منذ زمن بعيد، لكن فوهة البركان لا تزال موجودة ويملأها ماء بحيرة صغيرة في قمة الجبل.

قوال يوسف والحكاية

هناك قرى عديدة جل سكانها من المسيحيين بنيت على الشطآن أو في الأودية التي حفرتها الينابيع المتفجرة من الهضاب، تدريجياً بدأ طريقنا يبتعد عن البحيرة، قد بنيت على الشواطئ أو في الأودية التي حفرتها الينابيع المتفجرة من الهضاب.

مشيتُ وقوال يوسف مع جماعتنا في مقدمة القافلة تاركين إياها في الخلف، ثم داهمنا الليل وطوانا الظلام تحت جنحه، وبدأنا البحث بلا جدوى عن القرية التي من المفترض أن نحل فيها ونقضي الليلة . إلا أننا سرعان ما ضللنا طريقنا

ليستغل قوال الوقت في سرد القصص التي جمعها خلال رحلاته وأسفاره الأولى فيما يخص قطاع الطرق الأكراد والمسافرين الذين قتلوا على أيديهم، الأمر الذي أدخل الخوف والقلق في قلوب بعض أفراد الرجال في مجموعتنا ..

ولأكثر من ساعة استمر سيرنا كحمار رحى الطحن، وفجأة تردد على أسماعنا من بعيد صوت أجراس مواشي القافلة، فجعلنا سيرنا باتجاهها حتى ألفينا أنفسنا واقفين في قرية كسواك الأرمنية على خليج صغير تعلوه صخور تصل حوافها إلى البحيرة.

ثم سرنا على ضفاف البحيرة في صباح اليوم الثاني، واجتزنا طريق نمرود داغ الوعر المحفوف بأخاديد كانت قد تسببت بحفرها الحمم البركانية فيما مضى، بدا أحد تلك الأخاديد عميق الأغوار، كانت الأخاديد تمتد من الجبل حتى حافة الماء على صخور متميزة الأشكال نحتتها تيارات مياه الشتاء التي تسيل من أعالي المرتفعات. ولقد أسماها سكان البلدة "جمال نمرود" كانت الأسطورة تقول : "إن الثوار أرادوا بناء قلعة تكون بمثابة تحدٍ للّه والإنسان فلا يصل إليها أحد، إلا أن عقوبة إلهية أنزلت بهم عقاباً على تجبرهم، حيث تحول العاملون وهم يشتغلون إلى حجارة، أما الصخور على ضفاف البحيرة فهي الجمال التي تحولت إلى حجارة مع أثقالها لتبقى ذكرى تشهد على عقاب السماء" وعلى قمة الجبل لا تزال جدران القلعة التي لم تنته ولا تزال ظاهرة للرائين، و أما سكان البلدة المحيطة فهم قوم بدائيون يؤمنون بالكثير من الأساطير المتشابهة.

بعد وقوف طويل هممنا بمغادرة الطرف الجنوبي للبحيرة قرب قرية "تادوان" الأرمنية التي كانت ذات مكانة مرموقة فيما مضى، وكان فيها خان للقوافل

ومساجد وحمامات قام خسرو پاشا ببنائها في القرن السادس عشر، ألقينا نظرة الوداع على البحيرة الداكنة و على قمم جبال الهكاري الشامخة ونحن نلج بلدةً تموج ارتفاعاً وانخفاضاً.

كان مؤشر عبورنا للخط الفاصل انسياب مياه الجداول المتدفقة وسط آسيا حيث وصلنا إلى أودية آشور، وتوزعت في أرجاء المكان آثار خان قديم مظلم تعلو القناطر جدرانه ويعج بالإصطبلات الواسعة السوداء التي أسبغت عليها الأدخنة بلون السواد على مر الأزمان والعصور، كانت تلك الخانات مؤشرات ونقاط علام على امتداد أكبر الطرق التي كانت تصل وسط أرمينيا ببغداد، أيام كانت الإمبراطوية العثمانية في أوج ازدهارها.

قمنا بعبور الطريق في سهل هينيس الممتد من أرضروم إلى موش لتغدو بدليس إلى شرقه، فينفصل عن بحيرة وان. في تلك المناطق لم نلمح من الآثار ما يشير إلى الحركة التجارية التي كانت قد توقفت منذ زمن بعيد. هذا ما دلت عليه ملامح الخراب والدمار الذي كانت تشي به الخانات والجسور، لكن عندما يعود النظام والهدوء إلى هذا الجزء من تركية ستستعيد التجارة حيويتها ونشاطها منة جديد وستكون منارة مضيئة ونقطة وصل بين الأقاليم الشمالية والجنوبية للإمبراطورية.

بعد وقت قصير أصبحنا في وادٍ وعرٍ حفرته المياه في الجبل التي تجمعت فيما بعد في نهر واحد، كان ذلك أحد منابع نهر دجلة، هطول مياهه وابل غزير يهدر كحطام صخر باتجاهنا، تلك المياه الفوارة المثيرة للرهبة جعلتنا نشعر بأن رحلتنا قد انتهت هنا. الوادي صخري مقفر في أوله وبدايته، ثم تظهر بضعة بقع مزروعة

تتوزع في قعر مجرى المياه الجاف، و تتراءى بعد ذلك بعض الأشجار العملاقة الباسقة، تليها الحدائق والرياض والحقول، إلى أن يطل المدى على مضيق ينفتح على بلدة مترامية الأطراف هي بدليس.

قام المحافظ بتأمين بيت كبير يملكه رجل أرمني فيه بضعة غرف، هيئها لنحلّ فيها ونبيت الليلة، كان مالك البيت خياطاً يعمل لدى بدرخان بيك من الدكة، أمام المدخل تبدو الأسواق المبنية في أسفل وادٍ عميق في وسط البلدة، وبإمعان النظر إلى الأمام تبدو لك صخرة مرتفعة قائمة بذاتها تجثم عليها قلعة حصينة، وتنتصب على مرتفع شاهق أمامنا، ويبرز مسكن شريف بيك المنيع شامخاً يطاول السماء، وهو زعيم ثلة من المتمردين الذي كان فيما سبق قد أخضع بدليس وضواحيها لأربع سنوات، فقد تحدى السلطات والقوات العسكرية، وتوزعت في أنحاء الجبل لوحات أبدعتها يد الطبيعة و وشتها الشمس بإشراقة نورها، تشكلت من بيوت بيضاء منخفضة ساورتها عرائش العنب ومن حدائق واجمات من شجر الحور.

فقدان القوالين

للمرة الأولى تحل بجماعتي اللعنة في تلك الرحلة، التي تصيب المسافر إلى الشرق، كانت الحمى والملاريا، أمام هذه الحالة التي لا يملك طبيبنا حيالها أية خبرة وقف عاجزاً، كان قد شخصها بأنها قد تكون إصابة

بالتيفوئيد أو حمى قاتلة ولهذا من الضروري تخصيص يوم للراحة لنا ولخيولنا أيضاً. فقد كان أمامنا مسير طويل شاق في تلك الطرق الجبلية الوعرة،

وثمة سبب آخر لدي للبقاء ألا وهو أن ثلاثة من أفراد عائلة قوال كانوا قد قتلوا منذ سنتين قرب بدليس بتحريض من البيك الكردي عند عودتهم من زيارتهم السنوية لقبائل الإيزيديين في جورجيا شمال أرمينيا، والمال الذي قام أفراد قوال بجمعه لطائفتهم استولى عليه شريف بيك مع ممتلكاتهم الشخصية. وانطلاقاً من ذلك فقد أردت مساعدة قوال يوسف في استعادتها. وكان رشيد باشا قد منحني أمراً رسمياً باستردادها من ممتلكات ذلك الزعيم الراحل. وبناء على ذلك في الصباح الباكر قمت بالاتصال بالمدير أو المحافظ، وهو أحد أقارب أسعد باشا، الذي كان يقيم في ديار بكر ويحكم كردستان وبليس وموش وضواحيها حكماً عاماً. وقد وددت الحصول على دعمه ومساعدته في استرداد ممتلكات المغدورين من آل قوال، فتحدث بامتعاض وازدراء عن الأكراد الذين تم إخضاعهم الآن و وقفوا أذلاء في حضرته فعاملهم بأقبح صورة، أما الأتراك فقد رفضوا تلك المعاملة واللهجة المتعجرفة ولم يحتملوها. بعد مدة طويلة من سقوط بدرخان بيك حافظ على يد زعماء هكاري ووان وموش وبدليس وحصولهم على استقلالهم،تم إرسال شريف بيك في هذا الربيع إلى العاصمة لقضاء أيامه الأخيرة في المنفى مع من ارتكب مجزرة النسطوريين. أوكل الحاكم إلى عدد من القواصين مهمة مرافقتي في البلدة، وقيل لي إن كتابات قديمة موجودة في القلعة أو على الصخر تعود إلى الفترة الإسلامية الأولى، حاولت إيجادها وبحثت عنها جاهداً دون جدوى. في بدليس بقايا وآثار بديعة لبعض المساجد والحمامات والجسور التي كانت فيما مضى أمكنة وزينة ذات شان.

أقيمت بدليس في أسفل نقطة في واد عميق على أطراف غور قد حفرته روافد نهر دجلة. وعلو شأن البيوت مرهون بمدى ارتفاعها نحو الأعلى، تم بناؤها من الحجارة وزينت بنوافذ ذات أقواس وقناطر، وبعضها ما كانت الأشجار تظلله بظلالها الوارفة. في المناطق المنخفضة من البلدة تقع الأسواق لكنها لا تبهج نفس الناظر إليها من جراء قذارتها وسوء بنائها، مع ذلك كله تجدها في غاية الازدحام والاكتظاظ بالناس، كونها المركز التجاري الرئيسي في كردستان. وتتمثل الصادرات التجارية بمنتوجات الجبال من عسل وشمع وصوف وحصر ومنسوجات أخرى تتم حياكتها وصباغها داخل الخيام. في كردستان وخاصة في ضواحي بدليس وسعرد والجزيرة الأصبغة المستخدمة مشهورة بألوانها الفاقعة المستخلصة من الأعشاب الجبلية والتوت الأصفر والنيلة.

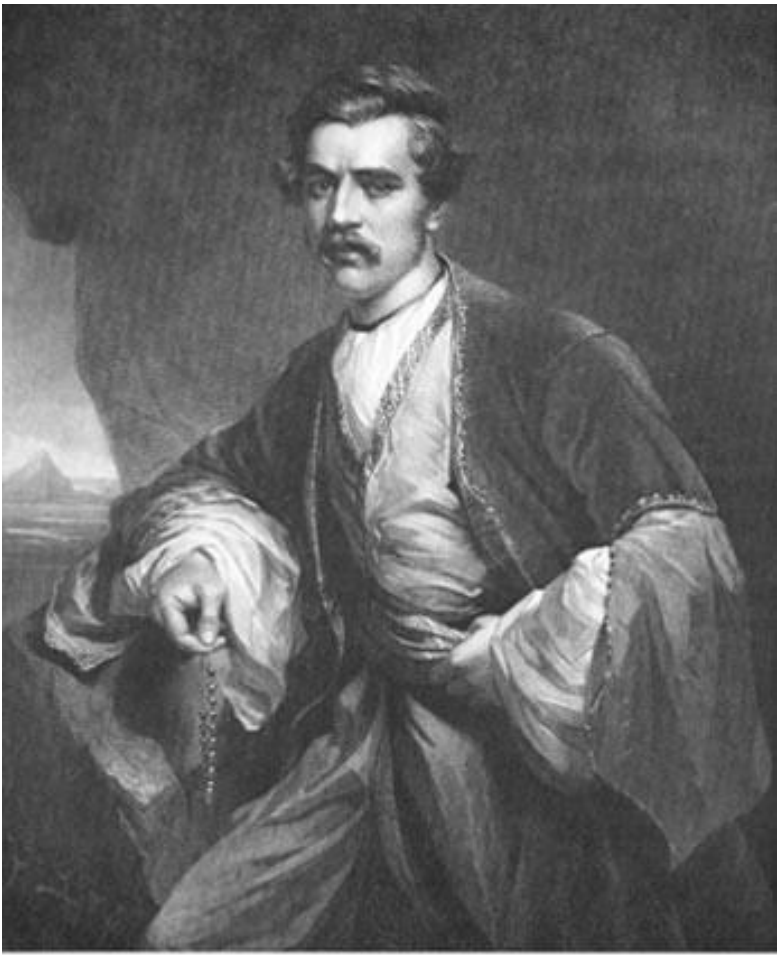

هنري لايارد ١٨٥٠م

بدليس

ثم يتحول الطريق إلى نفق يبلغ طوله عشرين قدماً على مسافة تقارب الخمسة أميال من بدليس عبر صخرة كلسية ناتئة كضلع كبير من خاصرة الجبل، وجدول المياه المعدنية الذي تسبب بهذا الركام على مر الزمن لا يزال يجري حتى الآن مشكلاً صواعد على حافتيه ومسداً للنفق بأكمله. لم يكن هنالك أية كتابة تشير إلى الحقبة التي أنشئ هذا الممر فيها أو إلى من قام بشقه في الجبل، لذلك لا بد أن يكون من شأن السلطان مراد ومن المحتمل أن يعود إلى فترة زمنية سابقة. الكثير من تلك النماذج توجد في الجبال كما أن هناك آثار لطرق مغرقة في القدم لا تزال آثارها واضحة في الوادي كانت حفرت فيما مضى في الصخر.

نصبنا خيامنا قرب بقايا أحد الخانات المهجورة عندما هبط الليل، وأكملنا رحلتنا عبر الوادي ذاته في اليوم التالي، مضينا نعبر النهر الذي كانت غزارته تزداد كلما اقتربنا من البلدة الواقعة في الأرض المنخفضة فوق جسر، وعند الظهيرة مررنا بقرية كردية كبيرة تدعى گوينا Goeena يتزعمها الشيخ قاسم المعروف بأنه أحد أولئك المتعصبين الذين يعتبرون من شياطين الأكراد، اشتهر بكرهه للإيزيديين وكان قد أغار عليهم مرات عديدة إغاراتٍ أودت بحياة كل من سقط و وقع تحت قبضته. إلا أن حملته الأخيرة لم تتكلل بالنجاح فقد سحق وارتد على أعقابه وخسر الكثير من نفوذه ورجاله. بعد الظهيرة خيمنا عند ضفة النهر قرب مضارب للأكراد توارت في الأدغال الكثيفة وغابات القصب الباسقة، وبالرغم من أن سكان تلك المضارب يشتكون الفاقة إلا أنهم كرماء، فقد رحبوا بنا وأقرونا خروفاً ولبناً وحليباً، وفي المساء جاء عدد من الخيالة إلى مضاربنا، كانوا

زعيماً كردياً شاباً برفقة أتباعه ومعهم فتاة تربطه بها علاقة حب وهذا ليس بالأمر المستهجن لدى الأكراد. حطّ أفراد الركب رحالهم عندنا، ونزلوا وشاطرونا الخبز والملح، ثم أكملوا طريقهم تجنباً لملاحقتهم. في صباح اليوم التالي بعد الفجر بدأت رحلتنا وسيرنا، مشينا مدة ساعتين على ضفاف النهر تاركين الوادي خلفنا، ثم دخلنا بلدة ذات هضاب متفاوتة الارتفاع هنا وبعد مغادرتنا لنهر بدليس الذي يلتقي مع نهر آخر على مسير ست ساعات قرب قرية تدعي كيجكي Kitchki ألا وهو نهر سعرد، يوجد أحد أكبر روافد دجلة، تلك المنطقة تزخر بالينابيع والآبار الملحية، وتجتمع مياهها في سبخات وتتبخر لتشكل كميات كبيرة من الملح الذي يجمع ويتم تصديره إلى الموصل المجاورة، كانت الدقائق معدودة في قرية Omais el - Koran -التي يتزعمها أحد الشيوخ الكثير في جبال الأكراد الذي كان يشرف بنفسه على أعمال ترميم بيته التي يقوم بها جيرانه القرويون، الذين قدموا للعمل لقاء الأجر والثواب، للزعيم قدره الكبير و يتمتع بمنصبه الديني، فالمكان الذي يقيم فيه يعتبر ذاته × زيارة " أو مقصداً للحجاج يؤمه عوام الأكراد، و عندهم يوازي زيارة مكة، ولا يأتي الحجاج دون هدايا مالية أو عينية لا تلقي بالطبع إلا القبول من الشيخ، مررنا بسهل صغير ثم صعدنا سلسلة من الهضاب المنخفضة عبر طريق منحدر وتوقفنا على القمة في قرية كردية اسمها خوخي Khokhi، كانت مليئة بالباشي بوزوق أو الجيش الشعبي. الذين كانوا يجمعون العائدات، وكنا قد سمعنا صوتاً لشجار ناشب بين الرجال حيث علت الضوضاء وأصوات النساء. وبصعوبة بالغة تمكنا من الحصول على الخبز للأكل والطعام. وكان من الواضح أن القرية تعاني من الفاقة والفقر المدقع فقد أكد لي الموظف أن المال المجموع كله لا

يتعدى السبعين قرشاً (ما يقارب الثلاثين شلنة)، فالصبر على هذي الحال كان قد تعدى حدوده. قبل التوجه نزولاً إلى البلدة الواقعة على سهل مقاطعة خرزان Kherzan. هبط ظلام الليل، و تراءت لنا قرية همكي Hamki الإيزيدية من المرتفعات لفترة من الوقت فشرعنا عائدين تجاهها ، وكان القرويون يتركون الأرض المحروثة ليقوموا بجمع معداتهم الزراعية بسبب أفول الشمس السريع، و عندما رأوا عدداً من الخيول اعتقدوا أننا من قوات الجيش الشعبي الذي يعد مبعث خوف ورعب القرى الشرقية، وما كان من قوال يوسف إلا أن حفز فرسه للتوجه إليهم مغطياً وجهه بكوفيته العربية ما عدا العينين طلباً للمؤونة والزاد والمنامة، وقام بتغيير نبرة صوته إلا أن مساكين القرية تجمعوا رافضين طلبه، والمخاوف تجتاحهم في الوقت ذاته من جراء رفضهم، استمتع قوال يوسف بتحسبهم وتوجسهم لبعض الوقت ثم ما لبث أن أزاح الغطاء عن وجهه وصرخ بهم قبحكم اللّٰه أتمنعون الخبز عن شيخكم وتطردونه جائعاً من دياركم ؟ عندها ألقوا معاولهم ومحاريثهم التي قبضوا عليها استعداداً للهجوم على قوال وأخذوا يتدافعون لتقبيل يده وهرع ولد ليخبر أهل القرية فخرجوا بنسائهم وأطفالهم وشيوخهم محتفين مرحبين بنا ، وشرعوا يتسابقون إلى خدمتنا حين بينا لهم بكلمات قليلة مكان قدومنا ووجهتنا وغايتنا ، وفي الحال بدأوا بتجريد الخيول من محمولاتها ونصبوا الخيام وأحضروا عجلاً لذبحه، جرت هذي الأمور بشكل، عمت الفرحة أرجاء المكان، وظل الإيزيديون المساكين ينظرون إلى شيخهم دون أن يشبعوا عيونهم من النظر إليه بعد إشاعات ظهرت فيما سبق من أن الوفد الذي غادر القسطنطينية طلب من السلطان أن يأمر بقتل يوسف ورفاقه، وأن العريضة التي قدمها الإيزيديون لم

ترفض فحسب، وإنما ارتدت عليهم بالتهديد والوعيد والعذاب، اختفت أخباره وبات في عداد الأموات والآن يعثرون على ضالتهم التي فقدوها منذ زمن، لذا كانت فرحتهم وسعادتهم بعودته لا تضاهى. قاموا بإعداد مكان لجلوس يوسف في صدر مجلس القرية، ليبدأ بسرد قصته كاملة بتفاصيلها وحيثياتها ببراعة لا يتمتع بها إلا الشرقيون، وكان الناس يستمعون إلى حديثه وكأنما يعيشون أحداثه ومجرياتها واقعاً حياً يجري أمامهم. لم يغفل عن ذكر أي شيء مما مر به إلا وقصه عليهم، وصوله إلى القسطنطينية، استقباله، تعريفه بالسفير، لقاؤه بوزراء الدولية، والفرمان الذي كان ينص على حماية الإيزيديين، والوعود بالسلام والاطمئنان للقبيلة، الرحيل من العاصمة، شكل المراكب التجارية، تلاطم الأمواج، ومتاعب دوار البحر، ورحلته إلى خرزان. لم ينسَ تفصيلة واحدة صغيرة، حدثهم عن كل شخص وكل حدث جرى معه بدقة متناهية، حتى أنه تذكر وذكر كم غليوناً من التبغ كان قد دخن وعدد فناجين القهوة التي ارتشفها، تمت مقاطعته لمرات عديدة بعبارات الدهشة والإعجاب والتساؤل. ثم جاء دوري لأكون محط حفاوتهم وترحيبهم عندما انتهى من حديثه. عندما كان قوال جالساً يحيط به كبار القوم يتأملون تعابير وجهه ولباسه الفضفاض، ويستمعون إلى كل كلمة وحرف يصدر عن شيخهم وكان على رؤوسهم الطير، تذكرت الكتب المقدسة وما ترويه لنا من قصص، صور، ولو تركنا أديباً أو فناناً يتجول في أي زمان أو مكان في الشرق يخالط الناس والليل كمسافر يجوب الأصقاع لكان عادياً، ولكن كدارس للرجال و الطبيعة الإنسانية فإنه حتما سيلتقي بعادات يومية لن يتمكن من فهمها، وسيكون أمام أشخاص وجهاً لوجه لم يغيروا شيئاً

من عاداتهم وسلوكهم ولغتهم ولا حتى من زيهم الذي يشير إلى العرق الأصل. خاصتهم.

لايارد في إمارة خالتا

على صوت الخيول وصياح الناس استيقظت صباحاً، قد دفع خبر وصولنا الذي ذاع في القرى المجاورة عدداً كبير من الإيزيديين إلى المجيء لاستقبالنا، قبل انبلاج الفجر قدموا من كل حدب وصوب للسلام وإلقاء التحية علينا ومرافقة قافلتنا لدعمها بالحماية، ارتدوا أجمل ما لديهم ملابس وزينوا عماماتهم بالزهور والأوراق الخضراء. × اگو (Akkoi. زعيمهم وقائد عسكري شهير في الحروب التي خاضها الإيزيديون، لا يزال يتمتع بقوته وعزمه وجرأته المعهودة رغم الشيب الذي غزا لحيته، دعانا زعيم قرية گوزلدر مع وجهاء القرية إلى الإفطار في منزله فلبينا دعوته، وانضم فريق من الخيمة والمشاة إلى مسيرتنا، ثم قام جميع القادمين بتقبيل يدي عند وصولهم واصطفت فرق الخيالة احتفاء بنا. كان گوزلدر قبل وصولنا وكان الموكب قد بلغ بضع مئات. اجتمع الرجال على مقربة من القرية وارتدت النساء والأطفال ثياب الأعياد، قدموا يحملون أغصان الأشجار لوضعها على سطوح المنازل. ثم قاموا بنحر القرابين عند وصولنا، وبذبح خروف تحت قدم فرسي كأضحية عند قدومي.

وحين بلغنا باحة دار (آكو) زغردن النساء وقمن بالهلاهل، والعشرات من رجال القرية كانوا ينتظرون قدومنا في المضيف، وظهرت عائلة الزعيم على الباب، وأصرت زوجته وأمه على مساعدتي في الترجل عن فرسي، ثم دخلنا حجرة

فسيحة منعشة بالهواء الطلق الذي يملأ أركانها، ثم بادرت والدته إلى محادثتي ومعانقتي. ترجلنا عن الأفراس ودخلنا غرفة واسعة كانت مفتوحة من جهة واحدة مفروشة بالسجاد الملون بينما الوجهاء جالسون.

جاء عدد من الفقراء (الدراويش) بعد وصولنا بقليل من القرى المجاورة يرتدون الألبسة القاتمة الخشنة والعمامات الحمراء والسوداء، أحدهم كان قد ربط عقدة حول عنقه، وفي ذلك دلالة على اعتزاله الشهوات والحياة الدنيا لديه تكون بتكريس نفسه لخدمة اللّٰه وعبادته. ثم حضر عدد من الخيالة والزعماء، لم يبدأ الاحتفال إلا بعد أن روى قوال قصته للمرة الثانية بحذافيرها، دون أن ينسى تفصيلة واحدة. تناولنا العجل المحشو وعدداً من الأطباق الشهية ومن المنتج المحلي "عنب الريان"، قدم لي المضيف سجادة مزركشة كهدية لي، وضعها تحت قدمي. ثم هممنا بالرحيل. رافقني الخيالة والفقراء والوجهاء من سكان گوادر مشياً. ثم التقينا جماعة كبيرة أخرى من الإيزيديين على مسافة قصيرة من القرية، وعدداً من اليعقوبيين الذين يرأسهم شخص اسمه نامو الذي كان يتأبط أسلحته المختلفة ويرتدي ثياباً مترفة مصنوعة من الحرير الهندي ورداء من الفرو الثمين ويمتطي فرسه العربية المزينة بذوق رفيع، حتى أن من يراه يحسبه بأنه أحد بيكوات الأكراد وليس زعيم قرية مسيحية ويتبعه أسقف وعدد من الرهبان. وبعد مسيرة استغرقت ساعتين مع خيالة يصولون ويجولون وموكب يتقدمه المشاة الذين يطلقون النار من البنادق، وصلنا في النهاية إلى قرية كوشانا الكبيرة، التي يرتدي أغلب سكانها الأبيض ويضعون الزهور والأوراق في عماماتهم، حيث جاؤوا أيضاً لاستقبالنا، وجلست النسوة على جانب الطريق لإروائنا بالماء العذب

واللبن، ووقفت أخريات مع أطفالهن على سطوح المنازل وشرعن بالتهاليل والزغاريد.

وذكر لايارد أنه في صباح اليوم التالي، استيقظت من النوم مبكراً على وقع أصوات أرجل الحيوانات، ذلك أن بعض الناس في القرية أعلموا القرى المجاورة منذ ليلة أمس بمجيء رئيس القوالين إلى القرية فقدم الكثير منهم ليلاً، وحشود من إيزيدية القرى المجاورة قدم الكثير منهم ليلاً، و أخرى جاءت صباحاً من جميع القرى المجاورة لقرية (حمكا) يرتدون الملابس الجديدة ويحملون الورود أو غصون صغيرة خضراء، يدعى رئيسهم (آكو) بالرغم من الوقار البادي على ملامحه وشعره إلا أنه يبدو شاباً مفعماً بالحيوية، وكان أهالي المنطقة قد وصفوه بأنه يتمتع بشجاعة فائقة في المعارك، وهو رئيس قرية (كوزةلدةرىَ guzelderi) و كان قد حضر مع وجهاء قريته وطلب منا قبول دعوته في استضافتنا في قريته، فلم نستطع الاعتذار ولبينا الدعوة، وفي الطريق التحق بنا الضيوف بأعداد هائلة أخذوا يتوافدون بالمئات من القرى القريبة منهم، راكبين على ظهور الخيول والآخرون قدموا سيراً على الأقدام، تم استقبالنا من قبل أهالي القرية بحفاوة وترحيب كبيرين و بأجمل الملابس وأزهاها، والكثيرون منهم بادروا إلى تقبيل يدي احتراماً وتقديراً والغصون الخضر في أيديهم، ومنهم من وقف على أسطح الدور، (قزلدر) كانت قرية إيزيدية من عشيرة (مهمدكي)، و قرى (خندوك وميلها) كانت أيضاً من قرى الإيزيدية وكان (آكؤ) يرأس العشيرة وهو من عائلة لها ذائعة الصيت في المنطقة.

في حال تعرض إيزيدية خرزا إلى المضايقات والاعتداءات يتم إما قتلهم أو يضطرون إلى هجر قراهم فيتوجهون إلى قرى (اسنج و حيدر قول) هذه القرى كانت سابقاً للمسيحيين وتقع تحت حكم وسلطة عائلة جميل بك، وكان قد تم أخذ حصة الملكية من المزارعين في القريتين في الآونة الأخيرة من قبل أولاد جميل بك وهم في سوريا و كانت قد قامت النزاعات بين الطرفين، فسكن أحفاد آكو القريتين، وانتهى النزاع إلى قتل شخصين بارزين من الإيزيدية من قبل رجال جميل بك، الأول (إبراهيم) سنة ١٩٥٠ في (بسمل) وفي سنة ١٩٦٤ قتل الثاني (أحمد افدو) في المحكمة.

زاد عدد مجموعتي بعد انضمام عدد من سكان القرية إليها، فتابعت مسيرتي إلى رضوان واعتذرت عن تلبية الكثير من الدعوات إلى السفر والموائد واكتفيت بالوقوف حينا لرد التحايا والسلام على المجتمعين، ثم التقينا بثلاثة من آل القوال على مسافة ليست ببعيدة في زيارتهم الدورية إلى منطقتهم، كانوا أقارب لقوال يوسف وأصدقاء قدامى لي، وكان برفقتهم بعض المسلمين الذين بدوا على علاقة طيبة مع أصدقائهم الإيزيديين، ومن الممكن أن يكونوا قد قدموا على خيولهم من باب الاستعراض أمامنا، بملابسهم الجميلة وخيولهم الأجمل. ثم توجهنا إلى رضوان متجاوزين ذلك الاستعراض، ليقوم احتفال آخر كبير اتضحت ملامحه وفعالياته تدريجياً مع اقترابنا من البلدة الصغيرة، كان استقبالاً حافلاً مبهجاً. في بادئ الأمر تقدم عدد من الخيالة هم من القرى ذاتها أو القرى المجاورة، ثم تبعهم عدد من الإيزيديين مشياً على الأقدام يحملون الزهور والغصون وفرقة من الموسيقيين يعزفون على الطبول والناي، ثم قدم الأرمن يترأسهم رجال الدين،

وبعدهم ظهر اليعقوبيون، بالإضافة إلى ممثلين عن طوائف مسيحية أخرى برفقة رجال الدين. ووقفت النساء والأطفال على امتداد المدخل وعلى أسطح المنازل، ثم دخلت بيت نازي Nazi الزعيم الأكبر لطائفة الإيزيديين في المقاطعة على وقع وإيقاع الأنغام والموسيقى العذبة والتهاليل، فذبحوا خروفين حين وطئت قدماي عتبة الباب.

ثم لم يلبث بيت نازي أن عجَّ بالزعماء والوجهاء من الزائرين والقادمين من أهالي رضوان، وأيضاً قام قوال يوسف لمرة أخرى بإعادة سرد كل ما حدث في القسطنطينية وما جاء من محتويات في الفرمان الإمبراطوري الذي نص على إعطاء الإيزيديين حقوق المسلمين ذاتها، وما إلى ذلك الحرية و العفو حول ما يخصُّ قوانين التجنيد المرعبة، وفي آخر الحديث حان وقت وجبة الصباح التي أقبلنا عليها كتداعي الأكلة على قصعتها، لكن منزل نازي مكتظ بشكل كبير في النهار بحيث لم يُتَح لي فيه أخذ قسط من الراحة، وبحسب قوانين الضيافة فقد اقترحوا علي أن ألوذ إلى كنيسة الأرمن للراحة والنوم، ثم دعوني لتناول وجبة العشاء مع الزعماء ولمشاهدة الاحتفالات. كان لصالحي ذلك، وكنت قد استمتعت بالراحة والهدوء للتفكر وتأمل مشهد الحفاوة البالغة التي حظيت بها في الصباح وكنت شاهد عيان عليها. قد لا تعبر الجمل والكلمات عما أثاره ذلك في داخلي، وعن الفرح الذي غمر وجوه أهالي مدينة رضوان في لحظات الاستقبال، لكنني أتذكر بسرور مدى الصدق وعفوية مشاعرهم والفرح الذي علا وجوه هؤلاء المظلومين. و علي أن أقول الآن لكل من يظن أن الشرقيين لا يخضعون إلا بالقسوة والعنف ولا يؤخذون إلا بالقسر والقهر، أنه لدي الدليل على وجوب

معاملتهم معاملة حسنة وبأسلوب لا يحط من قدرهم و كبريائهم و عزتهم التي تمثل لديهم الأولوية الكبرى. وبناء على ذلك أطالب بوضع أسس لإقامة وترسيخ علاقات وأواصر متينة تقوم على الاحترام المتبادل بين الشرق والغرب.

على سفح مرتفع تقع الكنيسة، و في أعلاه تتربع آثار قلعة كانت لشيوخ رضوان السابقين، كانت قد بنيت للمسيحيين شكل خاص المنتمين إلى الطائفة الأرمنية، من قبل ميرزا آغا الزعيم الإيزيدي الأخير الذي كان ينعم بقدر من الاستقلالية، وهذا ما يمثل صورة للتسامح والحرية التي يجب أن يحتذي بها أنصار الحضر، يمكن وصف بناء الكنيسة بأنه غريب وبدائي في شكله، تم تخصيص أحد أطباق الدار ليكون زريبة لمواشي رجال الدين، وهنالك حجرة منخفضة تجثم فوقها وتحيط بها الجدران من جهاتها الثلاث، وبعض الأقواس قد صُفّت من الجهة الرابعة، ومن الجهة المقابلة هنالك إيوان أو حجرة ضخمة ذات قبة مفتوحة من إحدى الجهات لتكون منفذاً للهواء الطلق، في وسطها يوجد صندوق مثبت على أربعة أعمدة يحتوي على صورة لمريم العذراء وعدد من صور القديسين القديمة المعروضة في أعلى الجدران، تلك هي الكنيسة، و يفصل صحن الدار بستار من قماش القطن في وسطه رسومات مطبوعة عند اشتداد حر الصيف، حين يتعذر الجلوس في الغرف المغلقة، وهنالك باب منخفض في الجهة اليسرى يؤدي إلى داخل كنيسة مظلمة بالكاد تتمكن فيها من رؤية صورة العذراء والقديسين، مصابيح الإنارة فيها بعدد القوى التي تتحارب مع الظلام، يجري القداس في الإيوان خلال فترة ما بعد الظهيرة، ويتم الركوع بلا خمار في صحن الدار، طلب رجال الدين التابعون لطوائف متعددة مني قبول زيارتهم، القسيس المنحدر عن

الروم الكاثوليك الكلدان كان أذكاهم، كان رجلاً منفتحاً ذا طبع مرح لم يتوان مع مرافقيه عن إسداء أية خدمة أو مساعدة بمقتضى وحكم الجوار، بادلته حديثاً مطولاً مع زعماء الإيزيديين فيما يخص حالة رعاياهم ومتطلباتهم، كان نازي سليل ملاك وارثين ممن سكنوا رضوان في قديم الزمان، وكان ميرزا آغا آخرهم، وهو عمه الذي كان عاش ومات كغيره من الزعماء المستقلين في تركيا، وعندما خضعت شمال كردستان لحكم رشيد باشا الشهير، رضخ ميرزا آغا للسلطان خشية تقدم الجيش، ووافق على استقبال حاكم تركي في حصنه، كان أمين آغا الشخص المنتخب لتلك المهمة، الذي اختطف زوجة الزعيم الإيزيدي بالقوة بعد فترة وجيزة في رضوان، فتوجه ميرزا آغا إلى رشيد باشا بدلاً من اللجوء إلى السلاح، وتحايل على الأمر ملتمساً ادعاءه في أن تلك المرأة مجرد جارية وليست زوجته، تحسباً من عودة أمين آغا إلى منصبه، ثم عاد التركي (أمين آغا) مع أتباعه إلا أنه لم يعد في خدمة زعيمه فوقع ضحية انتقامه، عندئذ توجه رشيد باشا إلى رضوان واضطر للمواجهة والتصدي لتمرد محمد باشا بك رواندوز فحال ذلك بينه وبين إخضاع المنطقة، بعد عودته من حملته على البيك الكردي ظافراً، أعلن ميرزا آغا ولاءه للأتراك مرة أخرى وأعيد إلى منصبه حاكماً لرعيته، وبعد وفاة رشيد باشا دعاه الحاكم التركي الجديد للقدوم إليه حيث قتل على إثر مكيدة أعدت له عند زيارته، و نبذت زوجته السابقة من الطائفة وألحقت بحريم القاتل حسب أعراف الطائفة، وعند سماعها بموت زوجها الإيزيدي ماتت و قام بعض المخلصين بإعادة رفاته إلى موطنه، والآن يرقد في تربة غرب البلدة على ضفاف النهر، ولي نازي ابن أخيه خليفة له ولكن القهر العميق أنزل به الفاقة

والفقر، وهجر القلعة التي آلت إلى الدمار والخراب، حيث يشغل مالكها مكانة لا تليق بأقل أتباعه شأني. تعتبر رضوان بلدة لاحتوائها على سوق، كما أنها المركز الرئيسي لمقاطعة كبيرة إذ يبلغ عدد مساكنها ثمانمئة كوخ رديء التشكيل، وتقع على نبع كبير متصل بفرع نهر دجلة في ديار بكر الواقع على مسافة تبعد من خمسة إلى ستة أميال جنوب منبعه، ومعظم سكانها إيزيديون، وللدقة بينهم مئة أرمني تقريباً، بالإضافة إلى أربعين أو خمسين عائلةٍ من عائلات اليعقوبيين أو الكلدانيين الذين ينصاعون لأمر محافظ أو مدير تركي، لكنه لم يكن متواجداً عند زيارتي. كانت الاحتفالات تقوم كل يوم بعد الظهيرة، حيث تدار أكواب العرق تباعاً، عدد قليل من البيوت التي لم تذبح خرافاً تيمناً بهذا اليوم. بعد العشاء بدأ جوُّ الرقص في حلبة بيت نازي واستمر إلى وقت متأخر من الليل على ضوء القمر الذي كان يسلط أنواره على ثياب الراقصين الإيزيديين البيضاء. لم يعكر صفونا إلا ما حدث عند غروب الشمس من إعصار أهوج وعاصفة يعتادها المكان و يكثر وقوعها في سهول الهلال الخصيب و عبر أودية آشور، لقد اقتلعت الخيام ومساكن أخرى ونفذت عبر السطوح إلى الأسرة والفرش التي كانت معدة لقضاء الليل على الرغم من أنها لم تستمر لأكثر من نصف ساعة، ثم مرت مرور الكرام وعاد الجو بعدها إلى أفضل مما كان عليه، أكثر صحواً وهدوءاً، وتابع الذين التجؤوا إلى داخل الجدران خوفاً من الإعصار رقصهم، في الحجرة الطويلة المفتوحة على صحن الدار لذنا إلى النوم واستيقظنا قبيل الفجر بوقت على صوت رنين الأجراس وصلوات رجال الدين، في يوم الأحد حيث تبدأ طقوس كنيسة الأرمن قبل الفجر، كنت نصف نائم حين ألقيت نظرة على الاحتفالات وارتفاع

الصلبان ورنين الأجراس التي استمرت لما يقارب الثلاث ساعات تقريباً، وكان الناس يقفون ويركعون دون خمار في صحن الدار شأنهم في ذلك شأن القداديس السابقة.

لا يزال القوالون في رضوان الآن، هؤلاء الذين يرسلهم حسين بيك في كل عام لتعليم الإيزيديين أصول الدين وجمع التبرعات التي تمثل عائدات الزعيم الأعلى، ومنها ما يعود لضريح الشيخ عدي، ولا يشترط القوال نفسه في كل سنة، فقد تم تقسيم الإيزيديين إلى أربع فرق لتأدية هذه المهمة، فئة سنجار- خرزان. مقاطعات حلب والقرى في شمال أرمينيا وداخل الحدود الروسية، ولدى الإيزيديين قوالون دائمون في منطقة الموصل. تبين لي أنه في مثل هذه المناسبات يمضي رجال الدين آخذين معهم الرمز الطاووس الشهير كضمان لنجاح مهمتهم، وفي ذلك فرصة سانحة تتيح التعرف على تلك الشخصية الغامضة، وطلبت من قوال يوسف أن يشبع فضولي، فوافق على طلبي والآخرون من القوالين المسنين أيضاً، وأخذوني في الصباح الباكر إلى حجرة مظلمة في منزل نازي، اعتدت على ظلمتها بعد مرور شيء من الوقت، وإذا بغطاء أحمر يتوجه القوالون إليه باحترام عميق وينحنون لتقبيل طرفه، كان يسفر عن عمود نحاسي أو البرونز يشبه الشمعدان يستخدمه أهل الموصل أو بغداد، و صورة بدائية لطائر صنع من المعدن نفسه كانت في أعلاه.

بدت تلك الأيقونة وكأنها رمز ديني هندي أو مكسيكي أكثر مما هي عليه كطاووس، واتضح أنه يعود إلى عصور قديمة من صناعته، لكني لم أر أي أثر لكتابة عليه، وضع أمامه كأساً من البرونز لاستقبال التبرعات وكيساً لاحتواء

الطائر ولتسهيل نقله من مكان لآخر، تألفت قاعدته من قطعتين ووضعت أمامه أربع صور للمقاطعات التي يزورها القوال، وحسبما قال الإيزيديون: لم يقع ملك طاووس واحد بيد المسلمين برغم الحروب المتلاحقة والمجازر التي تعرضوا لها و رغم قتل رجال الدين أثناء سفرهم، حتى أن قوال يوسف حين شاهد مجموعة من الخيالة البدو عن بعد عمد إلى دفن الطاووس، وكان آنذاك في مهمة في سنجار ويعبر الصحراء، وبعد أن سلبوه وتركوه وشأنه حفر في التراب ليخرجه ويعيده سالماً إلى مكانه، ولم يسمح لأحد سوى للسيد هرمزد رسام بزيارة الرمز معي، وكما أسلفت الذكر سابقاً لم يكن ينظر إلى تلك الأيقونة على اعتبارها صنماً يعبد، كانت مجرد رمز أو علم على حد وصف الشيخ ناصر من بيت حسين بيك.

بعد الفطور غادرنا رضوان، كان برفقتنا عدد من الإيزيديين الذين تعبت في إقناعهم بالعودة حتى مسافة ثلاثة أو أربعة أميال بعيداً عن البلدة، ولكن دون جدوى، لقد كبرت مجموعتي و انضم إليها كلب جميل رمادي اللون ذو شعر طويل حريري، كان هدية من اگو الزعيم الإيزيدي العجوز، الذي أكد أنه كان يحبه كحبه لابنه تماماً، شعور المحبة كان متبادلاً، فالمداعبات واللمس لم تفلح في إقناع × توار Touar « وهو اسم الكلب بترك صاحبه، جلس في الأرض تاركاً أحد الخدم يجره بحبل معترضاً على ذلك بإصدار أصوات نباح خفيف. ينحدر ذلك الكلب السلوقي من سلالة رفيعة عالية، كان يحظى بتقدير الأكراد والفرس، وبفضل شخصيته وطبعه الغريب قد حاز على إعجابنا ومحبتنا، وسرعان ما نسي صاحبه القديم وأصبح قلبه متعلقاً بالجديد، وثمة كلب آخر هو كلب الرعاة الذي لحق بقافلتنا طوال سيرها وهي تسلك الطريق كامله من طرابزون، جاءنا دون دعوة

ولربما وجد معنا الحياة التي تناسبه، كما فضل ممارسة رياضة المشي معنا معترفاً بجميل ضيافتنا، وقام برد الجميل فقابلنا بحراسة الخيول في الليل. أرسل قوال يوسف وزعماء الإيزيدية رسلاً لإيصال خبر وصولنا إلى حسين بيك، كانت تسبقنا أخبار قدومنا إلى البلدة التي سنحل فيها فيستقبلنا سكانها الاستقبال اللائق. وجدنا وجبة فطور بانتظارنا ما اضطرنا للتوقف والنزول لتناولها في كندك التي تبعد ساعتين عن رضوان، ويلتقي نهر رضوان مع فرع دجلة تحت هذا المكان في ديار بكر حيث يشكل كلاهما حوضاً واسعاً.

يتسأل الباحث عسكر بويك : لكن ماذا حدث للأمير زازا وقبيلته؟ المصدر المكتوب الذي وصل إلينا هو ذكرى عالم الآثار والدبلوماسي البريطاني أوستن هنري لايارد:

في عام ١٨٤٦، مرت رحلته كعالم مشهور عبر المناطق اليزيدية، تاركًا ذكريات مثيرة جدًا عن اليزيديين من تلك القبيلة، وأحداثهم، وموقفهم. في رضوان، واصبح ضيفاً على مضيف ابن شقيق ميرميسكي زازا واسمه نازي

نازي آخر أمير من عائلة رئيس رضوان. بداية ونهاية قصة عمه ميرزا آغا (ميسكي زازا) هي مثل قصة العديد من قادة تلك الشعوب الذين ناضلوا من أجل الاستقلال في تركيا. عندما غزا القائد العثماني الشهير رشيد باشا شمال كردستان واتجه جنوبا، اقترب أيضًا من منطقة ميرزا آغا. يستسلم ميرزا آغا للجنرال سوتان. يزيح ولي الدولة زازا أغا من قصره، ويحل محله رجل اسمه أمين آغا. لم يتم تسوية هذا الأمر في ردوان بعد، حيث يتم اختطاف زوجة رئيس الأيزيدية بالقوة. وزازا يحمل السلاح ضده، ذهب آغا إلى رشيد باشا ويقول إن

المخطوفة ليست زوجته بل خادمته. يقول رشيد باشا: أتمنى ان تثق بي ، امين آغا سيعود إلى عمله[1].

عند عودة القوات التركية إلى مكانها. يهاجمهم آغا زازا ويقتل القائد أمين آغا مع اثنين من رجاله. الأخذ بالثأر.

هاجم رشيد باشا على رضوان، لكنه لم يستطع السيطرة على المنطقة لأن قوات الدولة كانت تخوض الحرب ضد أمير رواندوز (أميرالاعور) في ذلك الوقت. عندما انتصر رشيد باشا على الشعب الكردي. ذهب السيد زازا آغا ليدخل عليه مرة أخرى. جعل ميرزا أغا مرة أخرى رئيس تلك المنطقة ".

في عام ١٨٣٧ ، توفي رشيد باشا بسبب الكوليرا. يكتب لايارد: "بعد وفاة رشيد باشا ، جاء والي جديد للمنطقة. ويطلب من زازا القدوم الى مضيفه وعند الجلوس في ضيافته يقتله بالخيانة

يأتي أهل زازا ويأخذون جثته ويدفنوه في مقبرة تقع غربي المدينة على ضفاف النهر ".

ويذكر أنه عندما مات رشيد باشا ذهب ميرزكي زا زا الى الفاتحة وعملية الدفن وبكى على قبره .

بينما يقول حمزو الخالتي بانه القي القبض عليه وسجنوه في سجن دياربكر مع حارسه من عائلة حسين كلوك من قرية كلهوك، وبعد فترة هربا من السجن والتجأ الى جبل الكنيرية لوجود قرية البيرانية في هذه المنطقة وفي البداية دخلا كهفاً في الجبل ولكن لتساقط الثلوج بغزارة لم يستطيعا الخروج وماتا في طريق

(١) Eskerê Boyî Berxwedana Êla Xalta, Mîrzikê Zazak NA: Lêkolîn/٢٠٢٢/٥٥

بالقرب من الكهف بعد غرسهما بالثلج وبعدها حملوا جنازتهما الى الرضوانية ودفن ميرزا زازا في قرية الجنيرية.

بينما يقول علي قجر بانه هرب من سجن دياربكر الى جبل البزيرية بالقرب من قرية بير الجنيرية، لا أعلم أسباب الوفاة لكن بعد وفاته حملوا بيرانية الجنيرية جثته الى الرضوانية ويقول حسب قول والدي باننا فتحنا قبر ميسكي زازا ودخلنا جثة عمي كلش في قبره.

من خلال الاقوال الثلاثة يتبين ان زازا قد سجن عام ١٨٣٧م ومات في تلك السنة. لايارد يقول تم قتله في السجن بينما الرأي الثاني انه هرب الى الجبل وهنا اعتقد بان رجال الدولة قد قتلوه ورموا بجثتهما في وادي سقط فيه الثلج بكثافة .

وبعد وفاة الأمير ميرزا زازا كانت نهاية الامارة الخالتية، والكثير من الأهالي لجأوا الى سنجار وشيخان، وفقد أبناء الامارة تاريخهم ويعيشون حاليا في المانيا.

ما كتبه لايارد حول خطف زوجة الأمير ميرزا زازا من قبل القائد العسكري التركي أمين أغا وتوسله برشيد باشا ان يبعد امين من المنطقة ويتم الاستجابة لدعوته من قبل رشيد أغا، وبعد ترحيل أمين أغا يقتله زازا لأخذ ثأره لخطفه زوجته، هذه الحادثة لا يذكرها الخالتيون ولا تأتي في القصائد والاغاني الملحمية التي تحكى عن الفرمانات في منطقة خالتا، هل لايارد صادقاً في قوله ؟ هل فعلاً سمعها عند زيارته عام ١٨٤٦م حينما كان في مضيف ابن شقيقه نازي الذي توارث حكم الامارة بعد وفاة زازا، بالتأكيد كان للاغوات أكثر من زوجة وقد تكون

احدى زوجاته قد خطفت لكسر شوكته بعدما اشتهر في المنطقة بعد معركة (ارنزا شيخان)، يتبين ان الأرمن هم من وصلوا الخبر الى لايارد لكون علاقته كانت قوية مع الأرمن وسفيراً للانكليز في الدولة العثمانية، وتكتم الأرمن عن الحادثة خوفاً على سلامة الأمير زازا ولكنهم ذكروها للايارد بعد وفاة زازا ومرور فترة على الحادثة.[١]

التوجه نحو بوتان

لم تسنح لي الفرصة بزيارة آثار حصن كيفا ومدن قديمة أخرى كانت موجودة، وما إن تركنا كوندوك Kunduk حتى التقينا بجماعة من المسيحيين يترأسهم كيايا Kiayahقرية عودةAoudi ، وهنا اضطررت مرة أخرى للتوقف لتناول وجبة الطعام سوية ثم حظيت بهدية من السجاد، لقد بلغت هدايانا ما يعادل حمولة بغل كاملة، وفي الحديث عن أهل القرية نجد أنهم يعانون الظلم والفقر حتى الآن. بعد ذلك رافقنا عدد من الخيالة إلى تلة تلتقي عندها مياه بدليس وسعرد مع فرع دجلة الغربي في مقاطعات بوطان العليا، يتساوى الاثنان في الحجم والغزارة وفي الوقت ذاته من السنة تفيض مياهما في عدة مناطق وبقاع.

وجدنا النهر الأدنى الواقع في الجهة الشرقية حين عبرناه واسعاً وسريع الجريان، دون يصل مستوى الماء إلى سرج الخيول، في مكان ما كان الماء على درجة عالية من الغزارة بحيث يمكن له جرفنا جميعا، لذلك قام سكان القرى برفع الأحمال

(١) Eskerê Boyî Berxwedana Êla Xalta, Mîrzikê Zazak NA: Lêkolîn/٢٠٢٢ | ٥٩

والإمساك بالخيل خشية الانزلاق على الحجارة الملساء، وفي النهاية تركنا الكلب الذي كان قد رافقنا من طرابزون بعد محاولات عديدة لم تتكلل بالنجاح ورأى أن رفقتنا لا تستحق المخاطرة، أما الكلب الآخر فقد توارى وكان محظوظاً إلى حد ما لكونه صادف من يحمله من الخدم.

تتمتع البقعة التي عبرناها بأهمية تاريخية كبيرة، وفيما مضى عبرها عشرة آلاف مقاتل مسحوقين مرتدين على أعقابهم وسماهم كسينوفون السنتريتس، توجهوا نحو أرمينيا بعد الحرب التي خاضها اليونان على جبال الكردوخ الوعرة، لكن عمق المياه حال دون ذلك، فقد أعجز النهر الأرمن والمقدونيين والكلدان عن عبوره، ففي وسطه ترتفع صخرة لمسافة ثلاث مئة أو أربع مئة قدم عن المجرى، وكان كسينوفون قد رأى حلماً وجد نفسه فيه مقيداً بأغلال وأن معتقليه قد عدلوا عن قرارهم، وتحقق حلمه حين وجد شابان مكاناً يسهل فيه عبور النهر فاجتازه الجند بعد خطة فطنة وضعها قوادهم. وتمكنوا من الوصول إلى الضفة الأخرى من النهر بأمان. قرية) تيلة Tilleh) تقع تحت إمرة حسن آغا، الزعيم الكردي الذي يعيش في حصن مصنوع من الطين، في زمن بدرخان بيك كان قد حظي بشيء من الاستقلالية بيك، فبدأ باستبداد وظلم الإيزيديين والمسيحيين، وللأسف فإن الأتراك تركوا من يعيث في البلاد فساداً ويبيع عائدات وأعشار المقاطعة ومنحوه لقب الحاكم. جاء يدعوني إلى قلعته أملا لقضاء الليل عنده فذهبنا، فاحتفى بنا على طريقته الخاصة و قدم لنا غليونة للتدخين وقهوة. وكان قد وقع بمواجهة قرب تلة عندما هزمت قوات السلطان مدعومة بالإيزيديين محمود خان، الذي كان ماضياً لنجدة بدرخان بيك مع قبائل وان والهكاري. قبل وصول وجهتنا غربت

الشمس، فتابعنا سيرنا على طول نهر دجلة على ضوء القمر حيث يتخذ النهر طريقه نحو آشور عبر مضيق طويل ضيق وعميق في الأراضي المنخفضة. كانت الصخور الضخمة تتخذ أشكالاً غريبة وتبرز على جانبي النهر بشكل شاقولي وتلقي ظلالها في الماء. وفي بعض الأحيان كانت تقف مانعاً تحول دون جريان النهر، و ثمة معبر هنالك لا تطيق البغال عبوره بأحمالها لشدة ضيقه، تلك النتوءات التي تبدو وكأنها تاج معماري على جانب الهضاب تشكلت بفعل عوامل الحث والتعرية التي تعرض لها هذا المكان لعصور كثيرة، وعبر النتوء الأخير الناتج عن الانحسار الأخير للمياه كان طريقنا يمتد.

الوديان الصخرية و المنطقة المنخفضة تظهر عند مدخل السهل سجلاً كاملاً لتاريخ دجلة الجيولوجي، وتتشكل ينابيع مناطق أرمينيا العليا وكردستان في فصل الشتاء بعد أن تمتلئ بالثلوج، تيارات عنيفة تبلغ في الصيف الثلاثين متراً فوق معدل النهر، حتى وصولنا جلك Chellek ا لم نمر بأية قرية، هذي القرية التي هجرها سكانها بسبب البلاق Yilaks أو مراعي الجبل، وعلى الطرف الآخر للنهر (في مقاطعة أشيتي) كانت تتألق وتبرق أنوار قناديل قرية أخرى تدعى جياك أيضاً، ولكنها تتميز عن الأخرى الواقعة على الضفة الشرقية باسم علي رمو Ali Rummo، وهو أحد زعماء الأكراد الصغار ومالك القلعة التي تم بناء بيوتها من الطين هناك، عثرنا على كردي واحد بعد البحث ترك ليحرس بقعة زراعية صغيرة يملكها المزارعون، ثم لم يلبث أن سارع للتخفي ظناً منه أننا أتراك، ثم عرض علينا الرجل مرافقتنا إلى الخيام وعاد إلينا بعد منتصف الليل بمؤن و علف للخيل، وفي الصباح الباكر تبعنا الوادي الصخري لدجلة لمدة ساعات ثلاث، وعند كل

منحني كانت تواكبنا لوحات من المناظر الطبيعية بضخامتها وجمالها ثم بدأنا بارتقاء أرض شديدة الانحدار عندما انعطف النهر نحو الشمال.

وصلنا قرية خوارة Khouara المسيحية، بعد مسير دام ساعة ونصف، فجلسنا نأخذ قسطاً من الراحة من حر النهار في ظل أشجار كثيفة وارفة، وواصلنا سيرنا بعد الظهر صعوداً مرة أخرى، اتجهنا إلى قمة الجبل حالما تركنا القرية الذي من خلاله حسب قول قوال يوسف: أصبح العالم في قبضتنا، كان هنالك عالم أكبر من أن تتسع له تلك القبضات عند وصولنا القمة، ثم وقفنا على هضبة آسيا الوسطى الكبيرة حيث تمتد أمامنا في المنطقة المنخفضة سهول الهلال الخصيب الواسعة، وكانت قد ضاقت وضاعت بسبب مسافة الأرض المتعرجة بينها وبين طوروس، و تداخل مشهد السهل مع هضاب سنجار و زاخو نظراً لارتفاع المكان فبدت وكأنها خطوط مرسومة على خارطة يتخللها نهرا دجلة والخابور في الأرض المنخفضة حتى نقطة التقائهما في دير بون على اليمين، وظهرت قمة ماردين المخروطية في الجهة المقابلة للشمس، وخلفها عدد من القمم، كانت الثلوج تكسو جبال بوطان المتعرجة، ويظهر وادي نهر ووادي رضوان العميق بين تلك الجبال وبين سلسلة طوروس الشمالية، تأملنا منظر الظلال وهي تمتد على السهول ثم تتلاشى الواحدة تلو الأخرى لتختفي حتى قرية فينيق Findik الكردية الكبيرة التي اشتهر سكانها بأنهم أكثر قبائل بوطان وحشية وعنفاً وكرهاً للمسيحيين في زمن بدرخان بيك، آثرتُ النزول ليلاً في مكان آخر، فاجتزنا الطرق الضيقة وكان الناس قد افترشوا سطوح المنازل للنوم، كنا نسير بخيولنا لمدة نصف ميل عندما سمعنا جلبة وضوضاء في القرية، ورأينا عددا من الأكراد يركضون باتجاهنا بأقصى سرعة،

تملك الخوف السيد × سيMr « ،C، عندما بدأ الشخص الأصغر بسرد قصص وروايات حول جرائم القتل والسرقة التي مارسها سكان فندق، وشعر بأن منيته قد اقتربت، فما كان منه إلا أن لقم بندقيته المزدوجة (چفت) بالطلقات تأهباً لما هو آت، ولم أتمكن ولا قوال من معرفة المصير المجهول الذي ينتظرنا، إلى أن وصل أول رجل إلينا يعدو لاهثاً فأمسك بلجام فرسي معلناً بأن الكيايه أو الزعيم لن يسمح لي بمواصلة سيري طريقي ما لم أنزل عنده ضيفاً، فلن أطأ المكان دون أن أحل عنده وأشاطره الخبز والملح و أنام تحت سقفه، يعتبر بالنسبة إليهم أمراً أكثر من إهانة, عدد آخر من الأكراد لحق بنا، وأوقف رجالهم حصاني و حلفوا أن زعيمهم رغم وعكته الصحية ومرضه سيأتي شخصياً لمرافقتي إن لم أعد أدراجي، ولهذا كان من غير الممكن بل من المستحيل أن أصر على رفضي وتمنعي بعد كل هذا الكرم الذي صدر عنهم، رفاقي المستنكرون كانوا يرون أننا نرمي بأنفسنا إلى التهلكة ولهذا عادوا إلى القرية، على الرغم من الملاريا التي أصابت رسول الكيايا إلا أنني وجدته واقفاً على بابه لاستقبالي محاطاً بمجموعة من الأصدقاء الذين بدت ملامح الخشونة على وجوههم، قام عثمان پاشا باستضافتي، وصرح لي علي پاشا عندما استقبلني بأنهم يتبركون بمشاركتي لهم موائدهم، في الوقت ذاته كانت الأضاحي تذبح والسجاد يُفرش على أسطحة المنزل، وبرغم علمه بأن يوسف رجل من الإيزيديين فقد كان استقباله له حاراً وصادقاً، الأمر الذي أوقعني في حيرة حتى جلا لي الأمر و وضح كل شيء، مفاده أنه عندما هزمت قوات محمود خان و بدرخان بيك قرب تلة، وقع فندق في قبضة رجال رضوان الذين أوشكوا أن يطيحوا به و ينفذوا فيه حكمة سريعة برميه في النهر، لولا أنقذه

صديقنا أكو الذي استضافه في منزله وأبلغه مأمنه إلى كردستان، و من باب رد الجميل منح لقب الأب للزعيم الإيزيدي وقطع على نفسه عهداً أن يستضيف كل من يمر من قريته من المسافرين ممن ينتمون إلى هذه الطائفة، كان أكراد فندق يلبسون زي بوطان بإتقان تام، وهو عبارة عن عمامة يصل قطرها إلى حوالي ثلاثة أقدام مع سروال عريض و إزار مطرز خفيف، حيث تصل أكمام القميص إلى الأرض وتكون مخططة باللون الأحمر الداكن والأسود، باستثناء البطانة الداخلية التي توضع بشكل عريض على العمامة ويكون لونها أصفر فاقعاً، التي توضع بشكل عريض على العمامة، وكانوا مدججين بالسلاح من رأسهم إلى أخمص قدميهم، كانت ملامحهم تبدو في غاية القسوة والوحشية حين اجتمعوا حول النار وعلى سطوح المنازل، أغلب الظن أن مرافقيِّ لم يعتادوا على تلك المشاهد ولربما حسبوا أنفسهم في وكر من اللصوص، والجود وكرم الضيافة الذي بدر عن الكيايا لا يمكن وصفه، فعلى الرغم من سمعتهم السيئة، قدموا الطعام الوفير ولم يتوقف البتة سكب القهوة، وقد أجابوا على تساؤلاتي واستفساراتي كلها المتعلقة بالعائدات والإدارة الداخلية وتاريخهم، ومواضيع أخرى، لم يعكر صفونا أي حادث سوء طوال سهرتنا في الليل على السطح، لنواصل سيرنا قبل بزوغ فجر اليوم التالي، شعر مستر × سيC « ، بالارتياح الشديد لأنه نجا من شبح الموت الذي كان يتوقع حلوله، اجتزنا جبلاً مزروعاً بشجر البلوط القزم عبر طريق وعر تخللته قبور منحوتة في الصخر ثم هبطنا نزولاً إلى فينيق Phoenica) (، المدينة الواقعة على نهر دجلة ويروى أنها قامت على أنقاض بلدة فينيقيا التاريخية. أخذنا قسطاً من الراحة خلال حر النهار في إحدى الحدائق الغناء التي

أحاطت بالقرية، والتي اجتمع عدد من الشابات على مدخلها ورجل كردي مسن يخبز خبزاً، في فجوة من الأرض مغطاة بالطين، فسألناه : هل من خبز عندك يا عم، فأجابنا : لا والرسول ـ زبدة ؟ ـ لا وديني ـ فاكهة ؟ ـ لا واللّٰه، وتحت الأشجار التي أثقلت أغصانها بثمار التين والزمان والإجاص والعنب، ثم سألنا بدوره : من أين أنتم ؟ ـ أمن بعيد ؟! ـ ماذا تعملون ؟ ـ ما تسوقنا إليه الأقدار! ـ وإلى أين أنتم متجهون إلى ما شاء اللّٰه. أمن الرجل واطمأن لشخصياتنا ونياتنا، مع العلم أن أجوبتنا كانت في غاية الإبهام والغموض، وتركنا دون أن ينبس ببنت شفة وسرعان ما رجع يحمل طبقة كبيرة من اللبن وسلة تحوي أجود أنواع الفاكهة، ثم أشار إلى البنات لأن يعدِدْنَ الخبز الحار بعد أن وضع تلك الطيبات أمامنا، فسارعنَ لإعداد الخبز وإخراجه من الفرن البدائي.

بعد أن تناولنا الإفطار وعدني بعض الأكراد الذين أحاطوا بنا بمرافقتي إلى الصخرة المنحوتة حسب قولهم برسوم تمثل أشخاصاً من الفرنج، سرنا مع خيلنا إلى واد عميق يتخلله نهر جارٍ غزير الماء يسقي أشجار الفاكهة وأرض البطيخ الأصفر، كانت القبور تملأ الضفتين، المنحوتة الصخرية محاطة بغرف منحوتة وتقع في مكان ما فوق الخط الزراعي، وكانت تحتوي على صورة لشخصين يلبسان السراويل والقمصان الفضفاضة، أحدهما يضع يده على كتف الآخر مع بقايا كتابة، إلا أن العوامل الجوية غيرت معالمها وملامحها وبات من الصعب نقلها بحذافيرها الدقيقة، أما زي الشخصين وشكلهما فيشير إلى أنهما يعودان إلى زمن البارثيين، الصورة شبيهة بتماثيل تعود إلى الفترة الزمنية ذاتها وتقع في الجبال، وتحتوي أغلب القبور المحيطة بتلك التي في أخلاط على أنفاق للميت،

اثنان من الجهتين وثالث من جهة المدخل، تركنا فينيق Fynyk بعد الظهيرة، برفقة قوال يوسف و السيد × س "، وبادرتُ إلى ترك القافلة للبحث ومعاينة منحوتات صخرية أخرى، في الوادي الذي يصل من جزيرة إلى درگيه Derghileh حيث تقع قلعة بدرخان بيك السابقة، المنحوتات تقع على بعد يقارب الميلين من الطريق الرئيسية بالقرب من حصن صغير بناه المير سيف الدين، والآن تحول إلى محمية للأرناؤوط، كانت هنالك لوحتان إحداهما تقف فوق الأخرى : تمثل العليا صورة محارب يمتطي فرسه وتمثل السفلية شخصاً واحداً، ونظراً لعدم وجود أية كتابة، من الممكن نسب تلك المنحوتة الصخرية إلى الحقبة الزمنية نفسها في فينيق، وإذا نظرت إلى الأسفل ستجد أخدوداً طويلاً ونفقاً قد يكون ناجماً عن حفر ممر ماء قديم استخدم لري الأراضي، ولتسجيل تاريخ إحدى اللوحات، مررنا بضابط تركي مع أحد مرؤوسيه عند عودتنا كانت وجهة طريقه إلى درگيله حيث كان علي باشا مع قوات منفصلة، وهذا ما يشير إلى التغيير الذي شمل البلد بعد الزيارة الأخيرة لي حين كان بدرخان بيك لا يزال يتمتع بالقوة والصلابة، وكانت مغامرات الأتراك تدور في ذلك الوادي الموحش، كانت القافلة تتهيأ لاستقبال الليل في منصورية الواقعة على السهول، وهي إحدى قرى النساطرة الكلدانيين القليلة التي لا يؤمن سكانها بمعتقدات الروم الكاثوليك، فيها كنيسة يشرف على أمورها رجل دين يحظى بولاء أهل القرية، بلغنا من سكانها احتجاجات على مدى الظلم الذي يتعرضون له و من أخوان لهم مسيحيين على وجه الخصوص، كانوا يؤمنون بعقيدتهم، أثار دهشتي وإعجابي جمال وذكاء هؤلاء الأطفال الذين

لم يتعدَّ عمر أحدهم الاثنتي عشرة سنة، يعمل شماسة ويقوم بقراءة الكتابات والتفسيرات بطلاقة.

التوجه نحو ديربون الايزيدية

قرب الجزيرة كانت هنالك منحوتة صخرية، في تمام الساعة الرابعة صباحاً غادرنا منصورية وعند بزوغ الفجر مررنا بجزيرة على ضفة دجلة الأخرى لاح لنا سورها و أبراجها عن بعد، بعد ذلك التقينا بعدد من الخيالة الإيزيديين الذين علموا بقدومنا من رسل حسين بيك فقدموا إلينا على حين غرة على خيولهم في الليل من ديربون لمرافقتنا، كانوا يمتطون خيولاً عربية أصيلة و وكانوا مسلحين برماح أطرافها مزينة بريش النعام، أخبرونا أن المدينة ترزح تحت سطوة أقسى الظروف بسبب ما يشنه عرب الصحراء عليها من غارات وهجمات، إلا أننا تحت حماية مجموعة كبيرة مضينا حتى وصولنا إلى سميل، الطريق الذي قررنا اجتيازه اقصر الطرق لكنه الأشد خطورة والأقل استخداماً لنصل إلى ديربون، ذلك الطريق لا يصلح لعبور القوافل إلا بعد أن تفرع الخابور والتف حول هضاب زاخو تجنباً للمنحدر، في قرية نختان التابعة للكاثوليك الكلدان توقفنا لتناول وجبة الإفطار وهي إحدى مستوطنات الطائفة نفسها الموجودة في سهل زاخو الخصيب، في ذلك الوقت من السنة يبدأ الكوجر الإيزيديون أو الكل بالنزول من مراعي الجبال وبتوزيع خيامهم المصنوعة من العشب الجاف في القرى، عبرنا الخابور الذي ينقسم إلى فروع عدة في مكان ليس ببعيد عن نقطة التقائه بنهر دجلة، حيث كان مستوى الماء فيه لا يصل إلى أعلى من بطون الخيول، وغزارته

أقل مما هي عليه في شرق دجلة، قرية ديربون الإيزيدية كبيرة و تقع على سلسلة جبال زاخو الغربية، تتدفق فيها مياه الينابيع من الصخور المحيطة وتروي سهلاً واسعاً من الأرز، وهنالك أيضاً قرية فيشخابور المسيحية الواسعة حيث يعبر مركب مائي نهر دجلة، استضافنا زعيم يزيدي نزلنا عنده وكان ممن سبق والتقينا بهم من الخيالة في جزيرة بوتان، عند المساء حيث ظهور القمر، باشرنا باستكمال مسيرنا مع مرافقينا الذين انفصلوا عنا بعد خمسة أو ستة أميال من سميل، حتى وصلنا إلى حيث نحط رحالنا ونأخذ قسطاً من الاستراحة بعد مسير شاق مضنٍ على ظهر الخيول، وكان ذلك في وقت متأخر من المساء، نحن الآن في سهول آشور حيث الماء يغلي في القدور لشدة الحر الذي تصل الصحارى درجته و ارتفاعه، ظهرت لنا من بعيد قلعة تقوم على تلة مبنية من الطين ومشيدة هي الأخرى بالطين وقعت ملامحها على مرمى أبصارنا قبل أن نقترب من المكان. إلا أنها تجلت لنا ضعفي حجمها وأكبر مما هي عليه في الواقع، بدت محاطة بالأبراج والحصون، سيطر علينا التعب والإرهاق في طريقنا نحو القلعة، كان عبدي آغا الزعيم الإيزيدي المسؤول عنها جالساً في مدخلها، وكان المدخل عبارة عن ممر ذو قبة وقاعات منخفضة من الجانبين، تنطوي على مكان تقام فيه اجتماعات العمل خلال النهار و منزلاً للضيوف القادمين في الليل، الزعيم طويل القامة ذو شخصية قوية امتاز صوته بقوة وعمق لم أجد له نظيراً، وكان وصولنا في وقت أقل مما توقعت ذلك أن الطريق المختصر الذي اتخذناه من ديربون اختصر علينا المسافة والوقت ساعات عدة، عبّر الزعيم عن اعتذاره لعدم لاستقبالنا بنفسه، إلا أنه لم يقصر في واجب الضيافة، حيث قام بذبح خروف وإعداد احتفال لذلك، في

أثناء الاجتماع أتانا من أقصى المدينة رجل لاهث بالكاد يلتقط أنفاسه، يخبرنا بأن البدو قد غزوا المقاطعة المجاورة وقرية باشاي التابعة لقبيلة عبدي آغا، فلم يكن هنالك متسع من الوقت للاستعداد للأمر، لم يكد الرسول ينهي رسالته ويجيب عن الأسئلة إلا و جُهِّزت فرس، تمتطي صهوتها امرأة خرجت من مقصورة الحريم ويتبعها عدد من الخيالة الرجال واتجه الركب نحو دجلة، لم آبه لما يحدث، كل ما فعلته أني انسللت إلى حجرة مظلمة في القلعة ولذت إليها بعد أن أنهكني المسير وركوب الخيل في الليل، بينما خرج الزعيم وراء الخيالة و لم يعد عبدي آغا في ذلك النهار، ولكن زوجته قامت بواجب الضيافة على أكمل وجه في وقت غيابه، و كان الرسل يعودون بين الحين والآخر يحملون الأخبار كعادتهم التي لا تخلو من المبالغات، الأمر الذي أثار قلق أصحاب القلعة. عند فجر اليوم التالي ظهر الزعيم حيث كنا انتهينا من الاستعداد لاستئناف رحلتنا، بعد غيابه عاد بخفي حنين وكان أصحابه قد نقلوا عنه، فحواها أنه قتل مع خمسة رجال من العرب، وأن أخاه قد أصيب بجرح عميق وأن فرداً من أفراد عائلته أيضاً قد لقي مصرعه.

المرور بقرية تللسقف وبطنايا الكلدانية

كانت نصيحة الزعيم لنا أن نسلك طريق تللسقف قبل أن يقاوم العرب ويصدوا أو ينجحوا في السيطرة على بشاي، لكنه لم يرسل مرافقين لنا لأن أي رجل سيذهب سيجد نفسه ملزماً بأن يدافع عن المقاطعة ضد البدو ما دام قادراً على حمل السلاح يجب أن يدافع الآن عن المقاطعة و مناصرة الإخوان، واستبدل

الزعيم فرسه التي أرهقها التعب ثم عاد إلى ميدان القتال، اتجهنا بخيولنا نحو الهضاب عبر طريق مرتفعة بعيداً عن المكان الذي تواجد العرب فيه، وفي طريقنا وجدنا بدوياً يتبع فارساً على بعد ثلاثة أميال، عند مشاهدته لنا رجع أدراجه ثم اختفى، كان موصلياً هارباً من السامية قد كسرت يمينه فامتنع عن الكلام من شدة الخوف، وعندما تكلم عن البدو ذكر أنهم غلبوا الإيزيديين وبدأوا ينتشرون في المنطقة، لم أقتنع بالمعلومات جميعها، أوعزت للقافلة بأخذ الأتاوات المالية، وكان قد نجا عدد من الخيالة من ناحية الشرق. لم نكن ننتظر أو نتخيل أن نرى العرب في هذا المكان، ومع ذلك استعد ركب قافلتنا للهجوم، توجهت و قوال يوسف نحوهم لملاقاتهم متجهين بدورهم نحونا ببطء، بدا منهم واحد أو اثنان حتى اقترب بعضنا من الآخر، عرف قوال يوسف تلك العلامة السوداء ومضى يرفع يديه بالتهليل، لم نلبث لحظات إلا وكنا قد أحِطنا بالرجال الذين كانوا من الأصدقاء، حضر حسين بك والشيخ ناصر والقوال وكبار شيوخ الإيزيديين وكانوا قد عانوا وتجاوزوا الصعاب و أربعين ميلاً لإغاثتنا وحمايتنا حتى الموصل، حين رأونا كانت فرحتهم العارمة لا توصف، وبالمقابل لم أتوانَ بدوري عن شكري وامتناني الكبيرين إزاء هذه المشاعر الصادقة التي بدرت منهم، وهموا لمرافقتنا حتى تللسقف إلى حيث تجاوزنا نقطة الخطر. ثم ركبوا خيولهم الرشيقة وتوجهوا إلى شيخان، تذكرت أصدقائي القدامى، حين أمضينا وقتاً منذ سنتين اليوم الأول من رحلتنا بعد تركنا للموصل في بيت توما الزعيم المسيحي لتللسقف، واليوم نحن في حضرته ومجلسه نتشارك وإياه الطعام والخبز، وبعد الظهيرة برحنا المكان واتجهنا على خيولنا إلى تللسقف، حيث تركت الطريق العليا مع هرمزد

لشرب الماء من خيمة عربية، وعند وصولنا لقينا منهم حسن الاستقبال وأحاط بنا عدد من الرجال والنساء الذين كانوا ينحنون لتقبيل ركبنا ملتمسين ذلك أسلوباً للتعبير عن تقديرهم وحفاوتهم وفرحهم بقدومنا، واستعنت بهم في البحث والتنقيب، وأخبرتهم بأننا نودُّ حفر الأحجار القديمة فنصبوا خيامهم سريعاً في الموصل وفي نمرود، ولم نلبث أن نرى فرق العمل والمشرفين قد التموا واجتمعوا على جانب الطريق، حيث كان هناك توما الين ومنصور بهنان اللذان سُعدا بلقائنا مرة أخرى وأبديا استعداد أهل القرية للعمل مجدداً. وقام السيد رسام مساعد المتصل و الخواجة توما مترجمه في القرية بتهيئة الحفل في منزل الأسقف الكلداني.

وفي اليوم التالي ركبنا خيولنا لنقضي ما تبقى لنا من أمور رحلتنا، فالتقينا عدداً من الشخصيات المألوفة، مرجان مع حاجبي القديم الذي يملك الحصان الأركيه "بلجام" الذي لم يتغير على مر السنين، لا يزال محافظاً على جمال ورشاقة الحصان المعهودة، حتى أنني التقيت بالخدم وبشيوخ الجبور والكلب الذي كان بيننا كواحد من أفراد عائلتنا، في منتصف الطريق صعوداً مررنا بالجدران والأبراج والمآذن والقبب التي كانت موزعة على ضفاف النهر المتسع، وظهر لنا الاختلاف والفرق الشاسع بين الموصل ونينوى، ولم يكن الأمر حسبما قيل لنا سابقاً من تطابقهما وتشابههما، وجدنا هضبة قويونجق (قويونجوق) على الهضاب المحيطة عندما اقتربنا من الهضاب المتماوجة، كانت بقايا لأبواب ضخمة تنفصل عن الهضاب المنخفضة الملتوية، و تظهر أعلاها القبة المخروطية لضريح النبي يونس، وبدأت أمام ناظري تتوالى المشاهد والصور التي أذكرها تباعاً وسريعاً الواحدة تلو الآخر دون تلكؤ أو تباطؤ، سرنا بين حطام المراكب الذي

شكل جسراً ويممنا بوجهنا نحو السوق الذي كان مكتظاً مزدحماً بالناس حتى وصلنا . مصابيح المنزل الذي تركته منذ سنتين على حالها، كالعادة بادر الخدم إلى أماكنهم واستأنفوا عملهم وكأنما كنا في جولة صيفية على الخيول وللتو عدنا ولم ننقطع عن المكان لفترة طويلة. كحلم عابر مرت السنتان، هنا عليَّ أن أضيف فيما يخص الطريق التي سلكها كسينوفون Xenophon والعشرة آلاف رجل عند انسحابهم، لأن الهدف الرئيسي لرحلتي هو التأكد من مطابقة أحداث السرد التاريخي فخلال حديثي كنت قد تطرقت إلى بقعة أو اثنتين جرت فيهما الأحداث الأكثر أهمية في رحلتنا و مسيرتنا، وفي بادئ الأمر علي التأكيد على مقياس الفرسنگ الذي يستخدمه هو المعادل بكل قريب للفرسخ تقريباً ويستخدم في قياس المسافات التي تقطع في فترة زمنية معينة وأنه لا يمثل القياس الأطوال، و من المعروف لدى المسافرين أن هذا المقياس يختلف تبعاً لطبيعة البلد وعرف السكان، فالأحصنة والبغال تستخدم لجر القافلة في مسافة تصل إلى حوالي أربعة أميال في سهول خراسان وأواسط فارس، بينما مناطق غرب فارس الجبلية طرقها وعرة صعبة شديدة الانحدار، وتستخدم الجمال كوسيلة نقل وبالكاد تصل المسافة إلى الثلاثة أميال في جزيرة العرب الهلال الخصيب يعادل الفرسخ الفارسي فترة الساعة بشكل تقريبي، ومن الطبيعي اعتماد كسينوفون على وحدة قياس البلد الموجود فيها، من هنا تم استخدام الفرسخ الفارسي بديلاً عن الستاديوم اليوناني، ولذلك نجد أن المسافة تبلغ بين الأريسا (نمرود) ومسبيلا (قوبونجق) ستة فراسخ تساوي عدد الساعات المعتمدة هذي الأيام من قبل السكان الحاليين والسلطات التركية كذلك، والساعات الست توازي ما يقارب

الثمانية عشر ميلاً إنكليزية، ومكان عبور اليونانيين لنهر الزاب الكبير (زاباس Zabates) لا يزال موجوداً حتى اليوم، فمن غير الممكن اعتماده في قياس المسافات بدقة، ولا سيما وأن شكل مجرى النهر ثابت لم يتغير منذ الأزل. إذ يمتد من روافد الزاب ودجلة والمسافة تقارب الخمسة وعشرين × ستاديا " أو ثلاثة أميال باتجاه كريستا، ومن خلاله تمكنوا من الوصول إلى وادي غزير أو بومادوس Bumadus، الذي حفرته المياه، وعندما تجرأ ميثريداتيس وهاجم الجيوش المنسحبة هزم شر هزيمة، وقعت تلك الواقعة على بعد ثمانية ستاديات وراء الوادي عندما نصب القائد الفارسي لهم كميناً وفشل بإيقاف اليونانيين ومنعهم من عبور النهر، وبعد مسيرة قصيرة الثلاثة فراسخ، أو لنقل ثلاث سماعات وصلوا إلى لاريسا وهي نمرود الحديثة، كانت المياه عميقة وضفاف النهر هناك حجرية لذا لم يكن بمقدور اليونانيين عبور الزاب في المنطقة التي أشرنا إليها ومن الممكن أن يكونوا قد اجتازوه عند نقطة التقاء نهر الخازر Ghazir بالوادي الذي شقته مياه الأمطار، وهذا ما ينطبق على الوادي الذي ذكره كسينوفون، ولكن أعتقد أن القائد اليوناني كان متوجساً من غزارة مياه × الخازر"، النهر ذاته الذي توجس منه وتردد ميثريداتيس في عبوره ومما لا شك فيه أن كلاً من الآريسا ومسبيلا قد ورد ذكرهما في آثار نمرود وقويونجق، إذ نجد أن وصف كسينوفون يتطابق مع الآثار والمسافات الفاصلة بينهما، سار اليونانيون أربعة فراسخ من مسبيلا Mespila، ولربما توقفوا قرب قرية بطناي بين تلكيف و تللسقف، وهو موقع قديم على بعد أربع ساعات على طريق القوافل من قويونجق، عدد من الهضاب يحيط ببطناي والتي تحتوي على آثار القرى التي تمكن اليونانيون من الحصول على كميات كبيرة من المؤن

منها، وذلك بعد أن دحرهم للفرس بقيادة تيسافرنس و أورونتاس، إذ تجنبوا الهضاب بدلاً من خوض الخابور قرب نقطة التقائه بدجلة وتمكنوا من اجتيازه من خلال ممر منحدر حتي موقع زاخو الحديثة، إلى تلك السلاسل وصلوا خلال أربعة أيام وتمكنوا من عبورها اليوم الخامس ربما اتخذوا طريق القوافل الحديث، بحسب مصدر تركي تبلغ المسافة بين بطناي وزاخو عشرين ساعة، هذا يعني أربع أو خمس ساعات او فراسخ في اليوم، ما يساوي سير يوم واحد لليونان، وهي المسافة التي عبروها بشكل عام ولربما كانوا قد تأخروا في اليوم الأخير، لما فرضته وعورة الجبال من مشقة وإنهاك، واللافت أن كسينوفون لا يذكر الخابور علماً بأنه سيكون قد عبر النهر إما عن طريق مكان يهون الخوض فيه أو عبر جسر قبل بلوغ السهل، ورغم سرعة واتساع النهر إلا أن أماكن الخوض غالباً ما تكون بشكل نسبي ساكنة الماء. حتى أنه لم يُشِرْ إلى نهر الهيزل Hazel رافد الخابور الذي اجتازه في سيره في اليوم الأول بعدما ترك زاخو، في هذه السهوات ما يشير إلى أن الوصف كان يفتقد إلى الدقة،، بعد مسيرة أربعة أيام، قطع اليونانيون في اليوم الأول منها ستين ستادياً أو حوالي سبعة أميال فوصلوا إلى أعالي جبال كردستان التي يسكنها الفرس و تلتقي عند دجلة وفيها معابر شديدة الانحدار تعترض طريق المسافرين.

عاد كسينوفون إلى الحديث عن الجيش الرئيسي الذي بقي في السهل قرب فينيق بعد أن تحدث عن انتقال الأعداء من القمة الأولى، وعن مياه النهر التي تغسل سفوح الجبال الكردية، تلك البقعة تتطابق تماماً مع وصف ومسافات كسينوفون حيث يقول : " جاء اليونانيون إلى مكان من نهر دجلة يستحيل عبوره

لعمقه واتساعه، وليس هناك من أثر لأي طريق، حيث تقع جبال الكردوخ Carduchians فوق النهر" أما نظرية عبور الجيش على جلد منفوخ تم ربطه بحيث يشكل جسراً فلا يمكن تقبلها انطلاقاً من القوة الكبيرة على طرف المعبر الآخر، ولذلك ارتد اليونانيون على أعقابهم ورجعوا إلى القرى،هنالك من أخبر كسينوفون من السجناء الفرس بوجود أربعة طرق تتفرع عن تلك البقعة، أحدها في الجنوب انسحب عبره اليونان من بابل، والثاني يقع في الشرق ويؤدي إلى سوسة Susa و إكبتانة Ecbatana عبر سهل زاخو وعمادية Amadiyah الحديثة والسليمانية وهو سفح سلسلة جبال زاغروس، وثالث يقع إلى الغرب عبر دجلة قرب جزيرة "ابن عمر" Jezireh وعبر أورفه ـ عنتاب ـ طرسوس، والجنوب من كيليلية إلى ليديا وإيونيا، ورابع يمر بجبال الكردوخ Carduchians أو كردستان، كانت القبائل التي استوطنت على أطراف الطريق الرابعة بحسب رأي كسينوفون شديدة البأس والمراس تبرع في فنون الحرب، ولم تكن على علاقات أو صلات مع أحد سوى سكان المدينة السفلى عندما كان الأمن والسلام مستتباً فيها مع حاكم السهول، وهذا ما يسير أبناؤهم حتى اليوم على نهجه، وامتازت بأنها كانت تمتلئ بالقرى وظروف العيش. يبدو أن اليونانيين قد اتبعوا الطريق التي سلكها السلطان مراد في رحلته إلى بغداد مؤخراً معززة بقوات تركية بحثاً عن بدرخان بيك، وهي في الواقع الطريق الرئيسية الطبيعية التي كانت في يوم من الأيام بين شرقي أرمينيا و آشور، و بحسب ما قاله الأسرى أن هنالك طريقين خلف جبال الكردوخ Carduchians،، ينتهيان إلى داخل أرمينيا : أحدهما يعبر المياه الرئيسية للفرع الرئيسي لدجلة والآخر يلتف حوله، تاركاً إياه إلى الغرب، وهي

طرق القوافل الحالية، إحداها تعبر سهول خرزان إلى ديار بكر بمعابر معروفة إلى خرپوگ والأخرى تعبر بدليم، و كان كسينوفون قد اختار الأخيرة، كما أن القرى والأودية والفتحات الجبلية خاصتها لا تزال موجودةً حول فندق، وكان اليونانيون قد وصلوا إلى محيط القرية في يوم سيرهم الأول عبر هضاب الكردوخ، ونزلوا على بعد عشرة فراسخ عن السهل حيث يجري الفرع الشرقي للجلة، ولكن الأمر كان شاقاً جداً، فعادة تكون الطريق السفلية في هذا الوقت من العام (منتصف الشتاء) موحلة يستعصي العبور فيها، الأمر الذي فرض على اليونانيين شق طريقهم عبر سلسلة من المعابر المستحيلة مدعومين بقبائل محاربة، وكانوا قد مشوا لأربعة أيام قبل الوصول إلى سنتريتيس Centuitis أو شرقي دجلة، نقطة تلاقي أنهر بدليس و سعرد حيث عمق الماء يصل إلى الصدور و مجرى النهر باتجاه بنليس، وكانت تلك القرى في تلك المناطق قد خلت من سكانها نظرا لغزوات الأكراد المتكررة الأمر الذي أجبر اليونانيين على العودة باتجاه الغرب للحصول على المؤن وتأمين المبيت، ولكن في ذلك الوقت من السنة لم يكن ثمة طريق إلى أرمينيا، ولا سيما وأن الجيش مثقل بالأحمال، باستثناء الطريق عبر وادي بدليس، و حالياً ثمة آثار بقايا لطريق قديمة من المحتمل أن تكون الطريق الوحيدة التي تصل غرب أرمينيا بسهول آشور، حيث قام كسينوفون بالمناورات نفسها التي قمت بها في رحلتي من القسطنطينية، ست مسيرات أو خمسة فراسخ استغرقت الوقت للوصول إلى نهر تيليبواس Teleboas، ولا أتحدث هنا أو أعني قره صو فهي تبعد مسافة أربعين إلى خمسين فرسخ، أو من ثمانية إلى عشرة أيام مشياً انطلاقاً من تلة Tilleh وعلى سبيل الافتراض أن كسينوفون كان قد اتجه إلى

الغرباء (٣٦) أظن أن تيليبو اس Telehoas هو نهر بدليس والذي يقع بعد عبور المنطقة المنخفضة من خرزان ذات السهل المتاح العبور بحسب ما وصفها التي وصفها كسينوفون، ونظراً لوجود جبال لا يمكن عبورها توقف التقدم فمن المؤكد أن يكون اليونان قد رجعوا قليلاً باتجاه الشرق للوصول إلى وادي بدليس. كانت قافلتي قد قطعت ثلاثة وثلاثين ساعة من بدليس إلى ثلة Tilleh في ذلك الحين وهذا قياساً باليونان يوازي بدقة ستة أيام سيراً، من المحتمل أنهم وصلوا إلى النهر عند أسفل موقع البلدة الحديثة التي يمكن وصفها بالخلابة من باب إنصافها، وكانت تحتوي الكثير من القرى على ضفتيها دون أدنى شك كما هو الأمر عليه الآن، وفي إمعان النظر والتدقيق نلاحظ أن كسينوفون قال : " وصلوا إلى" ولم يقل "عبروا" التيليبواس، من ذاك النهر وصلوا الفرات بعد ست مسيرات قاطعين كالعادة خمسة فراسخ في اليوم، وفي المجمل ثلاثين فرسخاً أو ساعة، و إلى الفرات من قره صو، حتى ولو افترضنا أن اليونانيين قد مضوا شرقاً باتجاه الطريق التي تنتهي إلى سهل ملازكرد Malaskert لن يكون هناك أكثر من عشرين فرسخاً، بينما الطريق الرئيسي من بدليس إلى شمالي أرمينيا يستغرق الثلاثين ساعة أو ست مسيرات إلى الفرات الذي يمر قرب قره غول، أغلب الظن أن كسينوفون بعد خروجه من وادي بدليس، ترك بحيرة وان على يمينه ورجع مغرباً دون أن يتمكن من رؤيتها بسبب سلسلة الهضاب المنخفضة علي محاذاة الطرف الغربي لسلسلة نمرود داغ، وعبر سلسلة من الهضاب الموزعة هنا وهناك، وما زالت تلك المنطقة الغنية بالمؤن تطابق وصف كسوفون، ليس بحوزتنا معلومات وافية عن وصف كسينوفون فنستبينَ الطريق التي سلكها بعد عبور الفرات بصورة

محتومة، ولكن ما هو مؤكد في الأمر أن اليونانيين بعد مسافة عشرين فرسخاً من ذلك النهر أضحوا قرب نبع ماء حار، المنطقة غنيةً بالينابيع ومع ذلك بإمكاننا من خلال الوصف والسرد تمييز ذلك النبع بدقة، و الطريق التي ما تزال القوافل تمسكها عبر سهول هنوم وحن قله Hassan - Kalah أقل وعورة صعوبة فمن وجوه الاحتمال أن يكون اليونانيون قد اتخذوا لمسيرهم تلك الطريق. وبالمطابقة مع فاسيس Phasis وهارپلوس Harpass إذا كانت المسافة تبلغ سبعين فرسخاً بين الفرات وفاس و وكانت خمسة وتسعين بين فاسيس وهارپلو، وكان هارپاسوس أسرع النهرين ؟ ليس بإمكاني الجزم بأن كانوا قد عادوا متجهين غرباً ، وفي هذا الصوب ما من أنهار تتطابق مع توصيف كسينوفون، هذا وإن اليونانيين كانوا قد جاؤوا وللمرة الأولى إلى الجبل العالي والنهر على بعد اثنين وثلاثين فرسخاً من تربيزوند، طرابزون الحالية)، فعلى اعتبار أنه لم تكن هنالك طرق أخرى بديلة وكانوا قد اتخذوا إحدى تلك الطرق الثلاثة الحديثة خط سير لهم من أرضروم إلى الشاطئ، فرؤيتهم للبحر الأسود Exine بالقرب من تربيز وند أمر مؤكد بلا شك وفي أقل من سنة أو ثمانية فراس من تلك المدينة. كاعتقاد راجح لدي، اتخاذ اليونانيين الطريق الوعر دون الفرات وإحرازهم تقدماً تنتهي معه رحلة مسيرتهم المضنية على صهوة البحر. أو أن يكون هنالك مسار في عقد القران مما زودنا به كينوفن، وأن الهاربوس در الجرون Thok والدي دراما أركيز أو الكور Kor، وأن جبل تيشت المقدس الواقع بين بارتين Bartn وتربيزوند (طرابزون) كان قد مكن اليونانيين من الوصول إلى البحر، وهذا بالمجمل ينتهي بنا إلى أن الجيش كان قد

عبر وادي الچيروق Tcherouk وقبل وصوله إلى موقع مرافئ البحر الأسود الحديثة، الموصل من جهة الشمال كان قد غادره

مخطط للغرف التي جرى التنقيب فيها في تل قويونجق

وصلنا الموصل في الصباح الباكر، وعند مغيب الشمس اتجهت ركوباً إلى قويونجق، وهنا أذكر القارئ بأنه عند عودتي لأوربا عام ١٨٤٧م، قام السيد روص باستكمال البحث والتمحيص في تلك الرابية، وأنه عثر على عددٍ من النقوش الصخرية ذات الأهمية، وكنت قد وصفت ذلك فيما سبق بأنه بناء على اكتشافاته، ولكن هذا الرجل غادر الموصل لسوء حظي، فأحيلت المهمة إلى نائب القنصل الإنكليزي السيد رسام بعد رحيله، الذي تم تكليفه بإدارة مجموعة صغيرة من الأشخاص من قبل مجلس أمناء المتحف البريطاني، مهمتهم الحفاظ على الموقع ومنع تدخل جهات أخرى دون إجراء أعمال تنقيبية على نطاق واسع، في تلك الأثناء كان توما شيشمن "البدين" لا يزال يرأس مجموعة العمال، وقام بمرافقتي في زيارتي وتجوالي الأول بين الأنقاض، إلا أن تغيراً طفيفاً طرأ على تلك الرابية الكبيرة بعد أن برحتها، أتذكر أنها كانت جرداء شاحبة صفراء التربة، كما هي عليه الآن من الحال، كانت هنالك أكوام مكدسة من التراب تدلل على حفريات سابقة، وقد طمت الأنقاض الغرف المكتشفة سابقاً وأخفت كل أثر لجدران سبق اكتشافها فيما مضى.

تخاطرني الآن صحبتي القديمة، حيث أمضينا اليوم الأول من رحلتنا بد تركنا للموصل منذ سنتين في بيت توما الزعيم المسيحي لتللسقف،ص ٣٠

ص٣٠ أدرك قوال يوسف تلك العلامة السوداء التي حفرتها المياه، وبدأ يرفع يديه بالتهليل . وعندما تجرأ ميثريداتيس وهاجم الجيوش المنسحبة هزم شرَّ هزيمة.

المصادر :

- Layard, A ،H ،(١٨٥٣)، Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon ،London:- John Murray،

- Nineveh and its remains austen henry layard London ١٨٦١ رحلة لايارد إلى آثار نينوى

ـ الآثاري البريطاني أوستن هنري لايارد، مكتشفات أطلال نينوى وبابل مع رحلات إلى أرمينيا وكردستان والصحراء ترجمة شيرين بيش مراجعة وتحرير د أحمد أبيش، هيئة "أبو ظبي" للسياحة، دار الكتاب الوطنية، ٢٠١٢

ـ زيارة لوبدل إلى دير الربان هرمز والأيزديين مفصلة في أرشيفات (ABC) ٤ و ٨ و ١٦، المجلد الأول، المادة ٨٣، رسالة لوبدل في ٢٠ كانون الأول ١٨٥٢ إلى آندرسن. وقد وردت أيضاً في مقالتيه في ١ كانون الأول ١٨٥٢ و ١٤ كانون الثاني ١٨٥٣ المنشورتين في (نيويورك ديلي تريبيون) في ٢٦ آذار ١٨٥٣، ص ٥، و ٢١ أيار ١٨٥٣،

ـ صديق الدملوجي، الإيزيدية، ط٢، ٢٠١٠،

ـ سعيد الديوجي، الإيزيدية، المجمع العلمي العراقي، ١٩٧٣

الدكتور سامي سعيد الأحمد، الإيزيدية، ١٩٧١،

ـ مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٠١ برقيات رسام من الرقم (١٤) إلى (١٧) في الفترة آب ـ تشرين الأول ١٨٥٠ إلى السفارة. ساندرزكي Reise Mosul und durch Kurdistan nach Urumia ج ٣، ص ٢٨٣. وكذلك مكتب الخارجية ١٩٥ / ٤٥٩ برقية دبليو. ر. هولمز قنصل دياربكر المرقمة (١٠) في ٥ آذار ١٨٥٧ و ١٩٥ / ٦٠٣ برقيتا مالتاس المرقمة في ٢٠ شباط ١٨٥٨م و (٣٠) في ١٧ تشرين الثاني ١٨٥٧ إلى السفارة.

- qewal yusuf und die reis emit sir austen henry layard, Êzidi press juli ٢٠١٧

- Eskerê Boyî Berxwedana Êla Xalta, Mîrzikê Zazak NA: Lêkolîn/٢٠٢٢

الكاتب والروائي الألماني (كارل ماي)

العيد الكبير للإيزيديين

ترجمة من الألمانية الى الكردية : د. سالم جاسم وحجي جعفر

ترجمة إلى العربية وتقديم: داود مراد ختاري

المقدمة

كارل فريدريش ماي بالألمانية (Karl Friedrich May): (ولد في إرنستال -١٨٤٢ ومات في رادبويل (١٩١٢ كاتب ألماني. ألف الكثير من المقالات والروايات، يعد من أكثر كتاب المغامرات غزارة في الإنتاج، وقد ظل على مدى عقود من أكثر الكتاب شعبية، اشتهر من خلال قصص الرحلات، التي غالباً ما كانت في الشرق، والولايات المتحدة والمكسيك. وقد حول الكثير من أعماله إلى أفلام، كما أعد بعضها للمسرح أو إلى مسلسلات إذاعية أو كوميدية. وقد اعتبرته اليونيسكو واحداً من الكتاب الألمان الأكثر ترجمة إلى لغات العالم.

كتب ماي أكثر من سبعين كتاباً، وتعدُّ مؤلفاته الأوسع انتشاراً لهذا النوع من الكتابة، فقد بيع منها ما يزيد عن ٢٠٠ مليون نسخة، فجنى من وراء ذلك ثروة طائلة مكنته من شراء منزل كبير في مدينة رادبويل، أطلق عليه اسم ×ڤيلا شاترهاند"، حيث تُوفّي.

ترجمت مؤلفات ماي إلى نحو ثلاثين لغة، ونُقل كثير منها إلى شاشة السينما، وهناك متحف ودار نشر باسمه في مدينة بامبرغ، كما يقام مهرجان كارل ماي سنوياً في مسقط رأسه.

لديه مجموعة من الكتابات حول طبيعة الشعب الكردي، وبما أن الإيزديين هم الجزء الأصيل من القومية الكردية فقد خصَّ الجزء الأكبر من كتابيه في البداية (عبر الصحراء durch die wuste، عبر كوردستان الوعرة durchs wide kurdistsn) للنشر بحلقات في المجلات الألمانية، ومن ثم جمع الحلقات وطبعها

سنة ١٨٨٥م، وتشكلت رواية عن الايزيديين، كانت حيثية الراوي تدور حول (حادثة أثناء العيد الكبير لهم)، صورها جلية وكأنما هي واقعة فعلاً، وقد حاول كارل ماي بيان عادات وتقاليد وشجاعة وكرم الإيزيدية، وبين حقيقة الديانة الإيزيدية وكيفية التعامل مع معتنقيها من قبل الأقوام والحكومات القريبة منهم، وكما أظن أن مثل هذه الحوادث واقعية قد مرت على الإيزديين، وأنهم قد ذاقوا العشرات من حملات الإبادة بسبب تمسكهم بها، لكن كارل ماي غير بعض الأشياء والمواقع والأسماء، على الرغم من معلوماته البسيطة عن الإيزيدية، اعتمد على ما سمعه من الرحالة الألمان والأوربيين الذين جاؤوا إلى مناطق الإيزيدية وخاصة هنري لايارد الذي كان الاعتماد الرئيسي على نتاجاته، حيث تحرُّى الدقة في البحث عن العادات والتقاليد، وماهية وكنه الديانة الإيزيدية، لأن الكثير من الكتَّاب (سامحهم اللّه) كانوا قد لفقوا العديد من المغالطات حول الديانة الإيزيدية ونسبوها إليها في حين أنه لا أساس لها من الصِّحة، لذلك فإن أكثر الكتاب حاولوا الوقوف ميدانياً على العادات والتقاليد والمراسيم والطقوس التي تجري في الأعياد والمناسبات الدينية والاجتماعية وخاصة مراسيم الأعياد التي تقام في معبد لالش، واهملوا تلك الكتب الملفقة. ويقال إن هذا الكتاب كان المصدر الرئيسي للأوربيين للتعرف على الشعب الكردي والإيزيدي، لكون مؤلفات كارل ماي كانت تقرأ على نطاق واسع في جميع الدول والمدن الأوربية.

لم يدرج كارل ماي سنة الكتابة، ولكونه عاش في فترة (١٨٤٢-١٩١٢م)، فإنه من البديهي قد مرّ أكثر من قرن على هذه الحادثة، ولخدمته الجليلة هذه في تدوين جزء من تاريخ الادب الكوردي والايزيدي، أرتأيت من الواجب الملقى على

عاتقنا أن نترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ونعمل على طبعه، وذلك لتعريف قراء العربية على المزيد منه.

ولكوني أحد أبناء هذه الديانة، لابد لي من توضيح بعض ما جاء في الرواية:

ـ أمير الحج سماه أمير شيخان، لأن أمير شيخان سابقاً كان أمير الحج [1]أيضاً كما وصفه لايارد عند زيارته لحسين بك عام ١٨٤٦م وأعطى لعلي بك صفة رئيس الإيزيدية وقائدهم، لكونه شاب في مقتبل العمر وهو ابن الأمير وحينما كتب كارل ماي روايته ما بين السنوات (١٨٧١ـ١٨٧٤م) كان عمر علي بك أكثر من خمس وعشرين سنة لأن هنري لايارد سجل يوم ولادته في ١٨٤٦م لذا أصبح مادة دسمة لكارل ماي.

ـ ولم يُعطِ صفة الرئيس الروحاني لصاحبها كما هو الآن[2]، كان الأمير الشاب (علي بك) يسأل أمير الشيخان (أمير حج) عن كل مسألة تخصُّ الدين، ولا يتدخل في الأمور الدينية، واعتبر أن أمير شيخان (أمير حج) هو الرئيس الروحاني للديانة الإيزيدية ووصفه في مرتبة (بابا شيخ) أيضاً وفي بعض الأحيان يسمى بير كمال بصفة بابا شيخ بما يمثل شيخ ناصر عند كتابات هنري لايارد. .

(١) تم تنصيب أمير حج خاص من قبل السيدة الفاضلة ميان خاتون عام ١٩٢٨م وقبلها كان أمير شيخان هو أمير الحج أيضاً .

(٢) المجلس الروحاني تأسس في ٢٨ـ٤ـ١٩٢٨ وكانت تسمى سابقاً (المحفل).

ـ كما أن الكاتب قد وقع في هفوات عديدة في شرحه لمفهوم الديانة الإيزيدية، لكني لا أعلم السبب في ذلك، منها مسألة (الديك) إذ لا صلة للإيزدية بها، وقد سمي معبد لالش بـ (وادي شيخادي)، والأهم في ذلك أنه أخطأ في موضوع هجرة الإيزيدية إلى المنطقة، لأنهم أصلاً موجودون في هذه الأرض منذ الأزل، ويقول على لسان أحد الشخصيات: إن الشيخ عادي بن مسافر (ع) هو أقدم تاريخياً من الأنبياء و هذا ما ينفيه الإيزيديون والتاريخ أيضاً، أما اغتسال الذنوب بالنار، فإنه غير وارد في الديانة الإيزيدية، وأما الآلات الموسيقية المقدسة فهي الدَّفُّ والمزمار (دفٌّ و شبَّاب) وليس المزمار والطُنبور، وعلى الرغم من أن استعمال آلة الطُنبور ظاهرة شائعة لدى المجتمع الكردي عامة، والإيزيدية خاصة، والبرَّات مقدَّسة لدى الإيزيدية تهدى تبرُّكاً ولا تُباع، وعلى الرغم من أن الحجاج يقدمون صدقاتهم ويستلمون البرَّات، لكنها ليست عملية بيع.

أتمنى من اللّٰه أن أكون قد وفقت في ترجمة هذا الكتاب، بغية أن يستفيد منه أكبر عدد من قراء اللغة العربية، انتهيت من ترجمة الرواية في ٤ـ٨ـ٢٠٠٧ وطبعتها ولنفاذ العدد في حينه، فإني أطبعها للمرة الثانية ضمن كتاب لايارد والإيزيدية .

واللّٰه ولي التوفيق.

داود مراد ختاري

٢٠ / ٠٢ / ٢٠٢٠

كارل ماي في رواية
(عبر كوردستان الوعرة)[1]
بين الحقيقة والفنتازيا[2]

يتصاعد دخان القرى ورائحة مجاري الدم المهدور في كوردستان نحو العُلا، نحن في وطن أرواح الناس، الحرية، الثروات في خطورة دائمة، السهول خلف العمادية لن تبقى تحت الاحتلال التركي، كذلك كافة المناطق الكردية وتبقى تحت احتلال الباب العالي شكلياً .

جوازاتنا لا تمنحنا الطمأنينة، لكن من السهولة أن يتعاملوا معنا كأعداء، لأننا نمتلك توجيهات تركيا وسفراءها ، يستطيع العربي أن يكون حاملاً أفكار غير سليمة حينما يستقبل ضيفاً في خيمته، لكن الكردي يختلف عنه وأفكاره سليمة .

---

(١) أود أن أنوه القراء الأعزاء لقد كتبت هذا الملحق للكتاب لان الروائي الألماني كارل مايي قد أعتمد في هذه الرواية على ما كتبه هنري اوستن لايارد عن الايزيدية .
"ملاحظة : استبدلنا أسماء الأشخاص الثلاثة في الرواية من (زلك / ملك) (ملف/ ملحم) (كمك / كمال)"

(٢) فنتازيا : هي تناول الواقع الحياتي برؤيا غير مألوفة، ما يعني أن هنالك شكاً في عالم الرواية إن كان ينتمي إلى الواقع أم يرفضه، وفي الوقت نفسه هو معالجة إبداعية خارجة عن المألوف للواقع المعاش، حيث تُعد الفانتازيا نوعاً أدبياً يعتمد على السحر وغيره من الأشياء الخارقة للطبيعة كعنصر أساسي للحبكة الروائية.

استطاع هنري لايارد أن يعرف الشعب البريطاني والأوربي بالديانة الإيزيدية من خلال كتاباته في القرن التاسع عشر الميلادي، الكاتب الالماني الكبير كارل ماي استطاع الاعتماد على معلومات كارل ماي في روايته عن الإيزيدية والكورد دون أن يعاشرهم.

هكذا بدأ كارل ماي (كارابن نمزي) قبل ١٤٠ سنة بوصف كوردستان للبريطاني ليند ساي Lindsayفي روايته عبر كوردستان الوعرة durchs wide kurdistsn .

هذا وصف واقعي ويحدث في كل المراحل التاريخية لكوردستان فهو مرتبط بوضع كوردستان.

لم يزر كوردستان ولم يرها، لكن كيف استطاع أن يصفها بما هي عليه، هل هذه فنتازيا أم حقيقة؟ ما مصدر هذه الحقيقة أو الفنتازيا ؟

ولادته:

ولد كارل ماي يوم ١٨٤٢.٢.٢٥م في نيرنست من عائلة فقيرة، توفي تسعة من أشقائه ومن شقيقاته من أسرة مؤلفة من ثلاثة عشر فرداً.

كان أعمى البصر في بادئ حياته، ومع دأب وإصرار أمه على معالجته لم تنفك عن مراجعة الأطباء و الأدوية باستمرار حتى استطاع أن يرى النور في الخامسة من عمره، كانت جدته ترعاه وتسرد له القصص والأساطير باستمرار واستطاع أن يستفيد من ذلك ويكتب فيما بعد قصصه ورواياته وأفكاره الفنتازية.

دخل المدرسة في الخامسة من عمره و بعد الدوام كان يعمل في مقهى ويزاول لعبة (كيلي) فيه، وكان يستمع إلى القصص والحكايات ويقرأ الكتب بكثرة، ولاتصافه بالذكاء تم قبوله في مدرسة المعلمين في فالدينبورك ١٨٥٦-١٨٦٠م ، وفيما بعد تم فصله لسرقته بعض الشموع من المدرسة، وأكمل دراسته سنة ١٨٦١ في مدينة بلاون .

أصبح معلماً في التاسعة عشر من عمره في مدرسة كلاوخاو، لكنه ترك العمل بعد أربعة عشر يوماً نتيجة علاقته مع زوجة مالك الدار، ثم عين في مدرسة معمل في التجمنيش، سجن ستة أسابيع لسرقته ساعة زميله وبذلك فقد وظيفته التعليمية .

قضى حياته في مهنة التدريس الخاص وأجور العمل اليومي والحيل أيضاً فدخل السجن أيضاً لمدة أربع سنوات وشهر، إلا أنه اعتقد أنه عوقب بالسجن دون ذنب، وأنها كانت مكيدة من الناس الذين حوله، لذلك أراد الانتقام فدخل السجن في آب سنة ١٨٦٩م، ثم هرب من السجن والتجأ إلى الغابات وألقي القبض عليه في كانون الأول من تلك السنة، وقضى أربع سنوات أخرى في السجن من سنة ١٨٧٠-١٨٧٤م في مدينة فالدهايم،

في السجن استطاع أن يجمع مجموعة من الكتب حول الملل والجغرافيا، ويقول: إن تلك السنوات الأربع في السجن كانت بمثابة دخولي إلى الجامعة لأني استفدت من قراءة الكتب وكان لي مجال الكتابة .

وفي سنة ١٨٧٩م سجن لمدة ثلاثة أسابيع لانتحاله صفة طبيب ومعالجته المرضى .

وضع كوردستان في مرحلة حياة كارل ماي:

تاريخ كوردستان منذ القدم وخاصة في القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الثانية.

لم يكن من السهولة على الرحالة الأوربيين زيارة مناطق الشرق الأوسط بشكل عام وكوردستان بشكل خاص و الخوض في العديد من المناطق والقرى للإطلاع على حياتهم الخاصة بشكل دقيق، على سبيل المثال فقدان مجموعة (كروب) من الرحالة الدنماركيين في الصحراء العربية وكذلك مقتل البروفيسور الألماني (شؤلز) في منطقة هكاريا سنة ١٨٢٩م .

وصف الطبيب الهولندي (أولفرت دابَر) كوردستان سنة ١٨٦١ م في صفحتين دون أن يرى كوردستان ككارل ماي .

في سنة ١٨٦٢م زار الشرق الأوسط مجموعة من سبعة أشخاص من أكاديمي الدنمارك، وبعد أربع سنوات لم يعد أحد منهم باستثناء الجغرافي (كارستن نيبوهر)، الذي وصف الوضع في الإمبراطورية العثمانية قائلاً: أبناء كوردستان لا يصغون إلى السلطات وإنما إلى رؤساء عشائرهم .

وكذلك وصف العالم الألماني (بروكهاوس) كوردستان في قاموسه الكبير (الكورد أكثرهم رحالة ومحاربون ويمتهنون مهنة رعي الأغنام والابقار، لا يستطيع الباب العالي للإمبراطورية العثمانية والدولة الفارسية أن يسيطر عليهم).

وكان كارل ماي قد قرأ هذه التوصيفات جميعها لكوردستان وأثرت على فنتازيته، وعلى جميع كتاب تلك الفترة، ويمكننا ملاحظتها من قراءة روايته (عبر كوردستان الوعرة)، لم تحدث حادثة قتل أو معركة معينة : "كانت أمنية العديد من العلماء والباحثين أن يكونوا هنا في مكاني إلى هذه اللحظة كان اللّٰه معي وحفظني من كل سوء، لقد فقد العديد من الباحثين أرواحهم ومنهم خمسة باحثين، وتمت استضافتي من قبل الأهالي برحابة صدر، كانت نتيجة قراءتي لبعض الكتب للرحالة عن بعض الأوطان والملل وعلمت بعض القضايا غير المحبذة عنهم ومع ذلك قرأت عن بعض الشعوب والعشائر وكانت عاداتهم وحياتهم بالرفاه والسلام لذا كتبت عنهم".

كان كارل ماي يمتلك المعلومات عن النظام العثماني، ويذكر في روايته أنه حصل على إجازتين من السلطان العثماني، وبذلك استطاع أن يزور العديد من المناطق دون أن تعترضه السلطات الرسمية في تلك المناطق .

تأثير هنري لايارد على روايات كارل ماي :

بلا شك كان كارل ماي يقرأ كثيراً عندما كان في السجن وخاصة ما كتبه عالم الآثار الإنكليزي هنري أوستن لايارد، كل ما كتبه لايارد كان خميرة لينتج بها كارل ماي روايتين هما (عبر الصحراء، عبر كوردستان الوعرة).

لقد استفاد كارل ماي من كتابات لايارد في وصف الأشخاص والمناطق والمناظر ومن بعض الأحداث كإبادة الإيزيدية من قبل (محمد باشا) في سنجار، العيد الكبير للإيزيدية، قتل ونهب المسيحيين الآشوريين من قبل (الأمير بدرخان

بك)، وكتب بشكل تفصيلي عن القتال بين القوات العثمانية والكورد الإيزيدية وكذلك عن السلام بين الكورد والمسيحيين، كان الهدف من قصته بعيدا عما كتبه لايارد في قصصه، مثلما كانت كل الأسماء من تخيلاته.

في الأربعينيات من القرن التاسع عشر كان لايارد كرحال في الشرق الأوسط وهدفه الأساسي البحث عن الآثار الآشورية والتنقيب عنها في بابل ونينوى، واستطاع من خلال عمله الوصول إلى العشائر الكردية والعربية والتعرف عليهم، في سنة ١٨٤٩م كان عمله في كتابه (نينوى وبقاياها الأثرية) طبع في لندن، وخلال فترة قصيرة تم طبعه لثلاث مرات وقد ترجمه الدكتور مايسنَر إلى الألمانية عام ١٨٥٠م في مدينة لايبزيك تحت عنوان (نينوى وآثارها) مع تقرير عن زيارة المسيحيين الآشوريين في كوردستان والإيزيدية.

قرأ كارل ماي هذا الكتاب في سنة ١٨٧٠- ١٨٧١م في السجن، وأصبح المصدر الرئيسي لروايته (عبر كوردستان الوعرة) بل أصبح مصدراً رئيسياً لكتاباته عن الجغرافية والمواقع فيما بعد .

زار لايارد سنة ١٨٤٥م كوردستان وشاهد بنفسه المراسيم الدينية الإيزيدية والآشورية وكذلك إبادة الإيزيدية في سنجار من قبل محمد باشا، لقد ذكر في العديد من الصفحات قتل المسيحيين الآشوريين (التيارية) من قبل بدرخان بك البوتاني ونور اللّٰه الهكاري وعبدالصمد البرواري .

كان أكثر الناس العاملين مع لايارد هم التيارية، كانوا يحدثونه عن الطبيعة الخلابة والطقس المعتدل لكوردستان في فصل الصيف، لذا قرر لايارد التوجه إلى مناطق التيارية في جبال كوردستان في صيف ١٨٤٥م.

يتهم الدكتور عبدالرحمن المزوري في (افتراءات لايارد، منشورات مجلة هافيبون للدراسات الكردية عدد ٨ برلين ٢٠٠٠) بالجاسوسية، ويذكر ان لايارد خرج من الموصل إلى العمادية يوم ١٨٤٥-٨-٢٨م بمعية هرمز رسام الآشوري، وإبراهيم آغا، واثنين من عساكر الأرناؤوط كانا معه، أحدهم سائس حصانه، والاخريوناني تياري.

يحمل لايارد رسالتين من والي الموصل الأولى إلى مأمور شرطة العمادية والثانية إلى عبدالصمد البرواري كي يتعاونا معه، استخدم كارل ماي البطاقة الجغرافية للايارد في روايته و كان يمر من خلال المدينتين اللتين عبرهما لايارد ويصف تلك المناطق كما وصفها لايارد.

زار لايارد شيخان ومعبد لالش ومن ثم (كلينية، بيبؤزي، سبينداري، عمادية، مكلانا، حاجيس، مايى، بيدوهي وفيها جسر كبير لعبور المشاة، آشيتي، زاويتة، منيانش، ميركي) ومن خلال جسر ليزان عبر إلى رائولا، كسىَ، بيريج، بازي، كوندك، مارت دوكاسرا، لاكيبا، ومن ثم عاد من خلال طريق ورميل، كوريم، مانكيش، دهوك، مالتا.

بعد عودته إلى الموصل بعدة أيام تلقى دعوة من بابا شيخ ناصر للحضور إلى مراسيم العيد في معبد لالش وتوجه إلى المعبد.

كارل ماي وكوردستان الوعرة:

هذه الرواية السادسة التي كتبت عن الشرق الأوسط ـ آسيا الصغرى، لكنها أكثر رواية قراءة لدى الألمان، تم طبع ثمانين مليون نسخة من رواياته، ومنها عشرة

ملايين نسخة عن كوردستان الوعرة، ويقول جوتيار بامرني : هذه أكبر رواية بهذا الحجم عن الكورد وتطبع بهذه الأعداد، وتم التعرف على الكورد وكوردستان من قبل عشرة ملايين ألماني من خلال قراءة هذه الرواية، ثم أصبحت فلماً و بالعنوان نفسه .

يقول المؤرخ الألماني هانس هاوزر : أظن أن هذه الرواية قد تمت قراءتها من قبل ثمانين مليون ألماني منذ صدورها عام ١٨٨١م وإلى الآن ..

الروايتان (عبر الصحراء وعبر كوردسان الوعرة) من الروايات الناجحة، فيهما وصف دقيق وجذاب لجغرافية كوردستان، الفلكلور، السياسة وتاريخها، إلى حد يرى القارئ مجرياتها كأنما يشاهدها بنفسه فعلياً ؟ ويصل إلى قناعة تامة بأن كارل ماي كان قد شاهد الأحداث وعاصرها ونقلها.

حينما نشر حلقات من قصص رواياته في المجلات في بداية العقد السبعينيات من القرن التاسع عشر، في بعض الأحيان لم يكن يستطيع أن ينشر الحلقة في موعدها المحدد لسبب ما، وكان ذلك يثير ذلك غضب القراء فيراسلون المجلة للاستفسار عن سبب عدم نشر الحلقة، فتكتب لهم المجلة أن كارل ماي غير متواجد في ألمانيا وهو في زيارة إلى بعض البلدان، ويبدو أنه قد تعرض إلى مشاكل ومعوقات حالت دون وصول حلقات رحلته إلينا في الوقت المحدد لإصدار مجلتنا، أو تكتب نحن أيضاً لا نعلم ما سبب عدم إيصال الحلقة إلينا ويبدو أن الأوراق المرسلة قد فقدت في البريد.

استطاع كارل ماي أن يجذب القارئ إلى قراءة الرواية ومتابعة الحلقات الواحدة تلو الأخرى، ويذكر صاحب دار النشر والتوزيع (فيهزنفليد) الذي استطاع

أن يجمع جميع حلقات رواياته من المجلات وطبعها في نظام كتب : بدأت بالقراءة ولم أستطع أن أترك الحلقات ونسيت عملي وطعامي وشرابي .

يعتقد (هاوزَر) أن كارل ماي قد كتب رواية عبر كوردستان الوعرة بشكل واقعي أفضل من بقية الروايات الأخرى، قبل ذلك لم يكن الألمان على اطلاع على واقع الشعب الكردي وجغرافيتهم .

ويقول البروفيسور الأنتربولكي (أيكون فرايهير فون ايكستيت) عن كارل ماي : إنه لم يزُرْ كوردستان في حياته، لكنه يصفها بأدق مما فعل الذين زاروها والذين يعيشون فيها .

كاندولف : على الرغم من أن كارل ماي لم يرَ كوردستان لكنه وصف الأحداث من مخيلته، كتب عن طبيعية الجبال والعيش هناك بشكل واقعي وأعطي صورة واقعية للقارئ بأن هذه الأوصاف هي حقيقة كوردستان وأن كارل ماي بالفعل قد زارها .

كلاوس روكسين : استطاع كارل ماي أن يجذب القارئ الألماني إلى يومنا هذا إلى قضية شعب كوردستان ومصيرهم وكذلك الإيزيدية والكلدان، وكذلك تقيم الرواية من الناحية العلمية آيتنولوكي .

الدكتور كاميران بدرخان : أعتقد أن كارل ماي قد استطاع أن ينشر اسم كوردستان ويصف مواقعها من خلال روايته (عبر كوردستان الوعرة) .

استخلص (هاوزر) النتائج : نستطيع اليوم أن نبين أن شخصين قد قرَّبا كوردستان إلى الشعب الأوربي، عالم الآثار لايارد كشاهد للأحداث والكاتب الشاب كارل ماي كناشر .

الجدير بالذكر أن الروايات الستة لكارل ماي عن الشرق الأوسط تأثر بها العديد من الأوربيين وأصبحوا مستشرقين أمثال، المستشرق البروفيسور روبرت بلايشتاينر فيقول : أعرف الكثير من العلماء ممن أصبحوا مستشرقين مثلي وآنتولوكر .

(هانس هاوزر) من خلال قراءته لرواية عبر كوردستان الوعرة زار كوردستان وكتب كتاباً عن كوردستان سياسياً وتاريخياً .

الصحفية الألمانية (هيلا شلومبيركر) زارت كوردستان لمرات عديدة، وكتبت كتاباً تحت عنوان (عبر كوردستان الحرة) متأثرة بعنوان رواية كارل ماي .

كارل ماي في رواياته عن الشرق الأوسط، وزع أقليات الإمبراطورية العثمانية بين الإيجابية والسلبية، الإحسان والقبح، وبشكل عام وصف الكورد بالإحسان، وكذلك أحب الهنود الحمر في أمريكا .

شخصية العجوز الكردية (مارينا) قد وصفها بـ (والدتي الحسناء) وهنا يرى كارل ماي في الكردي الإنسانية والحنان، بخلاف أقوام الترك والأرناووط والأرمن. استطاع كارل ماي أن يصف الإيزيدية والمسيحيين التيارية بالشعوب المحبوبة والإحسان في التعامل وكان يمتلك المعلومات الكافية عنهم لقد تعرضوا إلى العديد من حملات الإبادة .

رواية كارل ماي (عبر كوردستان الوعرة) التي تحتوي على ٤٠٠ صفحة موزعة على ثلاثة نصوص :

معبد لالش وتعاون الإيزيدية ضد العثمانيين.

العمادية وتحرير آماد الغندور من السجن.

عند البروارية والمسيحيين الآشوريين.

في البداية سنتطرق إلى ما كتبه عن الإيزيدية بشكل مختصر وفق النصوص المكتوبة.

عند عودتنا من زيارة أكراد العمادية ووصولنا إلى قمة مرتفعة أصبحنا نشرف على وادي معبد لالش، شاهدنا كومة حطب كبيرة عند دار الأمير، وكان البعض من الإيزيدية يزيدون الكمية، وحضر بير كمال أيضاً وكان يضع بعض سيقان الأشجار على الكومة.

هكذا كتب كارابن نمزي بشكل مفصل ومريح وبذكاء بسرد روايته، وبين للقارئ أنه على معرفة مسبقة مع بير كمال، علي بك، وأمير شيخان وهو صديق الإيزيدية.

يسأل نمزي، علي بك هل ستقام مراسيم عيد التضحية في معبد لالش ؟

- ماذا ستقدم من ضحية ؟
- لا أعلم.

من الممكن حيوان.

قال كارابن نمزي:

لم يقل لي بير كمال، ماذا سيحرق، لكونه رجل مقدس قد لا يقدم على ذنب ما .

قال كارابن نمزي:

لقد ازدحم المعبد بالزوار، قال علي بك .

حينما كان لايارد في ضيافة حسين بك في باعذرة عام ١٨٤٦م ولدت زوجته طفلاً، طلب منه أن يسمي هذا الطفل، كان ذلك مصدر سرور للايارد وسماه (علي بك)، بعد هذا الحدث بـ (٢٦) سنة في سنة ١٨٧١م استعار كارل ماي هذا الاسم من لايارد ليكون بطلاً لروايته .

ذكر لايارد عن حسين بك : البك كان في الثامنة عشر من العمر وهو أجمل شاب رأيته في حياتي، لذا استعمل كارل ماي نفس الصفة لابنه علي بك .

جلس كارابن نمزي مع أمير شيخان وعلي بك، ويأمر الأمير علي بك بأن يعلم رؤساء العشائر كافة بخطة متصرف الموصل، فهو يود أن يقود هجوماً على الإيزيدية ومعبد لالش .

يقول كارابن نمزي :

على اختلاف من مقاتلي الشرق، انتظم مقاتلو العشائر الإيزيدية بشكل منسق كمظاهرة عسكرية أوربية منتظمة، يستلم رؤساء العشائر الأوامر من علي بك وهم بدورهم يبلغون مقاتليهم ومن ثم تفرقوا.

ثم يأتي بوزيك إيفرا حارس كارابن نمزي خائفاً ويقول له : الإيزيدية ينظرون لي كعدو لهم فأخاف على حياتي.

كارابن نمزي : أنا على علم بحال الإيزيدية، لكونه كان بالملابس العسكرية، والترك يجحفون بحقهم، لذلك ينظرون إلى بوزك أمين نظرة غضب.

يقول كارابن نمزي مازحاً : في حال قتلت على يدهم من سيخدم ذيل حماري ؟

ثم يأتي حجي خلف عمر إلى كارابن نمزي ويؤكد على حتمية المعركة .

- المعركة بين من ؟

- بين العثمانيين والإيزيدية.

- نعم وهي الحقيقة يا خلف، عند طلوع الشمس، ستبدأ القوات التركية من باعذرة وكلينية[1] بالهجوم على الإيزيدية .

- ما عدد الترك؟

- ألف وخمسمائة.

- سيقتل منهم الكثير لأن خطتهم باتت مكشوفة للعيان .

- من ستساعد ؟

- الإيزيدية.

- هؤلاء كانوا يدعون بدخولك الجنة

- ياسيدي، لم أكن أعرفهم، لكني الآن أودهم .

كارابن نمزي، خلف وبوزوك أمين يذهبان إلى شيخ محمد أمين شيخ الحديدية، بالقرب من معبد لالش، وهو قد هيأ نفسه ليساعد الإيزيدية ضد العثمانيين ويقول (نحن في انتظارهم).

يبين كارل ماي على الرغم من أن الإيزيدية ليسوا مسلمين، لكن العرب المسلمين متعاونون مع الإيزيدية ضد العثمانيين لأنهم أيضاً مضطهدون من قبل العثمانيين كما يضطهدون الكورد الإيزيدية .

---

(١) . كلينية : قرية تقع ضمن حدود ناحية اتروش / محافظة دهوك تقطنها عشيرة المزوري، تبعد عن مصيف بلكيف (وادي القيامة) حوالي (٢) كيلو متر ، وتقع في وادي .قديما كان هناك طريق للمزارعين يبدأ من باعذرة مروراً بقرية ديّركىّ مرورا ب قرية مام ئيّزدين وبريفكا ألى أن يصل قرية بئدول ومن ثم قرية هه سنه كا ألى أن يصل كه لينيه وكان طريق جبلي وعر يستخدم لاغراض الزراعة والمواشي .

وكان محمد أمين على وعده بالقتال مع الإيزيدية وسيكون في الخطوط الأمامية لمقاتلة الترك العثمانيين، لكن كارابن نمزي يحذره ويقول له :

في حال أدراك الترك مشاركتك في القتال ضدهم، سيبقى ابنك آماد في سجن العمادية لحين الممات.

يقول شيخ محمد أمين :

- يا أفندي، هل تعرفني بأني شخص جبان ؟
- لا أعرفك شخصاً بطلاً ومحارباً جيداً.
- ماذا سيقول علي بك ؟
- الأمير وعلي بك والشيوخ يفكرون مثلي.
- وبقية الإيزيدية ؟
- لهم معرفة مسبقة باسمك، ولأنك لا تهرب أمام الأعداء، اطمأن لذلك .

- جاء علي بك إلى كارابن نمزي ورفاقه وقال: ستكون هناك مراسيم دينية واحتفالات في معبد لالش، لحدِّ الآن لم يشاركنا الغرباء، لكن أمير شيخان قد خولني لأن أقدم لكم دعوة المشاركة .

قال كارابن نمزي، لي شرف كبير بالمشاركة، لكن شيخ محمد أمين قال :

- سيدي، أقدم لكم جزيل الشكر، إنها محرمة على المسلمين، هناك مكان آخر لعباد اللّه .

- لم يلقَ كلام شيخ أمين استحساناً لدى كارابن نمزي: كان بإمكان شيخ أمين أن يرد بخصوص الدعوة بتعبير آخر .

- يقول كارابن نمزي : حينما خرجنا من الدار، كان هناك منظر خلاب وغريب، قناديل النار في كافة أنحاء الوادي، تحت الأشجار وفوق الأشجار، فوق براكين المياه، فوق وتحت الصخور، بجانب الدور، فوق أسطح المعابد، لكن أكثر الناس فوق المعبد المقدس، أوقد الأمير مجموعة من القناديل وخرج إلى باحة المعبد، بعدها أوقد الشيوخ والقوالين قناديلهم، والفقراء أشعلوا النار لهم، خرج الجميع وكانوا بالآلاف من البشر كي يطهروا أنفسهم بالنار .

يكتب كارل ماي بشكل مطول عن صفات الإيزيدية، كيف اصطف الشيوخ والقوالون وجلسوا واحداً بعد الآخر، عزفَ القوالون على آلاتهم الموسيقية، ألقى الأمير كلمة قصيرة واصفاً الخير والشر، وبعد الانتهاء من العزف قبَّل القوالين آلاتهم الموسيقية، جاء الشيوخ وقدموا هديتهم سبعة عيارات نارية إلى كارابن نمزي و علي بك، كتب على أربعة منها اسم الشمس، بعدها ذهب كارابن نمزي مع حجي خلف عمر إلى المرتفعات المطلة على باعذرة وعلى معبد لالش، كي يشاهدوا النار المضيئة من هناك في وادي لالش (وادي شيخادي). تأثر كارابن نمزي بمنظر الليل والنار وقال:

- أستطيع أن أقف ساعات وأتابع هذه المناظر الخلابة .
- بعدها قال: سألني شخص باللغة الكردية وكان يقف بجانبي.
- ما هذه النجمة؟ قالها شخص إيزيدي.
- أين ؟ سأله شخص آخر.
- انظر إلى طريق القديسين من الجهة اليمنى .
- إني أراها.

- خرجت من تحتها نجمة لامعة، ها أتراها مرة أخرى؟

- لقد رأيتها (كإلى بىَ سه ري- هكذا كتبها كارل ماي بالكردي).

- كإلى بىَ سه ري- إنه يمتلك أربعة نجوم وهذه هي - كومكى سيويان - هكذا كتبها كارل ماي بالكردي).

يشاهد كارابن نمزي هذه النجوم ولكن اتضح فيما بعد أنها ليست نجوم بل قناديل مضيئة في أيادي أشخاص في قمة الجبل كي تضيء دروبهم، يذهبون في كل الاتجاهات ويتيهون، ينقل هذا الحدث إلى علي بك، ويتابعونه داخل الغابة، وتبين أنهم جنود عثمانيين جاؤوا مختبئين مع مدافعهم إلى الجبل المطل على معبد لالش، هكذا كشف عن خطة والي الموصل، لأنه أراد أن يهجم بقوة من (١٥٠٠) مقاتل معهم المدافع للهجوم على باعذرة ومعبد لالش. قبل الفجر انسحب علي بك مع رجاله من الوادي إلى قمم الجبال كي يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم، بقي هناك كارابن نمزي وبير كمال، قال علي بك لكارابن نمزي :

- في حال تم الاعتداء عليك من قبل الترك، سأقتل جميع هذه القوة المؤلفة من (١٥٠٠) مقاتل .

- وصف كارابن نمزي بير كمال : (شخص طويل بالملابس البيضاء، لحية طويلة بيضاء وفي شعر وقار رأسه ويتمدد على الأكتاف) .

- حاول كارابن نمزي أن يخرج بير كمال من الوادي فلا يقع بيد الأتراك ويُقتل، لكن البير يرفض الخروج من المعبد، فبادره بالسؤال :

- ألم تقل لي سأتحدث لك عن كتابي الذي أهداني إياه علي بك ؟

- هل باستطاعة الكتاب أن يمنحك السعادة والطمأنينة ويوفر لك السلاح ؟

- نعم بلا شك.

- يا أفندي، أنا شخص فقير لا أمتلك إلا ثلاثة أشياء (روحي، ملابسي، الكتاب الذي تتحدث عنه) سوف أمنح روحي إلى الرَّب الرَّحمن القهَّار .

الرواية

رأيت ثلاثة أشخاص في الصحراء، مدفونين في التراب حد العنق عند عرب (أبو أحمد) قرب نهر دجلة، في بيجي منهكين حد الموت من الجوع والعطش، عندما سألتهم لم لا يستطيعون التحدث، قال أحدهم : يا آدي، اندهشت، وسألت نفسي، آدي ؟ أليس هو الذي يقدسه الإيزيدية ؟.

ـ من أتى بكم إلى هنا ؟ (لم يستطع أحد منهم التحدث) ناديت زملائي وتم إخراجهم من التراب وهيأتهم وأركابهم على الجمال لنوصلهم معنا إلى عرب الحديدية، وعندما تحركت ألسنتهم قليلاً قلت لهم.

ـ من أنتم ؟.

ـ نحن من أهل باعذرة.

ـ باعذرة ؟هذا اسم قرية إيزيدية.

بعد أن مشينا قليلاً، قلت لخادمي، هل اعتنيت بالرجال الثلاثة جيداً، أهم مرتاحون فوق الجمال ؟

ـ بكل تأكيد، كأنما هم في جلسة الباشا.

ـ هل أكلوا شيئاً ؟

ـ تناولوا الحليب فقط.

ـ أفضل، هل يستطيعون التحدث ؟

ـ يتحدثون بلغة لا أفقهها.

ـ إنها اللغة الكردية، أعتقد أنهم عبدة إله الشر.

ـ عبدة إله الشر ؟ يا رب استرنا ! كيف يجوز، أيعبدون إله الشر يا أستاذ ؟

ـ هم لا يعبدون إلا اللّٰه، الناس وضعوا هذه العلاقة بينهم، هم أبطال، كرماء.

ـ آه؟ و لهذا هم يتكلمون بلغة خاصة، كيلا يفهمها المسلمون، هل تفقه يا أستاذ ؟

ـ لا، لم أفقه شيئاً.

ـ ألا تفقه ؟ أستاذ هذا غير ممكن، أنت تدرك كل شيء!

ـ قلت لك إني لا أفقه هذه اللغة.

ـ إنك لا تفقه أبداً.

ـ نعم أفقه بعض الكلمات، وأستطيع التحدث معهم ببعض الكلمات.

ـ هل رأيت، كنتُ صائباً بقولي يا أستاذ !

ـ اللّٰه وحده يعلم بكل شيء، والناس يعلمون القلة (بعد ليلة من الاستراحة، استيقظنا صباحاً، سألت الرجال الثلاثة).

ـ أتستطيعون التحدث ؟

ـ نعم يا أفندي.

ـ قولوا لي من أنتم ؟

ـ اسمي باسي، وهذا ملك، واسم هذا ملحم.

ـ من أنتم، من باعذرة، (قلت لهم) ؟

ـ نسكن في باعذرة، شمال الموصل .

ـ من وضعكم في ذلك التراب؟ وكيف وصلتم إلى هنا ؟

ـ نحن رجال أمير الشيخان، نريد الذهاب إلى بغداد.

ـ تذهبون إلى بغداد! ألستم تابعين للموصل؟.

ـ أستاذي، باشا الموصل شخص ظالم، إنه يظلمنا، نريد أن نذهب إلى باشا بغداد لتقديم شكوى على باشا الموصل.

ـ بأي شيء أتيتم ؟ كيف أتيتم إلى الموصل، من خلال نهر دجلة ؟

ـ لا، لا، ذهبنا إلى نهر الكومل وهناك صنعنا قارباً وعبرنا إلى نهر الخازر ثم أتينا إلى الزاب الكبير الذي يصب في نهر دجلة، عند نزولنا من دجلة كي نستريح، استرخينا لننام بعض الوقت، فهاجمنا رجال أبي أحمد وتم اعتقالنا.

ـ سلبوا أموالكم ؟.

ـ شيخهم (زيدان بن هولي) سلب كل شيء وطلب منا إرسال خبر إلى ذوينا بدفع الفدية.

ـ هل أرسلتم الخبر ؟

ـ لا، نحن فقراء ولا نملك أية مبالغ تذكر.

ـ لكن ليس مستبعداً يدفع آغاكم المبلغ لإطلاق سراحكم.

ـ لو كنا كتبنا له ـ بالتأكيد كان سيبعث لنا المبلغ ـ لكننا على يقين بأن أبا أحمد سيقتلنا لا محالة.

ـ أحسنتم، ولو كنتم دفعتم المبلغ، أكان سيقتلكم أيضاً ؟

ـ بعد أن شدوا أيدينا وأرجلنا وعلقونا وعذبونا غرسونا في التراب للموت، لنموت ببطء جوعاً وعطشاً.

ـ هل كنتم مقيدين في هذه المدة ؟

ـ نعم.

ـ أتعلمون، أننا قبضنا على هذا الشيخ ؟

ـ حاجي خلف عمر (قال لنا).

ـ من الضروري أن ينال هذا الشيخ جزاءه.

ـ أفندي لا تكن حنوناً تجاهه.

ـ كيف تحنُّ عليه !

ـ نعم، عاقبه دون رأفة، أنت مسلم وتود الثأر، خذ بثأرنا، لكننا ندين بدين آخر، نحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً، سنسامحه.

ـ أنتم مخطئون لست مسلماً، أنا مسيحي.

ـ أمسيحي أنت ؟ (قال أحدهم بجرأة) كلداني.

ـ لا أنا أوربي.

ـ أتعرف مريم، أم عيسى ؟ هل تؤمن بعودة عيسى مرة أخرى ؟

ـ نعم.

ـ يا أستاذ ـ دينكم ممتاز، كم سررنا وقد عرفناك وأصبحنا أصدقاءك، نريد أن نرى الشيخ أبا أحمد لقد عذبنا .

ـ سوف ترونه، هل تعلمون إلى أين نحن ذاهبون ؟

ـ نعم، نحن ذاهبون إلى وادي درجة.

ـ هناك سوف ترون الحديديين وشيخهم، سيكونون في استقبالكم (عندما وصلنا إلى وادي درجة كان شيخ الحديديين محمد أمين في استقبال الضيوف، قال لي حاجي خلف إلى أين أرسل الرجال الثلاث ؟ قلت له إلى الشيخ محمد أمين ليكونوا معه كي يستريحوا، وعندما سمع باسم محمد أمين قال: ذاك ، أهو محمد أمين بعينه ؟

Sheikh Mohammed Emin.

CHAPTER XII.

ـ نعم، أنا محمد أمين الشمري.

ـ لا، أنت حديدي ولست شمرياً ؟

ـ الحديديون يرجعون إلى شمر.

ـ يا شيخ لك مني بشرى.

ـ بشرى !

ـ نعم في باعذرة، قبل أن نأتي، ذهبت إلى عين الماء، رأيت هناك بعض رجال الجندرما (الشرطة) كان معهم رجل مقبوض عليه، قال لي، اسقني ماءً، جلبت إليه الماء، وبحجة الماء قال لي بصمت، اذهب وقل لأبي محمد أمين شيخ الحديديين، أن الجندرما قد قبضوا علي وسوف يرسلونني إلى سجن العمادية، هذا هو الخبر الذي أردت أن أقوله لك (ذاكرة محمد أمين قد عادت إلى الماضي وقال ابني آماد الكاندورا هو ابني، هو ابني).

ـ كيف كان وجهه ؟

ـ شخص طويل وأضخم منك، لحيته سوداء متدلية على صدره.

ـ إنه ابني، سررت بهذا الخبر يا رجال، الحمد للّٰه، وصلتني معلومات عن ابني، من الضروري أن نحضر مأدبة بهذه المناسبة.

ـ منذ متى لم ترهُ ؟

ـ منذ ستة أسابيع، شكراً لك، ستة أسابيع كثيرة، لكن المهم ألا يتعذب ابني أكثر من ذلك، إما أن أرجعه أو أقلب العمادية أعاليها أسافلها، (كارابن نمزي)، هل ستأتي معي، أم أذهب وحدي ؟

ـ سآتي معك.

ـ ليرضَ اللّٰه عنك، تعالَ وبشِّر جميع الحديديين (عندما ذهب محمد أمين ليبشر الحديديين)، جاءني خلف وقال: أستاذ أحقاً ستذهب معهم ؟

ـ نعم سأذهب معهم.

ـ سآتي معكم أيضاً.

ـ خلف فكر بامرأتك.

ـ زوجتك امرأة محترمة وذات عقل رزين، لكنك بحاجة إلى خادمة أمينة.

ـ نعم، تعال معنا، لكن قبل ذلك من الضروري أن تسأل الشيخ محمد أمين وشيخ مالك وتحصل على موافقتهم.

(تركت أصحابي عند عرب الحديدية، وسافرت مع الشيخ محمد أمين للذهاب إلى العمادية لنطلق سراح ابنه من السجن، كان من المفترض قبل هذا أن أذهب إلى والي الموصل لأكون تحت ظله، ذهبتُ وخادمي (حاجي خلف عمر) إلى والي الموصل، وذهب محمد أمين إلى خورسباد لينتظرنا هناك، الآن أنا وخادمي في الموصل، ودرجة الحرارة ٤٦ درجة مئوية، استأجرنا سرداباً ودخلنا فيه و جرى حوار بيني وبين خادمي، قال لي: لم أكن أفكر بذلك يا سيدي ؟

ـ أية فكرة ؟

ـ لن نرجع مرة أخرى إلى الحديدية.

ـ ولماذا لا نرجع ؟

ـ لنذهب إلى العمادية يا سيدي ؟

ـ أزرتها سابقاً ؟

ـ نعم زرتها ، لكن المسلك إلى العمادية وعر جداً واللّٰه إنه طريق الموت بل طريق الجحيم.

ـ إنه طريق خطر، يا حاجي خلف عمر؟

ـ ألم تصدق يا سيدي ؟ سوف أبين لك حقيقة ما أعلم، سوف نذهب إلى منطقة الرجال الثلاثة الذين أسماؤهم (باسي، ملك، ملحم)، و الذين أنقذتهم من الموت.

ـ هي الحقيقة.

ـ يعني أنا وأنت الآن في عداد الموتى، أنا وأنت وأي شخص يمتلك الإيمان يذهب عن طريق الإيزديين سيقتل.

ـ إنه خبر جديد لم أسمعه من قبل، خلف من قال ذلك ؟

ـ جميع المسلمين يدركون، ألم تسمع إلى حد الآن ؟ يقال عن منطقتهم التي يعيشون فيها وطن الأبالسة ؟

ـ (آه، الآن أدركت، لماذا خلف يقول هذا الحديث، إنه يخاف من الإيزيدية، تجاهلت ذلك وسألته: وطن الأبالسة، إبليستان ؟كيف ؟

ـ الذين يعيشون هناك، هم أحفاد إبليس، ويعبدونه.

ـ خلف، هل هناك أشخاص، يعبدون إبليس؟

ـ نعم هناك ،ألم تسمع عنهم بعد ؟

ـ نعم، لقد سمعت، لكنهم بعيدون عن هنا، في أستراليا، هناك بعض الأشخاص شبه متوحشين يعبدون إله الشر ويقال عنهم (ياهو) لكن هنا لا أحد يعبد إبليس.

ـ أستاذي إنك أوعى مني ومن الكثيرين، لكن في بعض الأحيان يتخبط عقلك، اسأل المسافرين على الطريق الذين يعيشون في إبليسستان، ألا يقولون عنهم أنهم عُبَّاد إله الشر؟

ـ أرأيتهم يعبدون إبليس ؟

ـ لا، ولكنني سمعت.

ـ الذين سمعت منهم، هل رأوا بأعينهم الذين يعيشون في إبليستان يعبدونه.

ـ قد سمعوا من الآخرين أيضاً.

ـ خلف أريد أن أقول لك، هذه أقاويل، لأنه عندما يصلي الإيزديون للّٰه لا يدعون أحداً يراهم.

ـ أحقاً ؟

ـ حقاً، القليل من الغربا ء يرونهم وهم يصلون.

ـ مع ذلك يدرك الإنسان كل شيء عنهم.

ـ كيف ؟

ـ ألم تسمع بـ (الليلة الظلما ء)؟ في الحقيقة، أخاف من هذه الكلمة، ولم أدرك معناها.

ـ معناها، يعني الظلام وانطفا ء المشاعل.

ـ أرأيت يا أستاذ، إنهم عندما يريدون أن يصلوا يصلون في الظلام ويطفئون المشاعل.

ـ الذي قال لك هذا كذب عليك كذبة كبيرة، خلط الإيزديين مع الآخرين، ماذا تعرف بعد عنهم ؟

ـ الديك أو الطاووس في القبب وأماكن عبادتهم، إنهم يعبدونهم كما يعبدون إلههم .

ـ خلف، معلوماتك ضعيفة، قل لي هل للإيزيدية العديد من أماكن العبادة ؟

ـ نعم سيدي، في كل مكان هنالك ديك.

ـ إذا كان كذلك، فكم إبليس أصبحوا، أعتقد هنالك إبليس واحد.

ـ نعم سيدي هنالك إبليس واحد، لكنه في كل مكان، ولديهم ملائكة كاذبون.

ـ إلى هذه الدرجة ؟

ـ أتعلم ورد في القرآن الكريم، أن هنالك أربعة من رؤساء الملائكة، يعني، جبرائيل، وإسرافيل، وميكائيل، وإسرئيل، لكن الإيزديين لديهم سبعة ملائكة، جبرائيل، ميشائيل، رافائيل، إسرافيل، ديدرائيل، إسرائيل، شيمكى، أليست هذه أكذوبة ؟

ـ أعتقد أن هنالك سبعة رؤساء للملائكة أيضاً.

ـ أنت أيضاً ؟ لماذا ؟(سألني بتعجب).

ـ الكتاب المقدس للمسيحية يذكر ذلك، وأنا أعتقد بها أكثر من القرآن الكريم.

يا أستاذ، ما هذه الأقاويل ؟ سبق وذهبت إلى مكة وأصبحت حاجاً، كيف يجوز الاعتقاد بكتب الأصحاب بدون إيمان من أحاديث النبي، الآن لم يبق لدي شك، أنك تودُّ الإيزيدية وتوَدّ زيارتهم.

ـ إذا خفت إلى هذه الدرجة، ارجع وسأذهب لوحدي.

ـ أرجع ! لا ، ليس بعيداً النبي محمد قد تحدث عن الملائكة الأربعة فقط ، لأن بقية الملائكة في ذلك الوقت لم يكونوا في السماء كانوا في الأرض لذلك لم يعدهم النبي.

ـ أقول لك يا خلف، لا داعيَ للتخوف من الإيزيدية (وضحكت)إنهم لا يعبدون إبليس، ولا يذكرون اسمه، الإيزيدية أصحاب شهامة، نظيفون، ذوو اعتقاد، أبطال، يدركون الفضل، ذوو الخبر الصحيح.

ـ أتقول إنهم لن يؤذونني، لأني لا أعبد إلههم ؟

ـ لا ، إني أطمئنك .

ـ لكنهم سيقتلوننا.

ـ لن يقتلوني، ولن يقتلوك.

ـ لقد قتلوا الكثيرين، لكن القتلى ليسوا مسيحيين وإنما من الأمة الإسلامية لأن المسلمين هم من قادوا ضدهم حملات الإبادة، وليس المسيحيين.

ـ وأنا مسلم.

ـ لأنهم أصدقائي فهم أصدقاؤك، ألم تُراع الإيزيدية الثلاثة الذين حررناهم، حتى تعافوا ؟

ـ هذا صحيح يا أستاذ، أنا لن أتركك، سآتي معك (هنا انتهى الحديث لأن جندرمة والي الموصل أتوا، كي أذهب إلى الوالي، وبينما أنا في مجلس والي الموصل استمررنا بالحديث، وكنا بمفردنا وقد انسجمنا وأكلنا سوية، و حديث استدعى حديثاً آخر، إلى أن وصلنا إلى حديث الأكراد، سألني الوالي.

ـ ما آخر بلد ذهبت إليه ؟

ـ مصر، ومن هناك وعبر الصحراء أتيت إليك.

ـ كان من الأفضل، ألا تذهب إلى الشمر.

ـ لماذا ؟

ـ لأنهم كانوا سيقتلونك، إنهم سيِّئُو السمعة، أردت أن أقود حملة ضدهم لكنها لم تفلح، لأني سأهاجم مكاناً آخر.

ـ من ستهاجم ؟

ـ إنه سرُّ الدولة لا يجوز لأحد معرفته، غداً وبعد غدٍ، سنأتيك بالمصابين كي تعالجهم وتداويهم.

ـ غداً أو بعد غد ؟ لن أبقى هنا.

ـ لا يجوز أن ترحل، ستكون في ضيافتي.

ـ سأرحل وأرجع، عندها سأكون ضيفك.

ـ إلى أين ستذهب ؟

ـ أتجه شمالاً نحو جبال الأكراد.

ـ إلى أين ؟

ـ إلى حد الآن لم أقرر، ليس بعيداً، حتى (تورشينا) وقد أصل (جولأميرك).

ـ ماذا ستفعل هناك ؟

ـ أريد أن أتعرف على شعبهم، وأعرف كيف يتعامل الناس هناك، كيف يعيشون، كذلك أود أن أكتب بحثاً عن الأشجار والحشائش في تلك المنطقة.

ـ لماذا أنت مستعجل إلى هذا الحد، ألا تستطيع البقاء عندي يوماً ؟

ـ لأن الحشيش الذي أريده سينفذ مفعوله.

ـ لا داعي لإجراء البحث حول الناس هناك، فجميعهم أكراد ولصوص، وبعضهم إيزيدية، لعنة اللّه عليهم، لمن أعشاب الحشيش ؟ لماذا تجري الأبحاث عنها ، أأنت حكيم وبحاجة إلى الأدوية ؟.

ـ لكنك لم تفكر، قد يقتلك الأكراد!

ـ ذهبت إلى أقوام (الأرناؤوط ـ باشبزوخ).

ـ نعم، وعندي أفضل سلاح، لكني بحاجة إلى مساعدتك أيضاً.

ـ مساعدتي ؟

ـ نعم مساعدتك ـ سلطتك تمتد إلى العمادية وما بعدها.

ـ ليس لي سلطة ما بعد العمادية، لدي ما يقارب الثلاثة آلاف مسلح في العمادية.

ـ يبدو أن العمادية قلعة محصنة؟

ـ ليست محصنة فحسب، بل لن تُحتل أبداً، العمادية مفتاح أمام الأكراد المستقلين، نعم حتى الأكراد الذين ضمن سلطتنا من الصعب السيطرة عليهم.

ـ أقرأت (بويورولدوا)، وضعتني تحت ظلك ؟ وأنا أتيت من أجل ذلك، لأكون تحت ظلك.

ـ من الضروري أن أحافظ عليك، بشرط أن ترجع وتصبح ضيفي (قال المتصرف).

ـ على رأسي، سررت بذلك.

ـ سأعطيك حارسين ليكونا برفقتكم، هل تعلم أنك ستمر بين الإيزديين ؟

ـ أعلم ذلك .

ـ إنهم شعب غير صالح لا يصغي، يجب أن نريهم الويل،عبدة إبليس، يسهرون الليل، يتناولون الخمر، أتعلم لغتهم؟

ـ لغتهم كردية.

ـ لهجة كردية، القليل منهم يجيد اللغة العربية.

ـ لا أجيد هذه اللهجة.

ـ سأعطيك مترجماً.

ـ أعتقد أنه لا داعي، اللغة الكردية و اللغة الفارسية من نبع واحد، وأنا أجيد الفارسية.

ـ أنا لا أجيدهما، أنت أعلم بعملك إذن، أتحتاج إلى مترجم أم لا ؟ مع ذلك لا تتأخر عندهم، لا تقضِ فترة الاستراحة هناك، استمر في سيرك وإلا ستكون الأمور في غير مصلحتك.

ـ لماذا ؟

ـ إنها أسراري، أقول لك فقط لا تتأخر عندهم، وإذا أصبح رجالي ثقلاً عليك، اشرب.

ـ رجالك يستطيعون مرافقتي إلى العمادية فقط ؟

ـ أي منطقة تأتي بعد العمادية ؟

ـ بعد العمادية أكراد البروارية.

ـ ما هي عاصمتهم ؟

ـ قومرية، قلعة حصينة، يعيشون في تلك القلعة، سأعطيك رسالة لهم سترى نتيجتها، لا أستطيع إعطاءك ضماناً، متى ستذهب ؟

ـ غداً في الصباح الباكر.

ـ حقاً ؟سأجلب الختم، وأكتب لك الرسالة (ذهب شكيب خليل باشا، وبقيت لوحدي في الغرفة)، كانت بعض الأوراق قد تناثرت في مكان الوالي، عندما أتيت إليه كان منشغلاً بها إحداها تخطيط، وعندما أمعنت النظر فيها تبين أنها محاولة للهجوم على معبد لالش، أتى الوالي، وبقيت في حالة طبيعية، قال لي: هذه الرسالة إلى بك الأكراد، وأخرى إلى قائمقام العمادية وأخرى عامة إلى كل مسؤول بإمرتي.

ـ سررت بذلك.

ـ إذا رجعت من جبال كردستان، سأبعثك إلى عرب الشمر لإجراء بحث عنهم وعن موطنهم، وبعدها بسهولة أسيطر عليهم، وأود أن تكتب لي معلومات عن الإيزيدية أيضاً، لكن فات الأوان لأني أعددت كل شيء لهم.

ـ الآن فهمت جيداً، ما كنت أفكر فيه حقيقة، قد أعد الوالي العدة والجيش للهجوم على الإيزيدية.

ـ من الضروري عدم التأخر في موطن الإيزيدية، اعبر بسرعة (قال الوالي) لا تنتظر عيدهم الكبير.

ـ أي عيد ؟

ـ عيدهم المقدس، إنهم يبدؤون به عند قبر الشيخ عادي في معبد لالش، خذ هذه رسائلك، كان اللّٰه معك، ومتى سترحل من المدينة ؟

ـ مع غدوّ صلاة الفجر.

ـ في الصباح، الحراس العشرة سيكونون معك.

ـ أحسنت يا مولاي، يكفيني حارسان.

ـ ألا تعلم أن العشرة أفضل من اثنين، خمسة من (الأرناؤوط)، خمسة من (الباشبزوخ)، وإذا رجعت بالسلامة، لا تنسَ أني أحبك.

(إنها إشارة لي بالنهوض، وقمت باحترام وخرجت وأتيت إلى فراشي عند رفيقي حاجي خلف عمر).

ـ حدثته بما دار بيننا، وفي الصباح وحسب تعليمات الوالي، عشرة حراس كانوا مهيئين عند الباب، خمسة (أرناووط)، خمسة (باشبزوخ)، جذب انتباهي أحد (الباشبزوخ) لأنه كان يلبس ملابس غريبة ويعجب الرّائي من حيث أنه مفتول القامة يضع الريش على رأسه وبعض نياشين الأبطال على صدره، كان عديم الأنف، فارس الحمار، حاصلاً على درجة (بولوك الأمين) في الجيش التركي اسمه (إيفرا)، يترأس الحراس الأربعة (الباشبزوخين)، بعد التحية وبعض الحديث قال لهم خلف:

ـ أتعلمون سنذهب نحو الإيزيدية ؟

ـ نحن نعلم.

ـ ألا تخافون من عبدة إبليس؟

ـ خوف ؟حاجي خلف عمر، هل سمعت بأن الأرناؤوط يخافون ؟

(بعد الإعداد، بدأنا بالسير من نهر دجلة على الجسر الخشبي المتحرك عبرنا إلى الضفة الأخرى، من هناك عبرنا نهر الخوصر، ثم سرنا إلى خورسباد، رأينا صديقنا محمد أمين بيد الجندرما (الشرطة)، أنقذناه بصعوبة من أياديهم وسار بمعيتنا، وهنا انقطع عني الحراس العشرة وتاهوا، وبقيتُ وخلف وشيخ محمد

أمين، من خورسباد وصلنا إلى قرية الجراحية ثم باعذرة، وعند الطريق قلت لمحمد أمين في نية والي الموصل الهجوم عليكم لكن قبل ذلك سيهجم على الإيزديين، تم إعداد جيشه استعداداً للهجوم على وادي معبد لالش، بعد مسير عشر ساعات على الأقدام، وصلنا إلى قرية باعذرة، كنا متعبين، قرب القرية سألت أحد القرويين:

ـ ما أسم ال (بَك).

ـ (علي بك).

صورة علي بك بن حسين بك (١٨٤٦ـ ١٩١٣م) الذي اعتمد عليه كارل ماي كبطل في روايته عن الايزيدية، وخلفه في الصورة رجال حمايته .

ـ أين داره ؟

ـ تعالوا معي، سأدلكم عليه.

ـ أوصلنا هذا الإيزيدي إلى باب دار (علي بك) وقال لنا .

ـ هذا بيته، إنه في الداخل، ثم رجع، رأيت الوضع غير طبيعي في القرية، ازدحام في مرور الأشخاص عدا الدور والأكواخ، هنالك خيم منصوبة، كانوا يربطون حيواناتهم أمامهم، الناس في ذهاب وإياب، حالة انشغال إلى حد أنهم لم يعلموا بمجيئنا ، قال لي خلف: انظر إلى هناك، أشار إلى حمار، أتعرف لمن هذا الحمار، عندما نظرت إليه قلت: هذا لبولوك أمين، من أين أتى ووصل قبلنا ، ترجلت عن جيادي، اقتربت من دار ربط أمامها حمار، وسمعت، (إيفرا) يقول:

ـ أحقاً: ألم تستطع أن تؤمن لي مأوى ؟

ـ لا أمتلك مأوى (خرج صوت).

ـ أنت صاحب القرية (المختار) يجب أن ترى لي مأوى.

ـ سابقاً قلت لك، لا يوجد مأوى هنا ، باعذرة ازدحمت بالناس لوجود الحجاج، لا يوجد دار فارغة، لماذا لم يجلب الأفندي العائد إليك معه خيمة ؟ (قال المختار)

ـ أفندي، بطل، بك كبير، صيته أكبر من جميع أمراء الإيزديين.

ـ أين هو ؟

ـ سيأتي، توجه إلى المساجين يريد إلقاء القبض على مسجون هارب.

ـ أمجنون أنت؟ يقبض على سجين هارب.

ـ هاها.... هكذا ! إنه مرخص من السلطة، يحمل رسائل عدة من والي الموصل، وهذه هويتي.

ـ من الأجدر أن يحضر أستاذك بنفسه.

ـ كيف يأتي بنفسه ؟

ـ إنه كودجية الأموال النقدية وتقول يأتي بنفسه، أريد أن أتحدث مع الشيخ.

ـ غير موجود هنا.

ـ نعم، سأذهب إليه، أنا (بولوك أمين)الوالي، راتبي الشهري ٢٥ فلساً.

ـ وماذا تستلم بعد ؟

ـ أشياء أخرى، سأقول لك، كيلوان خبز، ٢٥٥ غم من اللحم، ٢٠ غم من الزبد، ٧٥ غم من الرز، ١٥غم من الملح، عدا الصابون والزيت هل علمت ؟ وإذا اتهمك الأنف، سأقص عليك لماذا أنا عديم الأنف؟ في ضراوة معركة ـ أنفي.....

ـ ليس لدي الوقت الكافي لأصغي إليك، أتريد أن تتحدث مع الـ (بك).

ـ قل له، لا تنسَ، لن اذهب من هنا حتى أقابله، وفي هذه اللحظة، دخلتُ و معي محمد أمين وخلف، و بقي مختار القرية واقفاً، لم يدخل إلى الداخل.

ـ لقد أتى الأمير (قال إيفرا)، إنه يظهر لك، أتستمع إليه أم لا ؟

ـ نظرت إلى جهة (بولوك أمين).

ـ أنت هنا ؟ كيف أتيت إلى باعذرة، ألوحدك!

ـ لقد قلت لك سأكون في مقدمة الفرسان، يا مولاي!

ـ أين البقية ؟

ـ فقدوا، هربوا، أخذتهم العاصفة، غسلهم المطر.

ـ إلى أين ؟

ـ لا أدري، يا مولاي.

ـ من المفروض أنك تراهم.

ـ رأيتهم، فقط عندما هرب السجين، ركض الجميع وراءه، رجالي ورجال الأرناؤوط أخذوا يلاحقونه.

ـ لماذا لم تلاحقه أنت؟

ـ أستاذ، حماري لم يرغب بذلك، إضافة إلى ذلك كان علي واجبٌ أن أصل إلى باعذرة لأرتب لك مأوى.

ـ ذلك السجين الهارب، هل رأيته جيداً

ـ كيف أراه جيداً، حينما وضعت جبيني على الأرض، رفعت رأسي لملاحقته، كان السجين قد هرب.

ـ (كنت أود ذلك، لأن محمد أمين قد أمن).

ـ هل ستأتي البقية بعدنا ؟

ـ اللّٰه أعلم.

ـ علي بك هنا ؟(سألت مختار القرية).

ـ نعم إنه في الداخل.

ـ قل له، نريد مقابلته.

(عندما ذهب صاحب القرية إلى غرفة الأمير، إيفرا أخذ خلف جانباً، وبصوت منخفض سأله عن محمد أمين: من أي عرب هذا ؟

ـ من شيوخ العرب.

ـ من أين أتى ؟

ـ رأيناه، في طريقنا، إنه صديق أستاذي، سيكون معنا.

ـ كيف هو للضيف ؟

ـ صاحب كرم، (في هذه الأثناء، انفتح الباب ودخل صاحب القرية إلينا، يتبعه شخص، شاب محترم رزين، ذو ملامح بهية، طويل القامة، مرتب الهيئة، مبتسم، مزين، لف رأسه بيشماغ أحمر غالي الثمن، وقف واضعاً الخنجر في حزامٍ قبضته منقوشة، بدا جذاب المنظر، يلبس شالاً قجني (نوع من السراويل)، وسترة جميلة.

ـ مرحباً بكم (قال بعد مصافحتي ومحمد أمين ثم خلف، ولم يهتم ببولوك أمين).

ـ عذراً سيدي، لكوني أتيت إلى دارك (هذا جوابي له) لأنه حان المساء وأريد أن أسألك هل لديكم مأوى لنا، لنأخذ راحتنا هذه الليلة ؟.

نظر إلي علي بك، من رأسي إلى أسفل قدميّ وقال: يجب ألا نسأل الرحالة من أين قدمت وإلى أين تتجه، لكن مختار القرية قال لي، أنت أمير ؟

ـ لست أميراً، ولست عربياً، ولست تركياً، أنا ألماني، من شعوب الغرب.

ـ ألماني أنت؟ لم أتعرف على هذه الملة، ولم أرَ أبناءها، لكني أود التعرف عليهم.

ـ هل تأذن لي أن أقول لماذا ؟

ـ لأن أحد الألمان حرر رجالي من الموت، ثم أخذهم إلى عرب الحديدية.

ـ نعم. الثلاثة من أهالي قرية باعذرة ؟

ـ نعم.

ـ أسماؤهم ملك وبإسى وملحم.

(علي بك رجع خطوة وقال: أتعرفهم ؟

ـ نعم، اسمي (كارابن نمزي)، أنا ذلك الألماني الذي تحدث عنه رجالك. وهذا محمد أمين شيخ الحديديين، وذاك حاجي خلف عمر صديقي.

ـ أحقيقة، أم مزاح ؟ شيء ليس في نطاق التفكير، يجب أن أقبلك !

علي بك سحبني إليه وقبل وجنتي وكذلك مع محمد أمين وخلف ثم أخذ بيدي وقال:

ـ سيدي، قدمت في الوقت المناسب، عيدنا الكبير، لا يجوز لأحد من الغرباء أن يشارك فيه لكننا سنمنحك فرصة أن تعيد معنا، ابقَ هنا إلى حين انتهاء العيد، وبعد العيد ابقَ ما أردت من المدة.

ـ إذا أراد شيخ محمد أمين، سأبقى، يجب أن تعلم، لدينا مهمة، فهو يود ألا نتأخر

ـ أنا أعلم، لكن مع ذلك أتمنى أن تبقوا عندنا، داري داركم، طعامي طعامكم، أنتم أخوتي، عند دخولنا إلى الداخل، سمعت صوت إيفرا، بتكبر يقول لمختار القرية، أسمعت ! أميري كم له صيت ؟(الغرفة التي دخلناها كانت مفروشة، جلستُ و شيخ محمد أمين بجانب علي بك)، كانت أيدينا متلامسة، مرة أخرى نظر إلي من الرأس إلى القدمين وقال:

ـ نعم، نعم أنت ذلك الرجل الذي هرَّب أعداء الحديديين.

ـ أتودُّ أن تخجلني ؟

ـ وأنت ذلك الذي قتل الأسد لوحده في ظلمات الليل، أريد أن أكون مثلك، أأنت مسيحي ؟

ـ نعم.

ـ المسيحيون أقوى من الشعوب الأخرى.

ـ هل الإيزيدية مسيحيون ؟

ـ الإيزيدية ليسوا مسيحيين، أخذوا حسنات الأديان كلها.

ـ كلامك صحيح (قطّب علي بك حاجبيه معاً).

ـ يا أفندي، عند الجبال، لا يوجد دين صافي لأن شعبنا قد افترق، عشيرتنا أصبحت أجزاء وأجزاء متقطعة، قلوبنا محترقة، نحتاج إلى دين يزرع المحبة، ذلك الحب الذي يخرج من قلوبنا، لا تستطيع هنا أن تغرس جذوره، لأن ما تحت الأرض مليء بالحقد والحسد، والثأر، والخيانة، والظلم، والاعتداء، أتمنى أن أمتلك القوة كي أزرع المحبة، ليس باللسان وإنما باليد والسيف، الموقع الذي تنبت فيه وردة، من المفترض اقتلاع الأدغال والأشواك قبل ذلك وتنظيفه، هل تعتقد بأن النصائح من الممكن أن تُثمر القرنفل من مرارة الأدغال، يستطيع البستاني أن يزين وردة (المرارة) لكن سمومها ستبقى في داخلها، أنا أقول لك نصائح سيفي يود صنع الخرفان من الذئاب أن يضع هذه النصائح في قلب هو يعيش بسلام، والذي كان يعارض، كنت أطحنه للمرة الأولى، أستطيع أن أضع سيفي في (غمده) وأرجع إلى خيمتي، لأحضر نفسي.

ـ إذا أتى الحب مرة، كما جاء في الكتاب المقدس، عين الحب لا تجف.

(تشع النور من عيون علي بك، احمرّت خدوده، صوته ينبع من أعماق قلبه، علي بك ليس جميلاً فقط وإنما بطل شجاع ذو عقل نيِّر، كان يدرك هموم ومشاكل وطنه، ليس بعيداً أنه سلح رجاله المقاتلين).

ـ أتعتقد أن الضباط الذين يأتون إلى هنا من بعيد لا يستطيعون فعل شيء؟ (سألته).

ـ وهو كذلك (علي بك قال من قلبه) نحن الإيزديون نعرف كتابكم المقدس، ونقول كلمة اللّٰه مطرقة تقطع الأحجار، لكن هل تستطيع بالمطرقة أن تقطع الماء، أتستطيع أن تقطع الضباب، أو تقطع وردة، أو تقتل حباً، اسأل الأمريكان الذين أتوا إلى هنا، تحدثوا كثيراً وقرأوا كثيراً، إنهم أهدوا وباعوا الأشياء الجميلة، حتى أنهم في وسطنا عملوا كطابعي الكتب، واتبعهم الناس، استلموا هداياهم وتعمدوا ورجعوا إلى طريقتهم السابقة، أصبحوا لصوصاً وقطاع طرق و جزارين، كتابكم المقدس مطبوع بلغتنا، لكن لا يوجد أحد منا يجيد القراءة والكتابة، وأنت ترى أنه من الضروري أن يعلمنا رجال الدين القراءة والكتابة، الآن صنعنا أقلامنا من حديد، يجب أن تنظر إلينا بعين أكبر، أتقول السلام أفضل من الحرب، الفأس أفضل من العصا، ما أقصده هو أنتم، هل تستطيع أن تفكر بالسلام بلا سيف ؟ يجب ألا تكون هنا الأوحد، الذين يتحملون الظلم يفعلون ذلك كي يستطيعوا في النهاية مع الفأس العمل وتحقيق سلامهم. الآن انظر إلى نفسك، مستقيم و تحمل السلاح بكثرة، وسلاحك أفضل من سلاحنا، لماذا تحمل هذه الأسلحة ؟ أتحمل هذه الأسلحة عند الزيارات في ألمانيا ؟

ـ كلا (يجب قول الحقيقة).

ـ أرأيت أنتم تستطيعون الذهاب إلى الأديرة وتصلون للّٰه دون توجُّسٍ أيضاً تستطيعون الذهاب إلى المدارس بلا خوف وتصغون إلى الأساتذة. تستطيعون بلا خوف احترام الوالدين وتعليم أطفالكم، أنتم تعيشون في جنات عدن بدون

منافس، لقد تمزق رأس أفعاكم، يجب انتظار ذلك البهلوان الذي يخرج صوته بهدوء من الجبال، وهو الذي تحدث عنه كتابكم المقدس، إني أقول لك أنه سيأتي، إنه ليس روسياً ولا إنكليزياً، ولا تركياً، ولا فارسياً، والذي يخادعنا ويكذب علينا، للمرة الأولى اعتقدنا بونابرت ملك فرنسا الكبير، لكن كي نعلم، يجب ألا يعتمد الأسد على مساعدات طير الباز لأن كلاً منهما من وطن مختلف، هل استمعت مرة إلى هموم وآلام الإيزديين ؟

ـ كنا نعيش بسعادة واتحاد في جبل شنكال، لكن يد الظلم امتدت إلينا وفرقتنا، بداية فصل الربيع، فاض نهر دجلة، قطعت الجسور، مواطنونا كبار السن، ونساؤنا، وأطفالنا، جميعهم بعثوا إلى نهر الموصل قتلوهم كالحيوانات المفترسة، و أجبروا البقية على عبور النهر، الأكثرية اختنقت في الماء والقلة عبرت، أهالي الموصل قد اصطفوا في الأماكن المرتفعة يكفرون بدينهم وكانوا يستهزئُون بالذين نجوا من الماء، و لم يكونوا يعلمون أين سيذهبون وعلى أية حجرة سيضعون رؤوسهم، لقد تفرقوا، قسم منهم ذهب إلى جبل مقلوب والبعض رحل إلى بوتان وشيخان وقسم وصل إلى ماء المزورية وسوريا، و آخرون وصلوا إلى حدود روسيا وبقوا في تلك الأماكن، عملوا وسكنوا واستقروا، وإذا رأيت الآن بيوتهم وملابسهم وحدائقهم وبساتينهم ستفرح بهم، لأنهم كادحون، ومثابرون، وفي الوقت ذاته، الذين يجاورونهم قذرون، عندما يحتاجون الأموال وتحت أي ذريعة ما يهاجموننا ويقتلوننا ويأخذون أموالنا وممتلكاتنا غنائم.

بمناسبة عيدنا الكبير والمقدس هذا، نحتفل به ثلاثة أيام بالأفراح والدبكات، ومنذ فترة لم نحتفل بهذه المناسبة، لأننا نخاف من الأعداء، فكان يتوجب على

الحجاج أن يضحوا بأرواحهم مقابل الوصول إلى لالش، لكن منذ سنة يبدو أن العدو في حالة السكوت، فعلينا أيضاً أن نزور الصالحين والأولياء.

ـ سيدي لقد قدمت في الوقت المناسب، نحن لا نقبل مشاركة الغرباء لنا في هكذا احتفالية عيد لكنك صاحب فضل علينا، لقد أنقذت حياة رجالنا الثلاثة ونحن بكل تقدير واحترام نستقبلكم.

(إن هذا الخطاب أطيب ما سمعت، سوف تسنح لي الفرصة بكتابة بحث عن عادات وتقاليد هؤلاء عبدة إله الشر، الكثيرون تحدثوا إلي بسوء عنهم لكني لمست غير ذلك، لذلك لابد من الوقوف على عاداتهم وتقاليدهم ومراسيمهم، هذه حسرة في قلبي، أن أكتب ما أرى بأم عيني.

ـ إني أشكرك جداً، لهذه القراءة الرفيقة (أجبت عليه).

كنت أود بكل سرور أن أكون ضيفك لكن لدينا مهمة يجب أداؤها، لذلك يجب أن نرحل بسرعة من باعذرة.

ـ أعلم، بمهمتكم !(علي بك رد على سؤالي) مع ذلك تستطيع أن تحتفل معنا.

ـ هل تعلم بمهمتنا ؟

ـ نعم أنتم تودون إطلاق سراح آماد الكندور) ابن الشيخ محمد أمين من سجن العمادية.

ـ من أين لك هذه المعلومات ؟

ـ من رجالي الثلاثة الذين أنقذتهم من أبي أحمد، لكنكم لن تستطيعوا الآن إطلاق سراحه.

ـ لماذا لا نستطيع ؟

ـ لأن والي الموصل يخاف من هجوم الأكراد الشرقيين و لهذا حشد عساكره في العمادية وسيكون التجمع كبيراً في قلعة العمادية.

ـ كم سيكون عددهم ؟

ـ إنهم اثنان يوزباش مع مئتي عسكر مشاة قادمين من العمادية، وثلاثة يوزباشية مع ثلاثة مئة من المشاة القادمين من كركوك، ومجموعهم خمسمئة عسكر من المشاة، والجميع سيكونون تحت إمرة يوزباشي واحد.

ـ كم تبعد العمادية من هنا ؟

ـ العمادية تبعد قرابة اثني عشر ساعة سفراً.

ـ هل الطريق صعب في السير؟

ـ نعم، الطريق يُسلك بصعوبة، لن تصل في يوم واحد، ينبغي المبيت ليلاً في كالوك أو سبيندار، ثم في الصباح تبدأ بمشوار السير وتوجه صدرك إلى جبل كاره، والطريق يُسلك بصعوبة ثم تعبرون إلى السهل، هناك تلاحظون العمادية فوق الصخر.

ـ من هم العسكر الآتون من الموصل ؟

ـ قسم من دراكوشرا الثانية، والقسم الرابع من مشاة الفرقة العراقية، قسم يرسل إلى عرب الرحالة، والقسم الآخر يرسل عبر جبالنا إلى العمادية.

ـ ما قوة العسكر الثاني ؟

ـ ألف مقاتل، بإمرة (أميرألا) مع (آلا) أمين واحد، ولي معرفة بأميرئالا، إنه قتل زوجة بير كمال وابنيه، اسمه عمر آماد.

ـ أتعلم، أين سيجتمعون ؟

ـ المقاتلون ضد عرب الرحالة، بالتأكيد سيختبئون في آثار (كوبونجيك) وسمعت من رجالي في الاستخبارات، أن هذه العساكر بعد غد ستذهب من هناك والآخرون سيذهبون مشاة.

ـ أعتقد أن معلومات رجالك في الاستخبارات غير دقيقة.

ـ كيف ؟

ـ أحقاً تعتقد أن شكيب خليل باشا سيجلب هذا العدد الكبير من العساكر من ديار بكر للهجوم على الأكراد الشرقيين، أليس العسكر الثاني لمشاة العراقية في السليمانية أقرب إلى هذه المهمة ؟

ـ أتصدق! أنه سيرتكب هذا الخطأ يقدم ثلاثمئة من مقاتلي الأكراد ضد الأكراد الشرقيين. (فكر علي بك بإمعان وقال):

ـ قولك، قول العقلاء، لكن لا أفهم.

ـ عساكر (كوبونجيك) أمجهزون بالمدافع ؟

ـ لا.

ـ عندما يرسل الجيش إلى السهل، من الضروري أن يكون مجهزاً بالمدافع، لكن لا يحمل الجند ذلك السلاح لهذا أعتقد، أنهم لن يتجهوا نحو الجبال.

ـ يبدو أن استخباراتنا قد أعطت معلومات معاكسة، الجيش في (كوبونجيك) سيتجه نحو العمادية ليس إلى عرب الرحالة.

ـ بعد غد سيغادر الجيش من هناك، ثم يأتي مباشرة للهجوم عليكم هنا، في هذا العيد الكبير.

ـ أفندي (علي بك لوحده قال كلام، لكن بتوجُّس وخوف).

ـ فكر جيداً، لا يوجد عساكر لا من الشرق ولا من الغرب يهجمون على وادي لالش. فقط من الجنوب ومن جهة الشمال، لقد أعدوا ألف جندي قرب الموصل، وهم بعيدون مسافة سير لمدة عشر ساعات، خمسة آلاف جندي قد حضروا أنفسهم في العمادية، هم على بعد اثنتي عشرة ساعة سيطوقون المكان من الجانبين ويحتلون وادي لالش.

ـ أستاذي، يا ليتها كذلك.

ـ أتعتقد، أنه يكفي للهجوم خمسمائة مقاتل من أكراد (برواري، وبوتأن، وتياري، وجال، وهكاري، وبري كاري، وشيروأن،) والأكراد يستطيعون في ثلاثة أيام جمع ١٦ ألف مقاتل فيقطعون الطريق على عساكر تركيا.

ـ قولك حقيقة، هذه منفعة لنا.

ـ الآن أقول لك شيئاً، استمع إليه:

ـ سمعت على لسان والي الموصل (شكيب خليل باشا)، أنهم يريدون الهجوم عليكم في وادي لالش.

ـ (ما دار بيني وبين والي الموصل نقلته إلى علي بك، عندما أنهيت حديثي نهض (علي بك) وخطا بعض الخطوات ثم قال: إني أشكرك يا أفندي لأنك حذرتنا جميعاً لو كانوا قد هجموا علينا بألف وخمسة مئة مقاتل لأبادوا الإيزديين أتمنى أن يأتوا الآن، إن صمت شكيب خليل باشا لم يأتِ من الفراغ لقد أراد بالحيلة أن يجمعنا في وادي لالش ثم يبيدنا لكنه نسي شيئاً أن الفئران التي يودُّ اصطيادها كثيرة و تستطيع تمزيق القطط، وقبل كل شيء ينبغي ألا يعلم أحد بحديثنا، من فضلك سأخرج قليلاً (خرج علي بك إلى الخارج).

ـ ما رأيك به يا أفندي (سألني شيخ محمد أمين).

ـ مثلك.

ـ أحقاً أنهم عبدة إله الشر؟ (سألني خلف) عندي إيزيدي كذئب ثائر بعيون النمور وأصابع مصاصي الدماء.

ـ أتعتقد أن الإيزيدية منزلون من السماء ؟(فضحكتُ من خلف).

ـ انتظر صبراً يا أستاذ، سمعت أن إبليس يظهر للمسلمين بمظهر لائق كي يخالفوا عقيدتهم.

ـ في هذه اللحظات فتح الباب و دخل رجل كأنه ساحر، ملابسه تشع بياضاً، شعره أبيض كالثلج لف منه جدائل(ذؤابة) متدلية على كتفيه، يناهز الثمانين من العمر، خفيف الجسم، عيناه متداخلتان، سهام قاتلة، وعندما دخل إلى الغرفة أغلق الباب وراءه، كان نشيطاً كشاب ذا لحية سوداء متدلية على صدره، صورته معاكسة لشعر رأسه، عند دخوله قمنا جميعاً احتراماً له فأحنى جسده وحيَّانا:

ـ طابت أوقاتكم بالسعادة ثم قال (أتجيدون الكرمانجية)؟

هذا ما قاله باللهجة الكرمانجية، عندما اشمأزت نفسي، قال:

ـ زازائية.

ـ وهذا السؤال باللهجة الزازائية، إن هاتين اللهجتين من اللهجات المهمة في اللغة الكردية وفي ذلك الحين لم أكن أجيدهما، لم أكن أفقه منها كلمة واحدة لكن نتيجة الحديث والإشارات قلت له: نحن لم نفهم منك من فضلك تكلم بالتركي وسمحت له بالجلوس في مكاني احتراماً لكبر سنه، وسألني: أأنت ألماني ؟

ـ نعم.

ـ من فضلك اسمح لي أن أقبل وجنتيك ؟

ـ بكل حنان قبلني.

(لم يجلس في مكاني بل جلس في مكان علي بك).

ـ اسمي كمال (بدأ بالكلام) علي بك بعثني إليكم.

ـ كمال ! حدثني الأمير (علي بك) عنك قبل الآن.

ـ ماذا قال عني ؟

ـ ستتألم إن قلنا لك.

ـ أنا سأتألم ! كمال لم يحس مرة بألم، كل الهموم في قلوب الناس ذقتها في ساعة.

ـ إذن كيف أتألم ؟

ـ علي بك قال: أتعرف أميرألا(عمر آماد).

ـ لم تظهر خيوط في حاجبيه وبكل راحة أجابني.

ـ أنا أعرفه، ولكنه حتى الآن لا يعرفني، لقد قتل زوجتي وأبنائي، لماذا تسألون عنه ؟

ـ عفواً (علي بك) بنفسه سيقول لك.

ـ أعلم أنه ليس من الضروري أن تقولوا لي، علي بك لا يخفي عني الأسرار قد قال لي ما بخصوص موضوع الأتراك، أتعتقد أنهم سيهجمون، ويعكرون جو العيد علينا ؟

ـ نعم أعتقد ذلك.

ـ حسناً سيرون من نحن، نحن أكثر تسلحاً من ذي قبل. عندها أخفيت عنه نفسي.

ـ أ أنت متزوج ؟ ولك أطفال ؟

ـ لا.

ـ لم أستطع أن أدرك كيف أعيش وكيف مت منذ زمن لكن يجب أن أقول لك:

ـ أسمعت عن تلعفر ؟ أ لديك معلومات عنها ؟

ـ لقد قرأت عنها.

ـ أين؟

ـ في كتابنا المقدس، أتى اسم تلعفر.

ـ ذكر أسماء مدننا قبل آلاف السنين في كتبكم ؟

ـ نعم، أنت بير الإيزديين، أنت مشهور اقرأت الكتب المقدسة للمسيحية ؟

ـ لدي التوراة باللغة التركية، صفحات كتابكم أكثر من صفحات القرآن، لكن اسمعني لأقص لك قصتي.

ـ عندما هاجمنا الأتراك، كان داري في قرية ميكران بجبل سنجار، كنت وزوجتي وأبنائي، هربنا إلى تلعفر لأنها مدينة أحد معارفنا وكان لي صديق هناك قصدته، رحب بي وأخفاني عنده لكن الأتراك المتوحشين هاجموا تلعفر لقتل الإيزيدية الذين هربوا إلى هناك، علموا بمكاني وقتلوا صديقي بسببي، وأخذوني مقيد اليدين مع زوجتي وأبنائي إلى خارج المدينة، وهناك أشعلوا ناراً كبيرة كانوا يلقون بالإيزديين في النار، والدماء تسيل، وضرب الملازم فمي بالخنجر فانبثقت منه النار، انظر إلي ما زالت آثار الخنجر شاخصة، غضب أولادي وثاروا

لأجلي وأتوا لنجدتي والدفاع عني، لكن الملازم قيدهم وزوجتي مثلي ، وأمام عيني وضعهم في النار، الثلاثة احترقوا، ثم سحب الخنجر من فمي وضربني في صدري وسحبه إلى الأسفل، بلا شك سقطتُ، وعندما استيقظت كان الوقت ليلا ً، رأيت نفسي مع القتلى، رأس الخنجر لم يصل إلى قلبي، لكني كنت ملطخاً بدمي، وفي الصباح رآني شخص كلداني فرفعني وحملني إلى قريته وأخفاني، مرت أسابيع إلى حين شُفيت، شعر رأسي في ساعات الموت صار أبيض اللون كالثلج، شفيت لكن روحي ماتت، لا قلب لي، وبقي أثر اسم الملازم ينتفض لسماعه وذكره صدري، إنه (عمر آماد) الذي أصبح الآن أمير ألا.

ـ أتريد أن تأخذ بثأرك ؟ (سألته).

ـ الثأر!؟ ما هو الثأر؟ الثأر عمل سيئ، أريد أن أعاقب ذلك الرجل أمير ألا ، و ليرحل جسمي إلى مكان تواجد روحي.

ـ أسترافقوننا في العيد ؟

ـ حتى الآن لا ندري.

ـ ابقوا هنا ، في هذا الوقت لا داعي لذهابكم اطمئنوا هنا ، لم يبقَ تركي في طريقكم، الإيزديون يمتلكون القوة لحفظكم. (الآن هذا الرجل غير نبرات صوته وتكلم بصوت آخر، ورجعت ملامحه إلى سابق عهدها).

ـ بقاؤنا قد يؤثر على عيدكم وفق كلام الأمير علي بك (تعمدت ذلك الكلام، لأحصل على معلومات أخرى عن دينهم)، بير كمال بإشارة اليد قال: لا.

ـ أتصدقُ أكاذيباً ، الذين يلفقون التهم بالإيزيدية ؟

ـ قارن بيننا وبينهم سترى عندنا النظافة والقلوب الصافية، النظافة التي نناضل من أجلها نظافة الجسم والروح، نظافة الحديث والتعليم، الماء النظيف والنار النظيفة، لهذا نكن الاحترام والتقديس للماء ونتعمد به ونحترم النار لأنها من سمات النظافة للّه ويذكر كتابكم المقدس أن الذي في النور لا يستطيع أحد الدخول إليه، إنكم تتطهرون بالماء المقدس، ونحن نتطهر بالنار المباركة، ونحن نمد أيدينا إلى النور ونبارك به نياتنا، كما أنتم تفعلون بالماء، أنتم تعتقدون بـ (عيسى) وتقولون أنه الآن مخفي بين الناس، قد غير نفسه، سيعود مرة أخرى، يفتح باب السماء، ونعلم متى كان إنساناً، لكن لا نعلم متى سيعود، اليقظة والصلاة يقيان الشخص من المخاطر، لهذا نكن احتراماً للديك، لأنه رمز الوعي، ألا تفعلون ذلك ؟ أعتقد أن المسيحية تجلب ديكاً مصنوعاً ومطعماً بالذهب إلى الأديرة والبيوت، أنتم تجلبون الديك الميت ونحن نجلب الديك الحي إلى مكان عبادتنا.

ـ قال بير كمال: على ذلك أنحن عابدون للّه أم أناس غير صالحين! علماء الدين وأساتذتكم جيدون ليكن لدينا أساتذة جيدون، كنت أتمنى أن يكون لدينا شيوخ وبيرانية وقوالون متعلمون بين الإيزديين، وأنا الوحيد الذي أستطيع القراءة والكتابة لذلك لا يستطيع أحد منهم التحدث معك مثلي.

ـ لماذا لا تقولون لقساوسة المسيحية أن يعلموكم القراءة والكتابة ؟ (سألتهم):

ـ لأننا لا نود المشاركة في عدم اتحادكم، القساوسة وعلماء الدين المسيحية ليسوا متحدين، إذا قلتم لنا يوماً نحن قد اتحدنا، حينئذ سنرحب بكم، لقد أرسل لنا القساوسة الأوربيون الأساتذة لنتعلم القراءة والكتابة، سيرتكبون خطأ قال

عيسى في كتابكم، أنا طريق الحقيقة والحياة، إذن لماذا سلكتم عدة طرق، يوجد طريق مستقيم واحد! عندما لا نقتتل مع المسيح قد ننتظر ذلك المحرر، ولا بد أن يأتي (في هذه الأثناء دخل علي بك الغرفة، سعدت بذلك لأنه لم يبق شيء لينبذني، ولم أستطع الإجابة عن سؤاله أمام عدم الاتحاد الديني في وطني).

ـ قام بير كمال وقال: اللّٰه معك ويكون معي أيضاً سأذهب إلى الدرب الذي أردت الذهاب إليه سنلتقي مرة أخرى، ذهب بير كمال وأشار أنه (علي بك) وقال: بير كمال أعلمُ شخصٍ عند الإيزيدية، لم يصل أحد إليه، درس في إيران، وفي الهند، وفي القدس، وفي إسطنبول، إنه دارس ورحّال مع ذلك كله فقد ألف كتاباً.

ـ ألّف كتاباً! (قلت بتعجب).

ـ نعم بيننا بير كمال الوحيد الذي يجيد القراءة والكتابة،إنه يريد أن يصل بالإيزيدية إلى ما وصلت إليه أوربا عقلاً وفهماً وعليه لابد أن يقرأ كتبهم كي نصل إلى مستواهم، ولهذا ألف كتاباً بلغتنا واضعاً مئات الكلمات والأصوات فيه، هذا ما ينص عليه الكتاب.

ـ يبدو أنه كتاب ثمين، أين هذا الكتاب.؟

ـ إنه في داري وفي غرفتي، بير كمال مبارك، الناس تكن له الاحترام والتقدير، والجميع يريد كسبه ويسعى إلى إرضائه، وكافة أنحاء كردستان داره لكن مأواه عندي.

ـ أتعتقد بأنه سيلاحظني بكتابه ؟

ـ من أجل ذلك سأطلب منه.

ـ بلا شك.

ـ من أجل ذلك بدون تأخير سأطلب منه، أين ذهب ؟

ـ أنت لا ترى بير كمال الآن، لقد ذهب لحراسة الناس لكني سأريك كتابه، قبل ذلك يجب أن تعدني بالبقاء عندنا.

ـ قصدك أن نؤجل سفرتنا إلى العمادية ؟

ـ نعم، كان معنا ثلاثة رجال من أهالي كلينية، إنهم من سلسلة بهدينان عائلة مزورية، والثلاثة كانوا أذكياء وذوي حيوية، إنهم رجال جيدون وثقتي بهم عالية، لقد أرسلتهم إلى العمادية للعمل الاستخباراتي على الأتراك وجمع المعلومات عن آماد الكندور، أرسلناهم لأجل خاطركم لهذا عليكم الانتظار إلى حين مجيئهم.

من كل قلوبنا نستقبل الطلب، مرة أخرى رحب بنا علي بك وقال: الآن تعالوا معي كي تتعرف زوجتي عليكم، تعجبت من هذا الطلب، وبعدها علمت أن نساء الإيزيدية لا يخبئهن أنفسهن من الناس، كالمسلمين، والإيزديون خفاف الروح مشرقوا الوجنات، لم أر هذه السمة في المجتمعات الشرقية الأخرى، الإيزيدية البسطاء لا يستطيعون التحدث مثل بير كمال وإعطاء رأيهم حول الدين.

الفلكلور الإيزيدي مزيج من الفلكلور الكلداني، والإسلامي، والمسيحي، لكن المسيحية لن تزدهر في أي مكان كما هو الحال عند الإيزديين، في الخارج بولك أمين عند حماره، الاثنان يأكلان، والناس قد اجتمعت حولهم، كان يتحدث عن بهلواناته، خلف أيضاً ذهب إليه، ذهبتُ وشيخ محمد أمين وعلي بك إلى غرفة النساء، كانت هناك امرأة شابة جميلة تحمل طفلها على متنها، شعرها أسود جعلته جدائل(ذؤابات) متدلية على كتفيها، تلمع فوق حاجبيها القطع

الذهبية، وعندما دخلنا قالت وبدون تكبر مرحباً بكم (ذكر علي بك لها أسما ءنا ثم ذكر لنا اسمها) للأسف لم أتذكر اسمها ، أخذتُ طفلها من متنها وقبلتُه، فرحت كثيراً، طفل إيزيدي جميل، كان كأطفال الترك سميناً ولم يكن خاملاً، سألني علي بك: هل نتناول الأكل هنا أم في غرفتي؟ قلت له: هنا ، لاعبت الطفل و أخذ يلعب بلحيتي كان فرحاً بي، وبعد تناول الأكل أخذني علي بك ليدلني على غرفتي، عند صعودنا رأيت كتاباً على المنضدة و قبل أن أسأله: قال لي علي بك: إنه كتاب بير كمال، تناولته ونظرت إليه و خرج علي بك تاركاً إياي لوحدي في الغرفة.

جلست في الديوان (الجلسة) ونظرت إلى الكتاب الثمين، يحتوي على مجموعة من الكلمات العربية والكردية، عندها علمت أنني سأتعلم اللغة الكردية بسهولة، وقررت أنه ما دمت هنا فإني لن أترك هذه الفرصة، وبهذا الكتاب أتعلم اللغة الكردية، عند المساء تجلب الفتيات الماء من العيون، سمعت أغنية بصوت شاب، يقول:

الأغنية.....

لم أسمع مثل هذا الصوت في الشرق. استمعت إليها، للأسف كان يعيد المقطع نفسه ثم قمت كي أخرج، في الخارج كان السير مزدحماً ، يأتي الإيزديون باستمرار وتنصب خيمة وراء خيمة. من خلال ذلك يدرك الإنسان بأن عيداً كبيراً سيحل، وعندما ذهبت إلى باب الدار رأيت مجموعة من الناس مجتمعين حول بولك أمين، كان يكرر الحديث بصوت عال حول نفسه، عن حادث فقده لأنفه، لقد سمعت قصته للمرة الرابعة، لكن سبحان اللّٰه حتى الآن لم تنتهِ قصته حول أنفه،

لا يستطيع أن يختار الوقت المناسب للحديث عنها، هذه المرة لم يبقَ شيء وينتهي أثر قصته، لكن حماره قد نهق بصوت عالي ومزعج، وتجمع الناس حوله، ليعلموا مصدر هذا الصوت المزعج، وقف إيفرا، وقال: ماذا حدث، إنه صوت حماري (إذا استمر بالنهيق، لن ينام أحد).

ـ أينهق في الليل ؟ (سأل أحدهم).

ـ كل ليلة، كل دقيقتين مرة (أجابه محمد أمين).

ـ سأحكي لكم رواية (قال أحدهم).

ـ تمهَّل (إيفرا قطع حديثه) بأية لغة تتكلم ؟

ـ بلغتنا الكرمانجية.

ـ لم أفقه هذه اللغة لما لا تتكلم باللغة التركية ؟

ـ كيف أقصُّ عليك قصة كردية باللغة التركية ! ستفقد حلاوتها !

ـ حاول ذلك.

ـ سأحاول.

ـ (في هذه الأثناء اخترق شخص هذه الجموع وتقدم نحوي وقال):

ـ يا أفندي. أحقيقة أم كذب؟ ها أنت هنا، الآن عرفت بمجيئك كنت في الجبل لقد فرحت كثيراً، من فضلك أريد أن أسلم عليك، كان (زلك) أخذ يقبل يدي وعند الإيزيدية (تقبيل اليد) علامة الاحترام.

ـ أين باسي وملحم (سألته) ؟

ـ إنهما مع بير كمال في طريقهم اتجهوا جنوباً إلى الموصل، يجب أن أعلم (علي بك) بالخبر.

ـ سأراك لاحقاً ؟

ـ أنا راحل، (قال زلك)

ـ هل من سر في هذا الخبر ؟

ـ نعم، لكن سأخبرك، تعالَ. (أدخلنا علي بك إلى غرفة زوجته، ولم يمنع مسبقاً من يود الدخول إلى هذه الغرفة، خلف كان هناك يتناول الأكل).

ـ علي بك (قال زلك) كنت في الجبل مقابل بوزان، أودُّ إعلامك بشيء.

ـ قل.

ـ من فضلك، هل ندَع الجميع يستمعون ؟

ـ لا مانع لدي، ليستمع الجميع.

ـ كنا نعتقد أن والي الموصل قد جهز خمسة مئة مقاتل إلى العمادية ضد الأكراد، لكن لا صحة لهذا النبأ، مئتا مقاتل قد قدموا من ديار بكر عبر أورمية والآن اختبأوا في غابات (به رى كاره).

ـ من قال لك هذا ؟

ـ حطاب من أهل موكانيش، كان في طريقي وأخبرني بأنه كان متجهاً جنوباً إلى (كاراكويونلى)، ووصلت جذوع أشجاره عن طريق الماء إلى هناك، أما المائتي مقاتل الذين قدموا من كركوك فإنهم لم يذهبوا إلى العمادية، إنهم متجهون نحو (أربيل) و(كرده شين) عبر (التون كوبري)، الآن أمام دير(مارمتي) بجانب الخازر.

ـ من قال لك هذا ؟

ـ كردي زيباري، أقدم من الخوصر، ليصل إلى دهوك ماراً من بوزان.

ـ الزيبارية أشخاص أمناء لا يكذبون، لا يحبون الأتراك، أنا أصدق الرجلين.

ـ أتعلم أين يقع وادي(إيدز) الذي بجانب كومل مقابل كلينية ؟

ـ قلة من الناس يعلمون بموقعه، لكنني دائماً هناك.

ـ يستطيع الإنسان أن يرسل حيواناته ولوازمه وأغنامه إلى هناك و يتمكن من الاختباء بها.

ـ والذي يود أن يعلم بموقع الوادي، يستطيع ذلك.

ـ كم تستغرق من الوقت كي تصل النساء والأطفال والماشية والحيوانات من هنا إلى هناك؟

ـ نصف يوم، نذهب عبر معبد لالش خلف قبب المباركة صعوداً، الأتراك لا يعلمون ماذا نفعل.

ـ أنت أفضل شخص هنا له خبرة في المواقع، وحول هذا الموضوع سأتكلم معك، إلى ذلك يجب الصمت وعدم البوح بالسر، أردت أن تكون في خدمة هذا الأفندي لكني سأبعثك إلى مكان آخر.

ـ من فضلك، أريد أن أرسل ابني يوسف لخدمته ؟

ـ نعم، أرسله.

ـ إنه يجيد اللغة الكردية بطلاقة (سألته).

ـ يوسف يجيد الكردية والزازائية.

ـ حسناً ، أرسله، سأرحب به.

(ذهب زلك، وتم إحضار مأدبة كبرى، كرم الإيزيدية لا حدود له، حضر ما يقارب العشرين شخصاً على المائدة احتراماً لي ولشيخ محمد أمين، ثم قام حفل موسيقي مكوّن من ثلاثة أشخاص يعزفون على المزمار والطنبور والكمنجة

والآلات الموسيقية الثلاث مقابل مزمارنا وكماننا وكيتارنا، حقاً كانت موسيقى تبهج القلب،وأخيراً علمت أن الذوق الموسيقي لدى الإيزيدية رفيعاً عذباً أكثر مما هو عليه عند المسلمين، كنا على مأدبة الأكل عندما قدم يوسف ابن زلك، أخذته معي إلى الداخل كي يساعدني في تفسير كتاب بير كمال، وعلى الرغم من المعلومات البسيطة لدى هذا الشاب لكنني استفدت منه، بير كمال أعلم شخص عند الإيزيدية، وحده فقط من يستطيع أن يكتب المعلومات حول الإيزيدية.

أما الآخرون فيحاولون التعلم، وبعد فترة بقاء يوسف عندي ذهب وبقيت وحدي كي أستريح، استيقظت في الصباح الباكر نتيجة مرور الناس الذين كانوا في حالة حركة وقدوم مستمرٍ، وبعضهم مكثوا في باعذرة، وآخرون منهم كانوا يأخذون قسطاً من الراحة ومن ثم يبدأون بالسير مجدداً نحو معبد لالش، الشخص الأول الذي رأيته هو محمد أمين.

ـ أرأيت أسفل هذا الدار؟ (سألني محمد أمين).

ـ حتى الآن لم أره.

ـ حسناً، انظر إليه من الأعلى.

(صعدت إلى السطح ونظرت إليه من الأعلى، أرى حوالي مئتي شخص (مجتمعين) حول حمار بولوك أمين، سلم علي بك علي وأتى، ثم ضحك من هذا المنظر.

ـ أفندي نحن مدينون لك بسهرة جميلة، أنت عالم كبير، إذا فتحوا الحجر عن ذيل الحمار سينهق مرة أخرى (حمار إيفرا ـ بولوك أمين ـ من كثرة نهقه، وأهل

باعذرة لم يستطيعوا النوم وكان صوته مصدر إزعاجهم لهذا رأوا له دواءً وذلك بربط حجر بذيله ليكف عن نهيقه.

ـ مؤكد أن هذا الحمار يخاف من الليل لهذا ينهق في الليل، والغاية من ربط الحجر بذيله لئلا ينهق، فعندما ينهق الحمار يرفع ذيله وإن لم يستطع رفع ذيله لن يستطيع النهيق.

ـ أتشاركونني تناول الفطور ؟ (قال علي بك).

ـ (نزلنا إلى الأسفل، دخلنا إلى غرفة النساء، رأيت خلف ويوسف مترجمي الكردي، وإيفرا هناك بدون ذوق، صاحبة الدار استقبلتنا بكل سرور وابتهاج).

ـ صباح الخير (سلمت عليها).

ـ صباح الخير (حياتك بخير).

ـ كيف صحتك ؟

ـ جيدة.

ـ كيف أنت ؟

ـ بخير والحمد للّٰه.

ـ أتتكلم الكرمانجية؟ (علي بك قال بتعجب).

ـ أعلم ما قرأت في كتاب بير كمال يوم أمس (ضحكت) هذه القلة تكفي.

ـ تفضلوا بالجلوس هنا.

(للمرة الأولى تناولنا العسل والقهوة ثم لحم خرفان مشوي مقطع إلى قطع صغيرة كنا نأكله كالخبز. كذلك جلبوا لنا (إربا) نوع من البيرة الخفيفة، يقال عنها بالتركية ماء الشعير، جميعاً أكل وشرب. فقط (بولوك أمين) قد عزل نفسه جانباً

وبسكوت، كان علي بك مع الإيزيدية كالأب والابن وكان هذا شيء جديد بالنسبة لي، بعد ساعة ركبت ويوسف الجياد وخرجنا، بقي (محمد أمين) في الدار.

ـ لم يظهر نفسه، كيلا يتعرف عليه أحد.

ـ هل لك معرفة بموقع وادي إيدز ؟ (سألت يوسف).

ـ نعم.

ـ كم يستغرق من الوقت الوصول إلى هناك ؟

ـ ساعتين.

ـ أريد أن أرى ذلك المكان، أترشدني إليه ؟

ـ نعم أفندي أمرك، هل ترغب في الذهاب مباشرة؟

ـ نعم (أي طريق كنت تسلكه قبل ذلك).

ـ ذهبت مباشرة، هذا الطريق هو الأقصر، لكنه صعب المسلك!

ـ سنسلكها نحن أيضاً!

ـ يستطيع جوادك السير في هذا الطريق، كما أراه إنه بلا منافس، إلى حد الآن لم أرَ مثله، لكن لا يعرف الطريق.

ـ سأجربه اليوم.

(تركنا باعذرة وراء ظهورنا والطريق صعب لقلة سالكيه، تحتوي ممراته شقوقاً جبلية وقمماً ووديان عميقة، لكن جوادي كان يقظاً لم يوقع نفسه في المناطق العالية المغطاة بالأشجار الكثيفة، دخلنا غابات كثيفة ومظلمة في آخر الطريق، السير فيها صعبٌ للغاية، كنا نترجل عن جيادنا، ونلاحظ مكان أقدامنا بصعوبة، أما جواد يوسف فقد تعود على مثل هذه الأماكن فكان يمشي بسرعة

ويتجنب الصعوبات و يعرف الطريق، وكان جوادي طبيعياً ذا قدرة على احتمال وعورة المنطقة، كنت مطمئناً أنه سيتحمل مثل هذه الأماكن الصعبة، وعلى أية حال فإن تعب الجوادين لا بد منه، بعد مرور ساعتين من السير وصلنا إلى مكان عسير المسالك مظلم، قال يوسف: هذا هو وادي إيدز).

ـ كيف نستطيع النزول إليه ؟

ـ هنالك مسلك واحد.

ـ أيمكن الوصول عبر هذا المسلك ؟

ـ لا فرق بين هذا المسلك والمسالك الأخرى، تعالَ.

(بدأ يوسف بالسير وتبعته، أصبحنا وسط غابة من الحشائش العالية والأشجار الكثيفة التي غطت الوادي يصعب السير فيها، والغريب أنه تصعب معرفة وجود وادٍ هنا لكثرة الأشجار المحيطة التي غطته بالظلمة، ثم وصلنا إلى مكان آخر و مرة أخرى ترجل يوسف عن جواده، وأشار بيده اليمنى ثم قال:

ـ هذا الطريق المؤدي إلى معبد لالش يعلم به الإيزيدية فقط، يمتد من يسارك فيقودك إلى الوادي، شق يوسف طريقه من خلال الأدغال والغابات بعدها رأيت وادي إيدز، الحيطان عالية ومعقدة تصل السماء نزولاً إلى الأسفل، كان هنالك مسلك واحد للمرور حيث ربطنا لجام الخيول حول عنقها ومشينا وراءها، عند وصولنا إلى الأسفل استطعت رؤية الوادي بأكمله، وادٍ واسعٌ كبير يكفي لإيواء الآلاف من البشر، كان مليئاً بالكهوف العالية والمفتوحة، كهف قرب الآخر، اعتقدت بأنه كان يُستعمل للسكن فيما سبق، وفي جوانب الوادي تكسو الحشائش الخضراء الأرض، مكان خصب بالمراعي، الماء ينحدر من صخر يكفي لإرواء آلاف

القطعان الظامئة، بدأ الجوادان يجرعان الماء بينما جلسنا على الحشائش وتمددنا للبدء بالحديث.

ـ إنه أفضل مكان يختبئ فيه الإنسان بحيث لا يعثر عليه أحد و لايوجد أفضل منه.

ـ أفندي: لأجل هذا القصد، قبل الآن استغلوا هذا المكان، في (الفرمان) الأخير الآلاف من الإيزيدية حيث هربوا واختبأوا هنا، لذلك لا يجوز أن ندل الغرباء عليه و ليس بمستبعدٍ أن نحتاجه مرة أخرى.

ـ اليوم أو غداً سيهجم عليكم الحاقدون الأكثر جهالة من الأتراك المسلمين.

ـ أعلم ذلك، هجوم هذه المرة ليس من أجل الدين، وإنما من أجل أخذ ثروتنا الحيوانية والمالية كغنائم ، أعد شكيب خليل باشا خمسة آلاف مقاتل من أجل هجوم مفاجئ علينا، لكن آماله ستخيب، منذ عدة سنوات لم نحتفل بهذا العيد، لذلك الكثير من الإيزيدية هيأوا أنفسهم للحج في هذه السنة في العيد الكبير، الآلاف منهم مستعدون لمقاتلة الترك.

ـ أمُسلحٌ الجميع ؟

ـ جميعهم مسلحٌ وسترى بعينك كم رصاصة ستطلق من البنادق، لا نستطيع في سنة كاملة توفير ما يطلق خلال ثلاثة أيام ابتهاجاً بالفرح.

ـ لماذا سيهجم عليكم ؟

ـ يا أفندي يقولون بسبب ديننا، قلت لك مسبقاً لأسباب أخرى، الوالي لا تهمه مسألة الدين، لكن همه أن يصبح ثرياً، تارة يركض وراء العرب وأخرى وراء

الأكراد، مرة مع الكلدان ومع الإيزديين، أتعتقد بأن ديننا يحمل تلك الخطايا لتتم إبادتنا ؟!

(أردت أن أتقرب من هذا الشاب كي أحصل منه على معلومات لم يُرني إياها بير كمال).

ـ حتى الآن لا أمتلك معلومات عن دينكم (قلت له).

ـ ألم تسمع شيئاً عن ديننا ؟

ـ قليل جداً ما سمعته، لا أعتقد بهذا القليل:

ـ نعم أفندي، الناس يتهمون الأيزديين بأشياء لا أساس لها من الصحة، ألم تسمع شيئاً من والدي أم من بير كمال أو ملحم ؟

ـ لا، لم أسمع شيئاً منهم لكني أنتظر أن تزودني بالمعلومات.

ـ لا نكشف حقائق ديننا للغرباء لأنهم لن يفهموا معنى التوحيد عند الإيزديين.

ـ أتحسبني من الغرباء؟

ـ لا، لقد أنقذت والدي وزملاءه من الموت، كذلك أعلمتنا بهجوم تركي علينا وهذا فضل آخر كما سمعت من علي بك، سأزودك بالمعلومات الدينية لكن لا أمتلك المعلومات كلها عن ديننا.

ـ ألديكم أسرار لا يجوز لأحد أن يعلمها ؟

ـ لا، لكن في كل دار هناك أسرار يجب أن يعلم بها الأبوان فقط. الشيخ والبير والقوالون هم آباؤنا.

ـ هل من إجازة كي أسأل سؤالاً ؟

ـ اسأل، لكن أتمنى ألا تلفظ كلمة واحدة.

ـ أعلم ما تقول، لكن أريد أن تزودني بالمعلومات عن هذا الموضوع، أتجيبُ عن أسئلتي، إن لم أقل هذه الكلمة ؟

ـ نعم ـ ما أعلم به، سأقوله لك.

ـ عدا اللّٰه الأكبر، هل لديكم إله آخر ؟ (بدأت بالأسئلة).

ـ لا، لا نمتلك إلهاً آخر، ما تقصده هو مخلوق، تأتي مرتبته بعد اللّٰه الأكبر، هو رئيس الملائكة، قد خلقه اللّٰه، اللّٰه هو الإله.

ـ أتعتقد، أن اللّٰه هو القوة والرحمن والمحبة ؟

ـ نعم.

ـ حسناً، إن اللّٰه يغفر للإنسان والملائكة ذنوبهم، نحن مع هذا الاعتقاد ولأجله نحن نصاحب الفكرة.

ـ أتحترمونه ؟ أتقدسونه ؟

ـ لا، لأن اللّٰه قد خلقه مثلنا، لكن لا نتحدث عنه بسوء، ونتحاشى الكلمات التي تقال عنه .

ـ ما معنى، جلبكم الديوك (جمع ديك) إلى المعبد ؟

ـ الديك سمة اليقظة من النوم والانتباه، ألم يقل لكم عيسى أن مريم في انتظار خطيبها ؟

ـ نعم.

ـ خمسة منهم نائمون، لا يجوز أن يذهبوا إلى السماء، لم يستيقظوا، أتعلم بحكاية الشاب الذي كذب على أساتذته ؟

ـ نعم.

ـ يصيح الديك كل ساعة، يُذكرنا ويُنبهنا، لهذا نجلبه إلى المعبد، كي يلفت أنظارنا باستمرار ويوقظنا، لكي يعود خطيبها.

ـ أتعتقدون بما جاء في الكتاب المقدس خاصَّةِ المسيحية ؟

ـ نعتقد بذلك، على الرغم من عدم علمي التام بما جاء فيه ؟

ـ ألا تمتلكون كتاباً مقدساً، دونت فيه جميع المعلومات الدينية ؟

ـ لدينا كتاب محفوظ في بعشيقة لكني سمعت بأنه فَقد.

ـ ما هي آياتكم المقدسة ؟

ـ هذه المعلومات ستعرفها في معبد لالش.

ـ أتستطيع أن تقول لي من هو شيخادي ؟ الذي نفي إلى هنا ؟

ـ إنه شخص مكرم عند اللّٰه.

ـ أتعبدونه ؟

ـ لا، نكن له الاحترام، عندما نزور قبره، نعبد اللّٰه.

ـ ما أنواع العلماء والرجال الصالحين لديكم ؟

ـ في المقدمة يأتي البير، معنى الكلمة الرجل الكبير.

ـ ما لون ملابس البير ؟

ـ يلبس ما يعجبه،هو شخص متدين ويؤمن باللّٰه، منح اللّٰه بعضهم (الكرامات) كي يتمكنوا شفاء الناس من بعض أمراض الجسم والروح.

ـ يوجد الكثير من البيرة ؟

ـ حتى الآن أعرف ثلاثة منهم، أكبرهم بير كمال.

ـ استمر . .

ـ بعد البيرانية تأتي مرتبة الشيوخ، من المفروض أن يتعلموا العربية، كي يجيدوا تراويحنا الدينية.

ـ تراويحكم الدينية باللغة العربية ؟

ـ نعم.

ـ لماذا لا تكون بالكردية ؟

ـ لا أدري، (الشيخ يختار حراس القبر المبارك، يشعلون النار ويقدمون الأكل للحجاج).

ـ هل يلبسون ملابس خاصة ؟

ـ يلبسون الملابس البيضاء من أجل عملهم هذا ويلبسون حزام باللون الأحمر والأصفر حول الظهر، بعد الشيوخ يأتي المرشدون، نقول لهم (قوال) وهؤلاء يعزفون على الآلات الموسيقية المقدسة، ويتجولون من مكان إلى آخر، كي يعلموا الإيزيدية تعاليم دينهم المقدس.

ـ ما الآلات الموسيقية المباركة لديكم ؟

ـ طنبور، الدف، المزمار، هؤلاء القوالون ينشدون الشعر الديني في المناسبات الدينية.

ـ ماذا يلبس هؤلاء ؟

ـ يستطيعون لبس كافة الملابس بألوانها ولكن الأكثرية منهم يلبسون البيضاء، عمامة رأس القوال يجب أن تكون سوداء اللون كي نميزه عن الشيوخ.

ـ بعد القوالين تأتي مرتبة الفقير، يسكنون المقابر والمزارات المباركة ودائماً يلبسون الملابس الداكنة، يلفون حول عمامتهم منديلاً أحمر.

ـ من يختار الشيوخ والبيرانية والقوالين والفقراء ؟

ـ لا يختارهم أحد، وإنما هي عملية وراثية، إذا توفي شيخ أو بير، ولم يكن له ذرية تحل محله الأخت الأكبر له (في الحقيقة إنه شيء غريب، بالأخص في الشرق).

ـ من هم أكبر رجال الدين ؟

ـ شيخ باعذرة، ألم تره حتى الآن ؟ إنه الآن في معبد لالش كي يهيئ أمور العيد، هل لديك سؤال آخر؟

ـ لدي الكثير من الأسئلة، هل يُختن أطفالكم ؟

ـ نحن نعمدهم ونختنهم أيضاً.

ـ هل هناك أكل غير نظيف، لا يجوز تناوله؟

ـ لا نأكل لحم الخنزير، لا نستعمل اللون الأزرق لأنه لون السماء ولا يجوز استعماله على الأرض.

ـ ألديكم قبلة ؟

ـ نعم، عندما نصلي، نتوجه إلى شروق الشمس كذلك نوجه وجه أمواتنا إلى شروق الشمس.

ـ ما هي مصادر معلوماتكم ؟

ـ شيخ آدي المبارك، هو الذي أتانا بهذه المعلومات.

(كان بودي أن أسأله سؤالاً آخر لكن هناك صدى صوت قادم من الأعلى حين نظرت باتجاهه رأيته قادماً نحونا ثم وقف بجانبنا : لم يبقَ شيء، كدت أرميكم بالإطلاقات (هذا كان سلامه).

ـ أترمي علينا ؟ لماذا ؟ (سألته).

ـ عندما نظرت إليكم من الأعلى قلت في نفسي إنهم غربا ء و لا يجوز للغربا ء أن يأتوا إلى هنا ، ثم عرفتكم فجئت كي أعرف فيما إن كان الوادي مهيَّئاً لا نقص فيه.

ـ للهروب ؟

ـ الهروب (كرر) نحن لا نهرب، دائماً أقول لـ (بك)، كيف استطعت بالحيل سحب أعداء الشمر إلى وادي درجة، ثم ألقيت القبض عليهم وأسرتهم، نحن نفعل مثلك أيضاً.

ـ أتريدون سحب الترك إلى هذا الوادي ؟

ـ لا، نريد سحبهم إلى وادي لالش، لكن الحجاج غير مسلحين والنسا ء والأطفال سنجلبهم إلى هنا، هذا ما أمر به (علي بك) والشيخ قد أيده بذلك، ذلك أنه رأى ما ء العين تجري من الأعلى ثم قال لنا:

ـ هل تريدون العودة معي (مرة أخرى توجهنا بجيادنا إلى الأعلى ثم ركبنا وتوجهنا إلى باعذرة، عند الوصول رأيت (علي بك) حزيناً.

ـ بعد رحيلك، وصلتنا أخبار مهمة (قال علي بك) الترك قادمون من ديار بكر الآن هم في جانب نهر كومل، والذين قدموا من كركوك الآن في أسفل جبل مقلوب شيخان وسيصلون إلى كومل أيضاً.

ـ يبدو أن رجالك في الاستخبارات رجعوا من العمادية ؟

ـ لم يرجعوا بعد من الضروري أن يراقبوا الجيش التركي هناك، لكنهم بينوا لنا أن هنالك محاولة هجوم تركي واحدة علينا.

ـ هل يدرك الناس ذلك ؟

ـ لا، إذا علم الناس سيعلم عدونا أننا مهيأون للمعركة، يا أفندي إما أن نقاتل حتى الموت أو نعطي درساً لشكيب خليل باشا لن ينساه.

ـ إلى نهاية المعركة سأكون معك.

ـ أشكرك، لكن لا يجوز أن تقاتل !

ـ لماذا ؟

ـ أنت ضيفي، أمنَ اللّٰه حياتك عندي.

ـ اللّٰه يستطيع أن يقي حياتي، كيف يجوز أن أكون ضيفك وأتركك وحدك في المعركة؟ بعدها سيقول شعبك :إن ضيفك جبان.

ـ لا لن يقولوا ذلك، ألم تكن ضيفاً عند والي الموصل أيضاً، ألا تمتلك في حقيبتك الإجازات والرسائل منه؟

ـ الآن أتريد مقاتلته؟ أليس من الضروري أن تضع في المقدمة ابن صديقك كي تحرره ؟أم أنك لا تستطيع أن تنفعني حتى لا تقتل عدوي ؟

ـ تقول الحقيقة، ما قلته هو الحقيقة، لا أريد القتال أريد أن أفعل شيئاً لا يسفح دماً.

ـ هذا المهم اتركها لي يا أفندي.

ـ ماذا ستفعل، كيلا تهدر دماً ؟

ـ أتعلم بوصول ثلاثة آلاف حاج إلى معبد لالش، إلى حين بدء العيد سيصل عددهم إلى ستة آلاف ويجوز أكثر.

ـ النساء والرجال والأطفال.

ـ نعم سنرسلهم إلى وادي إيدز، فقط نُبقي الرجال، الجيوش التركية الآتية من كركوك ومن ديار بكر ستندمج على طريق الكلينية، العساكر الآتية من الموصل ستأتي إلى هنا إما عبر الجراحية أو عين سفني، يريدون تطويقنا في الوادي المقدس، نحن نخبئ أنفسنا وننتظرهم خلف القبب وفي الداخل وبجوار الوادي عند دخولهم له، إن لم يستسلموا لن نبقي منهم أحداً وإذا استسلموا سأرسل مبعوثاً إلى باشا الموصل واضعاً الشروط أمامه مقابل إطلاق سراح مقاتليه، سيخيب ظنه أمام سلطان إسطنبول.

ـ شكيب خليل باشا سيكذب على سلطان إسطنبول ولن يقول له الحقيقة.

ـ لا ينفعه، لن يستطيع مخادعة السلطان، لأني أرسلت وفداً إليه إلى إسطنبول وسيصل قبله، (يجب أن أعترف بأن علي بك ليس رجلاً شهماً فحسب وإنما خبير ذو بُعد استراتيجي).

ـ هل ستستفيد مني ؟(سألته).

ـ ابقَ أنت مع هؤلاء الذين يحافظون على النساء والأطفال.

ـ أتحملون معكم أمتعتكم ؟

ـ ما يستطيعون حمله، اليوم سأقول لأهالي باعذرة احملوا ما لديكم إلى وادي إيدز، لكن يجب أن تكون محاولتي بسرية تامة.

ـ لكن الشيخ محمد أمين ؟

ـ شيخ محمد أمين سيكون معك، الآن لا تستطيعون الذهاب إلى العمادية، لأن الطريق غير آمن.

ـ الترك سيحترمون إجازات ورسائل والي الموصل ؟

ـ نعم، كيف لا يحترمونها، لكن العساكر من أهل كركوك سيعرفون محمد أمين بسهولة (عند الحديث حضر رجلان وعرفت أنهما باسي والآخر ملحم، عندما رأياني فرحا كثيراً وقبَّلا يدي).

ـ أين بير؟ (سألهم علي بك).

ـ إنه في مزار في كويونجيك، لقد أرسلناه، لنخبرك بأنه في اليوم الثاني للعيد ستتم مهاجمتنا.

ـ أيعلم بير كمال ما هي ذريعة الوالي للهجوم علينا ؟

ـ ذريعته مقتل تركي على أيدي إيزديين في مالتا، شكيب خليل باشا يود القبض على الرجلين المذنبين في معبد لالش.

ـ لكن الحقيقة ثلاثة من الأتراك قتلوا اثنين من الإيزيدية، أترى يا أفندي كيف هم الترك؟

إنهم يضربون مواطنينا كي يهجموا علينا، إن شاء اللّٰه سيتحقق ما يودون تحقيقه على رؤوسهم.

(تركتُ ومترجمي يوسف الغرفةَ وذهبت إلى غرفتي كي أتسلى بكتاب بير كمال وأستمر بتمارين اللغة، في هذه الأثناء كان محمد أمين صامتاً يدخن بغليونه، متعجباً لماذا أهتم بهذا الكتاب، في ذلك اليوم ليلاً وفي اليوم التالي أيضاً كنت اقرأ وأتعلم اللغة، في تلك الأثناء رأيت أهالي باعذرة يرحلون بالخفاء و كانت الغرفة ممتلئة بالأسلحة حولنا، ذكرتهم بأن حمار بولوك أمين لن يستطيع بعد الآن أن ينهق بصوت عال، لأن صاحبه عند الليل كان قد علق حجراً على ذيله، يأتي الحجاج ويعبرون، بعضهم وحيد وبعضهم الآخر مع عوائله، يأتون مجامع

منهم فقراء الحال أتوا على صدقات الآخرين ومنهم من يقدم ماعزاً أو خروفاً ، الأثرياء يقدمون ثوراً أو ثورين قرباناً ، و بعض الأثرياء جاؤوا إلى المقابر المقدسة وقدموا قطيعاً كاملاً من القرابين، هذه الخيرات والقرابين لإشباع الفقراء كيلا يشعروا بالنقص، كانت القوافل تأتي وتعبر ولم أعد أفكر بالأرناؤوط ولا الباشبزوخت الذين رافقوني من الموصل، لم أعلم ما مصيرهم وأين أصبحوا ، اليوم الثالث كان أول يوم للعيد ، أنا ومترجمي مكثنا نقرأ كتاب بير كمال.

لقد أشرقت الشمس، كنت مندمجاً مع صفحات الكتاب، بحيث لم أشعر كيف دخل (بولوك أمين).

دخل الغرفة وقال: الأمير، قلت له ماذا يوجد ؟ قال: إلى الخارج، لاحظت أن (بولوك أمين) قد حضر نفسه وتهيَّأ للذهاب بسرعة أعطيت الكتاب ليوسف ورميت نفسي، نسيت، أنه من المفروض أن أستحم في يوم العيد وألبس الملابس الجديدة إذا أردت أن أذهب إلى المعبد المقدس، حملت ملابسي ونزلت و خرجت من القرية، رأيت أن نهر باعذرة مملوء بالناس فالجميع يستحم و يجب الابتعاد عنهم قليلاً كي أرى مكاناً مناسباً لأستحم أيضاً ،استحممت وبدلت ثيابي، الإنسان يستطيع أن يفعل ذلك في زياراته إلى بلاد الشرق،، عندما هيأت نفسي لأترك المكان، رأيت تحرك الأحراش بمحاذاة النهر وظننت أنه حيوان أو شخص متخفٍّ مختبئ فيها ، نحن في أجواء معركة و يجب أن أستبين الأمر وأعرفه خوفاً من الأعداء، ما هذا ؟ اقتربت من المكان كأنني لا أدري بشيء، وفجأةً رميت نفسي داخل الأحراش والأدغال التي كانت تتحرك، رأيت رجلاً شاباً مختبئاً يظهر كمقاتل لم يحمل سوى الخنجر، تظهر علامة جرح قديم على وجهه من الجهة

اليمنى، نهض و أراد الهرب لكني أمسكت بيده وضغطت عليه، ماذا تفعل هنا ؟ (سألته).

ـ لا شيء.

ـ من أنت ؟

ـ أنا ـ أنا ـ إيزيدي (قال بتردد).

ـ من أين أتيت ؟

ـ اسمي لاسا، أنا داسني.

ـ (قد سمعت أن الداسنية هم عشيرة أصيلة من الإيزيدية لكن لا تظهر على هذا الشخص علامات الإيزيدية).

ـ سألتك ماذا تفعل هنا ؟

ـ أردت أن أستحم.

ـ أين ملابسك ؟

ـ ليس لدي ملابس.

ـ وكنت هنا قبلي، كان عليك عدم الاختباء، أين نمت يوم أمس ؟

ـ عندَ ـ عند ـ عند ـ لا أعرف اسمه.

ـ لا يأتي داسني إلى شخص غير معروف، تعال معي، أرشدني إلى ذلك الرجل الذي حللت ضيفاً عنده.

ـ قبل ذلك دعني أستحم.

ـ بعدها تعال واستحم، الآن امشِ أمامي.

ـ (ما قاله لي أنه داسني و أراد التخلص من يدي).

ـ بأي حق تعاملني هكذا ؟ (ظل يدندن).

ـ بحق السلام والانتباه، فأنا لا أثق بك.

ـ كذلك أنا لا أثق بك.

ـ قف، أتمنى أن أمشي أمامك وتوصلني إلى القرية، هناك ستعرف من أنا بعدها اذهب إلى أي مكان تريده).

ـ سأفعل ذلك، لكن يجب أن تأخذني معك.

(بدأت نظراته نحو حزامي، فرأى أني لا أحمل سلاحاً، وضع يده على خنجره لهذا ضغطت بيدي على يده ودفعته وأخرجته من وسط الأدغال).

ـ كيف لا تخاف وتفعل بي هكذا (يحدق بعينه تجاهي).

ـ أنا لم أفعل بك شيئاً..

ـ تعال معي بسرعة.

ـ ارفع يدك عني وإلا.....

ـ وإلا ماذا ؟

ـ سأستخدم القوة.

ـ استخدمها.

ها.....

ـ (ضربني بالخنجر لكني أمسكت بيده حتى دار حول نفسه).

ـ يبدو أنك لا تخاف، وأسفاه لك، (قلت له: ثم ضغطت على يده فوقع الخنجر من يده على الأرض، رفعت الخنجر ووضعته في جيبي).

ـ الآن امشِ أمامي وإلا..... خذ ملابسي، والبسها.

ـ أستاذ أنقذني ؟

ـ كيف أتيت إلى المطحنة الناعمة ؟

ـ أإيزيدي أنت ؟

ـ لا.

ـ إذن لماذا تود أن تأخذني إلى القرية ؟ مادمت لست إيزدياً، دعني و شأني.

ـ سواء أكنت إيزيدياً أو لم تكن، امشِ أمامي.

(انحنِ تحت يدي، يجب أن تأتي معي، كنا ساكتين إلى حين وصولنا باعذرة.

لكن عندما وصلنا إلى القرية، أعقبتنا مجموعة من الأشخاص إلى دار الأمير، وهناك سلمتهم هذا الشخص الغريب).

كان إيفرا واقفاً عند الباب عند مرورنا بقربه، شك بهذا المتلبس (المقبوض عليه).

ـ من هو هذا الشخص الذي أتيت به إلى هنا ؟(سألني علي بك).

ـ إنه شخص غريب، قبضت عليه مختبئاً بجانب النهر كانت باستطاعته رؤية باعذرة بالكامل، كذلك رؤية الحجاج الذاهبين إلى معبد لالش.

ـ من يكون ؟

ـ يقول اسمي لاسا وأنه داسني.

ـ عندما أجبرته على المجيء أعطاني خنجره، وقال: خذ وافعل ما شئت به.

(أبقيته في الداخل وخرجت، رأيت بولوك أمين مازال واقفاً في مكانه).

ـ أتعرف هذا الرجل الذي جلبته ؟(سألته أنا).

ـ نعم، ماذا فعل أفندي ؟ بالتأكيد تعرفه إنه ليس سارقاً ولا قاطع طريق.

ـ من يكون إذن ؟

ـ ناصرآغا، إنه كولاكاسي (رتبة عسكرية) في الجيش التركي، رفيق أميرألا عمرآماد.

ـ حسناً، قل لحاجي خلف، أن يضع السروج على الخيول.

(رجعت إلى المجلس، محمد أمين كان هناك، مختار القرية مع بعض الآخرين كانوا يسألون المقبوض عليه).

ـ منذ متى اختبأت في الأحراش ؟ (سأله علي بك).

ـ عند مجيء هذا الرجل للاستحمام.

ـ هذا الرجل أفندي، أحذرك أنت لست داسنياً ولست إيزدياً، ما اسمك ؟

ـ لا أقول اسمي!

ـ لماذا لا تقول؟

ـ لي أعداء مع أكراد هذه الجبال، لا يجوز أن أبوح باسمي ولا أستطيع أن أقول من أين أنا.

ـ منذ متى أحد الكولاكاسية كان على عداء مع الأكراد المستقلين ؟(سألته).

(اصفر وجهه أكثر من ذي قبل ومما كان عليه عندما كان في وسط الأدغال).

ـ كولاكاس ؟ما قصدك من هذا الاسم ؟(سألني).

ـ قصدي، أنت ناصر آغا رفيق أمير ألا عمر آماد، أدرك جيداً.

أنت أنت ـ أنت تعرفني ؟واللّه إنها نهايتي، آه من هذا الحظ الأسود.

ـ لا ليس بعيداً ألا نفعل بك شيئاً إن قلت الحقيقة، لماذا أتيت إلى هنا ؟

ـ ليس لدي شيء لأقوله.

ـ إذا لم تقل الحقيقة فإنك ستـ.....(قال له علي بك بعصبية).

ـ قطعت كلام علي بك بيدي والتفت نحو المقبوض !

ـ أحقاً لك أعداء ؟

ـ نعم أفندي.

ـ حسناً، مرة أخرى انتبه إلى نفسك، وأعطني الوعد بعدم البقاء هنا ثم ارجع إلى الموصل واترك عداوتك أرضاً، وسنطلق سراحك.

ـ أفندي (سألني علي بك) تذكر نحن في.....

ـ أنا أعلم، ما تريد قوله (مرة أخرى قاطعت كلامه) هذا الرجل كولاكاسي السلطان، ليس بعيداً يوماً ما سيصبح أحد جنرالاته، الآن أنت صديق السلطان وعلاقاتكم جيدة، لا أود إيذاء هذا الضابط، لو كنت أعرفه للمرة الأولى، بالتأكيد لم يحدث شيء.

ـ هل تعدني، أن ترجع الآن إلى الموصل ؟

ـ نعم أعدك.

ـ حسناً، اذهب، كان اللّٰه معك، فلا تكون عداوتك خطيرةً عليك.

(ناصر آغا قام باطمئنان، قبل ذلك رأى الموت بعينه، الآن أصبح حراً)

أفندي، إني أشكرك، منحك اللّٰه و جميع أقربائك الفضل (ثم خرج، كان خائفاً خشي أن نتراجع عن قرارنا).

ـ ماذا فعلت (قال علي بك بغضب).

ـ لا، إنه أفضل ما فعلت (أجبته).

ـ هذا استخباراتي، رجل استخباراتي كان يستحق الموت !

ـ هذه حقيقة.

ـ وأنت أطلقت سراحه، لماذا لم تجبره على قول الحقيقة ؟

(تؤلم الإيزديين، لكني لم أقتل نفسي، كي يطعن بي، سألت علي بك: أي حقيقة سيقول لك ؟

ـ ليس بعيداً بكثير.

ـ لم يقل أكثر من هذا، فاعلم ما نعلم، ناصر آغا يقتل نفسه ولا يقول الحقيقة.

ـ بعدها كنا سنقتله.

ـ ماذا يأتي بعدها ؟

ـ لا شيء، سوى نقصان أحد رجال الاستخبارات.

ـ أهكذا، ما كان سيأتي شيء آخر، لقد أرسلوا هذا الضابط، كي يعلموا فيما إن كنا نعلم بهجومهم أم لا، لو سجناه أو قتلناه لعلموا أننا على علم بالهجوم لكننا أطلقنا سراحه لذا سيعتقد أميرألا أننا لا نعلم بهجومهم ولذلك اتخذتُ هذا الإجراء مع الضابط، سيقول: لا يوجد مغفلون يطلقون سراح ضابط إذا علموا بالهجوم عليهم، فهل قلت الحقيقة أم لا ؟

ـ أرجو المعذرة يا أفندي ! أفكاري ليست بعيدة النظر كأفكارك، لكني سأرسل أحد رجالي في الاستخبارات ليتأكد لنا فيما إن كان قد غادر أم لا ؟

ـ يجب عدم فعل ذلك، لأنه سيعتقد أننا أطلقنا سراحه من أجل شيء ما، فإنه سيختبئ هنا، باستطاعتك أن تسأل هؤلاء الناس الذين يأتون إلينا، هل رأوا ناصر آغا في الطريق أم لا ؟

ـ كنت مطمئناً من عملي هذا لأني أصبت هدفين بحجر واحد، الأول أنقذت شخصاً من الموت والثاني أفشلت محاولة أميرألا عمر آماد، كنت أفكر في ذلك، عندما دخلت غرفة النساء، كي أتناول شيئاً من الطعام، لكن قبل ذلك، كنت أبحث عن أدواتي التي أهداني إياها (عيسى بن مفلاي)، أخرجت سواراً ذهبياً من غلافه، عندها دخلت الغرفة، رأيت (بك) الصغير الجميل على صدر أمه، حاولت رسم صورته، ولم يصعب ذلك عليّ، لأن جميع الأطفال متساوون ، بعد التقاط صورته وضعت الصورة في ذلك الغلاف الذي كان السوار في داخله وأعطيته لأمه وقلت لها:

ـ للذكرى، هذه هدية تقبَّليها من شخص ألماني فيها صورة ابنكِ، هذه الصورة على الورق ستبقى إلى الأبد و حتى إن أصبح ابنك عجوزاً، نظرت إلى الصورة وفرحتْ بها، وبعد خمس دقائق شاهدها كافة أفراد العائلة والحاضرون، وبالكاد(عنوة) تخلصت من شكرهم، وخرجنا ليس لأجل الإحساس بالعيد وإنما بسبب الظروف الصعبة، لبس علي بك أجمل ملابسه وركبنا خيولنا وخرجنا و تبعنا رجاله، كان محمد أمين بجانبنا، لم يكن مطمئناً لتأخر سفرنا إلى العمادية ـ في مقدمتنا فرقة موسيقية من طنبور ومزمار ودف، تلت ذلك نساء كثيرات خلف حمير محملة باللحاف والفراش ومستلزمات الدار(العفش).

ـهل استعد أهالي باعذرة للقتال ؟(سألت علي بك).

ـ نعم، لقد هيأنا الحراس في الجراحية، سيعلموننا في حالة اقتراب العدو.

ـ ستترك باعذرة للأتراك دون قتال ؟

ـ سيتقدمون بصمت، كي يغدروا بنا.

(من الآن فصاعداً ترتفع الأصوات عالياً، العيارات النارية من كل الجوانب وكأنها معركة كبيرة، أصبح الطريق ضيقاً صعباً، والصعود إلى الجبل (أجبرنا على الترجل عن الخيول والذهاب شخصاً تلو الآخر، على شكل نسق بسبب ضيق هذا المسلك، بعد ساعة من السير وصلنا إلى رأس المفرق، وأصبح بمقدورنا رؤية الاخضرار والأشجار في وادي لالش من الأعلى، يستطيع الإنسان أن يحصي الأحجار والقبب البيضاء، انطلقت العيارات النارية من الأعلى، وفي الأسفل ردوا عليها و أطلقت رصاصات بلا حساب، و صداها يملأ المكان بين الجبال والوديان والقوافل دائمة الوصول باستمرار، وعند نزولنا من الأعلى رأينا مجموعات من الحجاج تستريح تحت ظلال الأشجار، عيونهم تشخص صوب القبب المقدسة والجبال الشامخة، ثم أصبحنا عند المعبد الكبير فاستقبلنا أمير شيخان، الشيخ الروحي للإيزدية، و في الأعلى مجموعة من الشيوخ أصبحوا في طريقنا، كانوا يقولون لأمير شيخان (أمير حاجي) أنه من العوائل البسميرية، ومن أكبر العوائل المعروفة عند الإيزيدية ويقال عنهم(بسمير) أو (البكوات) وأمير معبد لالش أيضاً كان شيخاً رحيماً، كان موضع احترام وتقدير، لم يكن متكبراً انحنى أمامي و قبَّل رأسي كما لو كنت ابنه، السلام عليكم ورحمة اللّٰه.

ـ مرحباً بمجيئك (سلم الأمير).

ـ سهَّل اللّٰه عملك (أجبته).

ـ يبدو أنك لا تود التحدث معي بالتركية ؟

ـ لم أجد لغتكم بشكل متقن بعد.

ـ أمرك، أنت ضيفي في المكان المقدس، ما تودُّ مُعدٌّ لك.

(بالقرب منه ارتجلنا عن خيولنا، وبإشارة منه لزم البعض لجام الجياد، علي بك، شيخ محمد أمين وأنا بجانب أمير الشيخان دخلنا المزار، وعند وصولنا حائط الباحة كانت تعج بالناس فدخلنا من الباب في حين لا يجوز لغير الإيزيدية الدخول إلى الداخل ومن يدخل يجب أن يخلع حذاءه، ويبقى حافيا، جاريتهم بالأمر وتركت حذائي خارجاً، كانت الباحة مليئة بأشجار الزيتون والعنب ويقوم الحجاج و بعض القوالين والشيوخ بالاستراحة والتفيُّؤ تحت ظلال تلك الأشجار فيقوا أنفسهم حرارة الشمس، أفرغوا لنا المكان وبقينا لوحدنا.

داخل باحة المعبد توجد مجموعة من القبب قممها مطلية بالذهب ومزينة بالمشاعل، اثنان منها ارتفعتا إلى السماء، وهناك بعض الصور على الباب الرئيسي كانت صور، أسد، ثعبان، فأس، رجل، ديك، داخل المعبد رأيتها مقسمة إلى ثلاثة أقسام، واحدة أكبر من الأخرى.

واجهة المعبد مبنية على الأعمدة فيها عين للماء، هذا الماء مقدس لدى الإيزيدية، يعمدون أطفالهم به في أحد الأقسام الصغيرة، كان القبر المبارك تحت الغرفة المثلثة مغطى بقطعة قماش خضراء، كذلك هناك مشعل دائم الإنارة في الغرفة، كانوا يجددون تراب القبر، لأن السدنة يصنعون البرات من التراب، ويشتري الحجاج البرات بتلهف، كي تبقى ذكرى لديهم، ولزيادة الخير والتبرك يضعونه في شريط يلبسونه على عنقهم، وقد وضعوا البرات في كأس، منها كحبة الحمص، ومنها كحبة العدس ومنها مثل الدعبل، في الغرفة الثانية، هناك قبر آخر، لكن لا معلومات للإيزدية عنه، كانوا يشعلون المشاعل والشموع التي تحيط بجدران المعبد المبارك في العيد، وتخصص بعض الغرف في المعبد للشيوخ

والبيرانية والخدم، وكذلك لبعض الحجاج، لكل عشيرة إيزدية غرفة لا يجوز لغيرهم الدخول إليها، كل هذه البيوت مع المعابد والمقابر المقدسة في داخل وادي حصين، الأطراف الأربعة للوادي كالقمم الشامخة تمتد إلى السماء، خارج الجدران الأربعة، هنالك السوق السنوي المليء بالأشياء بما يفتح شهية الإنسان وتم تعليقها بأغصان الأشجار و القماش الملون وأنواع من الفواكه للبيع، لولا الثقل لاشتريت أشياء كثيرة لاخذها معي الى الوطن، هؤلاء الإيزديون جذبوا قلبي إليهم، يجب أن أقول ما قاله لي أحد الرحالة العالميين في إسطنبول، عندما حل ضيفاً لمدة أسابيع في قرية تللسقف (الناس تلفق التهم بالإيزديين لأن الإيزديين أفضل منهم، كانوا كثرة ولو لم يفترقوا لأصبحوا شعب ألمان (آسيا)، ولكان المسيحيون يساندونهم، كتب المسيونار والرحالة الذين جاؤوا من وراء البحار عن الإيزيدية بعين الصدق والحقيقة في الوقت المطلوب كي يعطوا معنى لإيمانهم. لم أكن ثرثاراً فأثير انزعاجهم كنت طيب التعامل معهم، فقد أصبحنا كأنما يعرف أحدنا الآخر منذ زمن بعيد ونعيش في الدار الواحدة. في البداية كان الحديث عن الهجوم التركي، من ناحية المعركة تحمل عبئها علي بك، ثم سار الحديث عن شيخ محمد أمين والبهلوانية وأهدافنا الحالية.

ليس بعيداً أن تقعوا في المأزق وتحتاجوا إلى تعاون (قال أمير الشيخان) سأعطيكم نيشاناً وكل إيزيدي يراه سيمد يد العون لكم.

شكراً لك، هل ستزودنا برسالة؟ (سألته).

ـ لا، سأعطيك ملاك طاووس (عجبت لذلك، هذا هو الاسم الذي يقال عنه إله عند الإيزديين، اسم ذلك الطير الذي يجلبه الإيزيدية إلى المعابد و يشعلون

البخور ويطفئون المشاعل كيلا يرى أحد عبادتهم، وأخيراً أسماء هؤلاء المتدينين والصالحين الذين يثق بهم أمير الشيخان والذين يعملون أعمال خاصة، توجد توضيحات حول هذه الكلمة المظلمة، بكل سرور تحدث عنه وسنحت لي الفرصة وسألته: ملك تاووس، هل من إجازة أن أسأل ما هو ملك تاووس ؟

(أجابني، كما يجيب أحد ابنائه: ملك تاووس، ذلك الاسم الذي لا نلفظه، ملك تاووس لدينا أيضاً صفة من صفات البطولة والانتباه، ملك تاووس عندنا صورة لـ (طير طاووس) الذي سأعطيك وأعطي الذين أثق بهم، أنا أعلم بتلك الأكاذيب الملفقة بنا و لا داعي لندافع عن أنفسنا أمامك، تحدثت مع شخص وقد رأى الكثير من الأديرة المسيحية قال لي: هناك العديد من صور للسيد المسيح ومريم العذراء في الأديرة، كذلك صورة العين إنها رمز أب اللّٰه، صورة الحمام رمز روح اللّٰه، جميع هذه الصور موجودة هناك، لكن لا أصدق أنكم تعبدون تلك الصور، نحن نراكم بالصواب وأنتم ترونا بالخطأ، من الأذكياء؟ نحن أم أنتم ؟ انظر إلى ذلك الباب، أتعتقد أننا نعبد تلك الصور؟

ـ لا.

ـ أترى صور، الأسد، الأفعى، فأس، الإنسان، الديك، الإيزديون لا يجيدون القراءة لهذا نفهمهم بواسطة هذه الصور، إنهم لا يفهمون من الكتاب لكنهم لا ينسون هذه الصور، إنهم يرون تلك الصور على المقابر المقدسة، شيخ عادي كان إنساناً لذلك لا نعبده، نحن نجتمع حول قبره كما يجتمع الأطفال حول قبر آبائهم.

ـ هل هو واضع اعتقاداتكم !

ـ وضع بعض الاعتقادات، لكنه لم يضع لنا العادات والتقاليد، لأن القلب هو مكان الاعتقاد، لكن العادات والتقاليد تنبت في الأرض، تلك الأرض التي نعيش عليها،

ـ أسمعت أن شيخ عادي يخلق أشياء ؟ لم يخلق.

ـ اللّٰه وحده يستطيع خلق الأشياء لكن إذا أراد ذلك يفعله بأيادي الناس، انظر إلى تلك الغرفة في داخلها عين ماء، شيخ عادي قد فتحها، انشق الصخر فتدفق الماء من داخله، هذا ما قيل لنا، لا نلزم الناس بالاعتقاد، أصدَّقوا أم لا، إنها فعلاً معجزة، هذا الماء الذي يجري من هذا الصخر الصلب اليابس يرمز لدينا إلى نظافة الروح، لهذا نراه مقدساً ليس لأنه من مصدر عين زمزم (أمير الشيخان قطع حديثه، لأن باب الباحة قد انفتح كي تدخل مجاميع إلى الداخل، كل حاج يحمل مشعلا، هذه الشعلة نيشان للشكر والتضحية من أجل الأفراح والمآسي لأهله وأقربائه، جدير بالذكر أن هذه المشاعل لشيخ شمس، هذا النور رمز نظافة اللّٰه. الحجاج جميعهم كانوا مسلحين، رأيت تلك الأسلحة التي صنعت بأيادٍ كردية رأيت اثنين من تلك الأسلحة كانا دون المستوى المطلوب، هذه الأسلحة لا تنفذ مهامها، الحجاج سلموا مشاعلهم إلى الشيوخ والبيرانية والقوالين هناك، ثم أتوا إلى أمير الشيخان رجلاً خلف الآخر كي يقبلوا يده، عندها غيروا حمل بنادقهم بحيث تكون الفوهة نحو الأسفل والبعض منهم وضعوها على الأرض.

ـ هذه المشاعل لإضاءة الوادي ليلاً في أيام العيد، لا يجوز تزويد المشاعل بالنفط الأبيض والنفط الخام وإنما بزيت السمسم فقط.

عندما ذهبت قوافل الحجاج ما يقارب العشرين طفلاً كانوا قد عمدوا، وختنوا، بعد حين تجولتُ و محمد في الوادي، الشيء الذي أدهشني كثرة المشاعل والشموع وما حمله التجار للبيع هنا، كان بالآلاف، إنه يوم التجار، حينما وقفنا قليلاً أمام تاجر الزجاج والدرر والمرجان رأيت بير كمال الأبيض نازلاً من أعلى الوادي، يبدو أنه سيمر من أمامنا إلى المعبد المقدس، وعندما رآني وقف وقال: أهلاً بكم في مزار شيخ شمس، من المفروض أن تتعرفوا على مقدسات الإيزيدية، وحين رأى الناس بير كمال اجتمعوا حوله وأرادوا أن يقبلوا ردنه أو يده، خطب فيمن كانوا حوله، هواء الصباح حرك شعره الأبيض وكانت عيناه تبرقان، حركاته كانت روح جديدة وحياة جديدة يقدمها للناس حينها، في أعلى الوادي بدأت إطلاقات النار تسمع، الذين في الوادي أجابوهم بالإطلاقات ،للأسف لم أستطع أن أفهم حديث بير كمال لأنه كان يتحدث باللغة الكردية وبسرعة وأخيراً قرأ بير كمال لهم مقطعاً من نص ديني وترجمه لي يوسف (يا اللّٰه الرحمن الرحيم، الذي يطعم النمل، ويزحف الثعابين، يا صاحب الليل والنهار والباقي الدائم، الذي في العلا، الذي نوَّر النهار وأظلمَ الليل، عالم العلماء، القوة التي لا تقوى عليه، الذي يميت الأحياء) بعدها تفرِّق الناسَ، ثم جاء بير كمال وقال:

ـ فقهت ما قلت للحجاج ؟

ـ القليل، تعلم لأني لا أفقه لغتكم.

قلت لهم، يجب أن أقدم ضحية إلى شيخ شمس، الناس ذاهبون إلى الغابة لجلب الحطب، إذا أردت رؤيته أهلاً بك، الآن أرجو المعذرة أفندي (ذهب بير كمال

إلى مقابر الأولياء، قبل المقابر كانت هناك مجموعة من الثيران جمعها الناس مقابل جدار المزار المقدس، نحن اتبعنا بير كمال في خطاه).

ـ ماذا تفعلون بالثيران ؟(قلت لمترجمي) .

ـ سيذبحونها.

ـ لمن ؟

ـ لشيخ شمس.

ـ أتستطيعُ الشمسُ أكل الثيران ؟

ـ لا، اللحوم تُوزَّع للفقراء.

ـ فقط اللحم ؟

ـ بالكامل، اللحم، العظام، المعدة، الأحشاء، الجلد، أمير الشيخان سيوزِّعها.

ـ والدم ؟

ـ لا يجوز أن يشرب أحد دمها، الدم للأرض لأن الروح في الدم (هذا ما جاء في التوراة، أن الروح في الدم)، رأيت أنها ليست ضحية وثنية لكن كهدية الحياة كيلا يجوع الفقراء في العيد، عند وصولنا إلى مذبحة الثيران، رأينا أمير الشيخان مع بير كمال والشيوخ والبيرانية والقوالين مع مجموعة من الفقراء، كل واحد منهم كان يحمل سكيناً في يده اليمنى، وقد أحاط المسلحون بالثيران والأسلحة في أيديهم، تحضروا للرمي، أمير الشيخان نزع ملابسه المعتادة وقبض على الثور الأول ونحر عنقه بالسكين، في لحظة وقع الثور مذبوحاً، بدأت الزغاريد وإطلاق العيارات النارية، ثم رجع أمير الشيخان خلفنا، و جاء بير كمال

وكان منظره مدهشاً بشعره الأبيض ولحيته السوداء، وفعل كما فعل أمير الشيخان قبض على الثور الثاني وأوقعه، هكذا تم ذبح جميع الثيران، أمير الشيخان وقف على الضحايا وفتح عصب الدم، تجمع الفقراء لأخذ اللحم، وعندما تخلصوا من ذبح الثيران جاؤوا بقطيع من الأغنام، كذلك الأولى ذبحها أمير الشيخان، ثم بدأ الناس بالذبح، بعدها جاءني علي بك.

ـ هل ستأتي معي إلى الكلينية (سألني) أريد تأكيد صداقة بهدينان.

ـ ألستم متحدين ؟

ـ إن لم نكن متحدين، لمَ اخترت رجال الاستخبارات منهم ورئيسهم صديقي؟ يجب أن ينتبه الإنسان دائماً، تعال، ذهبنا معاً، زوجته في انتظاره، الجلسة كانت مفروشة بالسجاد، جلسنا لتناول الفطور، هنا استطعنا رؤية الوادي بالكامل، الوادي مفروش بالناس و كل شجرة أصبحت خيمة في الأعلى، وعلى اليمين معبد شيخ شمس، الذي تصله اول اشعاعات الشمس عند بزوغها، وفي دخولي إليه كانت الجدران الأربعة فقط، لا يوجد فيها شيء يذكر يجعل الإنسان يعتقد بوجود العبادة فيه، لكني رأيت ماء صافياً ينحدر من مجرى، كذلك رأيت كتابة على جدار من الجص، مكتوب، يا شمس، يا نور، يا حياة اللّٰه.

ثم جاء الكثيرون من الرحالة (أصحاب الأغنام) إلى أطراف المعبد، الرجال جالسون أمام الحائط، لبسوا عمامتهم باللون المفتوح، بشكل عجيب غطوا أجسادهم بالعتاد، لبست النساء قماش الكتان، جدائلهن مزينات بالورد متدلية على الأكتاف، غطين جبينهن بالذهب والفضة، ولبسن في أعناقهن قلائد من النقود والمرمر والمرجان والأحجار المنقوشة، رجل من سنجار كان واقفاً أمام جذع

شجرة يقابلني، كان أسمر اللون، ملابسه بيضاء ونظيفةً، نظر حوله وهو يرفع شعره الطويل عن عينيه و يحمل بندقية طويلة و فتيلاً قديماً، في خصره خنجر يده منقوشة، بدا رجلاً شهماً وبجانبه زوجته التي كانت تحوم حول النار، تخبز كعكات الشعير، وهناك طفلان أسمران شبه عاريين يتسلقان جذع الشجرة، كل واحد منهما يحمل سكينة و ليسا بعيدَين عنهم، الكثير من أبناء المدن قد نصبوا خيامهم، يبدو أنهم من أهل الموصل، رجالهم كانوا منشغلين بأميرهم المنهك، نساؤهم ضعيفات الوجه غير جميلات الوجه، من الواضح أنهم فقراء ومنهكين، والناس قد جاؤوا من كل صوب رجالاً ونساءً وأطفالاً، من الشيخان ومن سوريا وميديات، وسيمسات، وأميردين، ونصيين، وكندال وديلماميكان، وكوكان،وكوجلليكان، وحتى منطقة توزبك، وديلماكومكومكو، كبار السن والشباب فقراء وأثرياء، الجميع في قمة النظافة، البعض قد وضعوا ريش الطيور في عمائمهم والبعض الآخر أفندية دون عمامة، الجميع مسلحون و الجميع يعيشون كأخوة وأخوات و النساء غير متحشمات، الجميع كأنما عائلة كبيرة واحدة. هنا كان اللقاء و الآن أطلقت حفنة من العيارات النارية، وتوجه الجميع نحو القبور المباركة.

ـ لماذا توجه الناس إلى هناك ؟(سألت علي بك).

ـ لجلب لحم الثيران (الضحايا، القرابين).

ـ هناك شخص يوزع لهم ؟

ـ نعم، فقط الفقراء، إنهم يصطفون داخل الخيام أو تحت ظلال الأشجار، أكبرهم يذهب معهم، ويجلبون معهم نيشان (علامة).

ـ ألا يأخذ الشيوخ والبير والقوالون من اللحم ؟

ـ من لحم الثيران، لا، لكن في اليوم الأخير للعيد يذبحون بعض الثيران والخرفان، الذبائح البيضاء اللحم للشيوخ والبيرانية.....

ـ هل يجوز لعلماء الدين أن يقترفوا ذنوباً ؟

ـ ولِمَ لا . إنهم بشر.

ـ حتى أمير الشيخان، البيرانية، الصالحون ؟

ـ هم كذلك أيضاً.

ـ أتعتقد أن الشيخ الكبير المقدس، شيخ عادي كانت له ذنوب ؟

ـ نعم قد يكون للشيخ عادي ذنوب، لأنه ليس اللّٰه.

ـ أتتركون ذنوبكم على أرواحكم ؟

ـ لا، نرفعها عن الأرض.

ـ كيف ؟

ـ برمز النظافة، بالنار، بالماء، لقد استحممنا في يوم أمس، كي تزيل ذنوبنا و نقسم بعدم التكرار بعدها الماء يغسل ذنوبنا واليوم مساءً سترى كيف تَنْظفُ أرواحُنا بالنار.

ـ أتعتقد بأن الروح لن تذهب مع الجسد ؟

ـ كيف تموت الروح، إنها جاءت من اللّٰه.

ـ وإن لم أصدق ذلك، كيف تقنعني ؟

ـ ألم يذكر كتابكم المقدس، أنه بعث هواءً أبدياً عبر الأنف إلى الجسد.

ـ حسناً، إن لم تمت الروح، فأين تذهب عند موت الجسد ؟

ـ كيف يخرج الزفير، ونقوم بعملية الشهيق مرة أخرى، هكذا تأتي نفس اللّٰه مرة أخرى، بعد أن تخلصه من الذنوب.(حان الآن موعد الذهاب).

ـ كم تبعد الكلينية من هنا ؟

ـ أربع ساعات على الخيل.

(خيولنا في أسفل الوادي، ركبنا وبدون حراس تركنا الوادي، الطريق نحو الأعلى عند الجبال العالية والحصينة، وعند وصولنا إلى أعلى الجبل رأيت أمامي غابة كثيفة في الوديان، هذه منطقة المزورية، البهدينانية في هذه المنطقة أيضاً، طريقنا أصبح في النزول من الجبل.

ثم صعدنا نحو جبل آخر، أحياناً عند الأحجار والصخور، وأحياناً أخرى عبر غابات كثيفة، وصلنا إلى قرية معلقة في سفح الجبل ولكنها مهجورة، هنا وهناك لابد التخلص من مياه العيون الكثيفة الباردة، مياهها تنحدر نحو كومل ثم نحو خازر ثم تصب في الزاب الكبير عند إسكي كوشاف وبعد ذلك تصب في نهر دجلة، حول تلك القرية التي تحدثنا عنها كانت بساتين عنب تفترش الأرض وقربها السمسم والقمح والشعير والقطن و التين والجوز والرمان والخوخ والزعتر والتوت وأشجار الزيتون.

(لم نرَ في طريقنا أشخاصاً) لأن الأيزديين الساكنين في هذه المنطقة ذهبوا إلى منطقة جوله أميرك، الجميع موجودون في وادي لالش، قطعنا ساعتين، عندما نادانا أحدهم قفز شخص كردي من الغابة إلى طريقنا يلبس سروالاً واسعاً مفتوحاً وينتعل كلاش (نوع من الأحذية) دون جوارب، لف نفسه بقميص مُنزَلاً حتى بطنه،

وشعره الكثيف جدائل على متنه، ويرتدي قبعة صوفية فوق رأسه، بدا كأنما عنكبوت متدلٌ من على رأسه، لكنه غير مسلح.

ـ طاب يومكم (إنه سلام) (أين أنت ذاهب يا علي بك)؟

ـ حفظك اللّٰه (علي بك أجابه) أتعرفني ؟ من أية عشيرة أنت ؟

ـ أنا بهديناني، بك.

ـ أمن أهل الكلينية أنت؟

ـ نعم من أهل الكلينية.

ـ أين بيوتكم الآن ؟ أمازلتم في القرية ؟

ـ لا، هجرنا القرية إلى هنا.

ـ أدوركم بالقرب من هنا ؟.

ـ كيف عرفت أن دورنا بالقرب من هنا ؟

ـ عندما يبتعد مقاتل من أهله يحمل سلاحه لكنك لم تحمل سلاحك.

ـ تقول الحقيقة، مع من تريد أن تتحدث ؟

ـ أريد التحدث مع رئيسكم حسين آغا.

ـ ترجلوا عن خيولكم، واتبعوني.

ترجلنا ولزمنا لجام خيولنا، في الحقيقة لم أفقه كل ما دار في حديثهم، لكن بفضل هذه الأيام التي رافقتهم فيها استطعت فهم البعض منه، هذا الكردي أوصلنا إلى غابة، رأينا مخيمهم، كان محاطاً بسياج من الأشجار الواقعة وجذوعها، يحتوي على مجموعة من الدور المتكونة من جذوع الأشجار وأوراقها وأعمدتها .هناك فتحة واحدة للسياج دخلنا من خلالها، ولاحظنا مجامع أطفالٍ

يلعبون وأما الرجال والنساء فمنشغلون ببناء وتوسيع المخيم وتقوية السياج، رأينا كوخاً كبيراً في مكان منعزل يبدو لنا كأنما كان دار الآغا، وعندما رآنا الآغا استقبلنا ورحب بنا، وسع اللّٰه دولتكم، مع هذه الكلمات صافح رئيس عشيرة بهدينان علي بك، ثم أعطى إشارة إلى زوجته بتهيئة مكان الضيوف لغرض الجلوس، لم يكترث حسين آغا لي، لو كنت إيزدياً لاستقبلني بكل احترام وتقدير، أحضرت لنا زوجته ثلاثة غلايين مصنوعات من شجرة الليمون (نوع من الحمضيات)، وقدمت لنا فتاة شابة صحناً مليئاً بالعنب وآخرَ بالعسل، نزع حسين آغا من حزامه كيس التبغ المصنوع من جلد القطط ووضعه عند علي بك.

في هذه الأثناء وضع حسين آغا يده غير النظيفة في العسل وقطع منه خلية ووضعها في فمه في حين ملأ علي بك غليونه بالتبغ وأشعل فيه النار.

ـ قل لي هل هناك صداقة بيننا ؟ (فتح علي بك الحديث) .

ـ نعم هناك صداقة بيننا (أجابه حسين آغا).

ما بين أهلي وأقربائي وأهلك وأقربائك ؟

ـ نعم بينهم أيضاً.

ـ هل ستساعدني إذا هاجمني العدو ؟

ـ نعم سأساعدك.

ـ هل ستساعدني إذا طلبت مساعدتك؟

ـ إذا لم يكن العدو صديقي، سآتي لنجدتك.

ـ هل والي الموصل صديقك ؟

ـ هذا تركي، عدوي وعدو كل كردي مستقل، إنه لص ينهب أغنامنا وبناتنا ويبيعهم.

ـ هل سمعت بأن شكيب خليل باشا سيهجم علينا في وادي لالش ؟

ـ سمعت من رجالي الذين أرسلتهم إلى العمادية.

ـ العدو سيأتي من أرضك ماذا ستفعل ؟

ـ سترى (حسين آغا، أشار إلى المجمع، لقد تركنا الكلينية وجئنا إلى الغابة، الآن سنبني سياجاً حولنا كي ندافع عن أنفسنا خلفه في حالة الهجوم علينا).

ـ لن يهجموا عليكم ؟

ـ من أين لك هذه المعلومات ؟

ـ حسب تصوري إذا استطاع مقاتلو باشا الهجوم علينا فجأة سيتجنبون كافة المعارك الأخرى وسيأتون على حين غرة صامتين عبر الغابات من أراضيكم، ولن يسلكوا الطريق العام لحين الوصول إلى لالش.

ـ أنك تقول الحقيقة.

ـ إذا اجتازتنا القوة التركية عندها سيتم الهجوم عليكم.

ـ لا يجوز أن تجتازك.

ـ عندها ألن تساعدني ؟

ـ نعم سأساعدك، ماذا أفعل ؟ أتريد أن أرسل لك المقاتلين إلى لالش؟

ـ لا، فلنا الكثير من المقاتلين هناك ليقفوا بوجه الترك، أريد أن تخبئ مقاتليك هنا وتدع مقاتلي الأتراك يعبرون بصمت كيلا يشعروا بنا.

ـ ثم نضربهم.

ـ لا، لكن عند رجوعهم اقطع عليهم الطريق وما بين التل الثاني والمعبد هناك مضيق ضيق، لا يستطيع أكثر من اثنين العبور من خلاله في آن واحد، إذا نصبت كميناً تستطيع بعشرين مقاتل أن تلقي القبض على ألف تركي.

ـ سأفعل هذا، ما هي منحتي ؟

ـ إن لم تشارك في المعركة وأحرزت نصراً على العدو سأمنحك خمسين بندقية، لكن إذا شاركت فيها ببطولة سأمنحك مئة بندقية تركية.

ـ مئة بندقية تركية (من القلب قالها حسين آغا) بسرعة مد يده إلى العسل ووضع خلية أخرى في فمه، ظننتُ أنه سيختنق، مئة بندقية تركية، وكرر مرة أخرى ومد يده إلى العسل.

ـ أتعدني، أصاحب كلمة أنت ؟

ـ هل كذبت عليك يوماً ما ؟

ـ لا، أنت أخي، أنت صديقي، صديق المعركة أثق بك وأنا أستحق البنادق.

ـ أنت تستحق البنادق إذا تركت الترك يعبرون بصمت.

ـ لن يروا رجالي.

ـ من يفلتون من يدي ويرجعون إلى الخلف سنقطع عليهم الطريق.

ـ لن أقطع المضيق فحسب وإنما سأقطع الأطراف والوادي أعلاه وأسفله كيلا يتمكنوا من العبور للأمام ولا من العودة إلى الخلف، لا من الجهة اليسرى ولا اليمنى.

ـ هذا أفضل شيء، لا أريدك أن تسفك دماً لا ذنب للمقاتلين فقد أتوا بهم بالقوة، إذا كنا قساة معهم سيحقد علينا سلطان إسطنبول وسيرسل جيشاً كبيراً للانتقام منا، أنا أفهم ذلك يجب أن يفكر الإنسان بكل شيء.

ـ متى يأتي الأتراك؟

ـ رئيسهم وضع الخطة على هذا الشكل في الصباح الباكر سيهجم على لالش.

ـ أعلم أنك بطل، كما سحب الحديديون عدوهم إلى وادي درجة ثم أسروا رجاله بالأيادي ستفعل أنت.

ـ أسمعت ذلك ؟

ـ ومن لا يدري بأخبار هذه البطولة، لقد انتشرت بسرعة في الجبال والوديان وقد قام بهذا العمل البطولي رئيسهم محمد أمين.

(نظر علي بك إليَّ وضحك) ليس الأمر السهل أن يُؤسَر الآلاف من المقاتلين بالأيادي.

ـ لم يكن باستطاعة محمد أمين أن يفعل ذلك لولا مساعدة قائد أجنبي له على الرغم من بطولته.

ـ شخص أجنبي بك؟؟ (قد سأل) انزعج علي بك من عدم اهتمام البهديناني لي، لهذا قد جاءت الفرصة ليخجله).

ـ نعم، شخص أجنبي (حسين آغا أجاب) حتى الآن لا نعلم بذلك.

ـ قصَّ عليَّ هذه القصة (على هذه الصورة سرد هذا الكردي القصة).

عندما اجتمع محمد أمين رئيس عشيرة الحديدية مع وجهاء عشيرته في خيمته، جاءهم فارس من غيمة ووقف في منتصف المضيف، السلام عليكم (سلم)

وعليكم السلام (محمد أمين رد السلام)،من أنت أيها الغريب ومن أين جئت ؟، هذا الغريب كان ممتطياً فرساً أسود كسواد الليل و غطى جسمه بالدرع، وفي يده سهمٌ من فضة، يلمع مثل أشعة الشمس، خنجره يبرق كالمرجان، سيفه من الحديد والفولاذ.

ـ أنا قائد عسكري ووطني بعيد، (أجاب هذا البراق)، أنا أحبك، قبل ساعة سمعت بأن عشيرتك ستُباد و لهذا ركبت جيادي الهوائي وجئت لنجدتك.

ـ من سيبيد عشيرتي (سأله محمد أمين).

ـ قد وضع اللّٰه اسم العدو على هؤلاء الناس.

ـ أمتأكد أنت مما تقوله ؟

ـ درعي يكشف لي ما يحدث على الأرض، انظر إلى هنا (محمد أمين نظر إلى درعه الذهبي ووجد درة في داخله أكبر من قبضة الإنسان بأربع أو خمس مرات، إنه يجمع أعداءه في هذه النقطة ثم يقاتل ضدهم).

ـ أيُّ بطل محترم هذا؟! (قال) سوف نُهزم ؟

ـ لا، لن تُهزموا سأساعدكم (قال الغريب) اجمع مقاتليك حول وادي درجة و انتظر إلى حين يتجمّع عدوك في ذلك الوادي، ثم أعطِ إشارة إلى جياده. مرة أخرى صعد إلى السماء واختفى وراء الغيوم، محمد أمين فعل ما قال له الغريب، حشد مقاتليه حول الوادي وانتظر إلى حين مجيء قوة العدو إلى الوادي ولم يستطع الخروج منها، في اليوم الثاني صباحاً أتى البهلوان الغريب كضياء من بعيد، وكما تشع عشر شموس أعمى هذا الضياء أعداءه فلزموا مكانهم وظلوا في الوادي، ثم عكس الغريب درعه ففتح أعداء محمد أمين أعينهم، لكن ماذا

رأوا؟ وجدوا أنفسهم في الوادي ولا طريق لهم للعبور. لابد من الاستسلام لمحمد أمين، محمد أمين لم يقتل عدوه لكن رجاله غنموا بعض القطعان من الأغنام وفرضوا عليهم دفع ضريبة سنوية إلى الأبد.

(هكذا روى حسين آغا القصة، انتهى وسكت).

ـ بعدها ما مصير البهلوان الغريب (علي بك سأله).

ـ السلام عليكم (قال حسين آغا) ثم ارتفع جياده الأسود إلى السماء واختفى وراء الغيوم.

ـ هذه قصة ممتعة، لكن هل تعتقد أنها حقيقية ؟

ـ هذه القصة حقيقة وحدثت، خمسة من رجال (جلو) كانوا في السلامية، استمعوا إلى القصة من الحديدية وأنهم عبروا من هنا، قصوها عليَّ وعلى أهالي القرية.

ـ إنك تقول الحقيقة (علي بك وضح ذلك) حدثت هذه القصة لكن ليست هكذا، بصورة أخرى، أتريد رؤية الفرس.

ـ علي بك لا يمكن ذلك ؟

ـ يمكن .لأن الفرس ليست بعيدة عنك، تلك هي الفرس.

ـ لا تجاملني !

ـ أقول الحقيقة.

ـ حقيقة لم أرَ فرساً مثلها، لكن الفرس لهذا الرجل.

ـ هذا الرجل هو البهلوان، الذي ذكرته في قصتك !

ـلا يمكن (لشدة التعجب، فتح هذا الكردي فمه، كأنه تحت يد طبيب الأسنان).

ـ أتقول لا يمكن؟ هل كذبت عليك يوماً ؟ تأكّد من حقيقة ما أقوله.

(مرة أخرى فتح حسين آغا فمه وعيناه مندهشاً و نظر إليّ ودون شعور مدَّ يده إلى العسل مرة أخرى، لكنه في هذه المرة وضع يده في كيس التبغ ثم في فمه وبدأ بالسعال فرشَّ التبغ على وجه علي بك.

ـ أستحلفك باللّه، أتقول الحقيقة ؟(سأل علي بك بتعجب).

ـ أكّدتُ لك ذلك قبلاً (ضحك علي بك ومسح وجهه بردنه).

ـ لكن كقائد عسكري (التفت إليَّ حسين آغا) مجيئُك إلى هنا خير لنا إن شاء اللّه.

ـ أعدكَ بأن مجيئي إلى هنا خيرٌ لكم (قلت الكلمة بمعنى، وفهمني).

ـ فرسك الأسود موجود هنا (استمر بالحديث) لكن أين درعه المرصع بالدرر وسهمك وسيفك.

ـ اسمعني، أنا ذلك المقاتل الذي ساعد محمد أمين، لكنني لم أتِ من السماء ولم أذهب إلى السماء جئت من بلد بعيد، لست ذلك القائد.

لا أمتلك سلاحاً ذهبياً وفضياً، هذا هو سلاحي ما تراه، لا أحد يمتلك مثله، مع السلاح لا أخاف إطلاقاً من العدو، هل أريك كيف تطلق بندقيتي؟.. برأسك ورأس أبيك ورأس صديقي علي بك، لا تفعل (ترجى بخوف) يبدو أنك غيرت سهمك وسيفك وبندقيتك، حملت السلاح الجديد، يبدوا انه أخطر من ذي قبل لا أدري ماذا تقول، لكن عدني، هل تريد صداقتي ؟

ما فائدة صداقتك، يقول المثل في وطنك، العدو العاقل أفضل من الصديق المجنون.

ـ أمجنونٌ أنا يا أستاذ ؟

ـ ألا تعلم أنه على الإنسان أن يفرح ويصافح ضيفه وخاصة إذا كان برفقته أحد الأصدقاء؟ تقول الحقيقة، لقد حاصرتني بمثل شعبي لكن من فضلك سأجيب بمثل آخر.

(الصغار يجب أن يتبعوا الكبار) أنت رجل كبير وأنا أستمع إليك.

ـ أولاً استمع إلى صديقي علي بك لأنه سينتصر وسيمتلك البنادق التركية.

ـ أتألمت، أرجو المعذرة !

ـ على رأسي، في سبيل خدمتك لن أقصر أبداً.

ـ خذ هذا العنقود من العنب وكله، خذ كيساً من التبغ ودخن منها(غليوناً من التبغ).

ـ نشكرك (أجابه علي بك)، لقد تعلم على الأكلات الشهية والنظيفة، تناولنا قبل مجيئه، لا نود فقدان الوقت نود الرجوع إلى لالش (قام علي بك وقمت معه، حسين آغا وصلنا إلى نقطة الوداع، ووعد بتنفيذ وعده على أفضل ما يمكن، رجعنا من ضيافة رئيس البهديناني وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى وادي لالش، رأينا أن أناساً قد وضعوا أمام دار علي بك كمية كبيرة من أكوام قش الرز والأشجار اليابسة ، وكان بير كمال أيضاً في بعض الأحيان يضع الأغصان فوق الكومة).

ـ بير كمال يهيئ لتقديم ضحية كبيرة (قال علي بك).

ـ ماذا يقدم من أضحية ؟

ـ ليس بعيداً، يقدم حيواناً ؟

ـ فقط الوثنية يحرقون الحيوانات.

ـ هل سيكون فاكهة ؟

ـ الإيزيدية لا يحرقون الحيوان ولا الفاكهة، بير كمال لم يقل لي ماذا سيحرق لأنه مقدس لذلك لا يرتكب ذنباً، صوت إطلاقات الحجاج تأتي من التلال المقابلة والحجاج في الداخل أيضاً يردون بالمثل، نزلنا من الأعلى و لكثرة الازدحام لا مكان خالياً في الوادي فأوقفنا جيادنا معاً وذهبنا إلى المعبد المقدس. عين ماء في الطريق، صخور تحيط به، رأيت أمير الشيخان جالساً على إحدى تلك الصخور و حوله مجموعة كبيرة من الحجاج الذين وقفوا يستمعون و يصغون إلى حديثه باحترام.

ـ هذه عين مباركة، يجوز للشيوخ وللأمير والبير والقوالين الجلوس على الصخور، أرجو المعذرة إن مكثتَ واقفاً (قال لي علي بك).

ـ سوف أحترم مقدساتكم (عندما اقتربنا من العين)، أعطى أمير الشيخان إشارة إلى الحجاج من حوله، كي يترك لنا مكاناً لنجلس بجانبه ثم نهض الأمير وتقدم بعض خطوات نحونا واستقبلنا بحفاوة.

ـ أهلاً وسهلاً بكم، اجلسوا إلى يساري ويميني (أشار أمير الشيخان إلى علي بك بالجلوس إلى يساره وترك يمينه كي أجلسَ، فجلست على الحجر المقدس، لم أرَ أي تضجر من الحاضرين حول وجودي هذا بينهم كما نرى عند الشعوب المسلمة.

ـ تحدثت مع الأمير البهديناني (قال أمير شيخان لعلي بك).

ـ كل شيء على ما يرام، تحدث مع الحجاج.

ـ لا.

ـ أعتقد حان الوقت كي يجتمع الناس أعطِ الأوامر ليجتمعوا.

ـ أنا مختص بالدين، البقية تقع على عاتقك، سأحافظ على جميع الاعتقادات لن أدع العدو ينتصر، هذا في حد ذاته إغناء للدين ذلك ما لم نره عند أئمة المسلمين، ذهب علي بك وتحدثت مع الأمير، لاحظت حدوث مشكلة لدى الحجاج كبرت شيئاً فشيئاً، وقفت النساء والأطفال في أماكنهم، ووقف الرجال مجامع واجتمع وجهاء العشائر والشخصيات المهمة حول علي بك، بين لهم نية والي الموصل شكيب خليل باشا بالهجوم علينا هنا في وادي لالش، الجميع استمعوا مصغين إلى علي بك على شاكلة النظام العسكري الأوربي، هذا من جهة، كان الأمر مختلفاً عن الضوضاء التي تحدث في المعسكرات الشرقية، عند انتهاء علي بك من الحديث، كل منهم رجع بانتظام إلى مكانه ثم جاء إلينا علي بك.

ـ ماذا أعطيتهم من الأوامر (قال له أمير الشيخان، أشار علي بك إلى الطريق الذي عدنا منه، رأينا حوالي عشرين رجلاً يصعدون نحو الأعلى).

ـ انظر إلى هؤلاء المقاتلين، إنهم من أهالي ابرام وحاجي دشو وشوراخان، إنهم خبراء بهذه المنطقة، ذاهبون إلى طريق الترك، سيزودنا بالمعلومات في حينها، ونصبت أمام باعذرة نقطة حراسة، فالترك لن يستطيعوا التحايل والهجوم علينا فجأة، أمامنا ثلاث ساعات ريثما يحل الليل و هذا الوقت يكفينا لإيصال النساء والأطفال والرجال الفائضين إلى وادي إيدز، سيكون ذلك في المقدمة ثم يتبع الرجالُ النساءَ والأطفالَ.

ـ سيأتون في الحفل المبارك.

ـ نعم بالتأكيد سيحضرون.

ـ فليذهبوا، بعد فترة قصيرة. بدأت القوافل (قوافل الحيوانات، المحملة بمستلزمات منزلية) مرت المسيرة من أمامنا وفق نسق وترتيب، اختفت خلف المزار المبارك، ثم ظهرت في الطريق الصخري، بإمكاننا من مكاننا ملاحظة القافلة بالكامل حتى رأس تل الغابة الكثيفة، الآن يجب أن أذهب مع علي بك لنتناول الطعام ، قبلها باشبزوخ إيفرا ـ جاءني وقال:

ـ أستاذ يجب أن أقول لك شيئاً.

ـ ماذا ستقول ؟

ـ خطورة كبيرة ستقع علينا !

ـ ما هذه الخطورة ؟

ـ لا أدري، لكن في النصف ساعة الماضية ينظر إليَّ الأيزديون بغضب، يظهر أنهم سيقتلونني (بولوك أمين كان يلبس ملابسه العسكرية التي تُغضِب الإيزيدية، لكني متأكد أنه في مأمن وأن الإيزديين لن يمسوه بأذى.

ـ هذا ليس جيداً، (أجبته) إذا قتلوك من سيخدم ذيل الحمار ؟ (في الليل يجب أن يضع الحجر في ذيل الحمار كيلا ينهق).

ـ يا أستاذ، سوف يقتلون الحمار أيضاً، الم ترَ قتل الثيران والأغنام أيضاً ؟

ـ اطمئن، لن يقتلك أحد ولا حمارك، أنتما مخلصان أحدكما للآخر لا يستطيع أحد أن يفرقكما.

ـ أتعدني ؟

ـ أعدكَ.

ـ فيما سبق عند ذهابكَ خفت كثيراً هل ستذهب مرة أخرى ؟.

ـ سأكون هنا ، لكن لا تخرج من الدار، لا تذهب إلى الإيزيدية ، عندها أستطيع أن أحميك.

(ذهب والي الموصل مطمَئِناً ، قد رافقني هذا البهلوان كي يحميني).

بعد ذهابه سُمِع صوت يشير إلى الخطر من جهة أخرى، فجاءني خلف وقال: أستاذ هل تعلم أن المعركة ستبدأ ؟

ـ معركة ؟بين من ومن؟

ـ بين العثمانيين والإيزديين.

ـ من قال ؟.

ـ لم يقل أحد.

ـ لم يقل أحد؟ أسمعت حديث باعذرة يوم أمس ؟

ـ يوم أمس لم أسمع شيئاً لأنكم تتحدثون بالتركية، كذلك هؤلاء الناس يتكلمون بلغة لا أفهمها ، لكن رأيت مجامع الرجال المسلحين قد تأهبوا للقتال، ومجامع أخرى قد تركوا مع حيوناتهم وأموالهم، كذلك عندما صعدت إلى محمد أمين رأيتهم يخرجون الإطلاقات القديمة من مسدساتهم ويستبدلونها بالجديدة، ألا تكفي هذه الإشارات لتأكيد أن الناس ينتظرون موقفاً ذا خطورة ؟

ـ تقول الحقيقة يا خلف، غداً صباحاً من جهة باعذرة ومن جهة كلينية سيهاجمون الإيزديين.

ـ أيعلم الإيزديون بذلك ؟

ـ نعم.

ـ كم عدد جنود الأتراك ؟

ـ ألف وخمسمائة جندي.

ـ سيقتل الكثير من الأتراك، لأن الإيزديين يعلمون بخطتهم، من ستساعد يا أستاذ، الترك أم الإيزيدية ؟

ـ لن أقاتل أحداً !

ـ لن تقاتل أحداً! (قالها متعجباً) أنا أيضاً لا أقاتل أحداً !

ـ مساعدة مَنْ تريد ؟

ـ سأساعد الإيزيدية.

ـ ستساعد الإيزيدية يا خلف، أتعتقد بأن الإيزيدية سيبعثونك إلى الجنة ؟

ـ يا أستاذ، سابقاً لم أختلط بهم، لكن الآن أودّهم.

ـ لكنهم كفرة ؟

ـ أفي جميع الأوقات تساعد الناس الجيدين قبل أن تسألهم من أي دين أنتم ؟

شاطري خلف، كان دائماً يحاول أن أصبح مسلماً، لكن الآن فرحت كثيراً بعدما رأيت أن حب المسيحية قد ملأ قلبه (أجبته).

ـ ستبقى معي ؟

ـ عندما يكون الناس في المعركة !

ـ ليس بعيداً أن تسنح لنا فرصة لنقدم لهم شيئاً أفضل من المشاركة في المعركة.

ـ إذا كنت كذلك سأكون معك، بولوك أمين ؟

ـ هو كذلك، (ذهب صاعداً إلى الشيخ محمد أمين).

ـ الحمد اللّٰه أنك قد جئت (قال) كيف يحترق الحشيش لندى الليل شوقاً، كذلك حالي أحترق لرؤيتك.

ـ وكل الأحيان هذا مكانك ؟

ـ كل الأحيان، يجب عدم ملاحظتي من قبل الناس، لعدم بيان خطتي، هل لديك خطة من جديد ؟ (قلت لك لا أملك ؟أية خطة، وفي النهاية، فقد أشار إلى سلاحه الذي يحمله على صدره).

ـ سنقاتلهم ؟

ـ ألا نحتاج إلى السلاح ؟

ـ لا، أحتاج، ألا يجب أن أدافع عن نفسي وعن أصدقائي ؟

ـ أصدقاؤك، يمتلكون القوة الكافية، يبدو أنك تود أن تقع أسيراً في أيدي الترك ولن تنجو من أيديهم، أو أنك تريد أن تُضرب بإطلاقة أو طعنة خنجر، كي يبقى ابنك في السجن لفترة أطول.

ـ أيها الأمير أنت تتحدث بذكاء، وليس كبهلوان.

ـ شيخ، أتعلم أنني لا أخاف من أي عدو، طلب منا علي بك طلب الابتعاد عن المعركة، يعتقد عدم حدوث أية معركة، أنا أعتقد ذلك أيضاً.

ـ أتعتقد أن الترك سيسلمون أنفسهم دون الدفاع ؟

ـ إن لم يفعلوا هذا سيُبادوا جميعاً.

ـ ضباط الترك جبناء بينما الجنود أبطال، سيهاجمون الأماكن المرتفعة ويحررون أنفسهم

ـ ألف وخمسمئة جندي سيقاتلون ستة آلاف رجل ؟

ـ إذا استطاع الإيزديون أخذ المرتفعات وتطويق الترك.

ـ سيستطيعون.

ـ يجب أن نذهب إلى وادي إيدز مع النساء والأطفال ؟

ـ أنت لوحدك.

ـ وماذا تفعل أنت ؟

ـ سأبقى هنا.

ـ اللّٰه أكبر، لماذا يبدو أن ساعة موتك تقترب !

ـ لا أعتقد ذلك، وأنا أحمل إجازة السلطان، كذلك رسائل والي الموصل، بولوك أمين معي أيضاً، كل هذه الأشياء ستحفظني.

ـ ماذا تريد أن تفعل هنا ؟

ـ إذا استطعت، سأمنع حدوث نزيف الدم.

ـ أيعلمُ علي بك بذلك ؟

ـ لا.

ـ أمير الشيخان ؟

ـ وهولا يعلم كذلك، سيعلمون في حينها (في الحقيقة بذلت جهداً حتى استطعت أن أقنع محمد أمين إلى الطريق)

ـ اللّٰه ـ اللّٰه، مصير الإنسان مكتوب في الكتاب المقدس(قال محمد أمين)، أنا لا أود أن أضع جانباً ما تروم إليه، لكن سأبقى معك.

ـ أنت؟ لا يجوز ذلك.

ـ لماذا ؟

ـ يجب ألا يراك الترك .

ـ و ألا يروك أيضاً. وضَّحتُ لكَ، سابقاً لا خطورة علي، لكن إنْ وضحت أمرك سيلقَوا القبض عليك بعدها يجب أن ننتظر فرصة أخرى.

ـ ما كتب اللّٰه لنا، مذكورٌ في الكتاب، إذا أراد اللّٰه أن أموت سأموت، سواء أكان هنا أم في العمادية أو في أي مكان آخر لا فرق في ذلك.

ـ ستنتهي، لا تنسَ ستنهيني معك (فقط بقيت هذه الطريقة عندي، كي أخلصه من العناد) ـ سأنهيك أنت، كيف ؟(سأل ذلك.)

ـ إذا بقيتُ لوحدي هنا فإن إجازتي ستحفظني، لكن إذا رأوك معي وأنت عدو الوالي السجين الهارب، عندها لن ينفعنا شيء سننتهي نحن الاثنان معاً.

ـ حنى رأسه، وفكر، علمت بأنه لا يود الذهاب إلى وادي إيدز مع النساء والأطفال لكني منحته الفرصة كي يتخذ قراره بتردد.(قال الأمير).

ـ أتعتقد أني جبان يا أمير ؟

ـ لا، أعلم أنك رجل شهم وشجاع.

ـ علي بك أيةَ فكرة سيحمل عني ؟

ـ أيةَ فكرة سأحمل معكَ، هو أيضاً يفكر بك، كذلك أمير الشيخان.

ـ وبقية الإيزديين ؟

ـ إنهم يعرفونك وسمعوا باسمك، يعلمون أنك لا تهرب من أي عدو.

ـ إذا انتاب الناس الشك في شجاعتي ستدافع عني، وتقول احتراماً لي ذهب مع النساء والأطفال إلى وادي إيدز.

ـ سأقول ذلك في كل مكان.

ـ سأفعل ما تريد (رمى بندقيته جانباً دون إرادته وتوجه نحو الوادي الذي كان يصدر منه صوت قطيع الأغنام، الآن رجع الرجال الذين رافقوا النساء والأطفال إلى وادي إيدز، بعدها سمعنا صوت دوي الإطلاقات من داخل المزارات والقبور المباركة، حينها وصل علي بك وقال:

بدأ الاحتفال في داخل المعبد والقبور المباركة، إلى اليوم لم يحضر أجنبي فيه، لكن أمير الشيخان باسم كافة الشيوخ والبيرانية والقوالين والفقراء يدعوكم إلى حضور هذه الاحتفالية، في الحقيقة. هذا مصدر فخر واعتزاز لنا، لكن شيخ محمد أمين أدار وجهه وقال: أشكرك يا علي بك، لا يجوز حضور المسلمين إلى مكان سوى مكان عبادة اللّٰه (كان محمد أمين مسلماً لكن كان من المفترض أن يكون الرد بأسلوب أفضل، بقي في مكانه ومشيتُ خلف علي بك، عند خروجنا من الدار لاحظت منظراً جميلاً على يمين الوادي، كانت الشموع والمشاعل فوق وتحت الأشجار، فوق الماء تُضاء و فوق كل صخرة في الوادي مشعل، الأنوار في كل غصن شجرة، فوق السطوح، في المجالس في كافة الأماكن، جدران القبب المقدسة مضاءة بالكامل بأنوار المشاعل، لكن نضال الناس كان عند المزار المبارك أكثر لأن الأمير كان يزيد من ضوء مشعله، حضر إلى الباحة الشيوخ والبيرانية والقوالون أشعلوا مشاعلهم من نار مشعل الأمير، ثم أشعلها الفقراء من البقية، وخرج الآلاف من الناس طوقوا النار كي يغتسلوا بها، كل من استطاع التقرب من النار مد يده إلى وسط اللهب ثم إلى جبينه وقلبه ليغتسل به، وكان الرجال يغتسلون بالنار المباركة مرتين، مرة لهم ومرة لزوجاتهم، والأمهات يغتسلن مرتين أيضاً مرة لهن ومرة لأطفالهن، مهرجان ممتع في هذا الوادي و نظافة من جميع

الذنوب، شكّل وادي لالش منظراً سحرياً، في هذا الوقت علماء الدين الإيزيدية كانوا جالسين صفين في باحة المزار المقدس، والشيوخ بملابسهم البيضاء يجلسون في جانب آخر يقابلهم القوالون، يحمل كل واحد منهم مزماراً أو طنبوراً، كنت جالساً مع علي بك تحت شجرة العنب، من هذا المكان لم يكن باستطاعتي رؤية أمير الشيخان، ثم سمعت صوتاً جاء من داخل القبب، ومع الصوت جهز القوالون مزاميرهم وطنابيرهم، في البداية أتى المزمار بصوت حزين وهادئ، بعدها سمعنا صوت الطنبور، اختلط صوت الآلتين وقدموا أفضل لحن، بعد المقطع الموسيقي، رأيت أن أمير الشيخان قد خرج من داخل المزار، بمعية شيخين شيخ في مقدمته يحمل تمثالاً خشبياً ووضعه في وسط الباحة، والشيخ الثاني كان يحمل كأساً من الماء وآخر من النفط، وضع الكأسين في وسط الفناء، جاء أمير الشيخان، وأشار بيده، ومع الإشارة بدأ العزف الموسيقي ومع الموسيقى بدأ الشيوخ والبيرانية والقوالين بالألحان الدينية، للأسف لم يكن في مخيلتي أن أكتب نصها، لكن كلماتهم كانت باللغة العربية، وتنص على النظافة ونقاوة المعتقدات الدينية والانتباه، وبعدها أمير شيخان ألقى كلمة قصيرة للشيوخ والبيرانية والقوالين والفقراء، حول الأشياء الضرورية وغسل الذنوب، ويتم بنصح وتوجيه أصحاب الفضل على الناس تأكيد الاعتقاد بالدين، والدفاع عن النفس من كل عدو، ثم جاء وجلس معنا تحت شجرة العنب، الآن أحد علماء الدين جلب ديكاً حياً إلى الباحة وربطه بخيط، على يساره يجري الماء وعلى يمينه النار، ثم بدأ العزف الموسيقي، وضع الديك رأسه تحت جناحيه ونام على الأرض، في الوهلة الأولى لم يهتم بالموسيقى الهادئة، لكن عندما ارتفع صوت المزمار، أخرج رأسه

من تحت جناحيه واستمع له، نظر حوله و رأى كأس الماء وبسرعة وضع منقاره فيه ليشرب، معها ارتفع صوت الطنبور مع الزغاريد، هكذا تبين أن للموسيقى أثر في نفس الديك، إذ طوى عنقه وبانتباه أصغى إليها، لم يشعر أنه في خطر من قربه من النار وحاول الرجوع إلى الخلف لكنه لم يستطيع، ولأنه مربوط غضب كثيراً، نهض باستقامته وصاح بصوتٍ عالٍ مع عازفي المزمار والطنبور الذين شدوا على العزف، فغضب الديك أكثر وكانت هناك منافسة بين الديك والعازفين، ثم ضرب جناحيه وصاح مرة أخرى وزاد العازفون حماس عزفهم، وفي هذه المرة غضب الديك كثيراً، وبكل ما أوتي من قوة دفع نفسه فقطع الخيط وهرب نحو القبب، مع هذا العمل البهلواني ارتفع من الفرح صوت الموسيقى والزغاريد . لقد بذل عازفوا الموسيقى والمغنون جهداً جميلاً و قبَّل القوالون مزاميرهم وطنابيرهم، ثم أتت الفقرة الثانية للإيزدية لتتغير المشاعر إلى عالم ديني مسيحي، كان تشكيلاً و منظراً جميلاً ؟ وبعد ذلك حان وقت تقديم البرات.

كنت جالساً قرب علي بك فقدم عالم ديني له سبع براتات و لي سبع أيضاً، كانت مدورة كَتب عليها (الشمس) بالعربية وبرأس مدبب لآلة موسيقية، كان البيع والتعامل خارج الباحة والأغاني والموسيقى تسمع في الداخل ثم تركت المزار المقدس، كنتُ متوقعاً أن النظر إلى الوادي من التلال العالية سيُظهِر منظراً ساحراً، لذا ذهبت إلى خلف ليكون معي فرأيته مع بولوك أمين في مكان الجلسة، كان حديثهم ممتعاً وسمعتهم يقولون:

ـ ماذا ؟ ألم يكن أحد عارياً ؟

ـ نعم أحدهم عارٍ، اللّٰه يقطع رقبته، إذا لم يكن هو، لكن أنفي موجود الآن.

(لم أدعه يكمل حديث أنفه، فناديت خلف حجي: تعال معي.

ـ إلى أين يا أستاذ ؟

ـ إلى ذلك التل العالي، كي ننظر إلى جمال الوادي.

ـ أيها الأمير، أنا سآتي معكم (قال لي إيفرا).

ـلا أمانع، تعال معنا ، إلى الأمام (وذهبنا إلى التل العالي في طريق باعذرة، في كل مكان رجال ونساء وأطفال مع المشاعل، في طريقنا سلم الجميع علينا بكل سرور، الكثيرون من الإيزديين جاؤوا وراءنا كي يبينوا لنا الطريق لكني طلبت منهم العودة أو أن يطفئوا المشاعل، من يملك الذوق الرفيع يرغب في البقاء في الظلام، عند وصولنا إلى قمة التل كان منظراً لم نره من قبل، ضوء المشاعل والقناديل قد أضاء الوادي، تشمخ رؤوس القبب المباركة في هذه الليلة إلى السماء والأدعية للّه، الناس في حركة مرور دائم ومستمر، يغنون، يرقصون، يطلقون العيارات النارية، لقد وقفت كثيراً على هذا المنظر الخلاب وأشبعت به عينيَّ فابتهج قلبي.

ـ تلك، أية نجمة ؟(بجانبي سأل أحدهم صديقه).

ـ أين ؟ (الآخر سأله).

ـ انظر إلى يمينك طريق اللصوص.

ـ وأنا نظرت إليها .

ـ تحتها تتلألأ نجمة، مرة أخرى، رأيت ؟

ـ رأيت أنها نجمة العجوز بلا رأس (كإلى بىَ سة ر) .

ـ (عندنا يقولون للنجمات الأربعة ظهر الدب والكرد يقولون بيرى بى سه ر (العجوز بلا رأس).

ـ إنهم يظنون أن رأسه اختبأ خلف مجموعة من النجوم المجاورة، هذه النجوم الثلاثة نسميها ذيل الدب أو يد العربة، الكورد يسمونها الأخوين والأم العجوز الأعمى.

ـ العجوز بلا رأس ؟هذه أربع نجوم إنها قبعة الراعي.

ـ قبعة الراعي، إنها في الأفق، وتتلألأ مرة أخرى، آه نحن متوهمون أنها في الجنوب إنها الميزان.

ـ الميزان مجموعة من النجوم يا أستاذ ؟

(الآن قد وجه السؤال لي، هذا المنظر ليس شيئاً طبيعياً، ضوء المشاعل والقناديل الإيزيدية قد أضاء التلال وقممها، لذلك كان من الصعب على الإنسان أن يفرق بين النجوم، ضوؤها يتضاعف يتكثف ثم يتلاشى، هذا شيء آخر، يظهر ثم يتلاشى، إنها ليست بنجوم، راقبتها جيداً ثم رجعت إلى خلف، حاجي خلف، اذهب بسرعة وبلغ (علي بك) بالمجيء إلينا لدي عمل مهم معه.

(ذهب خلف في الحال، تقدمت قليلاً كي أرى النجوم المتوهجة من جهة، ومن جهة أخرى التهرب من الاجابة على الأسئلة، الشيء المهم أن علي بك كان على علم بمجيئي إلى هنا، جاء بعدي وقد التقى بخلف في منتصف الطريق وحضر الاثنان معاً.

ـ ماذا ستُريني يا أمير ؟

(ومددت بيدي إلى تلك ما يسمونها النجوم)

ـ ثم نظرت إلى هناك، الآن أرى نجمة ساطعة هل تراها بعينك ؟

ـ ثم اختفت، أرأيتها أتعرف اسمها ؟

ـ لا، إنها واطئة جداً، ليست مع مجموعة (ذهبت إلى وسط الأدغال وقطعت بعض الأشجار، وغرست إحدى هذه الأشجار، ثم ابتعدت عنها بخطوات).

ـ خلف هذه الشجرة، اجلس على ركبتيك، سأرى سطرها مقابل النجمة الساطعة، اغرس شجرة أخرى، الآن سترى تلك النجمة ؟

ـ نعم أراها جيداً.

ـ أين أضع هذه الشجرة، هنا ؟

ـ قليلاً إلى اليمين.

ـ هنا ؟

ـنعم، جيد جداً.

ـ حسناً، الآن راقبها جيداً.

ـ الآن أراها جيداً (قال علي بك بعد فترة قصيرة).

ـ أين ؟ سأغرس الشجرة الثالثة ؟

ـ تلك النجمة تتحرك من مكانها وابتعدت كثيراً إلى جهة اليسار.

ـ كم ابتعدت ؟

ـ قدمين من الأشجار السابقة.

ـ هنا ؟

ـ نعم (غرس العصا الثالثة، علي بك استمر في مراقبة النجمة).

ـ الآن سأراه مرة أخرى (قال علي بك).

ـ إلى أين ؟

ـ ليس كثيراً على اليد اليسرى، لكن على اليمنى.

ـ حسناً (هذا هو الشيء الذي أردت أن تلاحظه، الآن تستطيع القيام (كان هؤلاء يراقبون العمل الغريب بتعجب لم يدركوا المسألة حتى علي بك لم يعلم ما أقصده).

ـ لماذا رأيت أني أراقب النجمة ؟

ـ لأنها نجمة.

ـ إذاً ماذا، شعلة ؟

ـ لو كانت شعلة واحدة، لكانت غريبة، لكنهُا مجموعة من المشاعل.

ـ من أين تعلم ذلك ؟

ـ هذه ليست نجمة، لأنها واطئة جداً أوطأ من قمة الجبل، انظر إنها مجموعة من النيران أرأيت تجربتنا ؟ هناك العديد من الفرسان المشاة يحملون المشاعل، يضيئون جهتنا (قالها علي بك بتعجب):تقول الحقيقة يا أمير.

ـ من يكونون هؤلاء ؟

ـ إنهم ليسوا حجاجاً لأن الحجاج يأتون عن طريق باعذرة إلى لالش !

ـ هكذا فكر نحو الترك.

ـ أستاذ، أيجوز أنهم . . ؟

ـ لا أعرف، لست خبيراً بهذه المواقع، صف لي هذا الموقع.

ـ إن الطريق إلى باعذرة يسير باستقامة من اليسار إلى عين سفني هذا الطريق يتفرع عنه ثلاثة طرق أحدها إلى يسار تلك المشاعل، إلى الماء، وهذا الطريق يصل إلى لالش.

ـ يجب أن يكون الإنسان راكباً ليأتي بمحاذاة المياه وليصل ؟

ـ نعم.

ـ كذلك بمحاذاة المياه إلى لالش أيضاً ؟

ـ نعم.

ـ إذا كانت كذلك، هنا حدث خطأ كبير.

ـ ما هو الخطأ ؟

ـ أنك أرسلت الحراس إلى طريق باعذرة وكلينية، لكنك لم ترسل أحداً إلى طريق عين سفني.

ـ الترك لا يستطيعون المجيء من هناك، لأن أهالي عين سفني سيبلغوننا.

ـ لكن إذا لم يذهب الترك إلى الجراحية، وأتوا من خلال الجراحية، ومن النصيرية من الأعلى ونزلوا إلى طريق مابين لالش وعين سفني ؟ فسيقطعون الطريق، الذي يأتي منه الضوء، انظر لقد اتجهوا نحو اليسار.

ـ يا أمير(المقصود به (كارابن نمزي)، ليس بعيداً أن تكون فكرتك صحيحة، سأرسل المزيد من الحراس إلى هذا الطريق. ؟

ـ سأقترب من تلك النجمة، كيف أدرك أنها نجمة أم لا، أتعرف أحداً له خبرة في هذا الطريق.

ـ ملك له خبرة أكثر من غيره.

ـ إنه فارس جيد، يجب أن يوصلني إلى هناك، (نزلنا بسرعة من قمة التل، هذا ما قلناه أخيراً أنا وعلي بك، الإضاءات كانت بشكل واطئ، لم يكن كذلك، لا سيسمعها أحد، باشيزوخ لم يسمع شيئاً، رأينا ملك بسرعة حمل سلاحه وركب جياده، يجب أن يأتي خلف معي، بعد عشرين دقيقة من رؤية النجمة للمرة الأولى، سلكنا طريق عين سفني، عند وصولنا إلى قمة التل الأولى، وقفنا، نظرت من خلال الظلمة التي أمامنا، ثم رأينا ذلك الضوء مرة أخرى، فقلت لزلك، ما هذه النجمة ؟

ـ أمير، ليست نجمة، ليست مشاعل، إنه ضوء كشيف، إنه ضوء الفوانيس.

ـ يجب أن اذهب إلى رأس الطريق، أنت خبير في هذا الطريق ؟

ـ سأوصلك إلى هناك، أعرف كل صخرة، كل شجرة، اتبعني، اتجه يساراً نحو الماء عبر الصخور والأدغال إلى الأمام، ركبت بسرعة، بعد ربع ساعة رأينا ذلك الضوء بشكل واضح، وبعد ربع ساعة أخرى، اختفى الضوء خلف التل الذي أمامنا، عندما وصلنا إلى التل ونظرنا أمامنا، رأينا في هذه المرة بوضوح أكثر، أن هناك مسيرة حاملي الفوانيس، من هم، من الذي رتب هذه المسيرة (القوافل)، في هذه اللحظة لا يستطيع المرء معرفة شيء، لكن هذا الضوء اختفى نهائياً فجأة.

ـ هل يوجد تل آخر هناك ؟

ـ لا، قد وصلنا إلى السهل.

ـ أم هناك هضبة أو وادٍ قد اختفى خلفه هذا الضوء ؟

ـ لا.

ـ أو غابة.....

ـ نعم يا أمير (فكر بسرعة) الجهة التي اختفى فيها الضوء ـ هناك غابة من أشجار الزيتون.

ـ آه، أبقَ هنا مع الجياد، كنا في انتظار خلف ليأتيَ معنا.

ـ أستاذ، خذني معك (طلب زلك).

ـ سيكتشفون أمرنا ومعنا الجياد.

ـ سنربطها.

ـ جوادي غالي الثمن لا أستطيع تركه بدون مراقب، كذلك لا نعرف كيفية الدخول عليهم دون علمهم بنا، سيسمعون، أو يلاحظون.

ـ أمير، أعرف هذه الأشياء.

ـ بلا صوت (قال خلف) كنت أعتقد أني أستطيع أن اذهب بالخفاء عن الناس، لكن لم يكن كذلك.

ـ فقدت أفضل جواد لي، وتقدمنا، أي، أصبحت كطفل خجول، اشكر اللّه أنه لم يخلقك ضبعاً.

(تركنا بنادقنا عند ملك وتقدمنا، كان ضوء القمر ينير الدرب لمسافة بحيث يمكنك رؤية صاحبك على بعد خمسين خطوة).

ـ بعد عشر دقائق، تبينت لنا نقطة مظلمة، ازدادت خطوة بعد خطوة، إنها غابة الزيتون، اقتربنا منها إلى درجة أنه بإمكاننا الوصول إليها بعد خمس دقائق، ووقفت هناك، ثم أصغيت إلى المكان، فلم أسمع شيئاً.

ـ اتبعني لنتسلل.

كنت لابساً (المعطف) وبنطلون، كانا بلون أسود، وقبعة، مربوطة بشماغ، لم يكن باستطاعتهم رؤيتي على الأرض بسهولة، وخلف كان لابساً مثلي، وبدون صوت تقدمنا إلى الأمام، سمعنا صوت تقطيع الأشجار، تمددنا أرضاً، ثم تقدمنا زحفاً ارتفع صوت تقطيع الأشجار، يبدو أنهم يجمعون الأشجار لإشعال النار.

ـ يا أستاذ، هذا أفضل لنا (قال خلف بصوت خفي).

(عند وصولنا إلى حافة الغابة، سمعنا بوضوح صهيل الفرسان وصوت الناس، اختبأنا خلف صخرة كبيرة، قلت لخلف بهدوء، اختبئ هنا وانتظرني

ـ أستاذ، لن أتركك، سآتي وراءك.

ـ سوف يُكشف أمري، عندما يمشي الإنسان بخفية عبر الغابة يكون ذلك أصعب من المرور في السهل، ستكون معي، لكن فقط لتساندني، اختبئ هنا، لا تتحرك من هنا، إلى حين أناديك، وحينما أناديك تعال بسرعة.

ـ وماذا في حال لم تنادني لآتي ؟

ـ بعدها بنصف ساعة ازحف على بطنك وتعال، كي تعرف مصيري.

ـ أستاذي، إذا قتلوك، سوف أقتلهم جميعاً.

(بعد هذه الطمأنينة، زحفت نحو الأمام، لكني لم أكن بعيداً عن خلف، سمعت صوتاً يأمر بإشعال النيران، هذا الصوت كان يبعد عني مسافة مئة قدم، خوف من ...، لم أستطع التقدم بعدها، سمعت صوت احتراق الأشجار، ثم رأيت نوراً خرج من بين الأشجار وأتى نحوي أشرق هذا النور من حولي و عرقل عملي.

أحاطوا النار بالأحجار، (صدى أمر آخر، فعلوا بما أمروا به، ثم ضعف النور، ثم سنحت لي الفرصة، للزحف نحو الأمام، وزحفت من وراء الأشجار شجرة تلو

الأخرى، حتى أيقنت أني في مكان آمن بعيد عن الرؤيا، وكنت سعيد الحظ، فهذه الطمأنينة كانت زائدة، لم أرِ نفسي إذ تخيلت مع جمال هذا المنظر أنني في غابات الحيوانات المفترسة الأمريكية، كذلك هؤلاء الناس مقابلي لم يدركوا بأن أحداً سيأتي لسماعهم، تقدمت أكثر إلى أن وصلت إلى شجرة ذات جذع وجذور يخاف الإنسان الاختباء خلفها، بالقرب مني فتحْتَ الشجرةِ ذاتها، ضابطان تركيان جالسان، ومع قليل من الانتباه استطعت تبديل نفسي والاختباء فيها، الآن أستطيع مراقبة المنظر جيداً، خارج هذه الغابة الصغيرة، نصبوا أربعة مدافع جبلية، قد يكون أكثر، و ربطوا حولها الغابة عشرين بغلاً، يبدو أنهم حملوا هذه المدافع على ظهور البغال، فحملُ كل مدفع يحتاج إلى خمسة بغال، واحد لحمل الأنابيب وأخر للأسفل، واثنان إلى أربعة لحمل القذائف وصناديق الأعتدة، تمدد عدّاد المدافع للاستراحة والحديث، لكن الضابطين أرادا تناول القهوة وتدخين الغليون، لأجل ذلك أشعلوا النار، ووضعوا تحت القدر الصغيرة بعض الأحجار، كنت قريباً منهم، ما سمعته منهم من أخبار لا يبشر بخير للإيزديين.

ـ لدينا أفضل المدافع (قال رئيسهم).

ـ إنها مدافع جيدة (رد عليهم الملازم).

ـ سنقتلهم جميعاً.

ـ الجميع (صدى صوت آخر).

ـ سنحصل على غنائمَ كثيرةٍ.

ـ الكثير من الغنائم.

ـ يجب أن نكون أذكياء وحذقين.

ـ سترتفع رتبنا العسكرية.

ـ سترفع كثيراً

ـ بعدها ندخن تبغ شيراز. التبغ الفارسي.

ـ تبغ شيراز.

ـ بعدها سنتناول القهوة العربية.

ـ قهوة موكا التركية.

ـ يجب أن نبيد الإيزديين.

ـ جميعهم مرة واحدة.

ـ هؤلاء قذرون ومشاكسون.

ـ هؤلاء الحيوانات.

ـ هؤلاء القذارة بلا حياء.

ـ هؤلاء الكلاب.

ـ سنقتلهم.

ـ غداً صباحاً.

ـ بالتأكيد إنهم يستحقون الموت (وأخيراً سمعتُ ما أردت سماعه، سأتراجع ببطء وحذر، ثم بسرعة، ثم وقفت معتدلاً وذهبت، حينما وصلت عند خلف تعجب، من هم يا أستاذ ؟!

ـ عدَّاد المدافع، تعالَ ليس لدينا الوقت.

ـ نذهب على قامتنا سيراً.

ـ نعم (وصلنا إلى خيولنا وركبنا واسرعنا بالسير نحو لالش، هذه المرة اختصرنا الطريق نحو لالش ورأينا الازدحام في الوادي، سمعت بأن علي بك ذاهب إلى باحة المزار المقدس وأمير الشيخان هناك أيضاً فذهبت إلى هناك، عندما رآني علي بك تقدم نحوي وأجلسني عند أمير شيخان.

ـ ماذا رأيت (سألني).

ـ مدافع.

ـ آه (تنهد بدهشة) كم عدد المدافع ؟

ـ أربع مدافع جبلية صغيرة.

ـ ما قصدهم ؟.

ـ يقصدون ضرب الوادي بالمدافع، وفي الوقت نفسه سيهجم المشاة من باعذرة والكلينية على لالش، بالتأكيد سيستخدمون المدافع عند الماء، خطتهم ليست ضعيفة إنهم هناك.

يعلمون بالوادي، يستطيعون التقدم نحو الوادي، سيجلبون المدافع عبر هذه التلال دون أن يراهم احد ، بمساعدة المشاة سيتمكنون من جلبها من هناك إلى هنا خلال ساعة.

ـ إذن ماذا نفعل يا أمير ؟

ـ أعطني ستين فارساً بسرعة مع بعض الفوانيس، كن على ثقة، سأحضر لك المدافع مع عدّادها خلال ساعتين.

ـ ستلقي القبض عليهم ؟

ـ سنأسرهم ؟

ـ سيكون بمعيتك مئة فارس.(قال علي بك)

ـ بسرعة هيئ ثمانين فارساً، سأنتظرهم عند الماء، رجعت عند خلف وزلك.

ـ ماذا سيفعل علي بك (قال خلف).

ـ لم يفعل شيئاً، نحن سنفعل ما تريد أن نفعله.

ـ ما هذا يا أستاذ؟ أراك تضحك، وأرى من وجهك أنك ستحضر مدافعهم.

ـ أريد جلب المدافع دون نزف للدماء، لأجل ذلك يجب أن يكون معي ثمانون فارساً (خرجنا من أحد منافذ الوادي)هنا لم ننتظر الفرسان كثيراً فقد حضروا بسرعة، بعثت ملكاً مع عشرة رجال أمامي وذهبنا لمسافة خلفهم دون أن نرى عدواً في طريقنا، وصلنا إلى التل الذي ينتظرنا فيه زلك، كانوا قد نزلوا من التل، في الوهلة الأولى، الرجال حرسوا أمتعتنا ثم عينت عشرة منهم لحماية الخيل وقلت لهم لا يجوز التحرك من هنا دون علمي، أما نحن الباقون فزحفنا متخفين نحو غابة الزيتون، وصلنا إلى النقطة المراد الوصول إليها ووقفنا، ثم تقدمت بمفردي نحو الأمام هذه المرة أيضاً دون صعوبة وصلت إلى مكاني القديم تحت جذع الشجرة، رجال الترك جميعاً مجتمعون يتداولون الأحاديث، انتظرت أن يناموا لكنهم لأجل معركة غدٍ لم تغمض لهم عين، أحصيناهم جميعاً مع الضباط ورتب الضباط، أصبحوا أربعة وعشرين شخصاً، رجعت إلى رفاقي.

ـ حجي خلف وزلك، اذهبا واركبا حصانيكما، تعالا إلى وسط الجيش التركي من الجهة الثانية للغابة سيأتون إليكم،قولوا لهم نحن ذاهبون إلى الحج، قطع عنا السبيل، وكنا ذاهبين لاحتفالية العيد في وادي لالش. سيأخذونكما إليهم، أما البقية فاذهبوا، وقد قسمتهم إلى صفين، أحدهما خلف الآخر، قلت لهم:

مهمتكم تطويق الجهات الثلاثة للغابة، زودتهم بمعلومات قيمة و زحفت على بطني حتى وصلت مكاني المعتاد قبلهم بدقيقتين الى جذع الشجرة، حينما وصلت المكان كنت أسمع صوت أرجل الفرسان والنيران المشتعلة ولهذا استطعت أن ألتقط الصورة واضحة، قبل مجيئي، كان الضابطان منشغلين بالشرب والتدخين.

ـ وادي لالش عش قذر (سمعت من الضابط الكبير).

ـ كثير القذارة (أجابه الملازم).

ـ الإيزديون يعبدون إله الشر.

ـ يعبدون إله الشر، يا اللّٰه اكسر رقبتهم.

ـ عظامهم ورقبتهم ومزقها.

ـ سوف نطحنهم.

(إلى هنا سمعت حديثهم، لأنهم سمعوا صهيل الفرسان، الملازم رفع رأسه وقال:

ـ أتى إلينا بعض الأشخاص، كان الضابط الكبير يصغي إليه.

ـ من يكونون !

ـ فارسين، سمعت صوتهم (انهضوا، الجنود أيضاً مثلهم ابتعدوا عن النار عندها ظهر زلك، استقبلهم الضابط الكبير وأخرج سيفه من الغمد: من أنتم؟ (ناداهم) طوق الجنود ملكاً وخلفاً، خلف صغير فوق جياده، توجه نحو الضابط الكبير، ما كنت أفكر، الضابط الكبير، فكر بنفس الفكرة أيضاً.

ـ لقد سألتكم من أنتم (قال لهم الضابط الكبير).

ـ نحن بشر (أجابه خلف).

ـ من أي بشر أنتم؟

ـ نحن رجال.

ـ من أي رجال.

ـ نحن فرسان (أكلكم إله الشر، أجبني أفضل، وإلا سنضربكم ضرباً مبرحاً، من أنتم ؟

ـ نحن إيزديون (أجابه ملك بصوت منخفض)؟

ـ أنتم إيزديون. أها، من أين جئتم ؟

ـ من مكة.

ـ من مكة، اللّٰه اللّٰه، الإيزديون موجودون هناك!

ـ ما يقارب الخمسمائة ألف.

كثيرون، اللّٰه كريم، أنه أبقى الحشيش التالف مع الحنطة، أين ستذهبون ؟

ـ سنذهب إلى معبد لالش.

ـ لماذا تذهبون إلى هناك ؟

ـ سنحتفل بمناسبة العيد الكبير.

ـ أدرك ذلك، أدرك أنكم مع إله الشر سترقصون، في الوقت نفسه ستقيمون الصلاة للديك الذي عمل عشه في الجحيم، ترجلوا عن خيولكم، أنتم أسرى عندي.

ـ نحن أسرى، ماذا فعلنا ؟

ـ أنتم أبناء إبليس، سنضربكم، كي تروا آباءكم بعيونكم، ترجلوا عن الخيول.

(ألقوا القبض عليهم، لم يبقَ وقت و ينزلونهم عنوة عن خيولهم)

ـ أعطيانا سلاحكما ، (أدرك أن خلف لن يفعل وخاصة في هذا الوقت المحرج، نظر خلف إلى جهة النار، فرفعت رأسي لأعلمه كي يطمئن كذلك أسمعته بعض (الخشخشة) الهادئة، فعلم أنهم رجالي وقد طوقوا رجال الترك.

ـ نسلمكم سلاحنا ؟ (سأله خلف) اسمعني يا يوزباش، أتسمح لي أن أقول لك شيئاً ؟

ـ ما هو ؟

ـ سأقول لك وللملازم فقط.

ـ لا أريد أن أسمع منكما شيئاً.

ـ إنه شيء مهم، مهم جداً.

ـ حول أي شيء ؟

ـ اسمع (أسمعه خلف في أذنه بعض الكلمات، الكلمات أخذت مكانها مباشرةً، الضابط الكبير تراجع بعض الخطوات، وفكر بكلمات خلف، بعدها علمت، بأن خلف قال له، حول (جعبتكم)، النقود.

ـ أتقول الحقيقة (قال الضابط).

ـ أنا لا أكذب !(قال خلف)

ـ ألا تبوح لأحد ؟

ـ إلى الموت لن أقول لأحد !

ـ أقسم لي.

ـ بماذا أقسم لك ؟

ـ باللّٰه والحية..... لا، لا، أنتم إيزدية، أقسم لي بإبليس، الذي تعبدونه.

ـ حسناً، لو أقسمت به، هل هو يعلم بذلك أنه إلى الموت لن يعلم به أحد؟

ـ نعم سيكسر ظهرك، إذا كذبت، تعال يا ملازم، تعالا أنتما الاثنان (أتى الأربعة إلى قرب النار، سمعت كلام كل واحد منهم).

ـ الآن تكلموا (قال الضابط الكبير).

ـ أطلق سراحنا، سنعطيك النقود.

ـ عندكم نقود؟

ـ نعم لدينا نقود.

ـ ألا تعلمون أن هذه النقود لنا وكل ما تملكون هي أشياؤنا.

ـ لا نمتلك شيئاً لقد جئنا من مكة، الذي يتجول هكذا، يدرك جيداً كيف يخبئ نقوده.

ـ سأبحث وأكتشف بنفسي.

ـ لن تستطيع كشفها، حتى ولو قتلتنا، حتى لو بحثت ما بين أمتعتنا، لن تكشفه، لدى الإيزيدية خطط جيدة لإخفاء وتخبئة أشيائهم ولا يستطيع أحد كشفها.

ـ اللّٰه يعلم بكل شيء.

ـ لكن لست اللّٰه.

ـ لن أخلي سبيلكم.

ـ لماذا؟

ـ أنتم ستكشفون خطتنا.

ـ سنكشف خطتكم، كيف ؟

ـ ألا ترونا هنا، لنخوض معركة ؟

ـ لن نخبر أحداً.

ـ لأنكم ذاهبون إلى لالش.

ـ ألا يجوز الذهاب إلى هناك؟

ـ لا.

ـ حسناً، أرسلنا إلى جهة تودها .

ـ أتريدون الذهاب إلى بعويزة، وابقوا هناك يومين ؟

ـ نعم نريد.

ـ إذن أطلق سراحكما، كم ستدفعون لنا ؟

ـ كم تطلب منا.

ـ كل واحد منكم خمسة عشر ألف قرش، سنطلق سراحكم.

ـ أستاذ، نحن حجاج فقراء لا نملك هذا المبلغ.

ـ كم تملكون ؟

ـ نستطيع دفع خمسمئة قرش.

ـ خمسمئة أتريدون مخادعتنا ؟

ـ نستطيع جمع ستمئة.

ـ ادفعوا اثني عشر ألفاً. أقل من ذلك لا يمكن. أقسم بمحمد لن أترك سبيلكما ولن أترك عظماً غير مكسور في جسديكما إن لم تأتياني بالنقود. منذ قليل

قلتما لديكم خطة لحفظ النقود لا يعلم بها أحد . بالتأكيد لديكم أموال كثيرة وسأكشف هذه الخطة أو الطريقة التي تحفظون بها النقــود (تظاهر خلف بالخوف متعمِّداً).

ـ يا أستاذ ألا تستطيعون تخفيض المبلغ ؟

ـ لا .

ـ حسناً . سندفع المبلغ.

ـ أيها القَذِرانِ أدركَ كم من النقود تحملان. الآن لا أرضى باثني عشر ألفاً ستدفعون خمسة عشر ألفاً كما قلت في المرة الأولى.

ـ عفواً أستاذ إنه مبلغ قليل.

(نظر إليهما الضابط الكبير بغضب).

ـ ما قصدك أيها الرجل ؟

ـ ما أقصده هو أن كل واحد منا يساوي أكثر من خمسة عشر ألف قرشٍ من فضلك سندفع خمسين ألف قرش.

ـ أأصبحت مجنوناً يا رجل؟

ـ أم مئة ألف (تعجب الضابط ونظر إلى الملازم وقال الملازم: ماذا تقول ، لقد فتح فمه وقال الحقيقة.

ـ يبدو أن هذا الرجل ثري (مرة أخرى نظرا إلى خلف).

ـ أين نقودكما ؟

ـ هل من الضروري أن تعلم بذلك ؟

ـ نعم.

ـ شخص معنا هو من سيدفع المبلغ. لكنك لا تستطيع رؤيته.

ـ ليسترنا اللّٰه . أتقصد إله الشر؟

ـ أتريده أن يأتي؟

ـ لا لا. لا أتمنى مرة رؤيته لست إيزدياً ولا أستطيع التحدث معه، لم يبق شيء وأموت من الخوف.

ـ لن تخاف منه لأنه سيريك نفسه على هيئة البشر.

لقد خرج من وراء جذع الشجرة وجاء انظر..... وبخطوتين سريعتين وقفت أمام الضابطين من الخوف الشديد افترقا أحدهما عن الآخر. أحدهما انتصب متسمِّراً يميناً والآخر يساراً، ولكون الشكل غير مخيف فقد توقف الاثنان وفكرا صامتين.

يوزباشي (تكلمت معهم) ما قلتم هذا المساء لقد سمعته قلتم معبد لالش عش قذر وقلتم اللّٰه كسر اللّٰه رقبتهم، و طحنهم اللّٰه .

ـ آه، آه (خرج منهم هذا الصوت).

قلتم إن الإيزديين كلاب، قذرون، مفسدون ، سوف نحصل على غنائم كثيرة؟

من الخوف طارت نصف روح الملازم ومن الخوف اليوزباشي لم يستطع أن يقول شيئاً .كان يكتم خوفه

أردتم الإبادة! وبعدها تدخنون تبغ شيراز؟

إنه يعلم بأمورنا (قال يوزباشي بخوف).

نعم أعلم عنكم كل شيء سآخذكم. أتعلم إلى أين ؟

ـ وهز رأسه بنعم.

ـ إلى لالش إلى عند القذرين، عند الذين تودون قتلهم، الآن سأقول لك ما قلتَهُ لهذين الرجلين. قلتَ لهما أنتما أسيران. (لم يكن للجنود علم بالموضوع فقد كانوا بعيدين عنا ، و الإشارة التي أنهيت بها كلامي كانت كافية. الإيزيدية كشفوا أنفسهم وأحاطوا بهم ولم يحاول أحد منهما الدفاع عن نفسه. تملكت الضابطين دهشة عارمة وصدمة كبيرة و أحسّا بأنهما قد أصبحا في وضع خطير ورفعا أحزمتهما.

ـ توقفا. لا تتحركا ، هددتهما ، سحبت مسدسي بيدي وقلت لهما : من يمد يده إلى سلاحه سأقتله.

ـ من أنت ؟ (سألني يوزباشي. وتعرق جسمه).

ـ أنا صديقكما. لا أريد أن تقتلا على يد الإيزديين، اتركا سلاحيكما.

ـ مازلنا بحاجة إلى السلاح.

ـ لأي شي؟

ـ لندافع عن المدافع (هذا جواب كان مضحكاً) لم يبقَ شيء إلا و يرتفع صوت ضحكتي لكني تمالكت نفسي وكظمتها.

ـ لا تهتموا سنحافظ على تلك المدافع (تباحثا معاً قليلاً ثم نزعا أسلحتهما).

ـ ماذا ستفعلون بنا ؟(سأل يوزباشي مهموماً).

ـ هذا يتوقف عليكما ، إن أصغيتما ولزمتما الطاعة لن نفعل بكما شيئاً و إلا فلا تستبعدا أن نقتلكما.

ـ ماذا يتوجب علينا فعله ؟

ـ أولاً أجيبا على أسئلتي بالحقيقة.

ـ اسألْ.

ـ أليس هنالك عساكر سيلحقون بكم ؟

ـ لا

ـ أوحدكم هنا فقط.

ـ نعم.

أميرآلا عمر آماد، إلى حد الآن لا دور فعال له. الآلاف من المقاتلين المسلحين يتواجدون في وادي لالش. لتقابلوهم شخصياً مع أربعة مدافع.. كان من المفروض أن يكون بمعيتكم أميرالا مع مئتي جندي مشاة للحفاظ على أرواحكم، يبدو أنه اعتقد بأنه سيلقي القبض على الإيزيدية ويقتلهم كالذباب بسهولة.

– بماذا أمركم؟

ـ يجب إيصال المدافع إلى عند الماء و من ثمَّ الاختفاء.

ـ بعدها.

ـ بعدها بنصف ساعة. سنقترب من معبد لالش.

ـ استمر في (القول).

ـ هناك سننتظر الرسول. ثم نذهب إلى باب الوادي وسنضرب الإيزديين بالمدافع.

ـ تستطيعون أن تتقدموا وتصلوا إلى باب وادي لالش أيضاً لكن البدء بالمعركة ليس بأيديكم (الآن بلا دفاع الترك جميعاً سلموا أنفسهم إلينا، وأتى الإيزديون وساقوهم أمامهم وحملوا المدافع الأربعة على البغال العشرين، ذهبنا مشياً إلى حين وصلنا إلى جيادنا وركبناها تم توجهنا إلى معبد لالش وقبل

وصولنا بنصف ساعة وضعنا المدافع هناك، وتمت حراستها بعشرين مسلحاً. هذا هو المكان الذي يبعث أميرآلا عمر بـ (بولوكه) إليه .عند وصولنا إلى باب وادي لالش كان بانتظارنا مجموعة كبيرة من الأشخاص الذين كانوا على علم بذهابنا، والكثير من الحجاج ينتظرون قدومنا ليعلموا ما حدث، ولهذا مُنع الرمي في الوادي، كافة الأماكن كانت هادئة.

إن أطلقت طلقة واحدة بيننا وبين الترك سيكونوا على علم بذلك، أول من استقبلني هو علي بك.

ـ أخيراً أتيتم؟ (قال علي بك بصوت منخفض ومحزن) لكن بلا مدافع. هنالك نقص في عدد الرجال.

ـ لا يوجد نقص في عدد الرجال ولا يوجد حتى جريح واحد.

ـ لكن أين هم ؟

ـ عند ملك وخلف يحرسون المدافع.

ـ لماذا؟

ـ قال لي يوزباشا، أميرألا سيبعث رسولاً إليهم في المكان الذي وضعت فيه المدافع، وبعدها يتقدمون ويضربون لالش بالمدافع، ألديك رجال يجيدون استعمال المدافع؟

ـ لدينا ما يكفي .

ـ حسناً، ليغيروا ملابسهم مع الترك، عند وصول الرسول يتم القبض عليه وعند اقتراب الترك، عليهم إطلاق مدفع واحد كإشارة وسنسحب العدو إلى داخل الوادي، وماذا نفعل بالأسرى ؟

ـ سآخذهم بسرعة من هنا ، ويحرسهم رجالنا .

ـ هل سترسلهم إلى وادي إيدز؟

ـ لا ، لا يجوز لأحد معرفة هذا المكان غير الإيزيدية ، يوجد كهف يكفيهم سنضعهم فيه وتتم حراستهم ، (في دار علي بك قد حضروا لنا مأدبة لذيذة ، لن يحضر علي بك ستحضر زوجته لخدمتنا ، لأنه سيذهب لتبديل ملابس الترك مع رجال الإيزيديين ، والذين يلبسون الملابس التركية سيتم إرسالهم إلى حيث المدافع ، عندما جاءني علي بك ، تحولت النجمة إلى الاصفرار .

ـ أجاهزٌ للذهاب يا أمير؟ قال لي علي بك .

ـ إلى أين ؟

ـ إلى وادي إيدز .

ـ إجازة منك أن أبقى هنا .

ـ أتريد أن تحارب إلى جانبنا ؟

ـ لا .

ـ أتريد أن تكون معنا فقط لترى المعركة وبطولاتنا ؟

ـ لن أكون معكم ساكون هنا في لالش .

ـ أستاذ ، ماذا تعتقد ؟

ـ أعتقد بالتي هي الصواب .

ـ الترك سيقتلونك .

ـ لن يقتلني الترك و أنا في ظل السلطان ووالي الموصل .

ـ لكنك رفيقنا وأسرت رجال المدافع وهذا يكفي لقتلك .

ـ ومن سيقول ذلك للترك ؟ أنا هنا مع خلف وباشبزوخ ـ إيفرا ـ ليس بعيداً أن يكون بقائي هنا ، أكثر نفعاً لكم، ولهذا لن أحارب إلى جانبكم.

ـ تقول الحقيقة يا أمير، لكن ليس بعيداً عندما تبدأ المعركة أن تجرح أو تقتل.

ـ لا أعتقد ذلك لأنني سأخبئ نفسي في حجرة (في هذه الأثناء فتح الباب صعد رجل، من الرجال الذين وضعهم علي بك في طريق الترك).

ـ يا سيدي (قال لعلي بك) لقد تراجعنا ، الترك الآن في باعذرة وبعد ساعة سيصلون إلى هنا .

ـ ارجع وقل لرفاقك، ليكونوا دائماً قريبين من الترك لكن لا تظهروا أنفسكم لهم (خرجنا من الدار، النساء والأطفال مستمرون بالمرور نحو وادي إيدز، أتى مبعوث آخر وكان مسرعاً ويتنفس بصعوبة وقال: يا سيدي، لم يبق الكثير إلا ويأتي الترك سيعبرون الكلينية ويتقدمون عبر الغابات بعد ساعة سيكونون هنا .

ـ سدوا الجهة الثانية من الوادي، عندما يأتون، تراجعوا، رفاقكم في أسفل الوادي سيكونون في انتظاركم، رجع ذلك الرجل ثم ذهب، اختفى بك قليلاً، بقيتُ أمام باب الدار أشاهد الطوابير المارة من أمامي حينما تختفي النساء والأطفال خلف المعابد المقدسة، الرجال الفرسان والمشاة كانوا وراءهم متسلسلين لكنهم لم يختفوا خلف المعابد المقدسة بل كانوا ينظرون إلى باعذرة والكلينية، وكانوا يصعدون الأماكن العالية كي يفسح المجال والطريق للعبور إلى داخل وادي لالش، إحساس غريب، أستقبلُ هذه المناظر في الظلام، انطفأت شعلة تلو شعلة فقط المقابر المقدسة كانت مضاءة .المزاران العاليان إلى السماء كانا مُنَارين، بقيت لوحدي، جميع المقربين لعلي بك قد رحلوا، بولوك أمين مازال نائماً في

مكانه، لم يرجع خلف بعد، كنت غارقاً في ذلك التفكير عند سماعي لأرجل الفرسان. لم يمضِ وقت حتى حضر أمامي خلف و رمى نفسه من على الجياد، عندها سمعت صوتين متقطعين من الأسفل . .

ـ ما هذا الصوت يا خلف ؟

ـ يقتلعون الأشجار. أمر علي بك بقلع تلك الأشجار كي لا يختبئ الترك وراءها، ويتم ضربهم بالمدافع من قبل أعداد المدافع.

ـ عمل عقلاني، أين البقية من الرجال العشرين.

ـ تركهم علي بك في حراسة المدافع مع ثلاثين آخرين لمساعدتهم ليكونوا سنداً لأعداد المدافع.

ـ حسناً، أصبح المجموع خمسين، يستطيعون التصدي للهجوم.

ـ أين الأسرى ؟ (سأل خلف).

ـ تم إجلاؤهم من هنا تحت مراقبة الحراس.

ـ هنا تبدأ المعركة ؟

ـ نعم.

ـ سنبقى هنا لنرى الأتراك عندما يقعون في الفخ.

ـ فرح خلف بهذه الفكرة، على الرغم من عدم قناعته بالمكان، كان يود القول: إن بقا ءنا هنا أخطر من المشاركة في المعركة.

ـ أين إيفرا ؟ (سأل خلف).

ـ نائم في مكانه.

ـ إنه يحب النوم كثيراً يا أستاذ، لهذا قد سلمه مسؤوله حماراً ينهق طول الليل فيعلمه بحدوث شيء ما.

ـ لا أصدق، كذلك لا يعلم كم هو دورنا في العمل (رجع علي بك، ليأخذ جياده وأخذ يتوسل إليَّ للذهاب من هنا لكن دون جدوى، كان يود عدم بقائي في هذا المكان لخوفه علي. ثم كرر قوله لا سمح اللّٰه لو حدث لك شي سأقتل الألف وخمسمائة رجل تركي جميعاً، أخيراً طلب مني تعليق منديل أبيض كبير موجود في الدار وربطه على الرفوف المقابلة للباحة كي يرى من بعيد ويتضح له أني بسلام، وإذا نزعتها فهذا مؤشر إلى أني في خطر، الآن امتطى جياده ورحل، أضاءت الدنيا و فتحت السماء، عندما تنظر إلى الأعلى تستطيع احتساب فروع الأشجار وتفرق بينها، قَبالتنا في جهة حائط الوادي، سمعنا طبطبة لأرجل فرس علي بك ببطء، كان مترجمي قد تركني أيضاً فبقيت أنا وخادمي في هذا الوادي الخالي من البشر والذي كان مزدحماً بالناس، هذا الوادي صامت ونحن وحيدون، أو أني لا أسمع شيئاً، ثم سمعت صوت صدى عند مزار الشمس، ظهر شخص طويل دارَ ثم رآني فأتاني، لحيته الطويلة السوداء متدلية على صدره، شعر رأسه أبيض متدلٌ على كتفيه كالثلج، إنه بير كمال لقد عرفته، أما زلت هنا ؟ (سألني، عندما وقف مقابلاً لي وبصوت فيه نوع من الصلابة) متى ستصل إلى الآخرين ؟

ـ سأبقى هنا.

ـ ستبقى هنا، لماذا ؟

ـ سأفيدكم هنا أكثر من بقائي في مكان آخر.

ـ جائز يا أمير لكن يجب أن ترحل من هنا.

ـ وأنا أيضاً أسألك: متى ستذهب خلف الآخرين ؟

ـ سأبقى هنا.

ـ لماذا؟

ـ ألا ترى هذه الكومة من حطب الأشجار (أجابني بانزعاج) إنها سبب بقائي هنا.

ـ لماذا هذه الكومة من حطب الأشجار؟

ـ حان الوقت، لأقدم ضحية هنا، لهذا تركت كومة حطب الأشجار على حالها.

ـ الترك لا يقبلون تقديمي للضحية.

ـ بأنفسهم يقدمون لي الضحية، هذا اليوم هو أفضل يوم في حياتي (عرفت ما يقصده لكني تجاهلت وسألته، ألا تود اليوم أن نتحدث عن كتابك، الذي سلمني إياه علي بك أمانة.

ـ هل أنت مسرور به، أتستفيد منه ؟

ـ مئة بالمئة.

ـ يا أمير، أنا عجوز فقير لي ثلاثة أشياء فقط.

ـ الأولى حياتي وهي راحلة إلى ربي الرحمن مرة أخرى، والثانية ملابسي سأحملهما معي تحت التراب، والثالثة كتابي سأقدمه لك هدية مني كي تتحدث روحك مع روحي عندما تفرقنا الحدود، الزمان، والجبال، والبحار (هذا أفضل قول في المشرق، أو أنه شعر بقرب المنية منه ؟)

ـ انتابتني رعشة، لم أستطع أن أحرر نفسي منها، قلت له: بيركمال هديتك هكذا كبيرة لا أستطيع أخذها ؟

ـ أمير، أنا أحبك خذ هذه الهدية، عندما تلاحظ تلك الكلمات التي كتبتها بيدي عندها فكر بالكلمة الأخيرة، التي كتبها بيدي في هذا الكتاب فيها تاريخ الدم الإيزيدي (لم أستطع قول شيء آخر بقي لدي فقط أن أقبله.)

يا بير كمال وأنا أحبك أيضاً عندما أقرأ كتابك ستصبح صورتك أمامي، أقاويلك تأتي إلى مسمعي، يجب أن تترك لالش الآن قبل تأخر الوقت، انظر إلى المزار المقدس في داخله القبر المبارك لقد تعرض إلى المضايقات كثيراً تعرض للموت لكن لم يهرب مرة واحدة، ألم يذكر في كتابكم يجب عدم الخوف من هؤلاء الذين تموت أجسامهم فقط، سأبقى هنا، أنا أعلم أن العثمانيين لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً، وإذا قتلوني وهذا غير ممكن ستصعد قطرات دمي إلى الشمس ؟ لن تموت الشمس، ستبعث بأشعتها من جديد، أليس للموت باب الإضاءة في عام النظافة (النقاوة) هل سمعت من الإيزيديين أن الشخص الفلاني قد مات ؟ إنهم يقولون أن الشخص الفلاني تناسخت روحه (تقمص روحه)، الفكرة أنه، لا موت، ولا قبر، فقط الحياة، عدا الحياة لا يوجد شيء آخر، لهذا أعتقد بأني سأرى الحياة مرة أخرى، (بعد هذه الأقوال بير كمال ذهب بسرعة إلى وراء جدران المعبد المقدس ودخلت إلى الغرف، أي المكان الذي يرقد فيه بولوك أمين، وسمعت خلف وإيفرا يتحدثان مع بعضهما).

ـ بقينا هنا وحيدين برعاية اللّٰه (سمعت هذا السؤال).

ـ نعم.

ـ أين البقية، أين ذهب هؤلاء الناس المزدحمون ؟

ـ من يعرف؟

ـ لماذا ذهبوا ؟

ـ هربوا.

ـ ممن ؟

ـ من أجلكم.

ـ من أجلي. حاجي خلف عمر، لا أفهم ما تقول.

ـ حسناً ، سأوضح ذلك.

ـ لقد هربوا من متصرفكم ومن أميرألا العائد لكم.

ـ لماذا من أجلهم ؟

ـ لأن أميرألا عمرآماد، سيهجم على لالش.

ـ اللّه أكبر، يد المتصرف بهذه القوة، قل لي هل أبقى تحت يد أمير (كارابن نمزي)، أم أساعد أميرألا في المعركة ؟

ـ يجب أن تبقى معنا.

ـ الحمد اللّه، هذا أفضل كي أستطيع أن أحافظ عليه.

ـ أنت ؟متى حافظت عليه ؟

ـ في الأوقات كلها منذ ذلك الحين منذ أن أتى تحت ظلي.

(ضحك خلف وأجابه).

ـ نعم أنت ذلك الرجل، أتعلم من يحافظ على الأمير ؟

ـ أنا !

ـ لا، أنا!

ـ ألم يضعه المتصرف تحت مراقبتي؟

ـ أليس هو من وضع نفسه تحت ظلي ؟ أيهما المتفوق في التقدير والاحترام (كارابن نمزي) أم متصرفك اللاشيء.

ـ خلف عمر لا تطل لسانك، إذا قلت ذلك في مسمع المتصرف ؟

ـ أهذا ما تعتقده، أخاف منه ؟أنا حاجي خلف عمر بن حاجي أبو العباس بن الحاجي داود الكوساري.

ـ أنا إيفرا، تابع إلى (باشبزوخات)الأبطال، العائد إلى السلطان، نظراً لأعمالي البطولية منحت رتبة بولوك أمين، فقط العشائر والسلالة هي همك، لكن الباشا والدولة العثمانية هي همي أيضاً .

ـ أريد أن أدرك بم ينفعك هذا الهم.

ـ ما الفائدة ! سأقول لك، راتبي الشهري ٢٥ قرشاً، يومياً كيلوان من الخبز، و ٧٠ غم من اللحم، و ٢ غم من الزبدة، و ٥ غرامات من الرز، وغرام واحد من الملح، وغرام ونصف مخلوط، عدا الزيت والصابون والأحذية.

ـ ألهذا تقوم بهذه الأعمال البهلوانية ؟

ـ نعم، وكثيراً جداً.

ـ أريد أن أراه.

ـ ماذا ؟أنت لا تصدق !

مثال، كيف فقدت أنفي، هذا في معركة بين الدروز والمارونية حدثت في جبل لبنان، تم إرسالنا إلى هناك، لتطبيق السلام والقانون هناك، وفي معركة من المعارك وقعت في أيدي الأعداء فضربوني بالعصا، أحد الأعداء لزم رأسي ورفعه

أردت إرجاع نفسي، وفي لحظة ضربني (مكوار) قد ضرب أنفي بدلاً من رأسي، ما هذا ؟

ـ نعم، ما هذا ؟ هذا صوت المدفع ؟

(قال خلف مباشرة، إنه صوت مدفع، لم يدع بولوك أمين يكمل قصته، هذه إشارة من عداد المدافع لنا، أنهم قبضوا على مبعوث أميرألا كذلك إشارة لاقتراب عسكر الترك، نهض خادماي الاثنان بولوك أمين وخلف بسرعة وأتيا إليَّ).

ـ يا أستاذ، لقد بدأت المعركة (قال خلف ويده على زناد المسدس).

ـ بدأت معركة المدافع (قال إيفرا).

ـ حسناً، أدخلا جيادنا إلى الداخل و بعدها تعالا إلى فناء المعبد المقدس.

ـ هل أجلب حماري أيضاً ؟

ـ نعم اجلب حمارك، وأغلق الباب بعد ذلك (أيضاً ذهبتُ أنا وجلبت منديلاً أبيض وعلقته على حافة سطح دار، كي يراه علي بك من بعيد، ثم أتيت ببعض الفَرش واللحف والوسائد وذهبت إلى الأسفل، جاء خدمي وجلسوا بجانبي، وفي هذه الأثناء ظهر النور وبات من الممكن مشاهدة الأماكن بوضوح، قبلها كان الوادي يغشاه الظلام لكن المشاعل فوق جدران المزارات المباركة ما زالت مشتعلة، عند رؤيتنا لها تستنير قلوبنا بها، لم تمر فترة حتى سمعنا صوت صهيل فرس داخل الوادي من جهة، ثم أجابه صهيل فرس آخر، تبين لي أن الجيش التركي في الوقت نفسه قد هاجم وادي لالش من الجهتين، تم تطبيق أوامر أميرألا في المكان الموعود.

ـ لقد جاؤوا (قال خلف).

ـ نعم، أتوا، (إيفرا ساند خلف) يا أستاذ، إذا اعتقدوا أننا إيزيدية وضربونا ماذا سنفعل ؟

ـ بعدها أخرج حمارك إلى مكان سيلاحظونك ويعرفونك مباشرة أتت العساكر بلا خيول وصهيل الخيول الذي سمعناه يبدو أنه للضباط فقط.

(الآن تسمع صوت أرجل الفرسان من قريب شيئاً فشيئاً ازدادت وتيرة الأصوات والضوضاء، تستطيع سماع أصوات اقتراب الكثيرين، أخيراً انبعثت الأصوات من المزارات، بعد دقيقتين نزح طابور من عسكر المشاة نحو الوادي فرفعت رأسي ونظرت إلى الأعلى، بدا ما يقارب المائتي شرطي منضبط، من ذوي الوجوه المتوحشة تحت لواء ئالا أمين وضابطين. طوق الجميع الوادي بالكامل، وتَبعتْهم عصابة من باشيزوخ ثم تفرقوا يميناً ويساراً، قصدوا الناس الأبرياء وأردوا إلقاء القبض عليهم، وبعدها جاءت مجموعة قليلة من الجياد وكان الفرسان من الضباط الكبار، كانوا اثنين يوزباشي و اثنين ئالا امين و اثنين بومباشي و قائمقام واحد، ومجموعة من المرافقين كان من ضمنهم شخص طويل ومتصلب ذو وجه يابس يحمل رموزاً من الذهب على ملابسه العسكرية، كان أميرألا عمرآماد (قال لي إيفرا بهدوء).

ـ والذي إلى جانبه، بالملابس المدنية من هو ؟ لقد أدهشَني، لا يوجد إنسان بهكذا قذارة وقبح ولم أرَ مثله قطّ، وبمقارنته مع الكلب سيتفوق عليه، وبمقارنته مع الخنزير فإنه سيفوقه بكثير، يعجز أي كلام عن الإتيان بما يفيه حقه من الوصف، كل ذلك القبح رأيته في وجهه.

ـ إنه الكودجي (رئيس جباية الضرائب)، مصدر ثقة باشا الموصل.(بولوك أمين أجابني)

(ما عمل هذا مع العسكر ؟ماذا يريد؟ لماذا أتى ؟ لم أستطع الاستمرار في تفكيري، وأجبتُ عن تلك الأسئلة لأن المدفع ضرب فجأة، ثم أتى صوت مدفع آخر، وبدأ الصراخ والعويل بين الأتراك، سمعت أصوات أقدام مجموعة من الناس الكبار يتدافعون مسرعين هاربين و مجامع من الفرسان والضباط. هذه الصورة كانت أمام عيني باستمرار.

ـ ما هذا ؟(نادى أميرألا).

مدفعان (قال الكودجي).

ـ إنه الصواب (ابتسم أميرألا) وقال: من الصعوبة أن يجيب عليه ضابط، لكن يا إلهي ما هذا ؟

(الأرناؤوط الموجودون كانوا قد مروا من هنا، الآن تراجعوا خائفين فارين وبينهم أربعة جرحى والجميع يرتعشون من الهلع).

ـ قفوا (ناداهم أميرألا) ماذا حدث ؟

ـ ضربونا بالمدافع، قتل ثالا أمين، كذلك قتل ضابطان والبقية جرحى أشلاؤهم في الأرض.

ـ قتلهم اللّٰه، يضربون أصدقاءهم بالمدافع، سأضربهم حتى الموت، (ناصر أكاسي)، تقدم إلى الأمام، اذهب وأبلغ هؤلاء الكلاب (هذا كان أمر لأحد المرافقين كان مع هيئته، (ناصر أكاسي) الذي قبضت عليه على نهر باعذرة ثم أطلقت سراحه، امتطى حصاناً وذهب، لكنه رجع في الحال).

ـ يا سيدي، عدَّادو مدافعنا ليسوا مَنْ يضربوننا، إنهم الإيزيديون، نادوني واقتربوا مني.

ـ أين مدافعنا ؟

ـ مدافعكم في أيديهم، بتلك المدافع ينهالون علينا، ليلة أمس هاجموا جنودنا وأخذوا المدافع من اليوزباشي (غضب أميرألا) وقال:

ـ يجب معاقبة هذا الملعون، أين هو ؟

ـ تم أسره مع جميع رفاقه.

ـ مسجون، مع الجميع دون الدفاع عن أنفسهم (من الغضب لكز برجليه بطن جواده وتوجه نحو الأضواء التي كانت تشع على جدران المزار المبارك، ثم قال: أين الإيزيديون؟ رفاق إبليس، كفرة أولاد الكفرة، أردت القبض عليهم، نضربهم بالفلاق حتى الموت، لكن لم يظهر أحد منهم، كانوا قد اختبأوا، سنراهم، لكن قبل كل شيء أعيدوا إلي المدافع !

(رجع المرافقون خلفاً، جنود ديار بكر المشاة بدأوا بالذهاب، أكبرهم كان يحمل عكازة و يمشي بجانبهم، رأيت الجنود قد عبروا ولم أرَ غير ذلك، لأن الوادي على الجهة اليسرى لكن لم تمر فترة حتى وسمعت ضربة مدفع ثم اثنتين وثلاثاً وأربعاً أسفرت عن مقتل العديد من الجنود، وبقيت أشلاؤهم في ساحة المعركة وفي الساحة بقي الجرحى المثقلون بالجراح، أما الباقون الذين كانت جراحهم خفيفة فقد هربوا وتراجعوا نحو الخلف، أكبرهم رفع عليهم السيف نادهم وهددهم:

ـ قفوا أيها الجبناء وإلا سأرسلكم بيدي إلى الجحيم، مرافقي داركونر إلى الأعلى.

(ذهب المرافقون بسرعة من هنا و لاذ الهاربون بالفرار مرة أخرى ثم علمت بمجيء العديد من الباشيزوخ، الذين قالوا أنهم رأوا الدور فارغة لا بشر فيها.

ـ هدموا عشهم وأحرقوه، تبيَّن لي أثرهم على الطريق، يجب أن أعلم أين ذهبوا (حان وقت الاستفادة).

ـ خلف، إذا أصابني القدر،ارفع هذا المنديل الأبيض على حافة الدار، إشارة إلى علي بك (بعد هذه الكلمات، تقدمت نحو الأعلى، ثم بينت نفسي).

ـ آه (نادى أميرألا، لقد رأينا أحداً،تعال إلى هنا يابن الكلب أريد أخذ المعلومات (أحنيت نفسي وتراجعت).

ـ خلف، أغلق الباب، لا يدخل أحد دون إذني، عندما أنادي باسمك افتح الباب بسرعة (جلبت خلف معي من الأعلى ووصلت عند الباب وأغلق الباب علي، طوقني الضباط بسرعة).

ـ الدودة القذرة، هذا أنت، أجب عن أسئلتي، وإلا سأقتلك (أمرني أميرألا).

ـ الدودة !(سألته بغضب) خذ واقرأ (أتى بخفة وأخذ مني الإذن، عندما رأى عليها ختم السلطان ووضعها فوق جبينه لكن ليس من كل قلبه، قرأها بخفة.

ـ أأوربي أنتَ ؟

ـ أنا ألماني.

ـ لا فرق في ذلك، ماذا تفعل هنا ؟

ـ جئت لكتابة البحث عن عادات وتقاليد الإيزيدية، (أجبته مرة أخرى استلمت إجازتي).

ـ في الموصل كنت مع الوالي ؟

ـ نعم.

ـ هل لديك إذن منه، بأن تأتي إلى هنا ؟

ـ نعم، هذا إذن منه (أعطيته الرسالتين اللتين كتبهما والي الموصل، بعد قراءتهما أعادهما إلي).

ـ هذا صحيح ، لكنه قطع كلامه لحدوث معركة ضارية داخل الوادي وفي الوقت نفسه سمعنا صوت أرجل الجياد الآتية إلينا.

ـ ماذا يجري في داخل الوادي (نصف السؤال موجه إلي، ولهذا أجبته).

ـ إنهم الإيزديون لقد تم تطويقك، أي نوع من الدفاع لا جدوى فيه (تمالك نفسه فوق جواده).

ـ الكلب القذر (صرخ بوجهي).

ـ ا تقل هكذا أقاويل أميرألا ، لا تكرر مثل هذه الأقاويل، ها أنا ذا راحل.

ـ لن ترحل.

ـ من لن يدعني أرحل ! سأعطيك كافة المعلومات، لكن لن أبقى هنا لأكون في خدمة أميرألا ، لقد بينتُ لك أنا في ظل مَنْ، وفي حال عدم اعترافك بها أعرف كيف أدافع عن نفسي ؟

ـ آه (رفع يده ليضربني).

ـ خلف (مع هذه المناداة العالية، رميت نفسي بين الجياد. ، فَتح الباب ومازلت أحاول إغلاقه ولم ينغلق، رماني أميرألا بمسدسه، فأصابت رصاصته إحدى الأشجار.

ـ يا أستاذ (قال خلف بكدر) كان يقصدك.

ـ تعال صعوداً (حين جعلونا نتسلق بسلم سمعنا في الخارج أصواتاً وضوضاء عند صعودنا، لاحظتُ اختفاء نهاية العسكر في زاوية من الوادي، كانت خطة غير مُحكمة وسديدة، سيحاربون المدافع، تدهور الوضع بيد أميرألا، من المَسرّ أن علي بك لم يقاتل معهم، كان الترك في الأسفل وعند المزار المقدس حتى منتصف الجبل، هكذا امتلأ بهم المكان، لو أطلق إيزيديٌّ إطلاقة واحدة لقتل أكثر من جندي، مرة أخرى عاودت المدافع الضرب ودب الخوف والهلع بين جنود الترك، هرب الجميع متدافعين نحو الأسفل و تجمعوا في أسفل الوادي، تسمَّر أميرألا من الغضب والخوف في مكانه، الآن من الضروري أن يأخذ بعض المعلومات ويتحدث بلغة ولهجة أخرى مختلفة، أشار إليَّ مرة أخرى، فأظهرت نفسي.

ـ تعالَ وانزلْ.

ـ لماذا ؟

ـ سأسألك بعض الأسئلة.

ـ ستقتلني .

ـ لم تكن هدفي.

ـ اسألْ أسئلتكَ ماذا لديك، سأجيبك من هنا على السطح، هكذا سأجيب كما لو أني أمامك (أعطيت إشارة إلى خلف، عرف ما أريد) لكن أترى هذا الرجل ؟ إنه خادمي، يحمل سلاحاً موجهاً فوهته نحوك، لو رأى بقدر إبرة أحداً يرفع سلاحه نحوي فسيقتله يا أميرألا، ثم سأقول ماقلتَه أنت، لم تكن هدفي .

جلس خلف على ركبتيه، عدَّل البندقية، اصفر وجه أميرألا، لا أعلم من الغضب أم من الخوف.

ـ ارمِ بندقيتك هناك (نادى أميرألا).

ـ لن أرميها!

ـ يا رجل، لدي ألفا جندي هنا أستطيع طحنك.

ـ أيضاً لدي رجل باستطاعته قتلك بإشارة واحدة مني.

ـ وبعدها سيأخذ الجيش بثأري بالقوة.

ـ الكثير منهم سيدفن تحت التراب إن مسني أذى، أقول لك أربعة آلاف مقاتل طوقوا الوادي في نصف ساعة، وبسهولة نحولكم إلى ضيوف موتى.

قال: كم مقاتل ؟

قلت: أربعة آلاف مقاتل، انظر إلى الوادي،ألا ترى رأساً بجانب رأس ؟ و ها هو ذا رجل نزل من الأعلى يرفع راية بيضاء، مؤكد أنه رسول علي بك أمير باعذرة، يبدو أنه سيتباحث معك، هيئ له الطريق و أرسل أحداً لاستقباله وفقاً للأصول والعادات والتقاليد كي يطمئن فقدومه يصب في مصلحتك.

ـ لست بحاجة إلى معلوماتك، هذا المتمرد يجب أن يأتي لوحده، أين جميع الإيزديين؟

ـ دعني أقول لك، علم علي بك بأنك ستهجم على الحجاج، بعث باستخباراته إلى طريق جيشك في الموصل وديار بكر وكركوك كي يراقبوا مجيئكم، ثم بعث بالنساء والأطفال إلى مكان آمن، ولم يقطع الطريق على جيشكم بل فتحه لكم بعد أن طوَّق الوادي من كافة الاتجاهات، حتى تجمعتم في الوادي، وقبل ذلك كانوا قد استولوا على مدافعكم وصواريخها. ستندم ما لم تتعامل باحترام وتقدير مع رسوله.

ـ أشكرك يا أوربي سأتباحث مع الرسول لأول مرة ومن ثم معك، ألديك إجازة من السلطان ووالي الموصل وتقف بجانب عدوهم؟! أنت إنسان خائن، يجب أن تنال عقوبتك (في حينها أتى (ناصر أكاسي) وهو برتبة ياور، ذهب إليه وتمتم بعض الكلمات في أذنه، أميرألا أشار إلي وقال: ليته يكون هو !

ـ هذا هو، لكنه ليس مع أعدائي بمحض الصدفة أصبح ضيفهم، لقد أنقذ حياتي.

ـ حسناً، بعدها سنتكلم عنه لكن الآن تعال لنذهب إلى داخل البناء (دخلوا إلى معبد الشمس، ترجلوا عن جيادهم واتجهوا إلى الداخل، أخذ رسول (علي بك) يقفز من صخرة إلى أخرى و مباشرة اتجه إلى الماء، ودخل معبد الشمس أيضاً، لا صوت، المعبد في صمت، فقط صوت جندي واحد، كانوا ينزلون مجامع من الأعلى، لم تمر نصف ساعة، خرج رسول علي بك من المعبد، لكنه كان مقيداً ومن بعده خرج أميرألا عمرآماد أيضاً، التف حوله، رأى كومة من حطب الأشجار، نادى عشرة من الأرناؤوط وقال لهم: ارموا هذا بالطلقات، قاد العشرة رسول علي بك إلى قرب كومة حطب الأشجار كي يرموه .

ـ أوقفوا الضرب (ناديت أميرألا) ماذا تفعل، هذا الرسول، إنسان مبارك.

ـ إنه مثلك متمر، سيقتل أولاً و أنت ثانياً، فقد أدركنا من الذي قبض على عداد المدافع ، أشار إلى الجنود كي يرموا الإيزيدي بالرصاص، لم يكن ما حدث في إطار توقعاتي وخيالي أبداً، أتى رجل من بين الجنود حيث كومة حطب الأشجار عند ذلك المقتول، جلس على قدميه، كان بير كمال.

ـ آه .. هذا شخص آخر (ناداه أميرألا وذهب إليه: انهض وأجبني).

(لم أسمع جيداً كان بعيداً عني فقط رأيت نضال أيادي بير كمال، الحاقد أميرألا ثم رأيت بعض الأيادي تمتد إلى كومة حطب الأشجار، وارتفع لهيب النار، وفكرة دارت في رأسي، يا إلهي الكبير، هل هو تلك الضحية، تلك العقوبة، ذلك الثأر، الذي أراد أخذه من عدوه، ذلك العدو الذي قتل زوجته وأبناءه، لم تمر دقيقة حتى اشتد لهيب النار وتكلموا فيما بينهم، بدا أميرألا في حالة غضب وعنف وعناد حاد، بينما بير كمال غلب عليه الهدوء والصبر إلا أن عينيه مُسمَّرتان، وفجأة فتح عينيه وأبعد الجنديين عنه ورماهما جانباً، وأمسك بأميرئالا فجأة وسحبه إلى النار، اختفى الاثنان عند لهيب النار، المعركة عند النار، أحدهما كان يريد إنقاذ نفسه من النار والآخر كان يود إحراقه، ختم ذلك اليوم مسيرة حياة إنسان بريء فارق دنياه على يد الجاني، وسلم روحه أمانة إلى نار دائمة الاشتعال، كان أكبر خوف أميرألا تلك الكلمات المذكورة في مؤخرة كتابه حول تاريخ الدم الإيزيدي وتجريمه لوحشية الطغاة، تلك النار التي التهمت جسده كان ينبغي أن تترك ملابسه، انتابني شعور الخوف والرعشة، وأغمضت عينيَّ لم أعد قادراً على رؤية أكثر مما رأيت، أو الشعور بأكثر مما شعرت به من الألم والهلع والمرار، ولم أشأ أن أعرف عن تلك اللحظات كل شيء فذلك كان أفضل وأكثر رأفة بي، ذهبت إلى الداخل تمددت ونظرت إلى الجدار. هدوء في الخارج إلى حد ما لكن بعد ذلك بدأت المعركة، الآن لا شأن لي بذلك إذا اقترب مني الخطر، يا خلف أيقظني فقط، رأيت المعبد الأبيض العالي، اللحية السوداء، الملابس العسكرية تبرق بالذهب، فقط رأيت الذين اختفوا في لهيب النار وأصبحوا بخاراً، يا رب،كم قيمة لحياة الإنسان، أأنت مع هذا؟! مع هذا ! مع ما حدث!!

مضى وقت سيئ للغاية ، خيم الهدوء على المعركة، سمعت على الدرج صوت وقع أرجل، إنه خلف وقد دخل الغرفة.

ـ أستاذ، يجب أن تأتي إلى السطح !

ـ لماذا ؟

ـ ضابط يودُّ التحدث معك.

ـ أستاذ، ذهبت إلى السطح، بنظرة واحدة علمت بظروف المعركة، ليس فقط في الأماكن العالية للوادي بل وما يسيطر عليه الإيزيديون في الوادي وما في قبضتهم وكيف بدأوا ينزلون إلى الداخل شيئاً فشيئاً، خلف كل صخرة وكل شجرة و كل حجر اختبأ رجل إيزيدي وأخذ أفضل مكان، بحيث لا يرمي بإطلاقة إلا وتصيب هدفها، حتى أنهم وصلوا إلى أسفل الوادي وأخذوا موقعهم في ماء العيون وبين الحرائش، فقط بقي شيء واحد، إذا كانوا قد نصبوا مدافعهم إلى أعلى وضربوا جنود الترك فإنه لم يبقَ من الترك واحداً هناك، رأيت ناصر اكاسي أمام باب المزار.

ـ أستاذ،أتتكلم معي ؟(سألني).

ـ ماذا لديكم لتقولوه لي ؟

ـ نود إرسال رسول إلى علي بك، أميرألا يا إلهي جعل اللّٰه مثواه الجنة، و أشار إلى الدخان الصاعد من الحطب، قَتل رسول علي بك، على هذي الحال لا يستطيع أحد منا الذهاب إليه، أتريد الذهاب ؟

ـ أريد، ماذا أقول له ؟

ـ القائمقام سيأمرك، يقود الآن القوات الخاصة إنه داخل ذلك الدار، تعال إلى عندي!

ـ سيأمرني ؟! قائمقامكم لن يستطيع أن يأمرني ولو بقدر رأس إبرة، أنا حرٌّ فيما أفعله، يستطيع القائمقام المجيء إلى هنا، إن كان لديه ما يريد قوله فليأتِ إلى هنا، الباب مفتوح له، وفقط له وليرافقه شخصان، إن اقترب آخرٌ غيرهم من هنا سأقتله.

ـ من في الدار غيرك ؟

ـ خادمي باشبزوخ (رافقني باشا الموصل).

ـ ما اسمه؟

ـ بولوك أمين إيفرا.

ـ إيفرا مع حماره ؟

ـ نعم (وضحكت).

ـ أأنت الغريب الذي ضرب الأرناؤوط وصادق الباشا ؟

ـ نعم أنا.

ـ انتظر قليلا يا أستاذ، الآن سيأتي القائمقام (لم يمر وقت طويل، وخرج القائمقام من المعبد، حتى أتى إلى عندي، كان بمعية رئيس الكودجية.

ـ خلف افتح الباب ليدخل ثم أغلق الباب، تعال إلى هنا، كل من يقترب من الدار دون رخصة سأضربه بالبندقية، (نزلت إلى الداخل ثم دخل الرجلان، كانا موظفين، هذا لا يهمني، استقبلتهم بكلمات بسيطة، وأشرت إليهما بالجلوس،

عندما جلسا قبل أن أرحب بهم بحرارة قلت لهما: أأخبركما خادمي الذي سمح لكما بالدخول باسمي ؟

ـ لا

ـ الناس يسمونني حجي (كارابن نمزي) أفندي، أنا لا أعرفكم وماذا لديكم لتقولوه لي ؟

ـ أأنتَ حجي ؟ (سألني رئيس الكودجية).

ـ نعم.

ـ ذهبت إلى المكة ؟

ـ نعم، ألا ترى القرآن المعلق في عنقي ؟ ألا ترى الكؤوس المملوءة من ماء زمزم ؟

ـ اعتقدت، أنك من الكفرة.

ـ أجئتم إليَّ لتقولوا ذلك ؟

ـ لا، نرجو إيصال مطالبنا إلى علي بك.

ـ هل تأمنون لي الطريق، لأذهب بسلامة ؟

ـ نعم.

ـ لي ولخادمي ؟

ـ نعم.

ـ ماذا أقول له ؟

ـ اطلب منه أن ينزع سلاحه ويستمع إلى باشا الموصل.

ـ ماذا بعد ؟(سألتهم ماذا بعد يريدون).

ـ بعدها يجب دفع الضريبة حسب قرار يصدره باشا برحمته.

ـ أأنت رئيس كودجية الموصل؟ نعم، وهذا الرجل القائمقام، هو قائد الجيش، يُفترض أن يتحدث هو معي وليس أنت.

ـ أنا كممثل للباشا بمعيته (مع هذه الكلمات تغير أسلوبه، وأصبح ثقيلاً على النفس).

ـ أعيِّنكَ بكتاب رسمي ممثلاً عنه ؟

ـ لا.

ـ إذن أنت لا تنفع بشيء، أنت كأي شخص آخر.

ـ لذلك شاهدي هو القائمقام.

ـ فقط بكتاب رسمي تستطيع أن تعرف نفسك، اذهب واجلب الرسالة لمثيل نفسك، باشا الموصل يريد أن يكون شخصا واحدا ممثلاً عنه.

ـ أتريد أن ترجعني خلفاً ؟

ـ لا، أريد أن أوضح لك، أنت لست ضابطاً، ولا تفهم شيئاً عن الجندية لذلك أريد أن تكون صامتاً.

ـ أمير (ناداني باسم الأمير، ثم نظر إلي بغضب).

ـ أتريد أن أبين حقيقة كلامي، أنتم مطوقون، من الصعوبة أن يُنقَذ أحد منكم، بعد نصف ساعة سيتم القبض عليكم، في هذه الظروف، أن أقول لعلي بك انزع سلاحك، سيعتقد أني مجنون. أميرألا، عافاه اللّٰه وجعل الجنة مثواه، قاد ألف وخمسمائة جندي كالمجانيين نحو هذا الفخ، وفجأة أصبح هذا الواجب على أكتاف القائمقام، وإذا استطاع أن يحرر جنوده من هذا الفخ، فسيكون ضابطاً جيداً

وبطلاً فذاً، لكن الخوف والجهل واقفان خلف الكلمات اللينة والعذبة، هذا لن يوصله إلى الهدف، سأتكلم معه فقط، لقيادة الجيش، يجب أن يكون شخصاً واحداً.

ـ يجب أن تسمعني أيضاً !

ـ لا أعرف على أي أساس؟

ـ حول موضوع المحادثات وأن تكون بحسب المرجع، أنا رئيس الكودجية.

ـ من أنت ! إن لم تستطع أن تريني كتاب ممثليكم، لا حديث بيني وبينك (لم يرُق هذا الرجل، لكن لو لم يكن كلامه لطيفاً لما سمعته، لا أمتلك معلومات واضحة حول أخطائه وذنوبه).

ـ ماذا أقول لعلي بك إذا سألني لماذا أقدمتم على هذه الحملة على معبد لالش؟ (سألت القائمقام).

ـ جئنا للقبض على القاتلين الذين هربوا إلى هنا و لأنهم رفضوا دفع الجزية.

ـ لهذه الأسباب سيتعجب علي بك لأنه سيكشف لكم، أنه باستطاعتكم الكشف عن المجرمين فيما بينكم، وإن كان من أجل الجزية فباستطاعتكم استعمال أسلوب آخر، لكن قولوا لي هدفكم لأقول له.

ـ قل له ليرسل أحداً من رجاله لأخبره بشروطي، وحسب تلك الشروط سوف أترك معبد لالش وأرحل.

ـ وإن سألني عن تلك الشروط ؟

ـ باسم الباشا: اطلب منه إعادة مدافعنا مع دفع أموال تعويضاً لدم لشهدائنا وجرحانا مع دفع الجزية وأموال أخرى للخسارة العامة، ثم يُبين هذا المبلغ لاحقاً.

ـ اللّٰه أكبر، اللّٰه قد منحك فماً، يطلب ما يتمنى ألا تحتاج إلى مطالب أخرى لتقول لي، هذا يكفي، والباقي تستطيع تقول لعلي بك، سأذهب إليه بسرعة إما أن أحمل معي جوابه وإما ممثلاً عنه.

ـ قلْ له أن يطلق سراح جميع أعداد المدافع ويدفع خسارتهم.

ـ سأقول له هذا أيضاً لكن أخاف أن يكون له مطالب أيضاً، هاأناذا ذاهب لكن قبل أن أذهب انتبهوا إذا ألحقتم ضرراً بمعبد لالش علي بك لن يرحمكم بعدها.

(ثم قمتُ وذهبوا، ناديتُ خلف وإيفرا فوضعوا السراج على الحيوانات، لم يمضِ وقت حتى ركبنا، ابقوا هنا، سآتي حالاً (ذهبت إلى الأسفل قليلاً كي أرى ضرر المدافع، شيء مخيف، لكن الإيزديين خففوا ذلك الخوف لأنهم قد ضمدوا جرحى الترك وقدموا لهم المساعدات، قلت في نفسي لو كان النصر للعثمانيين هل كانوا سيفعلون ذلك مع مقاتلي الإيزيدية ؟؟ في هذه الأحوال والظروف. خرج الجميع ونادوني لكني رجعت إلى خلف وإيفرا ثم توجهت نحو طريق باعذرة، اعتقدت أن علي بك في هذه الاتجاه عبر الجبال، عبرنا المعبد و كان القائمقام واقفاً هناك، أعطاني إشارة فذهبت إليه.

ـ قلْ لعلي بك يجب دفع تعويض لدم أميرألا أيضاً.

ـ أقول، إن رئيس كودجية الموصل يُتعب نفسه كثيراً في التفكير بالمطاليب، وأعتقد أن علي بك أيضاً لديه مطاليب كثيرة منكم وسيطلب دم رسوله، لكن سأحمل مطالبكم إليه.

ـ أمعك باشبزوخ ؟

ـ كما ترى.

ـ من وضعه بمعيتك ؟

ـ باشا الموصل.

ـ أما زلتَ بحاجة إليه ؟

ـ نعم

ـ نحن أيضاً بحاجة إليه.

ـ اجلب لي أمراً من باشا الموصل عندما تجلب لي الأمر وأراه، سأعطيك بولوك أمين (استمررتُ في طريقي وعبرت الكثير من الوجوه الموحشة، سيوفهم في أيديهم، ناصرأكاسي كان برفقتي إلى حين وصولي إلى المكان الأمين، بعدها ودعني بخفة وباختصار لقلة الوقت، سنلتقي مرة أخرى يا أفندي ؟

ـ اللّٰه أعلم، لا علم لنا بذلك.

ـ لقد حررت حياتي، لن أنساك أبداً، أنا أشكرك و لابد وأن نلتقي مرة أخرى وحينها سأكون في خدمتك.

ـ حفظك اللّٰه، ليس بعيداً أن أراك يوماً، أميرألا أوفر حظاً من أميرألا عمرآماد.

(تصافحنا وتفارقنا، مرة في مكان، التقينا مرة أخرى)، لم نمشِ حتى صادفنا أول إيزيدي مختبئ خلف الأحراش، إنه مترجمي (يوسف ابن زلك)، لقد هيأ نفسه في مكان قريب موجهاً فوهة بندقيته نحو أهدافه.

ـ أمير، أنت بخير؟ (ناداني).

ـ كثيراً، ألديك كتاب بير كمال ؟

ـ لا، وضعته في مكان لا يمسه أحد.

ـ لكن إذا قتلت سيضيع الكتاب ؟

ـ لا يا أفندي، لقد أعلمتُ الكثيرين بمكانه و سأعلمك أيضاً به.

ـ أين علي بك ؟

ـ عند تلك الصخور في الأعلى، كي يتمكن من السيطرة على الوادي جيداً، من فضلك دعني أوصلك إليه.

(وضع بندقيته فوق كتفه ومشى أمامي حتى وصلنا إلى الجبل العالي، هناك رأينا أماكن ومواضع الإيزديين، إنهم متواجدون في داخلها للقتال ينتظرون إشارة من علي بك للبدء بالمعارك، هنا علمت جيداً، رأيت علي بك، عندما كنا نراقب النجوم، الآن هنا مطوق تماماً من قبل الإيزديين، هؤلاء الإيزيدية الذين حاربوا سابقاً ضد جيش السلطان بدون خوف ينتصرون، ذهبنا نحو اليسار إلى حين وصلنا إلى الصخرة الكبيرة في الوادي، كان علي بك هناك وثلاثة من الإيزيدية حفاة، حينما رآنا علي بك استقبلنا بحفاوة. أشكر اللّٰه الذي حفظك.(قالها من كل قلبه) هل تداعى إلى ذهنك شيء محزن ؟

ـ لا، لو حدث، لأعطيتك إشارة.

ـ تعال إلى هنا.

(ترجلت عن جوادي، و اقتربت من مكانه، هنا يرى الإنسان الوادي بأكمله، المزار المقدس، دار علي بك، جيش الترك، المحيطين بالوادي)

أترى الشيء الأبيض على سطح داري ؟(سألني).

ـ نعم، هو منديل أبيض.

ـ لو سحبته من هناك، لأعطيت الإشارة لينزل خمسمئة من مقاتليَّ من الأعلى إلى الأسفل ولظلت المدافع تدك الأعداء وتمزقهم.

ـ أشكرك يا بك، أنا بسلام، فقط أميرألا ضربني بطلقة ولكنها لم تمسني.

ـ يجب أن ينال حقه.

نال حقه (ما رأيت، قلت له بالتفصيل، حتى الكلمة الأخيرة لبير كمال، الذي لم يودعني، واستمع إلى حديثي جيداً، وكان يحترق في الداخل، وعندما أنهيت كلامي، لم يقل شيئاً إلا كلمة، أن بير كمال كان بطلاً، بعدها فكر جيداً وبعمق، ثم انتبه وقال: ماذا تقول أقتلوا رسولي ؟

ـ رموا رسولكم بالرصاص.

ـ من الذي أعطى أمر الرمي ؟

ـ بالتأكيد أميرألا.

ـ أما زال حياً ؟؟ (وصكَّ بأسنانه).

ـ عندما كان أميرألا على قيد الحياة عرفت من تصرفاته أنه سيصاب بأذى، قلت له: إن لم ترجع بعد نصف ساعة سأبدأ بالمعركة مرة أخرى، لكن سآخذ بثأره و سأعطي الإشارة بعدم بقاء واحد منهم على قيد الحياة.

ـ هدِّئ من روعك، قبل هذا لدي حديث معك، بعثني القائمقام وهو قائد الجيش حالياً (أبلغته بوصاية قائمقام ورئيس الكودجية، لقد غضب كثيراً، قطّب حاجبيه، لكنه بقي إلى حين انتهائي من القصة)

ـ نعم، نعم، رئيس الكودجية هناك، الآن أعلمت، من الذي فعل هذا كله، إنه أقذر عدو للإيزدية و حاقد على الإيزديين، مصاص دم الإيزيدية، يعكس الأحداث

ويلفق الاتهامات، إنه خلف قتلِ رسولي وهو مَنْ أشعل هذه الحرب، سيذهب وفدنا الذي أرسلته إلى إسطنبول إلى رئيس محكمة ترك آسيا كي يسلموه رسالتي المكتوبة من قبل بير كمال، تجمع الاثنين علاقة طيبة، كان بير كمال ضيفه لفترة طويلة، يستطيع أن يفرق بين الحقيقة والكذب، سيساعدنا.

ـ أتمنى لك ذلك من أعماق قلبي، لكن من سترسل إلى القائمقام ؟ يجب ألا يكون شخصاً عادياً لأنهم سيلحقون به الأذى ويفتعلون الحيل.

ـ أنت تسأل من سأبعث إليه ؟ لن أبعث أحداً، لن أبعث أحداً فقط سأتحدث معه، أنا كبير جيشي وهو كبير جيشه و القرار في أيدينا، لكنني المنتصر وهو المهزوم الذي ينبغي عليه أن يأتي إلى هنا.

ـ هذه حقيقة.

ـ سأكون هنا في انتظاره، سنؤمن له الطريق ليأتي بأمان لكن إن لم يأتِ بعد نصف ساعة سأبدأ بالحرب مرة أخرى، ولنْ أبقي عثمانياً واحداً.

(تحدث علي بك مع مساعديه باختصار وذهب، بعدها رأيت مساعده يرمي بندقيته جانباً، رفع منديلاً أبيض وسلك الطريق الذي أتيت منه، وحمل الثاني سلاحه وصعد نحو اليمين ثم نزل إلى الأسفل عند المدافع، أعطى علي بك إشارة للإيزدية بنصب الخيمة، عندما نُصبت الخيمة وفرشوها نظرت إلى الإيزديين قد رفعوا المدافع عن مكانها وحملوها إلى حيث الماء و الكثير من الصخور وقطعوا بعض الأشجار ورتبوا مكاناً للمدافع، لم تمر عشرون دقيقة حتى رأيت مجيء القائمقام، كان بمعية ثلاثة جنود وبجانبه رئيس الكودجية ينتظر الحظ الأسود، هذا ما رأيته في عينيّ علي بك، جلس علي بك في الخيمة، بينما ذهبتُ لاستقبال

القائمقام، دخل القائمقام ورئيس الكودجية الخيمة وبقي الحراس الثلاثة خارج الخيمة.

ـ السلامُ (سلم القائمقام، لكن رئيس الكودجية لم يسلم، كان ينتظر من علي بك أن يأتي إليه ويسلم عليه كممثل من والي الموصل، لكن علي بك لم يسلم عليه ولم يرد سلام القائمقام، فقط أشار للقائمقام بالجلوس، القائمقام تستطيع الجلوس "قال له علي بك" بكل احترام وتقدير، وجلس بجانبه رئيس الكودجية).

ـ طلبت منا، أن نأتي إليك (قال قائمقام وبدأ بالحديث) : لِمَ لمْ تأتِنا ؟

ـ أنت على خطأ (قال علي بعصبية) لم أطلب منك، فقط أعلمتك إن لم تأتِ سأبيد العثمانيين في الوادي، هذا طلب ؟ ثم سألت لِمَ لمْ آتِ إليك، إذا جئت من معبد لالش إلى الموصل سآتي إليك، لكنك أتيت من الموصل إلى لالش، فأنت من عليه القدوم وفق العادات والتقاليد، فنجلس ونتباحث مباشرة أنت خادم وعامل السلطان والمتصرف، في هذه الفرصة أصبحت قائداً للجيش وضابطاً، لكني أمير كوردي مستقل، قائد لجميع مقاتليِّ، لهذا لا تظن بأن رتبتك أعلى من رتبتي.

ـ أنا خادم ..

ـ كن صامتاً، لم أعتَدْ على مقاطعة أحدٍ لكلامي أو عدم سماعي كن حذراً من ذلك، يا القائمقام، أنت بلا حق، وكلصوص الطرق أتيتم ديارنا مسلحين، أمسك باللصوص وأقتلهم كما أشاء لكنك خادم السلطان والمتصرف قبل أن أفعل أي شيء أتحدث معك بلطف حتى اللحظة، أنت وجيشك بسلام، لأنني ترأفتُ بكم ورحمتكم، قل الآن من هو صاحب الحق ليذهب إلى الآخر؟ أآتيكَ أم تأتيني؟!

(تعجب القائمقام، ولم يتصور أن علي بك .سيتحدث معه بهذا الأسلوب، كان يفكر كيف سيجيب عن أسئلته لكن رئيس الكودجية استقبل كلام علي بك بتذمر وقال لعلي بك: ألا تخاف على نفسك؟ أهكذا تحدث ممثلي السلطان و تنعت باشا الموصل باللصوصية والقتلة؟! كن حذراً ستندم.

ـ التفت علي بك إلى القائمقام وقال له: من هذا المجنون ؟

(علي بك حضر هيئة تخويف).

ـ انتبه إلى لسانك يا علي بك هذا الأفندي هو رئيس كودجية الموصل.

ـ هل تمزح ؟ يجب أن يكون رئيس الكودجية عاقلاً وعقله في رأسه، لقد ورَّط والي الموصل كي يخوض حرباً ضدي لو كان عاقلاً لما جاء إلي، كان عليه أن يدرك ما ينتظره هنا.

ـ أنا لا أمزح، هو بنفسه.

ـ أرى، أنك لست سكراناً ولا نائماً لذلك يجب أن أصدقك، لكن فكر بأمر أني طلبتك لوحدك.

ـ جاء معي كممثل للمتصرف.

ـ ليس بعيداً أن يكون كذلك، كما تقول، لكنك تستطيع تأكيد ذلك ؟

ـ أنا أقول وأنا الشاهد.

ـ هذا لا يأكل هنا ، أنا أصدقك لكن الذي يأتي لأجل هذه القضية يجب أن أعرفه جيداً وأعرف فيما إن كان يملك حق المحادثة معي أم لا ، إن لم يمتلك ذلك الحق سأتعامل معه كيفما تعاملتم مع رسولي الأول.

ـ لا ينبغي أن تتعامل هكذا مع رئيس الكودجية !

ـ سأبيِّن لك إن كان جائزاً أم لا (صفّق بيديه فحضر الإيزيدي الذي جلب القائمقام) أكدت للقائمقام أن الطريق آمن و ليأتِ مُطمئِناً.

ـ نعم مولاي.

ـ هل وعدت شخصاً آخر غيره ؟

ـ لا لم أعدْ شخصاً آخر.

ـ وعدت الحراس الثلاثة الواقفين في الخارج ؟

ـ لم أعِدْ رئيس الكودجية أيضاً.

ـ قيِّدوا الرجال الثلاثة وهذا الرجل أيضاً رئيس الكودجية أو خذه معك، إنه متهم بقتل رسولي كذلك هو متهم بالكثير من التهم.

ـ أنا لا أقبل (نادى القائمقام).

ـ سأدافع عن نفسي، سآخذ بثأري (هدد رئيس الكودجية، فما كان منه إلا أن أخرج خنجره من غمده، وضرب علي بك بقبضة يده ما بين عيونه فسقط على ظهره.

ـ كلب، الكلب، أتسحب عليَّ الخنجر في خيمتي! أخرجوه.

ـ تمهل (قال القائمقام) لقد جئنا للمباحثات يجب أن يمضي حديثنا بسلام.

ـ رسولي أيضاً كان في مباحثات معكم لكنكم قبضتم عليه كخائن ورميتموه بالرصاص، خذ هذا خارجاً.

(الإيزيدية الموجودون هناك لزموا أيدي رئيس الكودجية وأخرجوه).

ـ اذهب وستصل إلى رفاقك بسلام وبصحة تامة، لكن قبل أن تصل إليهم سيُقتل الكثير منهم، أمير (كارابن نمزي)، اذهب إلى رأس الصخرة الخارجية وارفع يدك اليمنى، هذه إشارة لعداد المدفعية كي يبدؤوا القصف بالمدافع.

ـ تمهَّل (قال القائمقام وبسرعة أدار وجهه له) لا يجوز أن تبدأوا بالقصف.

ـ لماذا لا يجوز (سأله علي بك)؟

ـ سيتحول الأمر بذلك إلى قتال.

ـ لن يصبح قتالاً بل هي عقوبتكم، أردتم الهجوم علينا دون علمنا، أتيتم بالسيوف والبنادق والمدافع كي تبيدونا وتمزقونا، لكن الآن مدافعكم بأيدينا، لقد تم القبض عليكم في فرصة جيدة، الآن تقولون للذين يدافعون عن أنفسهم أنهم قتلة، أيها القائمقام انزع حقدك، ولا تكن (علكة) في فم الناس.

ـ يجب أن تطلق سراح رئيس الكودجية.

ـ هو المسؤول عن قتل رسولي ويجب أن ينال جزاءه.

ـ ستقتله ؟

ـ ليس بعيداً، وهذا يقف عند معاهدة أو اتفاقية نتفق عليها.

ـ ماذا تطلب مني ؟

ـ أنا مستعد للاستماع إلى مطالبك.

ـ المطالب !نحن جئنا نطلب منك !

ـ قبلها، قلت لك لا تكن علكة في فم الناس، للمرة الأولى ما سبب هجومكم علينا ؟

ـ وجود قاتلين لديكم.

ـ أدرك ما تقول لكني أقول لك: لقد فهمت الأمر بخلاف الحقيقة، لم يقتل اثنان منا واحداً منكم وإنما ثلاثة منكم قتلوا اثنين منا، اعرف ذلك جيداً وسأبين لك: قبل الآن كان مختار(مالطا) مع أقرباء القتلى هنا وقد رأى الحادث كشاهد عيان، فما قلته لك هو ما قاله لي.

ـ ربما روى عن حادث آخر، ليس هذا الحادث.

ـ هذا فقط، حديثكم فيما يخص الحادثة لكن رئيس الكودجية قلب وعكس الحادثة وقال لكم يجب عدم فعله مرة أخرى، إذا كان الأمر كما تقول فهذا ليس مبرراً للهجوم علينا بالجيش والأسلحة!

ـ إذن هنالك سبب ومبرر آخر.

ـ ما هو ؟

ـ لم ندفع الضرائب.

ـ دفعنا الجزية، تقصد جباية الضرائب .نحن الكرد مستقلون أحرار بما ندفع، وقد دفعنا أيضاً بدل الخدمة العسكرية لغير المسلمين أيضاً، الآن تريدون الجزية أيضاً، أتريدون أية مطاليب أخرى! كذلك دفعنا ضرائب الرؤوس بالفرض، إذا كنا مطلوبين للمتصرف بالجزية، فهل يعني ذلك أن تتخذوا ذلك ذريعة للهجوم علينا ؟ أردتم الهجوم على لالش وإبادتنا، والآن يتواجد ألف مقاتل فيه.

أنا وأنت أيها قائمقام كلانا يعلم جيداً ما هي غاية المتصرف عندنا ؟

يريد المال والأثاث لكنه لم يحصل على غنائمنا، لا نريد البحث عن أسباب أخرى لهجومه، أنت لست قانونياً ولا كودجياً، أنت ضابط لذلك نتحدث عن أمور متعلقة بالجيش فقط لذا تكلم وأنا أستمع إليك.

ـ أريد منك الجزية والقتلة، وإذا لم توافق فبأمر المتصرف سأدمر معبد لالش وجميع المواطنين الإيزديين، سنقتلهم جميعاً.

ـ نأخذ ما يمتلكون كغنائم.

ـ أستأخذها جميعها كغنائم ؟!

ـ هذه أوامر باشا الموصل.

ـ أهذه أوامره ؟

ـ وهل ستطبق أوامره ؟

ـ بما أستطيع .

ـ افعل ما قاله لك المتصرف (نهض علي بك وأشار بانتهاء المباحثات، أراد القائمقام المتابعة) ماذا ستفعل بك ؟

ـ هل ستدمر قرى الإيزديين؟ هل ستأخذ أموالهم غنائماً ؟ حسناً، أنا رئيس الإيزيدية ومن واجبي أن أحافظ عليهم وعن أرواحهم وممتلكاتهم إزاء مجيئكم إلى هنا واقتحامكم المكان دون علمنا، أتدافعون عن أسباب باطلة كاذبة؟! وتريدون إحراق دورنا ونهب أموالنا وقتلنا! حتى أنكم قتلتم رسولي ومضيتم ضد الطبائع والدساتير جميعها، لن أحاربكم كجيش ومقاتلين، بل كقَطاع طرق ولصوص يحصلون على غنائم، هذا النوع من البشر يستحق الموت، لا حديث بيننا، عُد إلى جيشك، الآن أنت في حمايتي. بعدها (خرج علي بك من الخيمة وبيده أعطى الإشارة لعدادي المدافع بينما لا يزالون بانتظار الإشارة، دق المدفع ـ دق ثم تلاه الآخر).

ـ يا مولاي، ماذا تفعل؟ (ناداه القائمقام) أما زلت عندك؟ خالفت وقف إطلاق النار.

ـ هل لدينا اتفاقية حول وقف إطلاق النار؟ ألم أقل لك لا حديث بيننا بعد ؟ هل سمعت ؟ هذه أصوات المدافع التي جئتم بها لضربنا لكنها الآن تضربكم، اللّٰه مع الحق، المدافع التي حملتموها لضرب الأبرياء تضرب جوانبكم الآن، اسمع نجدات جنودك، اذهب وبلغهم بتدمير قرى الإيزديين (في الحقيقة كانت كذلك، كما قال علي بك، دق المدفع الثالث والرابع وأخذوا أهدافهم، أصوات عويل وصراخ الوحوش في داخل الوادي وصلت إلى السماء).

ـ تمهل يا علي بك، أعطِ إشارة لعداد المدافع أن يتوقف أوقفوا الحرب، كي نستطيع الاستمرار في المباحثات.

ـ أنت التزمت بأوامر المتصرف وطبقتها وأنا أطبق أوامري، لاشيء بيننا.

ـ لم يأمرني الباشا لكنه أعطى الأوامر إلى أميرألا والآن واجبي ألّا أتركهم يقتلون دون دفاع، يجب أن أحميهم.

ـ أتريد أن تلتزم بأفكارك؟ أنا مستعد لوقف الحرب ونستمر في المباحثات مرة أخرى.

ـ تعالَ إلى الداخل (رفع علي بك عمامته عن رأسه، وأشار بها إلى عدادي المدافع (التوبجية) لوقف القصف ثم دخل الخيمة) ماذا تريد مني ؟(سأل القائمقام علي بك) نظر علي بك إلى الأرض وفكر بعمق، ثم قال: لست كذلك كي أزعجك، لذلك يجب أن أحافظ عليك، كل اتفاقية بيني وبينك ليست لمصلحتك لأن

شروطي تصيبكم بالضرر، لذلك سأتباحث مع الباشا بنفسه فتتخلص أنت من المسؤولية.

ـ أشكرك يا بك (تبين أن القائمقام لم يكن شخصاً سيئاً وسُرَّ كثيراً بما قاله علي بك ولهذا شكره من كل قلبه).

ـ لكن أريد منك شرطاً (قال علي بك).

ـ ما هو الشرط ؟!

ـ أن تبقى مع العساكر، في معبد لالش كأسير إلى حين وصولي مع الباشا إلى اتفاقية.

ـ اتفقنا ، لأن الذنب يقع على عاتق أميرألا فهو السبب في كل ما يجري .

ـ ستنزع السلاح أيضاً ؟

ـ هذا عيب علي.

ـ أنتم كأسرى حرب تستطيعون الحفاظ على السلاح.

ـ موافق. نبقى كأسرى حرب في معبد لالش ودون مخالفة إلى حين معرفة ما يأمر به الباشا.

ـ إن لم تلتزم بالاتفاقية فالأمر لن يصب في مصلحتكم، سوف تطحنون.

ـ بك، أنا أقول الحقيقة، ظروفنا صعبة جداً، لكن لتعلم كم هي قوة ألف مقاتل إذا حاربوا ؟

ـ أعرف ذلك، لن يقتل منكم أحد.

ـ لكن سيقتل منكم، أعلم ذلك أيضاً ، الآن تحت لواء متصرف الموصل العديد من القوى العسكرية التي ستأتي لنجدتنا ، كذلك الجيش الموجود في كركوك

والسليمانية وديار بكر وأماكن أخرى سيأتون لنجدتنا بالمدافع والأسلحة، الظروف لن تأتي على مرادك.

ـ أتعتقد أني سأتخلى عن الانتصار الحالي، لأنه ليس بعيداً أن أتضرر ليأتي المتصرف لنجدتكم بعدها سوف تُقتلون جميعاً، سأقول له هذا، أنت تعلم أنني إن طلبت النجدة فإن القبائل والعشائر الكردية برجالها ونسائها سينهضون ويلبون النداء ويقفون ضد باشا الموصل لكني أريد السلام لا أريد الحرب، أستطيع جمع العديد من القبائل والعشائر حولي وإشعال الثورة بينهم لكني لن أفعل ذلك إذا التزم المتصرف بالحقيقة، لم أعطِ وعداً بالسلاح، لم أنزع منك ومن جيشك السلاح، يجب دفع ضريبة على الباشا هذا الوعد.

ـ مع من عقدت هذه المعاهدة ؟

ـ الإيزيدية لا يخونون أصدقاءهم، ليبقَ سلاحكم عندكم لكن سلمونا الإطلاقات والمخازن وأعدكم في حالة عدم الحاجة إليها سأردها إليكم.

ـ إن سلمتكم الطلقات كأنما سلمتكم الأسلحة (ضحك علي بك).

ـ حسناً، لتبقَ لديكم أيضاً لكن عندما يجوع جيشك سأبيعك الطعام مقابل البنادق والمسدسات، هكذا لن تكونوا أسرى الحرب بل اتفاقية بيننا لوقف الحرب.

ـ اتفقنا، الآن أستطيع الذهاب.

ـ أنت ترى أني واسع الصدر، والآن استمع إلى شروطي، ستبقى في المعبد فلا تتصل بالخارج أو تتحارب مع مقاتليِّ، ستحترم مزاراتنا ودورنا، لا يجوز مروركم دون علمنا، ابقوا في مكانكم الحالي، ونحن نبقى في أماكننا، سنستمر في الحرب إذا دعاني متصرف الموصل للحضور عنده، كل محاولة منكم للهروب أو أي عمل

مخالف لهذه المعاهدة سنتصرف إزاءه بحرية ولن نلتزم بالمعاهدة، ومن جانبنا سنحترم هذه المعاهدة، أموافقٌ أنت ؟ (بعدها فكر القائمقام وأضاف إليها بعض الأشياء غير المجدية، وافق على هذه الشروط، حاول إطلاق سراح رئيس الكودجية لكن المحاولة كانت دون جدوى، هذه المعاهدة كتبت من قبلي على الورقة ووقع عليها الاثنان، بعدها ذهب القائمقام إلى الوادي حيث جنوده مع حراسه الثلاثة بعد إطلاق سراحهم وبقيت منشغلاً بالتفكير وبانتظار أوامر علي بك.

ـ أتريد أن تكتب رسالة إلى باشا الموصل باسمي؟ (سألني علي بك).

ـ من عينيٍّ، ماذا تريد أن تكتب فيها ؟

ـ اكتب فيها، حالة جيشه، أريد أن نتباحث معه إما هنا أو في الجراحية، لكن لا يجوز جلب أكثر من خمسين شخصاً ويجب الابتعاد عن جميع أشكال العداء معنا، هذا الاجتماع بيني وبينه وبعد غد ظهراً تبدأ، وفي حالة عدم الحضور سأقتل رئيس الكودجية وأضرب جنوده بالمدافع، كذلك سأفعل هذا في حالة قيامه بأي عمل عدائي ضدنا، أتستطيع أن تكتب ما قلته ؟

ـ نعم.

ـ سأعطي بعض النصائح الخاصة لبالي، لا أستطيع كتابتها بسرعة، كي يذهب (بعد دقائق، أتيت إلى داخل الخيمة، وضعت الورقة على ركبتي وكتبت بقلمي الرصاص على الطريقة الشرقية من اليسار إلى اليمين، لم تمر نصف الساعة حتى حمل باسي الرسالة وركب جياده واتجه نحو طريق باعذرة. أفسد

الترك عيد الإيزيدية، لكن كبرت فرصتهم وازداد سرورهم عندما رفع عنهم التهديد الكبير.

ـ الآن ماذا ستفعلون بالعيد؟ (سألت علي بك).

ـ من الممكن أن يبقى الجيش التركي في معبد لالش لعدة أيام، الإيزيدية لا يستطيعون الانتظار هكذا أو أني سأقيم لهم عيداً أكبر من هذا العيد الذي ينتظرونه (أجابني).

ـ أتعلم جيداً بموقع وادي إيدز ؟

ـ نعم.

ـ ألديك وقت، اركب واذهب إلى هناك، واجلب معك أمير الشيخان والقوالين، تعالَ سنذهب ونلقي نظرة على جسم بير كمال، ونخرجه من الرماد وندفنه في وادي إيدز.

(في الحقيقة أردت أن أرى كيف يدفن الإيزيديون موتاهم، فكرت باصطحاب خلف معي وتركت بولوك أمين هناك فأستدل على وادي إيدز لكني لم أذهب إلى هناك من معبد لالش وإنما ذهبت من طريق باعذرة، وكان علي بك يعتقد أني قد ذهبت من المعبد إلى وادي إيدز بمعية ابن زلك، ولم أقل له أني لا أستبين الطريق إلى الوادي. كنت سعيداً لأن أسير إليه دون دليل أو مرافق تساءلت في نفسي هل سأستدل على الطريق أم لا ؟ لأني لم أذهب برفقة خلف، مشيت على آثار أقدام الإيزيدية قبل اليوم، ستوصلني إلى الوادي مباشرة، ركبت واتجهت نحو اتجاه وادي إيدز فوصلت إلى المعبد وعندما عبرته رأيت الكثير من الإيزيدية و تجاوزتهم، ثم التفتُّ يساراً نحو الغابة، لم يكن المسير صعباً على الحصان، كنت

أتبع آثار أقدام الإيزديين، لزمت الأثر واستمررت حتى رأيت، نفسي في ذلك المكان، المكان الذي كنت مع مترجمي، نزلت من الأعلى إلى الأسفل فرأيت الحراس هناك، ثم ترجلت عن الفرس ونزلت إلى الأسفل، عند النزول كان منظر الوادي رائعاً من خلال القمم، الآلاف من النساء والأطفال أخذوا أماكنهم الجميلة وعملوا مخيماً لهم، تسرح فروسهم مع أبقارهم هناك، الأغنام والماعز على بطون الوادي الجميع في حالة الصمت، يتحدثون بهدوء كيلا يهتدي أحد إلى مكانهم، كان أمير الشيخان وشيخ القوالين جالسَين عند الماء، استقبلوني بحفاوة، لأنهم يعلمون أن العدو لم ينتصر بعد ولازال مهزوماً، لا مزيد لديهم من المعلومات.

ـ مزار شيخادي ألم يُصَب بأذى؟ (كان السؤال الأول الذي سألني إياه أمير الشيخان).

ـ المزار وجميع الأماكن المقدسة بخير.

ـ سمعت أن نزفاً غزيراً للدماء حدث في المعركة.

ـ كان من العثمانيين فقط.

ـ ومن الإيزديين هل قَتل أحدٌ؟

ـ لم أسمع عن شخصٍ إيزديٍّ قَتل أو جُرح، في الحقيقة كانت هنالك محاولة لقتل اثنين لكنهما لم يُقتلا في المعركة.

ـ من هما ؟

ـ الأول هفي السراج، من أهل بازوني والآخر.

ـ هفي البازوني، كان إنساناً مؤمناً باللّٰه وتقياً وبطلاً.

ـ لم يقتل في المعركة.

ـ كيف قَتل إذن ؟

ـ بعثه علي بك كرسول له إلى الترك من أجل البدء بالمباحثات فقيدوه ورموه بالرصاص، تألمت لأجله كثيراً لكني لم أستطع إنقاذه الشيخ والبير والقوال، حنوا برؤوسهم، وتدخلوا بأيديهم ثم بقوا صامتين، فقط أمير الشيخان نظر إلي بحزن وقال بصوت عميق: إن روحه قد تقمصت، لم تضربه الشمس، تقمصت في مكان ما تحت أشعة شمس عالية، سنراه في ذلك المكان مرة أخرى، هناك لا موت، لا قبر، لا آلام، لا هموم، الشمس الدائمة، الراحة الدائمة، عند اللّٰه (تألموا لسماع قتل صاحبهم لكنهم تلقوا الخبر بقلب صبور، عللوا أنفسهم بالتقمص، لم يُدِن أحدٌ القاتلَ أو يتفوَّه بكلمات نابية في فعلته، هذا الصمت والانحناء لا تراه عند المسلمين، لكنهم أخذوا فكرة الإيزيدية والمسيحية وتمسكوا بها).

ـ ومن هو الآخر؟ (سألني أمير الشيخان مرة أخرى).

ـ ستخاف !

ـ لا نخاف من الموت لأنه رفيق كل إنسان، إنه نهاية الذنوب وبداية الراحة.

ـ من هو؟

ـ بير كمال (صُدم الجميع وحزَّ نفوسهم الألم دون أن يتكلموا، فقط أمير الشيخان قال: هذا المقدس قد تقمصت روحه، أراده اللّٰه، قل لنا كيف مات؟

ـ رويتُ لهم ما حدث بدقة، استمعوا إلي، ثم طلب منهم أمير الشيخان : أيها الأخوة لنقف حداداً على روحه، انحنى الجميع برؤوسهم وبدأوا بالصلاة، لا أعرف.. لكني رأيت عيونهم اغرورقت بالدموع، حبهم ووفاؤهم كان أكبر وأعمق من أن يوصف، نستطيع أن نقول إن الحب والإخلاص تجليا فيما بدا، وذلك موجود

فقط عند الألمان، فإن الإيزيدية يشبهون الألمان، كيف لي أن أشرح ما في صدورهم من الرحمة ونظافة المسيحية التي أنارت ظلام ديانتهم، كانت رؤوس جبالهم مطعمة بالذهب، لم تطل صلاتهم وعاودت القول مرة أخرى: لقد أرسلني علي بك لترافقوني ولنُخرِج جسم بير كمال من الرماد وندفنه هذا اليوم في الوادي.

ـ نعم هذا مهم يجب تنفيذ هذا العمل، لن ترتاح عظام بير كمال في مكان فيه أميرألا.

ـ أخشى ألا نجد عظامه ونرى الرماد فقط.

ـ أسرعوا لنذهب (سلكنا الطريق برفقة الشيوخ والقوالين جميعاً وبقي الفقراء هناك يراقبون الوادي، عندما وصلنا خيمة علي بك المقابل للمعبد، كان قد بعث بشخص إلى القائمقام، للسماح بالبحث عن عظام بير كمال وجلبها ودفنها عندنا، أتى جواب القائمقام بـ نعم، وكان شرطه الوحيد عدم مجيء أحد بسلاح، لم يذهب علي بك مع أمير الشيخان، ليراقب الوضع هناك وينتبه إلى كل شيء، طلبت منهم أن أرافقهم استجابوا لطلبي بكل سرور، لم يبق شيء سوى إناء نضع فيه رماد بير كمال المقدس، لكن علي بك قال: لقد فكرت بذلك.

ـ يا أمير الشيخان، أتعلم بأن بازوني صانع الجرار والمشارب والأواني الفخارية قد صنع لوالدي حسين بك جرة ماء، ولذلك في وقت انتظار الجرة قمنا بعزل عظامه عن التراب ونشارة خشب الصناديق.

ـ تلك الجرة قطعة فنية جميلة ومن الضروري أن تضع فيها عظام بير كمال، إنها موجودة في بيتنا في باعذرة، منذ قليل أرسلت شخصاً لجلبها سيأتي بسرعة قبل انتهاء عملكم في كومة رماد الحطب. (هذا الكلام يكفي) هيأت القافلة

نفسها و نزلنا من الأعلى نحو الوادي و عبرنا عند الرسول إلى أن وصلنا إلى مكان بير كمال الذي أخذ ثأره من أميرألا، رأيت كومة من الرماد هناك من مخلفات الحطب المحترق، وكانت جثة رسول علي بك المقتول بالرصاص موجودة هناك بجانب تلك الكومة، لهيب النار قد أحرقه وملابسه، لكن النار لم تؤثر على جسمه، لم نستطع العمل جرّاء رائحة جثته وكان الرماد بارداً و الأدوات المطلوبة موجودة في الدور، بدأ الجميع يرفع الرماد و العمل يجري بانتباه وبطء شديدين، ثم وصل ذلك الإيزيدي الذي جلب الجرة على ظهره وهو يمتطي بغلاً، تشبه زجاجة (لمبة) عليها رسوم لصورة الشمس وبعض الكلمات مكتوبة بالكردية. كنت أرى أنه من الصعوبة عزل رماد بير كمال عن بقية الرماد إلا أنه ومع اقترابنا من تراب الأرض بدت هناك كومتان من الرماد مفروشتان فتوقف الجميع وفكروا فيهما، لا نعرف أيُّهما لبير كمال وأيُّهما لأميرئالا انظر إليهما (قال لي أمير الشيخان)، لم يكن من السهولة التمييز بين الاثنين، يحتاج الإنسان لأن يسد فمه وأنفه وهو يفرز الأشياء، أمامنا جثتان محترقتان متفحمتان إلى النصف، ثلاثة أرباع جسديهما متداخل والجزآن المتبقيان أحدهما ملتصق بالآخر.

ـ ميتان (قلتُ) و عليكم دفن هذا الرماد المبارك.

ـ نعم، لكن أين رماده ؟

نظروا (أردت أن أعلم، مدى مستوى معرفتهم، أتعبوا أذهانهم في التفكير وتمييز جثة ورماد بير كمال لكن دون جدوى، بدا الأمر عليهم بالغ الصعوبة لكنه كان سهلاً)

ـ الإنسان لا يستطيع التفريق بينهما (قال أمير الشيخان بالتعقيد) إما أن نترك الأمر، ورفع حقه عنا، أو نضع الاثنين في الجرة، الصديق والعدو، عبد اللّٰه وعدو اللّٰه، ألديك رأي آخر يا (كارابن نمزي) ؟

ـ لدي شيء أفضل.

ـ ما هو؟

ـ نضع رماد بير كمال فقط في الجرة.

ـ ألم تسمع؟ لم نستطع التفريق بين الكومتين.

ـ هذا سهل، هذا بير كمال وهذا التركي.

ـ كيف عرفتَ، واستطعت أن تفرِّق بينهما ؟

ـ لأجل ذلك أطمئنكم، بير لم يكن مسلحاً لكن أميرألا كان يحمل السيف والخنجر ومسدسه، الرماد الذي فيه السيف والخنجر والمسدس هو رماد لأميرئالا، والكومة الأخرى لبير كمال.

(تعجب الإيزديون وأيدوا كلامي ثم وضعوا رماد بير كمال في الجرة. وفي هذه الأثناء وقف القائمقام مع بعض رجاله بالقرب منا، وفي النهاية تركنا رماد أميرألا في مكانه وعدنا إلى علي بك حيث كان في انتظارنا وطلب من أمير الشيخان أن يعطي الأوامر لعقد مراسيم دفن جثمان بير كمال.

ـ يجب تأجيل دفنه إلى يوم غدٍ (قال أمير الشيخان).

ـ لماذا ؟

ـ لأن بير كمال كان أكبر عالم وصاحب اعتقاد عند الإيزيدية، يجب دفنه حسب العادات والتقاليد، تأخر الوقت اليوم ،غداً سيتم دفنه .

ـ هكذا ستحتاج إلى نجار وبناء؟

ـ لا، سنبني المزار مباشرة من الحجر، لا نحتاج إلى شيء وسيشارك جميع الحجاج في هذا الخير، على كل رجل وامرأة وطفل أن يحمل حجرة ويأتي بها لإقامة مزار لبير كمال يليق به.

ـ لكني بحاجة إلى الرجال لحراسة الترك (لم يوافق علي بك وأبدا عدم رضاه).

ـ يجب عدم إتيان الناس معنا وفي هذه الأوقات يجب أن يبقى لديك رجال للحراسة. تعالوا فكروا بما نفعله، أي نوع من البناء سنبني وفقه؟ (لم أتدخل أو أشاركهم، لذا ذهبت إلى مترجمي ليعطيني كتاب بير كمال وقد وضعه في ثغرة الشجرة، جلسنا عند تلك الشجرة بصمت، وتابعتُ تماريني اللغوية، وهكذا قضينا يومنا. في الأماكن العالية شيء ما يدور حول وادي معبد لالش، أشعلت نيران الحراس ولم تكن مطمئنة إنها نيران الترك، يبدو أنهم قد تهيؤا للهرب والقائمقام أخلف بوعده، لكن تلك الليلة المظلمة مضت بدون مشاكل، وفي الصباح عاد باسي من الموصل وبمثابرته وسرعة جياده اختصر المسافة والوقت بين معبد لالش والموصل، كنت نائماً في خيمة علي بك، عندما جاء باسي.

ـ أرأيت المتصرف ؟(سأله علي بك).

ـ نعم مولاي، رأيته في مغرب الشمس.

ـ ماذا قال ؟

ـ في البداية غضب وأراد قتلي ثم نادى لأربعة من ضباطه ومستشاريه من أهل الثقة واجتمع بهم لفترة طويلة وتباحثوا فيما بينهم، وأخيراً سمحوا لي بالعودة.

ـ أحضرت تلك المباحثات ؟

ـ لا.

ـ ما هو الجواب الذي حملته ؟

ـ حملت لك رسالة منه.

ـ أعطني (أخرج باسي الرسالة من جيبه وأعطاها لعلي بك مختومة بختم المتصرف، فتح علي بك الرسالة وفكر في أسطرها، ثمة رسالة قصيرة مفتوحة مع هذه الرسالة ، أعطاني الاثنتين).

ـ اقرأ يا أمير، أريد أن أعرف ما قرره المتصرف؟ (هذه الرسالة مكتوبة من قبل كاتب الباشا، وكتب اسمه أسفلها ووعد فيها، بالحضور غداً إلى الجراحية مع عشرة من رجاله كي نحل المشكلة بالطرق السلمية، كذلك يُفترض أن يكون رجال برفقة علي بك رجال بقدر رجالي، وطلب في هذه الرسالة الصغيرة المكتوبة أمراً لإيصاله إلى القائمقام، بلا شك في النص الموجود فيه ما يخص السلام والراحة، إلى حين وصول الرجل إلى كافة الأعمال العدائية الحقيقية، احترام مكان معبد لالش، رافق الإيزديين، وهذه الملاحظة كانت معها (اقرأ هذا الأمر جيداً) ارتاح علي بك لمضمون الرسالة فأحنى رأسه وفكر ملياً وبعد استراحة قصيرة قال: لقد استفدنا، كتب المتصرف ملاحظة .

ـ هل لاحظت ذلك ؟من الضروري إيصال الرسالة إلى القائمقام وحضوري غداً في الجراحية.

ـ لماذا إيصال الرسالة إلى القائمقام ؟

ـ لأنها موجهة إليه.

ـ لكنها زائدة لأنه سبق وأبلغه بفحواها.

ـ سيطمئن أكثر عندما يرى متطلبات المتصرف.

ـ أقول الحقيقة، أشك في هذا الأمر المكتوب.

ـ لماذا ؟

ـ لأنه زائد، هل لاحظت الكلمات الأخيرة والسلام، أن يقرأ القائمقام هذا الأمر جيداً؟

ـ هذا يزيد من اعتقادنا بأن المتصرف يعني السلام، كذلك سيستمع القائمقام جيداً إلى السلام والالتزام بالموعد.

ـ الالتزام بالموعد واضح ومن أجل ذلك أشك في هذه الرسالة.

ـ هذه الرسالة ليست لي قد حمّلني المتصرف إياها أمانة لأوصلها إلى القائمقام ويجب إيصالها إليه.

(هذا ما أراده علي بك، لأتابع الكلمات وفجأة دخل علينا إيزيدي وقال : مولاي، هناك فارس قدم من الوادي إلينا وقد خرجنا، ولم تمر فترة حتى اقترب القائمقام، لقد عرفناه، لم يكن أحد معه جاء لوحده، انتظرنا في الخارج).

ـ السلام عليكم (عندما نزل من جواده صافح علي بك ثم صافحني).

ـ أهلا وسهلاً بك (رد عليه علي بك) لأي شيء أتيت ؟

ـ أصبح مقاتلونا بلا خبز.

ـ بدون مقدمات قال القائمقام ما قصده؟ (ابتسم علي بك).

ـ كان يجب أن أنتظرهم لكنك تعلم، نبيع الخبز مقابل الأسلحة فقط.

ـ أهذا ما تقوله؟ سنعطيك النقود مقابل الخبز !

ـ ماذا يقول بك الإيزيدية. هو يدرك ما يقول، أنت بحاجة إلى الخبز، وهو بحاجة إلى الأسلحة والإطلاقات.

ـ سنتبادل، سنتعاون فيما بيننا.

ـ أنسيت أني بحاجة إلى الأسلحة والإطلاقات !

ـ وأنت، أنسيت أننا أيضاً بحاجة إلى الخبز، الآلاف من الإيزيدية قد تجمعوا حولي والجميع بحاجة إلى الأكل والشرب، لماذا أنت بحاجة إلى الأسلحة، ألسنا أصدقاء؟

ـ نعم، مادام هناك وقف إطلاق للنار.

ـ إن شاء اللّٰه ستدوم صداقتنا، يا أفندي أتمنى أن اقرأ له يا أمير (قرأت للقائمقام الرسالة التي كانت معي (لم أرَ التأمل في وجه القائمقام).

ـ حسناً الآن السلام مستمر بيننا (قال القائمقام).

ـ نعم (أجابه بك) وإلى إشعارٍ آخر يجب أن تلتزم بالسلام كما أمرك المتصرف بأمر خاص لك.

ـ بأمر خاص!

ـ بعث لك الرسالة يجب أن أعطيك إياها.

ـ رسالة لي (نادى القائمقام) أين ؟

ـ عند (كارابن نمزي) أفندي، سلمه الرسالة يا أمير.

ـ سلمته الرسالة (لكن الضعف جعلني مرتاباً).

ـ من فضلك دعني أقرأها لك (قلت للقائمقام، فقرأتها له، لكن عند الملاحظة الأخيرة تلك ساورني الشك، هذا كل ما فيها لم يبقَ شيء ؟)

ـ بقيت جملتان استمع إليهما !

(قرأتها إلى النهاية، ونظرت إلى وجهه، هل ستتغير ملامح وجهه، لفترة قصيرة فتح عينيه مشدوهاً، تأكد من وجود سر في الجملتين الأخيرين، لكن لم نعثر عليه).

ـ الرسالة لي، هاتِها (وبسرعة فائقة أخذها من يدي)، قلت: لأخلص نفسي منه.

ـ لمَ هذه السرعة يا القائمقام ؟(سألته، هل من شيءٍ في الجملتين الأخيرتين؟).

ـ لا، لا شيءَ مهمٌ قط، الرسالة لي.

ـ ثم أرسلها المتصرف إلى علي بك، فله الحق أن يقرأها لك أو أن يعطيك إياها.

ـ قبل الآن قد قال لك، أن تسلمني الرسالة .

ـ مع ذلك عرفته، نعم، هل من المهم أن تأخذها ؟من فضلك أنظر إليها مرة أخرى (الشك عندي ازداد بدلاً من أن يضمحل، أخذت الرسالة وقرَّبتها إلى عيني ونور الشمس لكني لم أر فيها شيئاً، إنه شك بلا نتيجة، مرة أخرى عرّضتها إلى أشعة الشمس طويلاً وأمعنتُ النظر فيها فتبين لي الكثير من الأشياء مما لم يظهر في القراءة العادية وظهرت في النظرة الدقيقة والثاقبة المحصة. الكلمات سرية الكتابة، قد ضاعت في ألوان الرسالة، لكن لون الحروف باقٍ).

ـ لن تأخذ هذه الرسالة (قلت للقائمقام).

ـ لماذا ؟

ـ لوجود كتابة سرية فيها سأحاول تصفيتها (تغير لون وجه القائمقام).

ـ أنت مخطىء يا أفندي.

ـ أنا أرى جيداً (للتأكيد، قلت له الأكثر).

(من أجل قراءة الكتابة السرية سأضع الرسالة في الماء).

ـ ضعها فيه (قال القائمقام بحماس).

ـ أرى ذلك يريحك، يا قائمقام، لن أضعها الرسالة في الماء، بل سأوجهها إلى النار (أدركت كيف أمسك الرسالة، بدون خوف وأمام عينيه ووجهتها إلى النار).

ـ هكذا ستحرق الرسالة (قال القائمقام).

ـ لا تحمل هماً، الأفندي من الغرب، يعرف كيف يتعامل مع هذه الحالات (تعجب بك).

ـ أشعلْ ناراً وسأبيِّنُ لك، (مازال باسي موجوداً هنا، وبإشارة من علي بك جمع الحطب والقش وأشعل ناراً فجثوت على ركبتي أمامها وأمسكت الرسالة بانتباه وعرَّضتها لحرارة النار فرمى القائمقام بنفسه على يدي ليأخذ الرسالة ويمزقها، كنت أعلم بأنه سيفعل ذلك فنحَّيتُ نفسي جانباً وسقط من الأعلى نحو الأرض ثم رمى علي بك نفسه على الرجل.

ـ يا قائمقام تمهَّل (قال له علي بك) لست من أهل الثقة، أنت مخطىءٌ لقد جئت بدون أمر لذا فأنت أسيري، (أراد القائمقام الدفاع عن نفسه ولكوننا ثلاثة بينما هو وحيد ومع التفاف الإيزديين حولنا تمكنا من تجريده من السلاح وربطه في داخل الخيمة. والآن بهدوء سأقوم بعملي قابلت النار ولم يبقَ شيء وتحترق، فظهرت الكلمات السرية بوضوح وجميع الكلمات المكتوبة في حواشي الجمل.

ـ علي بك، أترى؟ لقد كنت على حق.

ـ أمير، أنت عالم!

ـ لا، لكني أعلم كيف للمرء أن يقرأ هكذا رسائل.

ـ يا أفندي، إن الحكمة الألمانية عظيمة.

ـ ألا يعلم المتصرف بهذا الفن ؟ يوجد معدن والإنسان لا يستطيع أن يستخرج منه الحبر، لم يظهر على الورقة، لكن مع مادة أخرى تظهر تلك الكتابة، يقولون عن علم هذه المواد "الكيمياء" إنه علم متطور لدينا أكثر مما في بلدكم، لذلك أدويتنا متطورة أكثر من أدويتكم، نعرف العديد من أنواع الكتابات السرية، التي تصعب معرفتها لكن كتاباتكم السرية يمكن معرفتها بسهولة، لا تتطلب معرفة إضافية، فكر بها، بمَ كتبوا هذه الكلمات؟

ـ قل.

ـ بالبول.

ـ لا يُمكن ؟

ـ حين تُكتب ببول الإنسان أو بول الحيوانات وتجف تختفي الكتابة ، وعندما تواجه الرسالةَ لهيبَ النار ستسودُّ السطور فتتمكن من قراءة المكتوب.

ـ ماذا جاء في تلك الكلمات ؟

ـ سآتي بعد غد كي نصعد.

ـ أصحيح ؟ ألست مخطئاً ؟

ـ هنا مكتوب بوضوح.

ـ أعطني هذه الرسالة (غضب كثيراً، أتى وذهب، ثم وقف أمامي مرة أخرى)

ـ أليست هذه خيانة يا أمير ؟

ـ هذه قذارة القلب.

ـ يجب أن أقتل المتصرف. إنه بين يدي.

ـ لكنك ستلقى بعدها عقوبة من السلطان.

ـ أفندي، لدى الروس مثلٌ يقول: السماء عالية وقيصر بعيد، وهذا ما نتبعه أيضاً مع السلطان سأحظى بالنصر.

ـ لكنك ستسفك دماً غزيراً، ألم تقل لي سابقاً أنك تنشُدُ السلام ؟

ـ أحب السلام، لكن السلام يحتم علي فرصة التصدي للترك. فالترك يسعون إلى محقنا وإزالة استقلالنا وسلبنا أموالنا وأملاكنا وحياتنا بالقوة وسلبنا كل ما جنيناه وحافظنا عليه.

ـ والآن شكيب خليل باشا يغزل خيانة لحياكتها لذا ينبغي أن أدافع عن نفسي ؟

ـ يجب أن تدافع عن نفسك لكن ليس بالسيف.

ـ بماذا إذن؟

ـ بهذه الرسالة، بهذه الرسالة تقف قبالته وسوف يهرب منك يفرُّ منهزماً من المعركة.

ـ إذا ذهبتُ غداً إلى الجراحية سينصب لي فخاً لأقع فيه.

ـ ومن يردك ويمسكك من يديك ؟؟ لمَ لا تنصب له فخاً ؟ ستقضي عليه بسهولة، قبل أن يقبض عليك، لأنه لا يعلم، بأنك تعلم بحيلته (فكرعلي بك ثم قال: سأتكلم مع أمير شيخان، هل تأتي معي إلى وادي إيدز؟

ـ سآتي معك.

ـ لكن قبل ذلك، يجب نزع أسلحة الجنود في الوادي لا تتبعني إلى الداخل، انتظرني هنا.

لماذا لم يدعني علي بك أرافقه إلى الخيمة؟ وضع يده على قبضة خنجره اتجهت نظراته نحو شيء ما، أراد فعل شيء بسرعة، انتظرته نصف ساعة، خلال هذه المدة سمعت صوتاً مزعجاً وأخيراً رأيت علي بك قادماً يحمل رسالة وسلمني إياها وقال: اقرأ، أريد أن أعرف، هل وقعتُ في خطأ فيها، كتب القائمقام في هذه الرسالة أمراً إلى جيشه بنزع أسلحتهم للإيزدية).

ـ هذه حقيقة، لكن كيف حصلت عليها ؟

ـ كنت سأقتله مع رئيس الكودجية وأبدأ بضرب المدافع والحرب، خلال ساعة وأقوم بتصفيتهم لو لم يوافق على كتابة هذه الرسالة.

ـ أيبقى القائمقام أسيراً ؟

ـ نعم هو مع رئيس الكودجية سيكون في قبضة اليد.

ـ وإذا رفض الجيش نزع اسلحته ؟

ـ عندها سأنفذ خطواتي، وأبقى هنا حتى أرجع سترى هل سيحترمني الترك أم لا ؟

(ذكر بعض النصائح ثم نزل إلى الأسفل، وفي دقيقة حضر جميع الإيزديين للحرب، أعداد من المدافع ومقاتلون، مئتا مقاتل إيزيدي مع ثلاثين بغلاً هناك حضروا للحمل، أكثر هذه البغال كانت تلك التي حمّلناها المدافع إلى هنا وعلى الفور وصل علي بك إلى ضباط الترك وتباحث معهم .لقد رأيت صورةً لنضال

الإيزديين بوضوح، وبعد فترة رأيت ضباط الترك وقد اصطفوا واحداً تلو الآخر وأتوا إلى مكان البغال، وضعوا أسلحتهم وبنادقهم ومخازنهم وطلقاتهم وخناجرهم وسيوفهم هناك، ثم رجعوا إلى أماكنهم السابقة، لم تمر ساعة حتى عاد علي بك إلينا تعقبه قافلة البغال المحملة بالأسلحة ليرسلها إلى وادي إيدز، خبَّأ الحراس القائمقام في المكان نفسه الذي سجنوا فيه رئيس الكودجية والضباط والمراتب الترك الذين أرادوا تدخين تبغ شيراز بعد إبادة الإيزيديين. ثم سرنا مع القافلة وبرفقتي خلف، لم يكن باشبزوخ إيفرا موجوداً يبدو أنه ذهب في رحلة على ظهر حماره، وفي الطريق رأينا الكثير من الإيزديين يرجعون إلى معبد لالش بعد أن شاركوا في بناء مزار بير كمال، وعند وصولنا مدخل الوادي، رأيت مظاهر النضال والحياة والسعي والمثابرة، ففي ذلك الجانب الآخر تجمعت النساء، منهن مَنْ يدققن (الجاوة)، ومنهن مَنْ يستعملن المطحنة اليدوية والبعض يعجن العجين و يخبزن وهناك يُشعلنَ النار، ويُعددنَ (اللمبات) والفوانيس، وفي الجهة الثانية في الأعلى هنالك عمل دؤوب مستمر بين النساء والرجال والأطفال، والجميع منشغلون ببناء مزار بير كمال كلٌّ بحسب طاقته وإمكاناته، كل فرد حمل حجراً أو صخراً حتى جمعوا كمية كبيرة من الأحجار والصخور الكبيرة ووضعوها في جدار المزار، ومن الأحجار الصغيرة بني الجدار الصلب، و أقاموا مبنىً فوق الجدران يمر من خلاله اثنا عشر شعاعاً من أشعة الشمس، ورُتّب المكانُ للجرة المملوءة برماد وعظام بير كمال، كان أمير شيخان جالساً على مقربة منهم يراقب بناء المزار، ذهبنا إليه مباشرة و أخبره علي بك بما حدث و أرآهُ رسالةَ خليل باشا، بعد انتهاء

علي بك من كلامه فكر أمير الشيخان بما قاله علي بك ثم قال له: ماذا تريد أن تفعل ؟

ـ أنت أكبرنا ، وذو حكمة جئت كي آخذ نصائحك لنا .

ـ قلت أنا أكبركم، الكبير يبحث عن الراحة والسلام دائماً ، أتقول أنا ذو حكمة ؟ اللّٰه صاحب الحكمة، هو الأكبر، هو الأقوى، من يعطي القوة للذين لا يمتلكونها ، يحافظ على مَنْ لا سلطة لهم، لا يريد اللّٰه أن يسفحَ الإنسانُ دمَ أخيه.

ـ هل الترك إخوتنا ؟ إنهم وحوش هاجمونا !

ـ إنهم إخوتنا ، مع ذلك لا يتعاملون معنا كإخوة هل ستقتل أخيك إذا أراد بك السوء ؟

ـ لا .

ـ قد تتكلم مع أخيك بالليونة أو الصلابة، لكن لن تحاول قتله؟ هكذا تحدث مع المتصرف.

ـ وإذا لم يستمع إلي ؟

ـ أعطى اللّٰه لمخلوقه العقل كي يفكر به وكذلك أعطاه القلب ليشعر به، من لا يفكر في كلامه مع الناس ولا يحس أو يشعر بألم ومعاناة وعذاب أخيه ولا يؤمن بوجود اللّٰه يستحق العقوبة. ،

ـ يا أمير الشيخان سأستمع إلى نصائحك وأطبقها .

ـ أكرر سؤالي مرة أخرى، ماذا ستفعل؟

ـ سأذهب إلى الجراحية مع عشرة من رجالي، لكن ستتبعني مجموعة من المقاتلين لنقبض على المتصرف. لكن قبل ذلك سأرسل برجال الاستخبارات إلى

الموصل، كوبونجيك، تلكيف، بازوايا، رأس العين، خورسباد، كي نحصل على معلومات حقيقية في الوقت المناسب، سأتكلم بليونة مع المتصرف ثم بحدة وصلابة ما لم يُصغ إليّ، إن لم يحترمني سأسلمه رسالته السرية وأشير إلى رجالي ليقبضوا عليه، عندما أبدأ بالمباحثات معه يجب أن تكون الجراحية مطوقة من قبل رجالي، لن يتخلص من يدي.

ـ ليس مُستَبعداً أنه بعث برجال الاستخبارات، وأنت ماذا أعددتَ للاجتماع ؟

ـ هو لا يعلمُ بعملنا لأن المقاتلين في هذه الليلة سيخرجون، لن يذهبوا في الطريق العام باعذرة .بل سيذهبون يميناً غداً صباحاً عند قرية بوزان شرق ماء الجراحية.

ـ من سيكون في مكانك في المعبد ؟

ـ أتريد أن تكون في مكاني؟

ـ أريد (هذا الاستلام كان بسهولة، رئيس الجيش والمدنية بلا شك، يؤمن بأني كبير الروح والآخرة، لقد تنازل عن مسؤولياته. (أتريد ؟) سأله علي بك (نعم أريد) (أجابه أمير الشيخان) عزف لحناً عذباً من الكلمات الحربية من لهجة الإيزديين، أردت أن أعرف أخبار معبد لالش والترك والمطوقين وعيد اليوم، لذا ذهبت إلى بداية الطريق، كانت المجامع آتية من لالش، رأيت خلفي مُنهكاً يتنفس بصعوبة، ناداني: كنْ على جانبٍ يا أستاذ (التفتُّ ورائي فرأيت خلفاً يحمل حجراً ثقيلاً ويتقدم بما يمتلك من قوة).

ـ ماذا تفعل هنا ؟(قلت له).

ـ أشارك في بناية مزار بير كمال.

ـ أيقبل الإيزيدية ؟ أنت لست إيزدياً !

ـ يقبلون بكل سرور، لقد سألت.

ـ سوف أجلب حجراً أنا أيضاً (ليس بعيداً عني هناك حجر كبير وجيد، نزعت سلاحي وسترتي وحملت ذلك الحجر وأتيت به إلى مزار بير كمال، كان عملي محل شكر من قبل الشيوخ، بعدها برأس سيفي نحتُ اسمي على ذلك الحجر، رفعوا الحجر بالحبال ووضعوه في المكان المناسب المقابل للشمس، في هذه الفترة التي مضت، نفذت ما أراد علي بك من العمل، أراد العودة مرة أخرى، سألني فيما أن كنتُ سأعود معه أم أبقى هنا).

ـ وددتُ رؤيةَ مراسيم الدفن (قلت لعلي بك).

ـ إن أردت أن تأتي معي (أجبني) اليوم مساءً وعلى نور الفوانيس والمشاعل سنجلب جرة رماد بير كمال من معبد لالش إلى وادي إيدز.

ـ أتعتقد، أنه هنا ؟

ـ لا، بعثوه إلى الغابة، وضعوه في الماء البارد، سنبعثه إلى المعبد المبارك.

ـ برغم أنف الأتراك ؟

ـ لا يستطيعون فعل شيء.

ـ إذا كان كذلك سآتي معك.

ـ ألديك الوقت حتى المساء في هذه الفترة تستطيع إسدائي خدمة ؟

ـ أهلاً وسهلاً، إن استطعت.

ـ أتعلم أني قد وعدت رئيس البهدينان أن أهديه بنادق؟ ألديك معرفة بموقع مخيمهم ؟

ـ بسهولة. الوصول إلى هناك يستلزم من الإنسان المشي على الأرجل لأن الطريق متعرج وصعب، (في حديثي ينظر إلى ذلك) هو في انتظار الشخص الذي يحمل هذا الخبر.

ـ أتود إيصال هذه البشرى إليه ؟

ـ نعم.

ـ أتحمل إليه البنادق ؟

ـ إن تشأ فعلى عاتقي هذه المهمة.

ـ يجب أن أعطيه مئة بندقية مع الإطلاقات، ثلاثة بغال يستطيعون حملها ، كم من الرجال تود أن يكون معك ؟

ـ هل هناك مخاوف أو عداوة، في الطريق ؟

ـ لا ، الطريق في مأمن.

ـ أعطني عشرة مقاتلين، سيكون شيخ محمد أمين معي أيضاً ، لقد أتى إلينا من هناك(كنت أدرك أن شيخ محمد أمين قد ذهب إلى الصيد ، لم أره يوم أمس و قلما يُظهِر نفسه ، كيلا يكون حديث الناس إنه نار الإيزديين لذلك كان يود المجيء معي، لم تمر فترة، حتى تمت تهيئة البغال وحمولتها ، بدأت القافلة بالسير، عندما وصلنا إلى رأس وادي لالش انعطفنا نحو اليسار إلى طريق كلينية خلف وادي لالش، رأينا مجموعة من أكراد البهدينان، وقد وصلنا إلى حيث حسين آغا الذي استقبلنا بكل حفاوة و لم يقبل برجوعي إلا بعد إحضار زوجته وجبة طعام لنا ، لقد فرح كثيراً بهذه البنادق وخاصة بسيف القائمقام، الذي قدمه له علي بك إليه

كهدية إضافية، سُرَّ محمد أمين كثيراً عند هؤلاء الأكراد إلى حد رغبته بالبقاء هنا إلى حين رجوعي إليه على الرغم من عدم إتقانه للغة الكردية.

ـ مع ذلك لم أرتأي عودته معي فرؤية الأتراك له ستشكل خطورة عليه، وخوفنا من ذلك سيكون عقبة في طريقنا، لذلك أبقيته وعدت لوحدي. وصلت إلى علي بك حيث حان المغرب وحملت إليه أخبار بهدينان، رأيت الترك قد انسحبوا نحو الوادي وتركوا المعبد المقدس).

ـ متى تبدأ مراسيم الدفن ؟(سألت علي بك).

ـ مع الظلام، احمل سلاحك ستطلق إطلاقات كثيرة.

ـ أعطني بندقيتك، لا أستطيع أن أطلق، فطلقات بندقيتي ليست معي هنا، (كنت أود رؤية مراسيم الدفن، لأكون شاهد عين، أعتقد أنه لم يحضر قبلي شخص أوربي مراسيم دفن الإيزيدية، جلست في صفحة الوادي إلى حين قدوم الظلام، مرة أخرى ظهر نور المشاعل وأصبح الوادي كالنهار قمة المزارين المباركين والقمم الشامخة إلى السماء كما رأيتها في المرة الأولى، أبواب المعبدين ازدانت بالأنوار).

ـ تعالَ (علي بك كان يود أن نركب الجياد، بقي الباشبزوخ وتبعنا خلف، ركبنا ونزلنا من الأعلى حتى وصلنا إلى المزار المبارك المزين بالمشاعل، طوق مقاتلو الإيزيدية ما حول المزار لمنع اقتراب الترك إلى هذه المنطقة باستثنائي وعلي بك و أمير الشيخان و شيخ وبير وفقير وقوال، لغير هؤلاء لا يجوز الدخول، وحدنا من كنا في المعبد، قاموا بربط بغلين في فناء المعبد وجرة رماد بير كمال مثبتة بالحبال على ظهرهما، شكل شيخ وبير وقوال دائرة حول البغلين وعندما رأونا بدأوا

في بطء بغناء الألحان الحزينة، وجملة (أعطِ الروح) كانت تذكر في كل مرة، بعدها تم سقي البغلين من ماء عين البيضاء وإعطاؤهما العلف، هذه إشارة إلى استمرار الحياة في الطريق.

ثم أعطى أمير الشيخان بعض الإشارات بيديه، لم أفهم معناها، ومرة أخرى بدأت الألحان اللينة والمغزولة من أربعة أسطر، كل سطر يبدأ بهذه الكلمات (أنت تحب اللّه) للأسف كنت أجيد القليل من اللغة الكردية مما لم يمكنّي من معرفة ما قالوه بالكامل، عندما انتهى هذا اللحن أشار أمير الشيخان، وأصبح في المقدمة ويليه شيخان لزما لجام البغلين وبعدهما شيخان ثم قوال و أنا وعلي بك، بدأت القافلة بالسير للخروج من المعبد المقدس واستقبلها الحراس بسلسلة من الإطلاقات، وفي الوقت ذاته بدأ صوت الإطلاقات يأتي من كل مكان وكل الحفر في الوادي، تلك الأخيرة كانت إشارة بسير القافلة إلى وادي إيدز. صعدنا الوادي ببطء وعندما سلكنا طريق وادي إيدز رأيت منظراً جميلاً وساحراً، الإيزيدية ممتدون من وادي لالش حتى وادي إيدز، كانوا على جانبي الطريق مصطفين واقفين بالترتيب، كلٌّ منهم يحمل مشعلاً وبندقية وكل من نصل إليه يبدأ بإطلاق عيارات نارية ثم يسير وراءنا، هكذا مع كل خطوة وكل إطلاقة تطول قافلتنا، نور المشاعل قد أضاء ظلام الغابة و هنا أكثر الأشجار كانت مقطوعة، استمر صوت العيارات النارية وملأ صداها الوادي والغابة، تزينت القافلة بأجمل صورها وكان استقبالنا في وادي إيدز في هذا المكان كانفجار بركان، النور في كل الاتجاهات، المشاعل، الفوانيس، آلاف الأصوات تنادي: أهلا وسهلاً بكم. كان هذا الوادي صارخاً بالأنوار كأن الليل نهار لكن النور الأقوى من النارين

المشعلتين ذاك الذي بالقرب من مزار بير كمال، هذا الحزن المفرح قد أفرح قلبي وفي الوقت نفسه بلل قلوب الناس هناك. نزلنا على ضوء المشاعل و وقفنا عند قبة بير كمال، لاحظنا عالمين روحيين بملابس بيضاء عند تلك الأحجار، عند سطح المزار يوجد العديد من الرجال يحملون الحبال و يجرون بها تلك الجرة، عندما توقفت البغال أمام المزار انقطع صوت العيارات النارية، خيم الصمت على الوادي ورفعت الجرة على ظهور البغال وتم ربطها بالحبال، وبإشارة من أمير الشيخان للرجال تم سحب الجرة فوق السطح ووضعها تحت الشمس، ثم ثبت الروحانيون الجرة في مكانها الخاص، ونزلوا بواسطة الحبال، الآن أشار أمير الشيخان بأنه سيلقي الكلمة، ألقى كلمة هادئة وصافية وقصيرة، انتشر صوته في الوادي، على الرغم من عدم إجادتي للغة الكردية، لكنني تأثرت بها كثيراً، ثم أنهى الأمير كلمته، ومرة أخرى بدأ القوالون بعزف الموسيقى والألحان الدينية، لكني كنت أفهم كلمة واحدة تتكرر دائماً (أشرقت الشمس) بعد الانتهاء من الألحان رفع الجميع أياديهم إلى السماء، وأطلق كل مقاتل مجموعة من العيارات النارية وبذلك انتهت المراسيم. الآن مرة أخرى عادت حركة الحياة هناك، لم يكن هنالك من شيء لأستمر في وادي إيدز ليلاً، هذه الليلة المليئة بالمشاعل بين مزار بير كمال والسماء ذهبت نحو السماء، حملت هذه الليلة آلام ومعاناة وشكاوى المظلومين، فيها أشهر الشيوخ والبيرانية والقوالين الإيزديين، كانت جدرانهم من الثلج وبهذا الحزن مضوا وعبروا مع تلك الأنوار المستقيمة، التي أشعلها الشيوخ الثلاثة، (رأينا نجمة في الشرق، تبعناها كي نصلي لها) .

جلست مع شيخ وبير وقوال إلى منتصف الليل بعد إطفاء كافة المشاعل والأنوار، فقط عندما تدثرت باللحاف تحت شجرة لأنام، بدت لي منارة عند جدار قبة بير كمال، هناك في الأعلى جرة أعضائه المباركة، هذا أعلم شخص وذو عقل بين أبناء شعبه، مات وهو يدعو إلى الطريق المستقيم، يالله من أمر عظيم أن يُخلَق هنا من جديدٍ ويُهزَّ مهدُه هنا! وكم هو مؤلم ما جرى مع هؤلاء الحكماء الذين يسلكون الطريق الصحيح في حياتهم، أغمضتُ عيني، غفوت فرأيتُهم في المنام قد خرجوا جميعاً من قافلة المشاعل و إطلاقات البنادق و كومة الحطب وتلك الجرة وتلك الجماجم و أرادوا القبض عليَّ أنا المسيحي، فيظهر بير كمال ويخلصني من بين أياديهم، وضعهم جانباً ودافع عني وقال: إنه يمتلك كتاباً مقدساً جاء فيه أيها الأطفال أحبوا بعضكم بعضاً : بعد ليلة المشاعل في وادي إيدز ذهب علي بك مع عشرة من مقاتليه إلى الجراحية للتباحث مع باشا الموصل شكيب خليل باشا، لكنه أرسل قبله عدداً من المقاتلين بالقرب من بوزان، فحضر المتصرف العدو في الجراحية، لكن علي بك علم من خلال استخباراته بمجيء الجيش التركي إلى ما بين سيكوخان ورأس العين، الغرض من ذلك، أنه في يوم الاجتماع نفسه كان الهجوم على معبد لالش، وعلى هذا الخبر طوق علي بك المتصرف وقبض عليه ثم أطلق سراحه مقابل عدم القيام بأي عمل ضد الإيزيدية ومعبد لالش. بعد انتهاء العيد، أردت الذهاب إلى العمادية لكني علمت بأن قدم شيخ محمد أمين قد رضت في جبال الكلينية، و لهذا توجب علي البقاء عند الإيزيدية لمدة ثلاثة أسابيع أخرى إلى حين شفاء قدم محمد أمين، هذه الأسابيع الثلاثة لم تمر دون جدوى، كانت فرصة ممتازة لأن أقيم مع الأكراد علاقات وطيدة ومستمرة حتى

الآن، وأخيراً بعث لي شيخ محمد أمين خبراً بشفائه وأنه مستعد للذهاب فهيأت نفسي للطريق بسرعة لمرافقته إلى العمادية، وودعت الإيزيدية بكل احترام ووعدتهم عند الرجوع ثانية بالبقاء عندهم لعدة أيام أخرى، في الحقيقة كنت لا أود أن يكون أحد معي لكن علي بك أجبرني على أن يأتي معي إلى بهدينان فقط ليودع شيخ محمد أمين هناك، الآن وصلنا إلى قمة تل العالي شرق لالش، ونسينا أحداث الأسبوع الماضي لتأتي الأيام ونرى ماذا يحملون معهم ؟

ـ كلما اتجهنا شمال الشرق كان الناس في الجبال بعيدين عن التحضر ولم تكن هنالك أراضٍ للزراعة، تقوم معيشتهم على اللصوصية ورعي الأغنام، وصلتني هذه الفكرة من علي بك والتي قرأها على جبيني.

ـ يا أمير، ستذهب إلى طريق صعب وخطر (قال علي بك) إلى أية منطقة صعوداً تريد أن تصل ؟

ـ المرة الأولى أريد أن أصل إلى العمادية.

ـ يجب أن تذهب أبعد !

ـ لماذا ؟

ـ إذا انتهى عملك في العمادية هل سيكون الهرب رفيقك أم لا ؟ نحن نعلم بذلك الطريق الذي بعث عليه ابن شيخ محمد أمين إلى الحديدية لكن الإنسان يتعثر. أ تعرف كيف تذهب بعدها ؟

ـ أذهبُ مع الظروف الصحيحة، نستطيع الذهاب نحو الجنوب إلى الزاب الكبير أو نعبر نهر عقرة، ونستطيع الذهاب إلى الشمال عند جبال التيارية ثم

رامان ـ داكه هـ، ثم الخابور بعدها نعبر نهر دجلة نحو صحراء الملح ومن هناك إلى سنجار.

ـ على هذه الصورة لن نلتقي مرة أخرى.

ـ الذهاب والرجوع، بيد اللّه، مصير الإنسان بيده (استمررنا في الطريق، خلف وباشيزوخ إيفرا لحقوا بنا. انشغل جوادي بالرعي واستراح قليلاً، تغير علفه، كان يأكل التمور فيما سبق والآن يجب أن يأكل شيئاً آخر، وتبين أنه سمن وأصبح أكثر قوة لذا يجب أن ألزم اللجام عند امتنانه، كنت منفرداً بعض الشيء، أريد أن أعرف أيضاً كيف يجتاز بي هذا الجواد جبال الأكراد الثلجية، وصلنا إلى أكراد البهدينان، استقبلونا بحفاوة وتقدير وكان محمد أمين حاضراً للذهاب، بعد ساعة من الاستراحة وتناول الطعام والحديث والتدخين بالمشارب بدأنا السير وصافح علي بك الجميع، وصافحني آخراً ودارت الدموع في عينيه).

ـ أمير، أتعتقد ـ أني أحبك ؟(سأل بقوة).

ـ أدرك ذلك، الوداع لي حسرة وألم، روحي أتت على المحبة.

ـ ستذهب وأبقى أنا لكن فكري سيكون معك، سيرافق قلبي أثر قدميك، لقد ودعت أمير الشيخان، لكنه سلمني بركاته وبدوري سأضعها على رأسك عند الوداع، كان اللّه معك في كل خطوة ومكان، حقده يصيب عدوك، رحمته ترافق أصدقاءك، وتكون تحت ظله، أهدي لك ملك طاووس، كي يكون في خدمتك مثل التسليم، أعرف أنك لا ترى هذا الطير كالوثنية بل كرمز صداقة بيننا، كل إيزيدي تُبين له هذا الطاووس سيفديك بروحه، خذ هذه الهدية لكن لا تعطها

لأحد، إنه لك أنت وحدك، الآن مع السلامة، لا تنس الذين يحبونك. عانقني، وبخفة قفز على ظهر جواده ثم قاده دون التفات إلى الوراء.

شعرت وكأنه أخذ معه قطعة من قلبي، الهدية التي بعثها لي أمير الشيخان معه كانت كبيرة وكبيرة جداً، الكثيرون جادلوا حول ملك طاووس، هذا التسليم الآن بيدي، في الحقيقة هذه مصداقية كبيرة وثقة بي من قبل أمير الشيخان، وهذا يصب بالمعنى ذاته، يجب استعمال هذا الطاووس عند المخاطر فقط، هذا الطير مصنوع من النحاس، الريش مفروش في الجانب الأسفل حُفرت فيها كتابة همشير بمعنى (الصديق) باللغة الكردية، فيه قيطان حريري ليتم تعليقه على عنق الإنسان.

انتهت الرواية

صور لمضيف وخزينة بابا شيخ ناصر
وما تحتوي من رموز للايزيدية

إسبانة البرات والسجاد والجرة، الحلقات المربوطة بالخيط، شمعدانة القنديل، تشكيلة متنوعة من القرص وحرف وحلقة مع الحلقة حرف s عدة حلقات غزال قرص بحلقةٍ، قرص ذو ثقب قرص كبير قطعة مدورة.

جميع الصور من عوائل أحفاد بابا شيخ ناصر رشكي